

مركز تحقيق التراث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فی اخصار الدروس

بسم الله الرحمن الرحيم

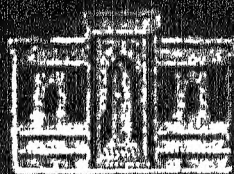


شیر آب آیدن کبود و بر من بدن است که بر من است و می
بستد و بر من است و می

الجزء الأول - انقيصم المثلث

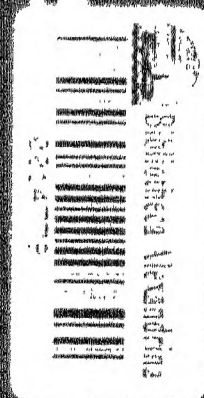
100-443887-100

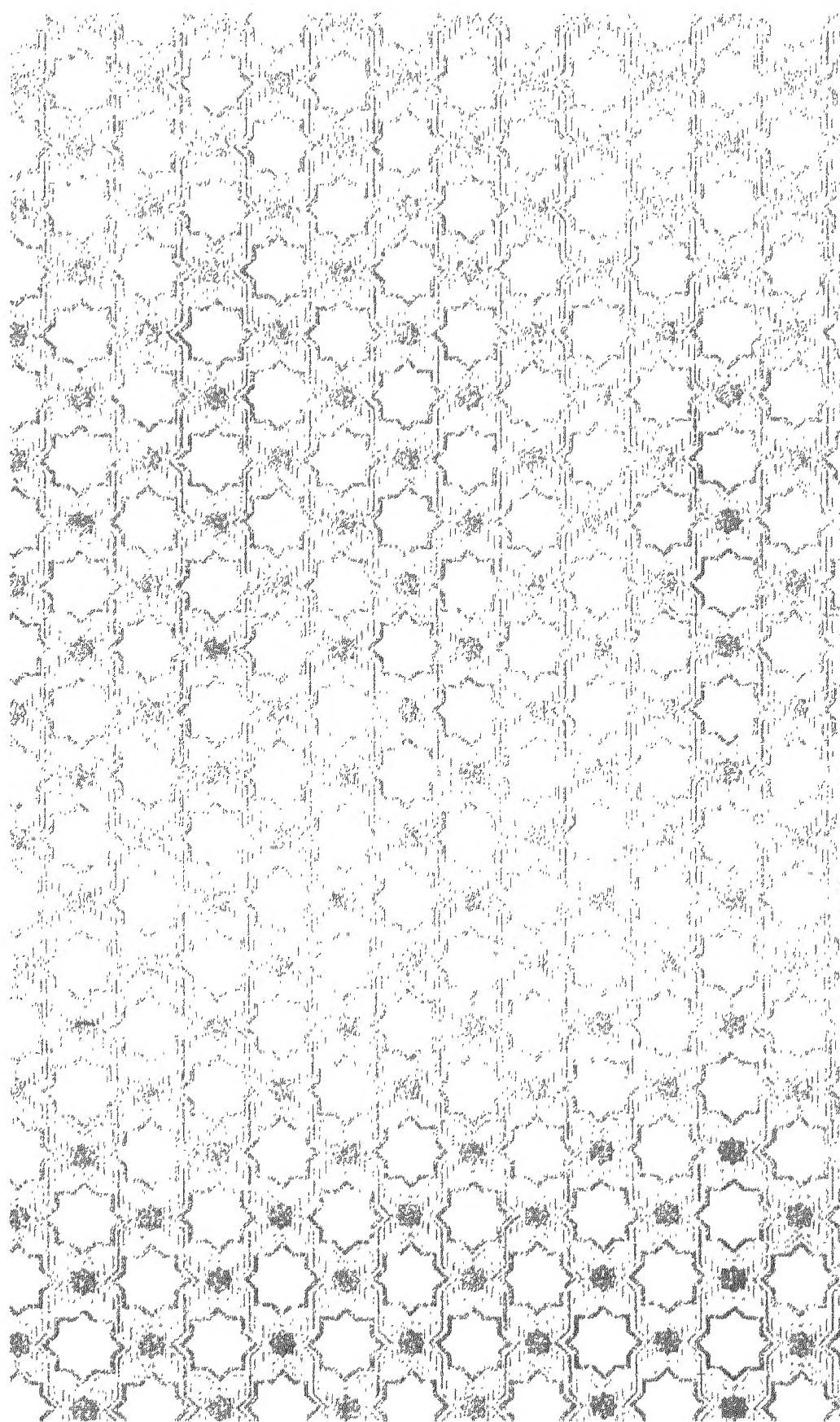
ہنگامتی کے بعد ہی "جہاں آباد"

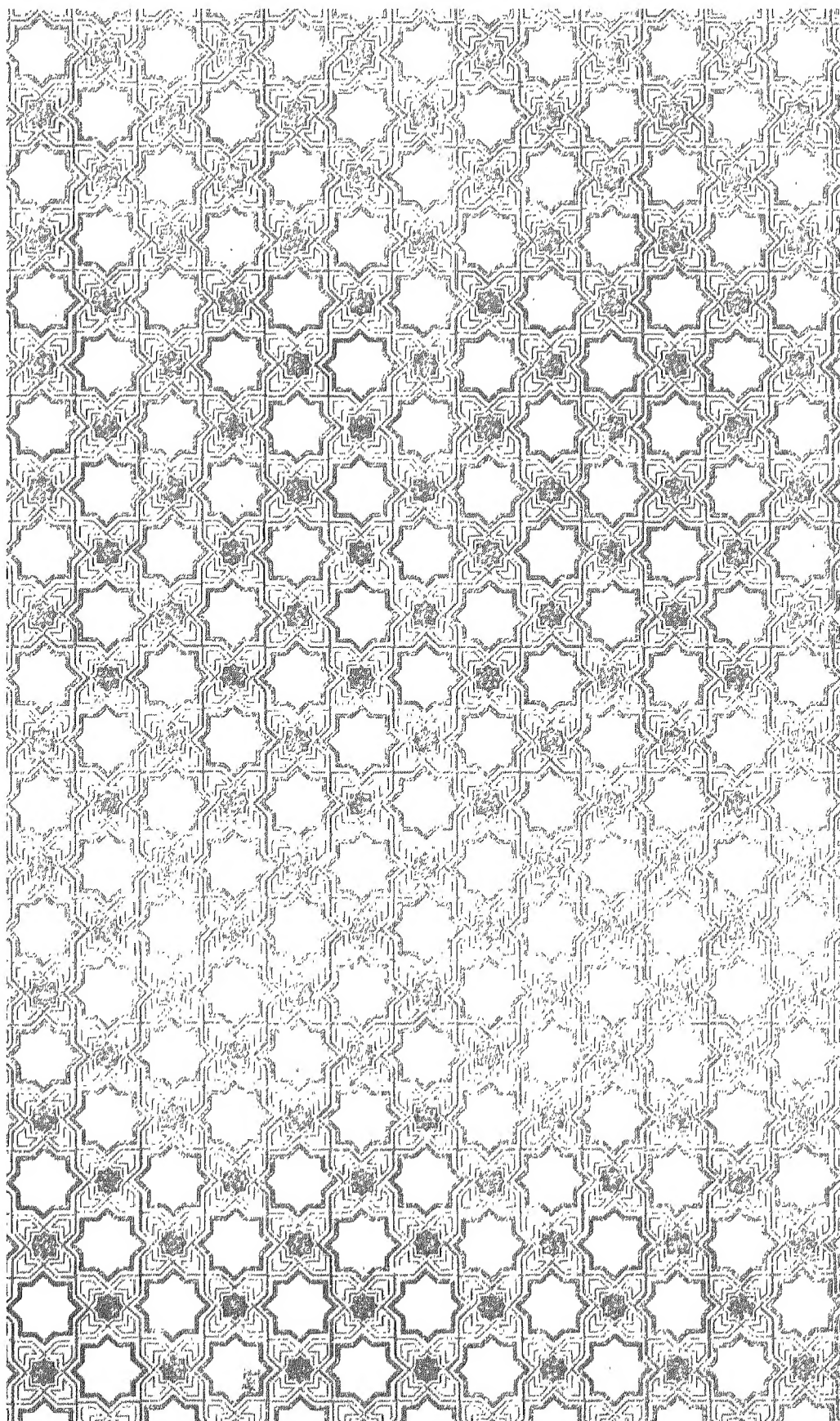


عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْرِ الْوَلِيِّ

1964







كِتَابُ الرِّضَايَيْنِ

فِي أَجَارِ الدَّوْلَتَيْنِ

لَأَبِي شَامَةَ

دار الكتب والوثائق القومية
مركز تحقيق التراث

كتاب الرضيتين

في أخبار الدولتين
النورية والصلاحيّة

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن أسامة بن عبد الله المقدسي
المعروف بأبي شامة

مراجعة
الدكتور محمد مصطفى زيادة

تحقيق
الدكتور محمد حلمي محمد أحمد

الجزء الأول - القسم الثاني

الطبعة الثانية



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٩٨

الطبعة الأولى

بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٦م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

١٩٩٨م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ
فَاتِحَةُ كُلِّ خَيْرٍ
وَتَمَامُ كُلِّ نِعْمَةٍ

مَآخِذُ

يبدأ هذا القسم حيث انتهى القسم الأول ، أى بحوادث سنة ٥٥٩ هـ ، وينتهى بحوادث سنة ٥٧٣ هـ ، وهى السنة التى اختتم بها أبو شامة الجزء الأول من كتاب الروضتين .

والمرحلة التى يتحدث عنها أبو شامة فى هذه السنوات مرحلة حاسمة فى تطور حركة اليقظة الشعبية فى الشام ومصر ، تلك الحركة التى أعقبت مجيء القوات الصليبية إلى هذا الجزء من العالم الإسلامى ، وإقامتها فى القلب منه فى شكل حكومات مستقرة ، فى غفلة من خلافة العباسيين ببغداد ، وحكومة الفاطميين بالقاهرة .

وقد تبين من حوادث القسم الأول أن الشعب هو الذى اصطلى بلظى هذا الحكم الوافد الدخيل ، وأن الأمراء المسلمين المحليين أسهموا ، عندئذ ، بتنازعهم وتنافسهم ، فى تأكيد استقرار هؤلاء المتحكمين .

ووضح كذلك من حوادث القسم الأول أن الزأى العام كان يتطلع إلى قيادة حكيمة تنجبه بالوسائل الشعبية والحكومية إلى تجميع القوى فى عمل متكامل وجهد مخلص لاستعادة السيطرة على الأجزاء السلمية من الوطن العربى الأسير .

ومن ثمّ التف الشعب حول بعض القادة ؛ وكان من أبرز هؤلاء عماد الدين زنكى الذى استطاع أن يخلص إمارة الرها من أيدي الصليبيين ، والذى استطاع ، بتأثير الدفع الشعبى الواعى ، أن يوحد جزءا كبيرا من أرض الجزيرة العراقية والشام ، فى ظل حكومة واحدة ، يعولى زمامتها ، وتدين بالولاء ، الاسمى ، لخلافة العباسيين .

ولقد كان عماد الدين زنكي يضع نصب عينيه ، أولاً وقبل كل شيء ، أن تكون الكلمة العليا له ؛ وفي سبيل هذا كان يعقد الاتفاقات التعاونية مع بعض الأمراء المحليين ، ثم لا يلبث أن يغفلها في سبيل تحقيق هذا الهدف . ولم يكن الرأي العام عندئذ بغافل عن هذا الوضع ، ولكنه كان يرى أن قيادة زنكي قادرة ، رغم هذا ، على السير بنجاح في سبيل تجميع القوى المتبقية في عمل متصل ينتهي إلى تخليص البلاد وتوحيدها .

ثم جاء نور الدين محمود ، المجاهد الخالص ، وافتتح عهده ، من مدينة حلب ، بضربة سريعة قوية استعادت الرها من الصليبيين الذين كانوا قد اغتالوها مرة أخرى عقب وفاة زنكي ؛ وفي نفس الوقت أعرض نور الدين عن استرداد مدينة بعلبك من أيدي حكام دمشق ، الذين اهتبلوا وفاة زنكي فرصة ليقطعوا لأنفسهم بضعة من تركته الضخمة يضيفونها إلى ممتلكاتهم الخاصة . وكان نور الدين قادراً على معاملة الدمشقيين بمثل ماعامل به الصليبيين .

فكانت هذه القوة في مواجهة مغتصبي الرها ، وكان هذا التسامح في مواجهة محتطفي بعلبك ، من العوامل التي برهنت للرأي العام على رغبة نور الدين المجاهد عن تحقيق مطمع شخصي ، وعلى إشارته التفاهم مع دمشق حتى يتمكن من مواجهة العدو الحقيقي له ولدمشق ، في جهد متكامل وبقوة متحدة .

وكانت نتيجة هذه السياسة القوية المتسامحة أن فتحت دمشق أبوابها مرحبة بدخول نور الدين إليها ، مُخلصاً ، سنة ٥٤٩ هـ ، فاكتمل بذلك عمله ، وآتى الجهاد الشعبي أكله .

صوّر القسم الأول من كتاب الروضتين هذه التطورات جميعها ، وتتبع بعد ذلك خطوات نور الدين محمود في طريق الحفاظ على ثمرات الجهاد الشعبي الطويل ، حتى كانت سنة ٥٥٩ هـ ، وهي السنة التي يبدأ بها القسم الثاني الذي نقدمه اليوم ، فكانت

(ب)

هذه السنة بداية مرحلة جديدة في تطور اليقظة الشعبية ، بل كانت بداية الجهود التي بلغت بهذه الحركة ذروتها بتجميع قوى مصر والشام في جبهة متحدة متساندة لتحقيق هدف واحد ، وبتأييد شعب واحد ، وفي مواجهة عدو واحد .

بدأت هذه المحاولات في سنة ٥٥٩ هـ ، وتحققت ، في سنة ٥٦٤ هـ ، بوزارة صلاح الدين ، قائد جيش نور الدين ، في مصر ، ثم تأكد هذا التطور بسقوط خلافة الفاطميين سنة ٥٦٧ .

وكانت وفاة نور الدين بعد ذلك بنحو سنتين خطرا هدد هذه الوحدة ، إذ خلفه طفل صغير ، تنازعت مطامع بعض القادة والأوصياء ، تلك المطامع التي هددت الجبهة المتحدة في كيانها وأوشكت أن تمزق الشام عن مصر ، وأن تعود بالجزيرة العراقية والشام إلى مثل ما كانت عليه ، قبيل عهد زنكي ، من فوضى مزقت كيانها ؛ لولا ... لولا أن صلاح الدين صاحب مصر ، لم يكن يسمح لسحب الفرقة والمطامع الشخصية بالعودة إلى التجمع في سماء هذه الأرض المجاهدة

فبدأت من مصر ، عقب وفاة نور الدين ، جهود صلاح الدين للحفاظ على وحدة الصف ، واعتمدت هذه الجهود على تأييد الشعب في مصر وفي الشام ، ولقيت ترحيبا من كثير من رجالات الشام الموجودين في مجال الخطر .

وكان ترحيب دمشق بصلاح الدين ، في أوائل سنة ٥٧٠ هـ ، شبيها بترحيبها من قبله بنور الدين سنة ٥٤٩ هـ .

ومن ثم واصل صلاح الدين جهوده ، وتابع الشعب من ورائه جهاده . وسجل أبوشامة تلك الجهود ، وصور هذا الجهاد ، خطوة خطوة ، حتى وصل بهما في هذا القسم إلى نهاية حوادث سنة ٥٧٣ هـ حيث أنهى الجزء الأول من كتابه ، ليستأنفه بعد ذلك مع بدء سنة ٥٧٤ هـ ، في الجزء الثاني منه .

(ج)

ونلاحظ في هذا القسم أن اعتماد أبي شامة على الوثائق التي يقتبسها لتأييد الوقائع التي يتحدث عنها يتزايد بالتدريج ، حتى يصل عددها إلى نهاية الجزء الأول ، بقسميه ، أربعين وثيقة ، تتحدث عشر منها عن أمور حدثت في عصر نور الدين ، على حين يتعلق بآقيها بمجهود صلاح الدين .

وسرّ ذلك أن شخصية صلاح الدين بدأت تلعب دورها الرئيسي في تطور الحوادث منذ تولي وزارة مصر ، سنة ٥٦٤ هـ ، وأنه أصبح يعتمد على شخصية سياسية خطيرة حملت عنه عبء المكاتبات الرسمية ، وحرصت على تسجيل الحوادث ، في مناسباتها ، في هذه المكاتبات في شكل رسائل إلى الديوان العزيز ببغداد ، أو إلى أعوان صلاح الدين وأمرائه في أنحاء البلاد . تلكم هي شخصية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين . ولم يلبث القاضي الفاضل بدوره أن استعان برجل لا يقل خطراً في جهده السياسي والحكومي إلى جانب صلاح الدين ، وهو العماد الأصمغاني كاتب الديوان للسلطان .

ومن حسن الحظ أن هاتين الشخصيتين تمتعتا بسلطات غير محدودة في حكومة صلاح الدين ، وتميزتا ، في نفس الوقت ، بحاشية علمية تاريخية دفعتهما إلى التأليف في التاريخ ، وإلى تضمين مؤلفاتهما كثيراً من الوثائق الحكومية التي اشتركا في توجيهها بحكم طبيعة عملهما إلى جانب صلاح الدين ^(١) .

وقد تحدثنا في تقديم القسم الأول عن المصادر التي اعتمد عليها أبو شامة في كتابه وعن طريقة استخدامه إياها ^(٢) . ونود أن نذكر هنا أن من المصادر التي تظهر في هذا القسم بشكل يمكن تتبعه بوضوح كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب . ومن المعلوم أن هذا الكتاب يقع في سبع مجلدات فقدت جميعها باستثناء المجلدتين الثالثة والخامسة . وتبدأ المجلدة

(١) أرجع إلى ما كتب عن الوثائق واستخدام أبي شامة لها في مقدمة القسم الأول : ٤٠ - ٤٣ .

(٢) انظر مقدمة القسم الأول : ١٩ - ٤٠ .

الثالثة التى تستخدم فى هذا القسم^(١) بحوادث سنة ٥٧٣ ، وهى السنة التى ينتهى بها الجزء الأول من كتاب الروضتين ، وتنتهى فى أثناء حوادث سنة ٥٧٥ . والعماد - رغم أسلوبه الذى يتميز باستخدام الحسنة البدعية فى مبالغة مرهقة - مؤرخ دقيق صادق ، يتحدث عن مشاهداته ، ويسجل ما يثق فيه من مجموعات ، ويدعم حديثه بالوثائق التى كتبها بنفسه أو نقلها عن القاضى الفاضل زميله فى حكومة صلاح الدين .

وقد برع أبو شامة فى استخلاص الحقائق التاريخية التى يريدونها من هذا الأسلوب المنمق المزوق ، وفى عرضها فى أقل عدد من الكلمات ، حتى إنه ليقبى الصفحات المتتابعة فى سطرين ، أو فيما يزيد على ذلك بقليل .

وأودّ أن أذكر هنا أن الاعتماد فى إخراج هذا القسم أيضا كان على مخطوطة كوينهاجن ، التى نسخت سنة ٦٧٦ هـ ، والتى اعتبرت أصلا للنشر ؛ كما أن مخطوطة القاهرة ، وتاريخ نسخها سنة ٧٣٤ هـ ، قامت بدور النسخة المساعدة الأولى . أما مخطوطة ليدن التى تسبق مخطوطة القاهرة بسنة واحدة ، وإن كان ناسخها واحدا ، فقد قامت بدور النسخة المساعدة الثانية ؛ وسرّ ذلك أننى لم أستطع الحصول على هذه النسخة فى الوقت المناسب عند إخراج القسم الأول بسبب عقبات لا يدّلى فيها . ومن ثم احتفظت بالنسخة القاهرة بمسكاتها ، واستعنت بنسخة ليدن بعد أن أمكننى الحصول عليها . وعلى أى حال فالمخطوطتان أختان ، نقلتا عن أصل واحد ، بقلم ناسخ واحد ، وقد نسخهما فى سنتين متتاليتين ، ولم يغفل فى أى منهما ما نقله فى الأخرى .

على أن مخطوطة كوينهاجن مصابة بخرم بسيط يستغرق ورقتين ، هما الورقتان ٢١٢ ، ٢١٣ ، وقد استبدل بهما فى الأصل ورقتان كتبنا بخط حديث لتكمله النقص . وقد استعنا

(١) ابتداء من ص ٦٩٥ إلى آخر الكتاب .

على تلافى هذا العيب بمخطوطة ليدن واعتبرناها أصلاً للنشر في هاتين الورقتين فقط ثم عدنا إلى مخطوطة كوينهاجن^(١) لنعتبرها أصلاً ابتداء من الورقة ٢١٤^(١).

وطبقاً لما وعدت به في تقديم القسم الأول فقد أعددت مصورين لبلاد الشام، ألحقتهما بهذا القسم، وبيّنت عليهما معظم المواقع التي تردد ذكرها في تقرير الحوادث وتطوراتها، لتساعد على تتبع هذه الحوادث وتفهم هذه التطورات. وأود أن أشير إلى أن فائدة هاتين الخريبتين ستعدي هذا الجزء إلى الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وبعد؛ فلا يفوتني أن أقدر للمجلس الأعلى للآداب والفنون ولوزارة الثقافة والإرشاد القومي فضلهما بتقريرهما لإخراج هذا الكتاب على نفقة الوزارة. كما أود أن أخص رجال المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر بحمّل الشكر لما لقيته منهم من معاونة على إخراج الكتاب بصورته التي يخرج بها اليوم.

وأخيراً أود أن أكرر هنا ما قلته في نهاية تقديمي للقسم الأول من الكتاب من أنني « أرجو أن أكون قد وفقت في الجهد الذي بذلته لنشر هذا الكتاب في صورته هذه التي أقدمها اليوم. وسيكون ترحيبي عظيماً بما يوجه إليه من نقد يهدف إلى البناء والإصلاح، ويساعد في إخراج بقية الكتاب في صورة قريبة من الكمال بعون الله ». وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

محمد حلمي محمد أحمد

القاهرة : صفر سنة ١٣٨٢
يوليو سنة ١٩٦٢

(١) انظر صفحات : ٦٩٢ - ٦٩٩ من هذا القسم.

مراجع التحقيق

تضاف هذه المراجع إلى قائمة المراجع التي استخدمت
في تحقيق القسم الأول

- ١ - أحمد بن على المقرئ : (١) المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار -
القاهرة ١٢٧٠ هـ .
- (٢) السلوك لمعرفة دول الملوك - انظر : محمد مصطفى زيادة .
- ٢ - جمال الدين الشيال : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل .
نشر وتحقيق :
الجزء الأول : القاهرة ١٩٥٣ .
الجزء الثاني : القاهرة ١٩٥٧ .
- ٣ - زكى محمد حسن : (بالتعاون مع حسن أحمد محمود) : معجم الأنساب
والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامى ، المستشرق
زامباور ؛ ترجمة في جزئين ؛ القاهرة ١٩٥١-١٩٥٢ .
- ٤ - عبد الحى بن أحمد : (ابن العماد ، أبو الفلاح) : شذرات الذهب في
أخبار من ذهب ؛ القاهرة ، ١٩٣١ .
- ٥ - عبد الرحمن بن أبى بكر : (جلال الدين السيوطى) : حسن المحاضرة في
أخبار مصر والقاهرة ؛ جزءان ؛ القاهرة ١٣٢٧ هـ .
- ٦ - عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم : (شهاب الدين أبو شامة المقدسى) : عيون الروضتين ؛
مخطوط ؛ المتحف البريطانى بلندن : Or. 1537

- ٧ - عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر : دمشق.
- ٨ - عبد القادر بن محمد النعمي : الدارس في تاريخ المدارس : الجزء الثاني ؛ دمشق
- ٩ - علي بن هبة الله بن عساكر : انظر عبد القادر بدران .
- ١٠ - علي مبارك : انخطط التوفيقية الجديدة ؛ عشرون جزءا ؛ القاهرة : ١٣٠٤-١٣٠٦ هـ .
- ١١ - محمد بن سالم : (جمال الدين، ابن واصل) : انظر: جمال الدين الشيال
- ١٢ - محمد بن محمد الأصفهاني : (عماد الدين الكاتب) : البرق الشامي : الجزء الثالث : مخطوط ؛ مكتبة بودليان بأكسفورد : Bruce, 11
- ١٣ - محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي : القاهرة ، ١٩٥٩
- ١٤ - محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج في الدولة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ١٥ - محمد بن علي : (ابن طباطبا - ابن الطقطقي) : الفخرى في الآداب السلطانية والدل الإسلامية ؛ القاهرة ، ١٣١٩ .
- ١٦ - محمد كرد علي : خطط الشام : ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥-١٩٢٨ .
- ١٧ - محمد مصطفى زيادة : السلوك لمعرفة دول الملوك : لتقي الدين المقرئزي ، نشر وتحقيق : القسم الثالث من الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٨ - يوسف بن تغري بردي : (جمال الدين أبو الحسن) : النجوم الزاهرة : الجزء السادس ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
- ١٩ - Lane—Poole, S. , Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1898 .
- ٢٠ - Runciman A History of the Crusades, Cambridge University Press, 1951—1954.

كِتَابُ الرِّفْضَيْنِ

في أخبار الدولتين

لأبي شامة

الجزء الأول - القسم الثاني

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة^(١)

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذى إلى مصر المرة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية . وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب ، وهو الأكبر ، ابنا شاذى ، من بلد دوين^(٢) وهى بلدة من آخر بلاد أذربيجان^(٣) مما يلي [بلاد] الروم ؛ وأصلهما من الأكراد الروادية ، وهذا القبيل من^(٤) أشرف الأكراد ، وقدموا العراق ، وخدموا مجاهد الدين بهروز الخادم ، وهو شحنة العراق^(٥) ؛ فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحسن سيرة فجعله دزداراً^(٦) بتكرت^(٧) ، وهى له ، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين .

فلما انهزم أتابك زنسكى الشهيد ، والد نور الدين ، بالعراق من قراحه الساقى ، وهو أتابك داود بن السلطان محمود ، وذلك من المسترشد بالله^(٨) ، سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وصل إلى تكريت . فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن ، فعبر دجلة (هناك)^(٩)

(١) يتقابل النص هنا مع حوالى منتصف ص ١٠٠ ب من النسخة الأم: الرموز لها بالحرف ك والاقتراس هنا حرفى من الأناكة : ٢١٣ — ٢١٦ .

(٢) فى آخر حدود أذربيجان بالقرب من نغليس . معجم البلدان : ٤ : ١١٢ .

(٣) الضبط عن ياقوت ، وقد ضبطها بغير ذلك أيضاً . معجم البلدان : ١ : ١٥٩ — ١٦١ .

(٤) فى ل ٩٩ ب : هو أشرف الأكراد .

(٥) يوجد فى الأصل بالهامش ، وكذلك فى نسخة ق ، ونسخة ل العبارة الآتية : « حاشية : قال المؤلف ، فى أريخ ابن الديبى بهروز بن عبد الله أبو الحسن الخادم الأبيض الملقب بمجاهد الدين مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقى . وفى الإمارة بالعراق نيفاً وثلاثين سنة ، وبني رباطاً للصوفية على دجلة عند سوق المدرسة النظامية ، ورباطاً آخر للخدم أعلى البلد ، وعمر النهروان وأجرى فيه الماء بعد أن كان قد خرب سنين . وكان حسن السيرة ، توفى ببغداد فى رجب سنة أربعين وخمسمائة ، ودفن برباط الخدم الذى أشاء بعد أن صلى عليه بجميع الساطن بظاهر البلد . والله أعلم » . ١٠ هـ .

(٦) انظر ما سبق : ١١١ حاشية : ٦ .

(٧) بفتح التاء ، والعامية يكسرونها . بن بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب ، وبينهما ثلاثون

فرسخاً . معجم البلدان : ٢ : ٣٩٩ — ٤٠١ .

(٨) الخليفة العباسى ، ٥١٢ — ٥٢٩ هـ .

(٩) ساقطة من ل ٩٩ ب ؛ وكذلك من ق ١٩٨ .

وتبعه أصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم .

ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بتكريرت للملاحاة جرت بينهما ؛ فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين ، فأخرجهما من تكريرت . وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصاً من ممالك بهروز بسهم فقتله ، فخشى على نفسه ، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي . وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني ، وكان عزيزاً عند بهروز ، هرب إلى الموصل ، والتحق أيوب به . وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين .

ثم إن أيوب وشيركوه قصداً أنابك الشهيد فأحسن إليهما ، وعرف لهما خدمتهما ، وأقطعهما إقطاعاً حسناً ، وصاراً من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه . فلما قُتل الشهيد [عند قلعة جمبر]^(١) حصر عسكر دمشق نجم الدين ، فأرسل إلى سيف الدين غازي ، وقد قام بالملك بعد والده [في الموصل]^(٢) ، يُنهي الحال إليه ، فلم يتفرغ لبعلبك وضاق (١٠١ - ١) الأمر على من بها ، وخاف نجم الدين أن تؤخذ عنوة ويناله أذى ؛ فأرسل في تسليم القلعة وطلب إقطاعاً ذكره ، فأجيب إلى ذلك . وحلف له صاحب دمشق عليه ، وسلم القلعة ، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم ، وصار عنده من أكابر الأمراء .

واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية ، بعد قتل الشهيد ، وكان يخدمه في أيام والده ، فقر به نور الدين وأقطعه ، ورأى منه في حروبه ومشاهدته آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجراته ، فزاده إقطاعاً وقرباً حتى صارت له حمص والرحبة^(٣) وغيرها ؛ وجعله مقدم عسكره .

فلما تعلق المهمة الدورية بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين ،

(١) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح . وكان مقتله سنة ٥٤١ هـ . انظر ما تقدم من ١٠٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) هي رحبة مالك بن طوق بين دمشق وحلب ، وهي أقرب إلى حلب منها إلى دمشق . معجم البلدان : ٤ : ٢٣٦ - ٢٣٨ .

وهوبها ، في ذلك ، فطلب منه المساعدة على فتحها ، فأجاب إلى ما يراد منه ؛ وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها ، فبذل لهما ما طلبا منه ، وحلف لهما عليه ، فوفى لهما ما ملكها ، وصارا عنده في أعلى المنازل ، لاسيما نجم الدين ، فإن جميع الأمراء كانوا لا يقدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك ، إلا نجم الدين ، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك .

فلما كان سنة تسع وخسين عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر ، ولم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين ، فسيره .

وكان سبب ذلك أن شاور بن مجير أباً شجاع السعدى ، وهو الملقب أمير الجيوش الذى يقول فيه عُمارَة من قصيدة^(١) :

ضجّر الحديد من الحديد ، وشاور فى نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان لياتين بمثله حدثت يمينك بازمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر^(٢) ، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمان وخسين ، سادس ربيع الأول ، إلى نور الدين مستنجداً به على من أخذ منه منصبه قهراً . وكانت عادة المصريين^(٣) أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه ، وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكّنوه ، فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم ، وهو الملقب عندهم بالسلطان ، وما كانوا يرون المكاشفة ، وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال .

وكان شاور قد غلب على الوزارة وانتزعها من بنى رزّيك وقتل العادل بن الصالح ابن رزّيك الذى وزر بعد أبيه ، [واسمه^(٤)] رزّيك ، ويلقب بالناصر أيضاً ، وهو الذى

(١) انظر النكت المصرية : ٧٢ - ٧٣ .

(٢) استخدم أبو شامة هذا اللفظ لأنه لا يعترف بخلافة الفاطميين ، كما سيوضح فيما بعد . وكانت خلافة العاضد بين سنتي ٥٥٥ ، ٥٦٧ هـ .

(٣) يقصد المؤلف بذلك اللفظ الخلفاء الفاطميين .

(٤) ساقطة من لـ ، وهى من لـ ١٠٠ ب ؛ وهى كذلك فى ٩٨ ب .

استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي [البيسانى]^(١) من الاسكندرية واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش ، على ما ذكره عمارة اليمى ، في كتاب الوزراء المصرية^(٢) . وقال : غرس منه للدولة ، بل العلة ، شجرة مباركة متزايدة النماء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . ثم خرج على شاور نائب الباب ، وهو أمير يقال له ضرغام بن سوار ويلقب (١٠١ - ب) بالمنصور ، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قبل ، فغلبه وأخرجه من القاهرة وولده طياً ، واستولى على الوزارة . فرحل شاور إلى الشام قاصداً خدمة نور الدين مستصرخاً به ومستنصراً ، فأحسن [نور الدين]^(٣) لقاءه وأكرم مثواه ، فطلب منه [شاور]^(٤) إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها ، ويكون له فيها حصّة ، ذكرها له ، ويتصرف على أمره ونهيه ، واختياره . ونور الدين يقدم في ذلك رجالاً ويؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه ، إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً .

ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وجساً للبلاد ، وتطلماً على أحوالها . وكان هوى أسد الدين في ذلك ؛ وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي معه بخافة . فتجهز وسار مع شاور ، في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين . هكذا ذكر ابن الأثير^(٥) ، والمعاد السكاتب . وقال القاضي ابن شداد^(٥) : كان ذلك سنة ثمان وخمسين ؛ والقول في ذلك قولها ، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين . وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة .

(١) أضيف ما بين الحاصرين للتوضيح ، وهو وزير صلاح الدين فيما بعد ، وكان عندئذ بالاسكندرية كاتباً لقاضيهما وناظرهما المدروف بابن حديد : أنظر وفيات الأعيان : ٢ : ٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٢) أنظر عمارة اليمى : النكت المصرية : ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣) أضيف ما بين الحاصرين للتوضيح .

(٤) راجع ابن الأثير : الأناطية : ٢١٧ - ٢١٩ ، وكذلك الكامل : ١١ : ١١١ - ١١٣ .

(٥) ابن شداد : النواذر السلطانية : ٢٩ .

وساروا جميعاً ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره
ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين .
ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة ، وقتل ،
وطيف برأسه ؛ وعاد شاور وزيراً وتمكن من منصبه^(١) .

وكان عمارة قد مدح ضرغاماً بقصيدة منها :
وأحق من وزير الخلافة من نشأ في حضرة الإكرام^(٢) والإجلال
واختص بالخلفاء ، وانكشف له أسرارها بقرائن الأحوال
وتصرف الوزير عن أفعاله^(٣) ، اكتصرف الأسماء بالأفعال
قال عمارة^(٤) : ولما جازوا برأسه على الخليج ، وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة ،
قلت ارتجالاً :

أرى حنك الوزارة صار سيفاً يحكُّ بحده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى ، وإلا بشير بالمنية والمصاب
ولعمارة البني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارته^(٥) :
فُنصرت في الأولى بضرب^(٦) زلزل أقدام وهي شديدة الإقدام
ونُصرت في الأخرى بضرب صادق أخشى يطير به غراب الهام^(٧)
أدركت ثأراً ، وارتفعت وزارة نزعاً بسيفك من يدي ضرغام
وكان ضرغام أولاً من أصحاب شاور وأتباعه . وقد أشار إلى ذلك عمارة في قوله
من قصيدة له^(٨) :

كانت وزارتك القديمة مشرعاً صفواً ، ولكن كُدرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسريه من بعد ما سجدت له تيجانها

(١) هذه الفقرة كلها تلخيص لحوادث سيعود أبو شامة إلى تفصيلها فيما يلي .

(٢) في النكت المصرية : الإعظام .

(٣) في النكت المصرية : آرائه .

(٤) النكت المصرية : ٧٧ . (٥) نفس المصدر : ٨٨ - ٨٩ .

(٦) في النكت المصرية : برعب . (٧) الرؤوس .

(٨) النكت المصرية : ٨٤ ، اقتباساً من قصيدة وردت في : ٨٣ - ٨٤ .

وله من قصيدة أخرى في شاور^(١) :

وزير تمتعه الوزارة أولاً وثانية ، عفواً بغير طلاب
خفاته في الأولى بطانة وده ورب حبيب في قيص حُباب^(٢)
وجاءته تبغى الصالح ثانی مرة فلم يرض إلا بعد ضرب رقاب
ولم يُغلب وزير لم وعاد غير شاور . وكان مدة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة
أشهر سواء ، وهي مدة الحمل نص عمارة على ذلك ، وقال^(٣) : قتل ولده طیّ يوم الجمعة
الثامن والعشرين من رمضان ، وجاز رأسه على رمح تحت الطيقان ، والنساء يولدن
بالصراخ ، وكان فيهن واحدة تحفظ قولي في الصالح^(٤) :

أُيُنسى وفي العينين صورة وجهه الـ كريم ، وعهد الإنتقال قريب
فما زالت تسكره حتى رأت رأس ضرغام .

قال : وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة ، فيكون
بينهما تسعة أشهر .

قال^(٥) : وقلت في ذلك :

ونزعت ملكك من رجال نازعوا فيه ، وكنت به أحقّ وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين ، فلم تزل حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرمة أمرت نسيم الليل ألا يبردا
تاريخ هذا^(٦) قلته في مثله يوماً بيوم ، عبرة لمن اهتدى :
جلت به الأيام تسعة أشهر حتى جعلان له جمادى مولدا
وله أيضاً في ذلك^(٧) :

لله دُرُّك مؤثوراً أقصّ به دست ، وسرج ، وأجنان ، ومضطجع

(١) نفس المصدر . (٢) الحباب : الحية ، واسم شيطان . القاموس المحيط .

(٣) في النكت المصرية : ١٢٩ . (٤) هو الصالح طلائع بن رزيك .

(٥) في النكت المصرية : ٨١ .

(٦) في النكت المصرية : تاريخ دين . (٧) النكت المصرية : ٨٥ .

ما غبت إلا يسيراً ، ثم لحث لنا والثأر مستدرِك ، والمُلك مرتجع
قضية لم يفل منها ابن ذى يزنٍ إلا كما نلت ، والآثار تُتبع
فأخفر على الحق من قيس ومن يمنٍ أبا شجاع ، فليس الحق يندفع

قال ابن الأثير^(١) : وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور ، وعاد عما كان
قرره لنور الدين من البلاد المصرية ، ولأسد الدين أيضاً . فأرسل إليه يأمره بالعودة إلى
الشام ، فأبى أسد الدين من هذا الحال ، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر ؛ فلم يجبه
شاور إليه . فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة (١٠٢ - ب) بلبيس ، وحكم على
البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر .
وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين ، فهم خائفون . فلما أرسل شاور
إليهم يستنجدهم ويطلب منهم أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج
لم يحتسبوه ، وسارعوا إلى تلبية دعوته ، والمبادرة إلى نصرته ؛ وطعموا في ملك ديار مصر .
وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه ، فتجهزوا وساروا .

فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الإفرنج
ليمتنعوا من المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد
من الخطر في مسيرهم . فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس^(٢) في الباقيين إلى
مصر . وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس ،
فاستعان بهم ملك الفرنج ، فأعانوه ؛ وسار بعضهم معه ، وأقام بعض في البلاد لحفظها .

فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس ، وأقام بها هو وعسكره
وجعلها ظهراً يتحصن به . فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين
بمدينة بلبيس ، وحاصروه بها ثلاثة أشهر ؛ وقد امتنع أسد الدين بها وسؤرهما من طين ،

(١) في الأناطلة : ٢١٦ - ٢١٩ ، وهو اقتباس حرى .

(٢) اسم هذا الملك في الإنجليزية / Amalric ، ١١٦٢ - ١١٧٤ م (٥٥٧ - ٥٦٩ هـ) .
وتسمية المراجع العربية أمورى أو عمورى ، وسيرد في الأشعار فيما يلي باسم مرى . وقد تقدم شيء
من التعريف به : س ٢٩٣ حاشية : ١ .

قصير جداً ، وليس له خندق ولا فصيل يحميها ، وهو يغاديهم القتال ويروحهم ؛ فلم يبالغوا منه غرضاً ، ولا نالوا منه شيئاً . فبينما هم كذلك أنام الخبير بهزيمة الفرنج بحارم^(١) ، وملك نور الدين الحصن^(٢) ، ومسيره إلى بانياس^(٣) . فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ، ولعلمهم يدركون بانياس قبل أخذها ، فلم يدركوها إلا وقد ملكها ، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وراسلوا أسد الدين في الصلح ، والعود إلى الشام ، ومفارقة مصر ، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين ؛ فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل .

قال ابن الأثير^(٤) : لحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبس ، قال : رأيت وقد أخرج أصحابه بين يديه ، وبقي في آخرهم ويده لت^(٥) من حديد يحكي ساقتهم ، والمسلمون والفرنج ينظرون . قال : فأتاه فرنجي من الفرنج الغرباء فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا يبقى لك معهم بقية ! ! فقال شيركوه : يا ليتهم فعلوا ! ! كنت ترى ما لم ترمثله ، كنت والله أضع سيفي^(٦) ، فلا أقتل حتى أقتل رجلاً ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى أبطالهم ، فيملك بلادهم ، ويفنى من بقي منهم . والله لو أطاعني هؤلاء ، يعني أصحابه ، (١٠٣ - ١) نخرجت إليكم أول يوم ، لسكرتهم امتنعوا . فصلب الفرنجي على وجهه وقال : كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والآن قد عذرناهم ؛ ثم رجع عنه . وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالمًا .

وقال العماد الكاتب : وصل شاور إلى نور الدين ملتجئاً ، فألفاه على عدوه مقدماً مشكياً ، وسيّر معه أسد الدين على قرار عينه ، وأمر بيده ، وبغية يدركها ، وخطة يملكها ،

(١) حصن تجاه أنطاكية . معجم البلدان : ٣ : ١٩٩ .

(٢) هو حصن الأكراد على الجبل الذي يقابل حمص ، وهو جبل الجليل ، من قبل الغرب . معجم البلدان : ٣ : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) حصن في الجنوب الغربي لدمشق : السلوك : ١ : ٦٧ . وكانت بيد الفرنج من سنة ٥٤٣ هـ إلى هذه السنة (٥٥٩) : الكامل : ١١ : ١١٤ .

(٤) استمرار للاقتباس السابق ، من نفس الصفحات .

(٥) لفظ فارسي الأصل معناه الفأس الكبيرة أو القدوم ، وكانت من آلات الحرب في تلك الفترة .

(٦) في ل ١٠٢ : أضع فيهم السيف ، وفي ق ١١٠٠ : أضع السيف .

ومَحِجَّةً واضحةً في الملك يسلسلها ؛ ففضى معه ونصره ، وأُصِفِي له مَشْرَعَهُ ، واسترد له موضعه ، وأظهره بعلوه ، وأظفره بعدوه ؛ فلما باد خصمه ، بدا وصمه ، وغدر بعهده ، وأخلف في وعده .

وكان قد راسل الفرنج وهاداهم في حرب الإسلام ، فوصلوا ؛ فتحصن شبركوه ومن معه بمدينة بلبيس ؛ فحاصره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر ، من مستهل رمضان إلى ذى الحجة . فبدلوا له قطيعة فانصرف عنهم ، وعاد إلى الشام وفي قلبه من شرّ شاور الإحن ، وكيف تمت بغدره تلك الحن .

قلت : وقد أشار إلى ذلك مُعمّارة في قوله في مدح شاور ، وذكر الإفرنج ، فقال ^(١) :

وأنقذت من مصر عدوّاً بمثله فله من ظُفر فلت زئاب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة أقمت بها للقوم سوق ضراب
وقد جرّدت أجناد مصر عزائمها مضاربها في الصخر غير نوابي
تولّوا عن الإفرنج فادح ثقلها ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسمين ليلة ثياباً لهم ، ما بُدلت بثياب
وم بين مطروح هناك وطارح وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضي ابن شداد ^(٢) : سار أسد الدين إلى مصر ، واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجعله مقدم عسكره وصاحب رايه ^(٣) وكان لا يفصل أمراً ولا يقرر حالاً إلا بمشورته ورأيه ، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة ، والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته . فساروا حتى وصلوا مصر ، وشاور معهم ؛ وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم ؛ وخافه أهل مصر ، رنجهير شاوراً على خصمه ، وأعادته إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده ، وشاهد البلاد وعرف أحوالها ، وعلم أنها بلاد بغير رجال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والحال .

(١) عمارة النيني : النكت المصرية

(٢) هذه الفقرة كلها مقتبسة من ابن شداد ، في النوادر السلطانية : ٢٩ ، والافتباس حرق

تصرف فيه أبو شامة بتقديم وتأخير .

(٣) جهم راية وهي العلم .

وكان ابتداء رحيله عنها متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة ، فأقام بالشام مدبراً لأمره ، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثاً بذلك نفسه ، مقرأ لقواعد ذلك مع نور الدين ، إلى سنة اثنتين وستين .

قلت : ولعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر ، ووقعوا فيه (١٠٣ - ب) قبل قتله وبعده ، على ما سنذكره ؛ وبقي متخوفاً من أسد الدين . فقال عرقلة السكلي^(١) من جملة قصيدة له :

وهل ممّ يوماً شيركوه^(٢) بجيلى^(٣) إلى الصيّد إلا ارتاع في مصر شاور
هو الملك المنصور ، والأسد الذي شذى ذكره في الشرق والغرب سائر
وفيها في ذي الحجة احترقت جبرون^(٤) بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق ، فقال
العرقلة يمدحه ويذكر ذلك :

جار صرف الردى على « جيرون » وسقى أهلها كئوس المنون
أصبحت جنة وأمست جحيماً تملّظى بكل قلب حزين
كيف لا تذرف الدموع عليها وهى في الشام نزهة للعيون
حبذا حصنها الحصين ، لقد كان جبالاً لكل حصن حصين
أى سيف سطا على دار سيف وزبون أنى بحرب زبون
خلت نيرانها وكلّ ظلام نار ليلى تلوح للمجنون
كم غنيّ اليمين أمسى فقيراً . وفقر أمسى غنيّ اليمين
كل حين لها حريق جديد ليت شعري ، ما ذا لها بعد حين !

(١) حسان بن نعيم السكلي وكنيته أبو الندى ؛ تولى سنة ٥٦٧ هـ ، وكانت له أشعار كثيرة في صلاح الدين . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٦٤ ، فوات الوفيات : ١ : ١٤٤ .

(٢) بتعريك الراء في شيركوه ، حتى يستقيم الوزن .

(٣) اسم لكورة القوطة كلها ، وقيل هى دمشق ، أو موضع بقرية من قراها . معجم البلدان : ٣ : ١٢٦ - ١٢٨ .

(٤) تقدم التعريف بها : ١٩٧ هـ ، حاشية : ٢ . انظر معجم البلدان : ٣ : ١٩١ .

كل هذا البلاء عاقبة الفسق ، وشرب الخمر ، والتلحين
واقعد ردها بعزم وحزم أسد الدين غاية المسكين
وحى الجامع المقدس والمشهد من جمرها بماء معين
ملك فعله بدجلة^(١) والباب فعال الإمام في صفين

فصل

في فتح حارم

قال العماد الكاتب : وفي تلك السنة ، يعنى سنة تسع وخمسين ، اغتحم نور الدين خلو
الشام من الفرنج وقصدهم ، واجتمعوا على حارم ، فضرب معهم المصاف ، فرزقه الله تعالى
الانتقام منهم ؛ فأسرهم ، وقتلهم ، ووقع في الأسار إبرنس أنطاكية^(٢) ، وقومص
طرابلس^(٣) ، وابن لجوسلين^(٤) ، ودوك الروم ؛ وذلك في رمضان .

وقال في الخريدة : كانت نوبة البقيعة نوبة عظيمة على المسلمين ، وأفلت نور الدين
في أقل من عشرة من عسكره ، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم ، وقتل في معركة
واحدة منهم عشرون ألفاً ، وأسر من نجا ؛ وأخذ القومص والإبرنس والدوقس وجميع
ملوكهم . وكان منحا عظيما ، وفتحاً مبيناً .

قال ابن الأثير^(٥) : والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزماً ، غنى ماسبق ،
من غزوة ناحية حصن الأكراد ، أقبل على الجدد والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخذ
بثاره ، وغزو العدو في عقر داره ؛ وليرتق ذلك الفتق ، ويمحو سمة الوهن ، ويعيد رونق

(١) من قرى صعيد مصر . معجم البلدان : ٤ : ٦٧

(٢) وهو عندئذ بوهمند الثالث (Bohemond III) .

(٣) وهو عندئذ ريموند الثالث (Raymond III) .

(٤) واسمه Thoros II وكان صاحب أرمينية ، ويذكر Runciman أنه لم يقسح في الأسر

بل تمكن من الحرب مع أخيه ، انظر A History of the Crusades, Vol. II, P. 369.

(٥) في الأتابكة : ٢١٩ - ٢٢٤ . وأبو شامة يتصرف في هذا الالتباس ببعض الحذف لأن ابن
الأثير عالج هذا الموضوع بأسلوب أدبي ، لكن أبا شامة يحافظ على الحرفية في الجزء الذي اقتبس .

الملك . فراسل أخاه قطب الدين^(١) بالموصل ، وغفر الدين قرا أرسلان بالحصن^(٢) ونجم الدين ألب^(٣) بماردين ، وغيرهم من أصحاب الأطراف .
أما قطب الدين أتاك فإنه جمع عساكره وسار (١٠٤ - ١٠٥) مجداً ، وعلى مقدمة
عسكره زين الدين نائبه .

وأما غفر الدين قرا أرسلان فإنه بلغنى عنه أنه قال له خواصه : على أى شيء عزمت ؟
فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه
والناس معه فى المهالك ؛ وكلهم وافقه على ذلك . فلما كان الغد أمر بالنداء فى العسكر
بالتجهز للغزاة ؛ فقال له أولئك : ما عدا مما بدا ؟ فارتقناك بالأمس على حال ونرى الآن
ضدها ؟ فقال : إن نور الدين قد سلك معى طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن
طاعتي ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا ، يذكر
لهم مآلئ المسلمين من الفرنج ، وما نالهم من القتل والأسر والنهب ، ويستمد منهم الدعاء ،
ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة . فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه
وأصحابه وهم يقرءون كتب نور الدين ويبكون ، ويلمعنونى ويدعون على ؛ فلا بد من إجابة
دعوتهم . ثم تجهز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه .
وأما نجم الدين ألب فإنه ستر عسكره .

فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها ؛ وبلغ الخبر إلى من بقى من
الفرنج بالساحل أنه لم يسر إلى مصر ، فحشدوا رجاءوا ، ووقدم الفرنج البرنس صاحب
أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج
وأبطالها ، والدوك وهو رئيس الروم ووقدمها . وجمعوا من الرجال ما لا يقع عليه الإحصاء ،

(١) واسمه مودود ، امتد سلطانه فى الموصل بين سنتي ٥٤٤ ، ٥٦٥ (١١٤٩ - ١١٦٩ م) .
انظر الأتابكة ، والسكران لابن الأثير ، وكذلك *Muhammadian Dynasties* .

(٢) حصن كيفا ، وهو قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ، ٥٤٣ - ٥٧٠ (١١٤٨ - ١١٧٤ م)
(٣) فى الأصل ، وكذلك فى ل و فى ق : البى . وكذلك فى *Muhammadian Dynasties* وفى مفرج
الكروب (١ : ١٤٣) : ألب أرسلان بن قمر تاش بن ليلغازى بن أرتق ، حكم بين سنتي ٥٤٧ - ٥٧٢ م .
(١١٥٢ - ١١٧٦ م) .

قد ملأوا الأرض وحجّبوا بقسطلهم السماء ؛ فخرّض نور الدين أصحابه ، وفرق نفائس الأموال على شجعان الرجال .

فلما قارب الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح^(١) وهو إلى لقائهم مرتاح ؛ وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه ، و يتمكن منهم إذا لقوه . فساروا حتى نزلوا على عَمٍّ^(٢) ، وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم ؛ ثم تيقنوا أنه لا طاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ؛ فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير ، وتبعهم نور الدين .

فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ؛ وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين ، وبها عسكر حلب وخر الدين ؛ فبددوا نظامهم^(٣) ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوا الأدبار ، وتبعهم الفرنج . وكانت تلك الفرقة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبره ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعثوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين ، ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجئون إليه ، ويعود المنهزمون في آثارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم . فكان الأمر على مادبروا ؛ فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم ، فأفناهم قتلاً وأسرّاً ، وعادت خيالتهم ولم (١٠٤ - ب) يمعنوا في الطلب ، خوفاً على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معقرين ، وبدماهم مضرجين ؛ فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلّوا ، وخضعت رقابهم وذلوا . فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنتهم ، وعادوا ، فبقى العدو في الوسط وقد أحرق بهم المسلمون من كل جانب . فحينئذ حمى الرطيس ، وباشر الحرب المردوس والرئيس ، وقتلوا الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من أيس من الحياة . وانقضت العساكر الإسلامية عليهم انقضاء الصقور على بغاث الطيور^(٤) ، فزقوم بدداً ، وجعلهم قدداً . فألقى الفرنج

(١) حصن في منطقة العواصم ، أصبحت من أعمال حلب ، معجم البلدان : ١ : ١٧٦ - ١٧٧ .
(٢) قرية ذات عيون وأشجار ، كان أهلها حينئذ من النصارى ، وتقع في منتصف الطريق بين حلب وأطاكية ، معجم البلدان : ٦ : ٢٢٥ .
(٣) أى نظام عسكر الميمنة المسلمة .
(٤) البغاث طائر أغبر ، وبغاث الطيور : غير الجارحة ، والطيور التي لا تصيد . لسان العرب .

بأيديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف . وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أسروا ، وهم الذين من قبل ذكروا^(١) .

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم ، فملكها في الحادي والعشرين من شهر رمضان . وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها ، فخلوها من يحميها ويدفع عنها ، فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه ؛ ومجاورة بيمند أحب إلى من مجاورة ملك الروم^(٢) .

وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويداء وغير ذلك ، وعادوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم .

وقال الحافظ أبو القاسم : كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم ، وكان عدتهم ثلاثين ألفاً . قال : ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم ، وباعه نفسه بمال عظيم أنفق في الجهاد .

قلت : وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان ، أو قبيله ، انفرد تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل ، ومرغ وجهه وتضرع ، وقال : يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ؛ فأنصر أولياءك على أعدائك . « إيش فضول محمود في الوسط ؟ » يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر .

(١) هذه العبارة (وهم الذين من قبل ذكروا) عبارة أبي شامة اكنى بها عن إعادة ذكرهم ، أما ابن الأثير فيذكرهم هنا بأسمائهم .

(٢) يذكر ستيفنسوت احتمال وجود سببين لهذا المسلك الذي سلكه نور الدين : أحدهما ما ذكر هنا من خوف نور الدين من الامبراطور البيزنطي ، وثانيهما صغر سن بوهيمند الثالث صاحب أنطاكية ، مما يجعل خطره أقل أهمية . ويريد حسن حبشي احتمالاً آخر هو خوف نور الدين من تطلع أمريك ، ملك بيت المقدس ، وغريم نور الدين في حروب مصر ، إلى الوصاية على الأمير الشاب . انظر *The Crusaders in the East*, p. 190 وكذلك : نور الدين والصليبيون : ٩٠-٩١ .

وبلغنى أنه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً . من هو محمود السكّاب حتى يُنصر ! وجرى بسبب ذلك منام حسن ذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دميّاط بعد نزولهم عليها ؛ وهذا فتح عظيم (١٠٥ - ١) ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين ، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه كما سبق ؛ وهذا من عجيب ما وقع وانفق . .

فصل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين ، الجواد الممدّح ، ووفاته في هذه السنة رحمه الله .
وقد ذكره العماد السكّاب في مواضع من مصنفاته وأثنى عليه ثناءً تنظيمياً حسناً .

فما ذكره في كتابه الموسوم بـنصرة الفترة وعُصرة الفطرة ، في أخبار الوزراء السلجوقية^(١) أن قال : ذكرُ جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور . كان والده من أصفهان يدعى السكّاب علي ، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك ، وكان أبوه أبو منصور^(٢) فهاداً في عهد السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ، وابنه السكّاب^(٣) أديب لبيب ، وزادت أيامه في السمو [وأيامه في النمو]^(٤) حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء ، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء . وقد كان زوج بنتاً له ببعض أولاد أخوال العزيز^(٥) ، يعنى عم العماد السكّاب ، قال : فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله تعالى على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد ، وخرّجه في الأدب ودرّجه في الرتب ؛ فأول ما رتبّه في ديوان العرض السلطاني الحمودى وغلب في تحليته [ذكر]^(٦) الأبلج ، فنعته الأتراك بالأبلج ، واستقام في نجايته على المنهج . واتفق أنه لما تولى زنسكى بن آق سنقر الشام تزوج بامرأة الأمير كئيدغدى^(٧) وولدها خاص بك بن كئيدغدى من أمراء الدولة وأبناء المملكة

(١) انظر كتاب تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح البندارى : ١٩٢ - ١٩٣ .
(٢) أى جد الوزير جمال الدين . (٣) في تاريخ دولة آل سلجوق : وابنه السكّاب نجيب . . .
(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٠٤ ب ، وهو مثبت كذلك في نسخة ق ، وساقط من الأصل .
(٥) في تاريخ دولة آل سلجوق : . . . أولاد أخوال العم العزيز .
(٦) ما هنا من ل ١٠٤ ب ، وكذلك من ق ، وفي الأصل : كئيدغدى .

ولم يسيّر معها ، فرتبه العزيز لخاص بك وزيراً ، فسار في الصحبة ، وكان مقبل الوجهة ، مقبول الفكاهة ، شهي المشاشة ، بهي البشاشة ؛ فتوفرت مئى زسكى على منادمته ، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته ، وعول عليه آخر عمره في إشراف ديوانه ، وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه . فلم يظهر لجمال الدين في زمان زسكى جود ، ولا عرف له موجود ، فإنه كان يقتنع بأقواته ، وترجية أوقاته ، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زسكى استبقاء لجاهه ، واستعلاء به على أشباهه . فكنه زسكى من أصحاب ديوانه ، فمنهم من استضرّ بإسائه ومنهم من انتفع بإحسانه .

ولما قُتل زسكى صار للدولة الأتابكية ملاذاً ، وللبيت الآق سنقرى^(١) معاذاً ؛ واستوزره الأمير غازى بن زسكى^(٢) وأزره على كوجك على وزارته ، وحلف له على مظاهرتة ومظافرتة .

وجرى بين جمال الدين الوزير ، وبين زين الدين على كوجك ، وبين سيف الدين غازى التعاقد على التعاضد ، والتعاهد على التساعد . وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى ، فعماش بنداه الجود ، وعشا إلى ناديه الوفود ، وعادت به الموصل قبلة (١٠٥ - ب) الإقبال ، وكعبة الآمال ، فأنارت مطالع سعوده ، وسارت في الآفاق صنائع جوده . وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبراهلها ، وجمع بالأمن شملها ، وأجرى بحر السماح ، ونادى : حتى على الفلاح ، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح ، وأتوا إليه من كل فج عميق ، وقُصد من كل بلد سحيق ؛ فقصده العظماء ، ومدحه الشعراء .

وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي ، المعروف بجيىص بيىص^(٣) . قال :
وأشدنى لنفسه فيه قصيدة أولها :

ياللصوارم والرماح ^٤ الذبل نصراً ، ومن أنجدتما لم يُخذل
لو شئتما ، ومشيتيه بمشيئة جاد الزمان وبالعلا لم ييخل
فاقنى فخارك يا نجاشع ، واعلمى أنى لكم من همتى فى جَحفل

(١) نسبة إلى آق سنقر والد عماد الدين زسكى ، وصاحب الموصل من قبله .

(٢) الذى تولى إمارة الموصل بعد مقتل أبيه عماد الدين زسكى .

(٣) سعد بن محمد بن سعد التيمى ، من بغداد ، فقيه غلب عليه الأدب والشعر . تولى سنة ٩٧٤ .

كان يلبس زى أمراء البادية ، ويتقلد سيفاً . النظر : وفيات الأعيان ، وطبقات الأطباء .

أنا فارس اليومين ، يوم مقالة .
 ظلمت فضائي المفاول مثل ما
 مدحوه كى يحووا مناقب نفسه
 فأتيت أبذل ما استطعت ، ومن يرد
 شمس من الإحسان ، عم ضياؤها
 يعطى الجزيل لسائلى معروفه
 وتزيده شوس الخطوب طلاقة
 نُقلت به الأعناق من منن الفدا
 فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
 أسراء معروف الوزير ، فكلمهم
 من سمرقند^(٢) إلى تهامة شاهد
 السحب تمطر ما تظل ، وجوده
 وتقرّ عين محمد بمحمد
 معمار سرقده ، وحافظ دينه
 جعل المدينة مصر ربعا أهلا
 فكأنها بالخصب من قرباته
 فلو أنه فى عصره نزلت له
 عبد أنح فى ضيقه ووداده
 خرق نياط قيصه ورداؤه
 قال العماد^(٤) : وكنت أنا فى ذلك العهد متفقهيا ببغداد ، واتفق حضورى بالموصل
 وورغى ، أصول بشارى وبمقولى
 ظلمت جمال الدين مآرى العيّل^(١)
 فطمت ، فسالت بالمدايح من عل
 نقل الخضم إلى المزايدة ينجل
 بل آية جاءت بحجة مرسل
 ويجود بالثعنى إذا لم يُسأل
 فيكون أبسم ما يرى فى المفضل
 فالهام مطرقة لذلك المنقل
 عن كل جفن بالحجالة مسدل
 عاف تراه مطلقا ككبل
 فضل الجلال على الحيا المتهايل
 يسرى ودار مقامه بالموصل
 محيى دريسى علمه والمنزل
 ومعين أمته بهجود مسبل
 نشوان يمرح بالنعيم المفضل^(٣)
 بلد على شط القرات السلسل
 فى مدحه سُور الكتاب المنزل
 لا يستحيل ، وسيد فى الحفل
 بعباب زخار وهضبة يذبل

(١) عال يميل : افتقر فهو عائل والجم عالة ، وعيل ، وعيلى ، الغاموس المحيط .

(٢) هى مدينة سمرقند ، وإنما ضبطت فى البيت سمرقند ليستقيم الوزن .

(٣) يقال أحصل البلح إذا خرج من تغاريقه ، وأحصل القوم فهم يحصلون إذا حصل نخلهم وذلك إذا استبان البسر . لسان العرب .

(٤) فى تاريخ دولة آل سلجوق : ١٩٣ - ١٩٤ .

سنة اثنتين وأربعين وخمسة ، فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعتين ، وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين . ومما مدحته به قصيدة أولها :

(١٠٦-١) أظنهم وقد عزموا ارتحالا ثنّوا عنا بجمال لا جمالا
سروا والصبح مبيض الحواشي فلما حال عهد الوصل حالا
هم اعتادوا اللال ، فكيف ملّوا وصالحهم وماملوا المللا
أحادي عيسهم ، بالله رفقا فإن السير أورثها السكالا
وعُج نحو الأراك بها ، فإني أراه لاجتماع الشمل قالا (١)
سقى صوب الحيا تَلَمّات (٢) نجد وحيّا بالحي تلك التسلا
أخلّئ ، وهل في الناس خل به أخلّ من الأحزان بالا
لئن لم أشف صدرى من حسودى ولم أذق العدا داء عضلا
فلا أدركت من أدبى مرادا ولا صادفت من حسبي منالا
ولا وخذت إليكم بى جمال (٣) ولا واليت مولانا الجمالا
هو المغنى إذا ما المرء أقوى هو المنجى إذا ما الخطب هالا
وقائلة : أفى الدنيا كريم سواء ، قلقت : لا وأبى العلا ، لا
أطنت على الورى كرما وفخرا كذلك من حوى هذين طالا
وحزت المجد عن كسب وإراث فيا صدر الورى حزت السكالا
خُصِصت بكل منقبة وفضل تعالى من حباك به ، تعالى
قلت : وقد أكثر الشعراء فى مدحه ، منهم العرقلة ، له من قصيدة :

[يهوى تجنّيه والصدود كما يهوى المعالى محمد بن على] (٤)

جمال دين الإله خير فتى للرزق أقلامه وللأجل

(١) قالا : بتسهيل الهمزة .

(٢) التلعة ما ارتفع من الأرض ، وما هبط منها ، ضد ، والقطعة المرتفعة من الأرض ، والجمع تلعات وتلاع . القاموس المحيط .

(٣) فى ك : جمالا . وهو خطأ نحوى ، والتصحيح من ل ١٠٥ ب ، ومن ق ١٠٣ ب ، ومن تاريخ دولة آل سلجوق .

(٤) هذا البيت من ل ١٠٥ ب ، وهو ساقط من ك .

معطى القرى والقرى لقاصده من غير من ، والجيل ، والحول
مثل فتوح الفاروق نائله شرقا وغربا ، فى السهل والجبل
من قال لم يخو ذا ويسكن ذا أصبح مما يقول فى خجل
محمد خاتم الكرام ، كما سمى كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير^(١) من قصيدة :

كسا الحرمين لبسة عهد شمس وهاشم عرقى نسل الخليل
وللبلد الأمين أجد أمنا تكف مثله جدث الرسول
عشتم يا ولادة الأمر عما أتيج له من الأثر الجليل
وطار لها وأشفقتم فشد الـ يدين على عرى الجد الأثيل
بيوت بالحجاز مقدسات رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان أذالهن^(٢) فصاب صونا لمن آوته من ولد البتول
مأز باقيات يوم يجنى الـ مقال وميجنى طيب المقيـل
وكم للموصل الحداة مما تُنيل يداه من ريف ونيل
برود الصفح ، ملتهب الحواشى مهيب البطش ، قراس الدخول

ولأبى الجحد قسم الحموى^(٣) فيه من قصيدة :

أغر يبهر منه الناس فى رجل والليث فى بشر ، والبدر فى غصن
سما بهمة فى المسكرات إلى علياء تقصر عنها همة الزمن
يلقاك واضح ليل الفكر ، راجح نية ل الكف ، طاهر ذيل السر والعلن
ماضى العزيمة ، ميمون النقية ، رؤ بال الكنية ، عين القائل اللسن

(١) الطرابلسى ، مذهب الدين ، ولد سنة ٤٧٣ ، وتولى ٥٤٧ ، بهوئيل سنة ٥٤٨ . وفیات الأعيان : ١ : ٦١ .

(٢) أذال الشيء : هان وتواضعت حاله . وأذال الشيء : أهانه ولم يحسن القيام عليه . القاموس المحيط .

(٣) دأب الجحد مسلم بن الحضر المعروف بابن قسم الحموى ، تولى سنة ٥٤١ .

إذا تكلم واستملت غُرَّتْه في محفل رُحَّتْ حالي العين والأذن
(١٠٦-ب) كأن في الدست منه حين تنظره شمس النهار وصوب العارض الهتن

قال ابن الأثير: وفي شعبان من هذه السنة، وهي سنة تسع وخمسين وخمسة مائة، توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني. كان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين؛ وظهرت كفايته، فأضاف إليه الرحبة، فأبان عن كفاية وعفة. وكان من خواصه فجعله مشرفاً على مملكته كلها، وحكمه تحميماً لا مزيد عليه، حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكفرتوت^(١) يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى أتاك قبلي ويخرج بعدي. ولم يزل كذلك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولدي الشهيد سيف الدين ثم قطب الدين^(٢). وكان بينه وبين زين الدين على كوجك عهد وموائق على المصافاة والاتفاق؛ وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهام.

وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمناً لكل خائف؛ فسعى به الحساد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدق بها؛ فلم يمكنه أن يغير عليه شيئاً بسبب اتفاقه مع زين الدين. فوضع على زين الدين من غيرهِ من مصافاته ومؤاخاته. فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة الموصل. ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لأن خواص قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسّطوا في الأمر والنهي على خلاف غرض زين الدين. فبقى جمال الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض؛ ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر، كريم الورد والصدّر، عديم النظير، في سعة نفس، لم يُرَوْ في كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروءة.

(١) نسبة إلى كفرتوت، وهي قرية كبيرة من أعمال الجزيرة بين دارا ورأس عين، وهي من دارا على خمسة فراسخ. معجم البلدان ٧: ٢٦٣.

(٢) حكم سيف الدين غازي، ابن عماد الدين زنكي، بين سنتي ٥٤١ و ٥٤٤ هـ في الموصل، ثم خلفه أخوه قطب الدين مودود إلى سنة ٥٦٥ هـ.

قال ابن الأثير^(١) : حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي ؓ وهو رجل من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ، قال : لم يزل الجلال مشغولاً بأمر آخرته مدة حبسه ؛ وكان يقول : كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر . قال : فلما مرض قال لي بعض الأيام : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني ، فقلت في نفسي : قد اختلط الرجل . فلما كان الغد أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم يُر مثله قد سقط ؛ فقلت له : قد جاء الطائر ، فاستبشر ، ثم قال : جاء الحق ؛ وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي ؛ فلما توفي طار ذلك الطائر . قال : فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه .

ودفن بالموصل نحو سنة ؛ وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً : من مات منا قبل صاحبه حملة الحلى إلى المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فدفنه بها في التربة التي عملها ؛ فإن أنا مت فامض إليه وذكّره . فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى ؛ فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ومن (١٠٧ - ١) يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل ، وقدم مدينة تسكون في الطريق ، وينادون في البلاد : الصلاة على فلان . ففعلوا ذلك ؛ فكان يصلي عليه في كل مدينة خلق كثير . فلما كان في الليلة اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ونادى بأعلى صوته :

سَرَى نَعْشُهُ فوق الرقاب ، وطالما سَرَى بِرْهُ فوق الركاب وناثله
يَمِرُّ على الوادي ، فتُثْنَى رماله عليه ، وفي النادي فَرَبَكِي أرامله

فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم^(٢) . ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة

(١) في الأناطية : ٢٢٦ - ٢٢٨ ، وهو اقتباس حرق .

(٢) في مقابل هذا بالهامش ، وكذلك في هامش ق ١٠٤ ب ، ول ١٠٦ ب : « حاشية : قال المؤلف : وجرى نحو هذا للوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن خنابلة ، كان أبوه وزيراً للمقتدر ووزر هو لكافور الإخشيدى بمصر ، ومات بها سنة إحدى وأسمين وثلثمائة ، وحمل منها إلى الحرمين ، فخرجت الأشراف من مكة والمدينة لحجوا به وردوه إلى المدينة في الدار التي كان أعدها لذلك جوار مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مكرماً لأهل العلم وله معروف كبير . ذكرت ما جاء عنه »

وصلوا عليه بالحرم ، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه أيضاً ، ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها ، وبينه وبين قبر النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذراعاً .

قلت : كذا قال ابن الأثير . ولقد رأيت المسكن ولعله أراد الحائط الشرقى من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لا نفس القبر الشريف ، زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه .

ثم قال (١) : كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال ، رحماً بالناس متعطفاً عليهم عادلاً فيهم . فن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالاً عظيمة ، وبني الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة . وزخرف الكعبة بالذهب والفضة ، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتدى لأمر الله (٢) هدية جليلة حتى أذن فيه ، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنته منه . وعمر أيضاً المسجد الذى على جبل عرفات ، وعمل الدرج الذى يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة فى صعودهم . وعمل بعرفات مصانع للماء وأجرى الماء إليها من نغان (٣) فى طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالسكس ، فغرم على ذلك مالا كثيراً .

== فى ذلك فى ترجمته فى تاريخ دمشق ، رحمه الله . (جرى للوزير أبى جعفر ما كان قد جرى للوزير جعفر رحمه الله تعالى) . وبغنى أن الحيس بيس الشاعر لما رأى أمش الوزير جمال الدين وألعد البيتان ارتحل هو بيتين :

سرى أمشه فوق الرقاب ، وإنه لأجدر من يسرى عليها ومن يرقى
فما عنق إلا له فيه منة تلازمه كالطوق فى عنق الورقا

اه . ولعل صحة العبارة الواقعة بين قوسين فى هذه الحاشية : وجرى للوزير جمال الدين ما كان قد جرى للوزير جعفر .

(١) ابن الأثير فى الأناطكة : ٢٢٨-٢٣٣ ؟ وهو اقتباس حرقى .

(٢) الخليفة العباسى بين سلقى ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ .

(٣) نغان الأراك : واد يلبته ويصب إلى ودان ، وهو بين مكة والطائف ، بين أدناه ومكة نصف ليلة ، وفيه وردت الأبيات المعروفة :

ألا أيها الركب النمانون عرجوا علينا فقد أضى هواننا يمايياً
نائلكم : هل سأل نمان بعدنا وحب إلينا بطن نمان وادياً
عهدنا به صيداً كثيراً ومشرباً به نغم القلب الذى كان صادياً
معجم البلدان : ٨ : ٣٠٠ .

وكان يعطى أهل نهمان شكل سنة مالا كثيراً ليتركو الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

قال : ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي عليه السلام^(١) فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب ، وكان أهلها في ضنك وضر معهم . رأيت بالمدينة إنساناً يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعوله ، لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب ، لا يتكون لأحد [منا]^(٢) ما يواريه ويشبع جوعته ، فبنى علينا سوراً احتميناً به ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا ؛ فكيف لاندعوله !

قال (١٠٧ - ب) : وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صنّ نعيم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن علي بن أبي منصور . قال : فلو لم يكن له إلا هذه المسكرة لسكفاه فخراً ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب مشرق الأرض وغربها !

وسمعت^(٣) عن متولى ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء ، سوى الإدارات والتعهدات ، قال : كان [له]^(٤) كل يوم مائة دينار أميرية يتصدق بها على باب داره . قال : ومن أبنيتة العجيبة التي لم ير الناس مثلاً الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر^(٥) بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والسكس ؛ إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه . وبنى أيضاً جسراً على نهر الأرياد عند الجزيرة أيضاً . وبنى الرُّبَط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها ؛ وقصده الناس من أقطار الأرض . ويكفيه أن

(١) في ل ١٠٦ ب ، وكذلك في ق ١٠٥ : صلى الله عليه وسلم .

(٢) ما بين الحاصرين من ل ١٠٧ ، ومى ساقطة من ك ؛ موجودة في ق ١٠٥ .

(٣) السامع هو ابن الأثير ، والاعتباس من نفس المصدر والصفحات .

(٤) فوق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام بتقدير يالوت ؛ يحيط بها دجلة من ثلاث جهات كالهلال ، وحفر في الجهة الرابعة خندق يجري فيه الماء ونصبت عليه رعى . وهذه الجزيرة موطن بني الأثير : مجد الدين المبارك ، وضياء الدين نصر الله ، وعز الدين أبي الحسن على صاحب السكامل في التواريخ . معجم البلدان : ٣ : ١٠٢ - ١٠٣ .

صدر الدين الجخندى^(١) رئيس أصحاب الشافعى ، رضى الله عنه ، بأصبهان ، وابن الكافى قاضى قضاة همدان ، قصده ، فأخرج عليهما مالا جزىلا ، وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية . وصارت الموصل فى أيامه مقصداً وملجأ .

وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال فى الصدقات ، وكان يضيق على نفسه ويديه ليتصدق . حكى لى والدى^(٢) قال : كنت يوماً عنده وقد أحضر بين يديه قنذر ، ليعمل على وبر ليأبسه ، بخمسة دنانير ، فقال : هذا الثمن كثير ، اشتروا لى قنذراً بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير . قال : فراجعناه غير مرة فلم يفعل . قال : وحكى لى من أثق إليه من العدول بالموصل أن الأقوات تمذرت فى بعض السنين بها وغلت الأسعار ، وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملائى ، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا ، وقال له : تخرج هذا على مستحقه ؛ وكلما فرغ أرسل إلى لأنفذ غيره ؛ فلم يمس إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين ، فأنفذ له شيئاً آخر ففنى ؛ ثم أرسل يطلب

(١) فى هامش الأصل وكذلك فى هامش ق، ل ١٠٧ - ١ حاشية: قال المؤلف: لما رجع الجخندى من عنده مدحه بأبيات منها :

جئت إلى بابك فرداً ، وقد رجعت من لعمرك فى قافله
 اه . ثم جاء فى هامش الأصل فقط بعد هذا حاشية أخرى نصها : « ليس فى أصل الشيخ المؤلف - رحمه الله تعالى - الذى نقلت منه هذه النسخة الذى هو بخطه غير هذه الحاشية الصغيرة . وهذه الحاشية التى أذكرها إن شاء الله تعالى وجدتها فى نسخة الشيخ محمد الدين يوسف بن محمد ، وهى منقولة من أصل المؤلف الذى بخطه مقرونة عليه ، وأظن المؤلف سمها عن لائياتها فى نسخة ، وهى : قال العماد فى كتاب الساجدة : لما شهد بوزان ومعه الماسكان محمد بن محمد ، ومالك شاه ابن محمود بن مالك شاه ، يعنى لأخذ السلطنة من عمهما مسعود بن محمد بن مالك شاه ؟ وقرب من أصفهان تالاه صدر الدين الجخندى وفتح له أبوابها فدخل دار ماسكانها وأجاس الماسكين على السرير الألب أرسلانى ، ثم خرج بهما على سميت همدان ، فذكر الحديث فى كسره وقتله ، ثم بعث إلى أصفهان ، يعنى السلطان مسعود ، بالإيقاع عن خرج على السلطان ، فخرج منها ، يعنى الجخندى ، وزحف العوام فأحرقوها ونهبوا دار كتبها . وتشقت بنو الجخندى ، فقصده صدر الدين محمد وأخوه جمال الدين محمود الموصل ، فأوردهما جمال الدين الوزير من لعمركه وإكرامه المنهل السهل ؟ . ومضى جمال الدين إلى الحج ، وأقام صدر الدين وبصر جود الوزير له متلاطم الالج ، ثم انصرف عنه بمأواه الحقائق محبوباً بالمواهب ، فعزل فى جمال الدين الوزير أحياناً من جمعتها :

جئت إلى بابك فرداً ، وقد رجعت من لعمرك فى قافله
 ووصل إلى أصفهان فتولوا أهله على خدمته ، واقتضوا إقامة حرمة ، وعبد أخوه من الحج وسار مع قافلة همدان . . .

(٢) والد ابن الأنير . والاقتراس من نفس المصدر والصفحات .

ما يخرج به ، فقال جمال الدين للرسول : والله ما عندي شيء ، ولست كن أخذوا هذه الحفاير التي في داري فبيعوها وتصدقوا بضمنها إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر . فبيعت الحفاير وتصدقوا بضمنها وعرفوه ذلك ، فلم يكن عنده ما يرسله ، فأعطاه ثيابا التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه ، وأرسل الجميع ، وقال للرسول : قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة . فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدق بضمنها .

وقال : وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر الناساني شيخ الشيخ بالموصل قال : أحضرني الشيخ فقال لي : انطلق إلى مسجد الوزير ، وهو بظاهر الموصل ، واقعد هناك ، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ؛ ففعلت . وإذا قد أقبل جمع من الحمالين يحملون أحمالا من النصاب والحم ، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ (١٠٨ - ١) ومعهما قماش كثير ، وثمانية عشر ألف دينار ، وعدة كثيرة من الجبال . فقال لي تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى مثولها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربي فتوصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربي فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ؛ وهكذا إلى المدينة على ساكنها [أفضل الصلاة و] ^(١) السلام ، توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى . قال : فسرنا كذلك إلى وادي القرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها - أكل صاعين بدينار مصري ، والصاع خمسة عشر رطلا بالبعدادى فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة أصع بدينار . فانتقلت المدينة بالدعاء له . ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا .

قال ^(٢) : وحكى لي والدي قال : رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً فطالب منه شيئا ، وتردد إليه عدة أيام ، ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٠٧ ب : وهو مثبت كذلك في ق ١٠٥ ب .

(٢) القائل ابن الأثير ؟ وهو استمرار للاقتباس السابق .

سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن دور السكاب ، وردد ذلك غير مرة ؛ ثم سأل عنه فقيل إنه سار نحو ماردٍين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردٍين .
قال : ولو رُمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت ، وهى ظاهرة لا تحتاج إلى بيان ، فلماذا تركنا أكثرها .

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار فقال : اجتمعت بحال الدين الموصلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وأنا متوجّه إلى الحج ، وكانت بينى وبينه مودة قديمة وعشرة وموانسة ؛ فعرض علىّ الدخول إلى دارٍ فى الموصل فامتنعت ، ونزلت بخيمتى على الشط ، فكان مدة مقامى كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى^(١) وأتابك^(٢) قد ركب إلى الheidان ، وينفذ إلىّ يقول : اركب فأنا واقف أنتظرك ، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث . فوجدت يوماً منه خلوة من أصحابى ، فقلت له : فى نفسى شىء يتردد من حيث اجتمعنا أشتى أن أقوله لك وما يتفق لى خلوة ، وقد خلونا الساعة . قال : قل : قلت : أقول ما قاله الشريف الرضى :

ما ناصحتك خفايا الود من أحد ما لم يصيبك بمكروه من العذل
مودتى لك تأبى أن تسامحنى بأن أراك على شىء من الزلل

وقد بسطت يدك فى إنفاق المال فى الصدقات ووجوه البر والمعروف ، والسلطين ما يهتملون (١٠٨ - ب) لإخراج المال ، ولا تبصر نفوسهم عليه ، ولو أن الإنسان يخرج من ميراثه ؛ وهذا الذى أهلك البرامكة ؛ فانظر لنفسك كيف الخارج مما قد دخلت فيه . فأطرق ساعة وقال : جزاك الله خيراً ، لكن الأمر قد عبّر عما تخافه . ففارقته وسرت إلى الحجاز ، وعدت من مكة على طريق الشام ، ونسكب جمال الدين ومات فى الحبس .

قلت : ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتانى فى هذا الوزير الجواد لا نكسب :

ما حطّ قدرك من أوج العلا القدر كلا ، ولا غيرت أفعالك الخير

(١) وتسمى أيضاً قرية يونس عليه السلام بالموصل ، وهى غير نينوى من سواد الكوفة والى منها كربلاء حيث استشهد الحسين ، رضى الله عنه . معجم البلدان : ٨ : ٣٦٨ .
(٢) قطب الدين مودود صاحب الموصل عندئذ .

أنت الذي عم أهل الأرض نائله ولم ينل شأوه من سؤدد بشر
سارت صفاتك في الآفاق وانضحت وصدق السمع عنها ما رأى البصر
فاصبر لصرف زمان قد منيت به فأخر الصبر ، يا طود الشهي ، الظفر
فما ترى أحداً في الخلق يسلم من صروف دهر له في أهله غير
سعوا بقصدك سرّاً ، واستتب لم ولو سعوا نحوه جهراً لما قدروا
لولا الأمانى التي تحيا النفوس بها لمت من لوعة في القلب تستعر
ومنها في [ذكر]^(١) الشيخ عمر الملا :

وأصدق الناس في حفظ العهود ، إذا ميزت بالفكر أحوال الورى ، ثمّر
الزاهد ، العابد ، البرّ ، التقى ، ومن يزوره ويقوى أزره الخضر
وقال العزلة يرى جمال الدين الوزير والصلاح بن رزيك :

لا خير في الدنيا ولا أهلها بعد جمال الدين والصلاح
بحران ، لولا دمع باكيهما ما كان ماء البحر بالمالح

قال ابن الأثير : قال والدى : كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام
الشهيدية^(٢) من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها ، والمحافضة فيها ، ما يدل على
تمسكه من الكفاية . فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مؤدود بن أتابك الشهيد ،
وجال الدين وزيره حينئذ ، وقد تمسك زين الدين على بن بكتكين في الدولة تمسكاً
عظيماً ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ؛ فكان جمال الدين مع تمسكه وعلو
محلّه يهمل بعض الأمور ؛ قال : فقلت له يوماً : أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك
في الأيام الشهيدية ؟ ما أرى الآن منها شيئاً ! ! فقال لى : والآن ما عندى كفاية ؟
فقلت : ما هذا العمل من ذلك بشيء . فقال : أنت صبي غرّ . ليست الكفاية عبارة عن
فعل واحد في كل زمان ، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه ذلك

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١١٠٨ ، ومن ق ١٠٦ ب .

(٢) أي أيام الشهيد عماد الدين زكي .

الوقت . كان لنا صاحب متمكن قوى العزم^(١) لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ، ولا يتلَوَّن (١٠٩ - ١) بأقوال أصحابه ، لحفظناه ؛ فكان ما فعله هو الكفاية . وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه ؛ فهذا الذى فعله هو الكفاية .

ثم دخلت سنة ستين وخمسائة :

قال ابن الأثير^(٢) : فيها فتح نور الدين قلعة بانياس^(٣) من الفرنج . وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ؛ فجعل من بقى من الفرنج همهم حفظها وتقويتها . فسار نور الدين مجدداً إلى بانياس لعلمه بقلعة من فيها من الحماة الممانعين عنها ؛ ونازلها ، وضيق عليها وقتلها . وكان فى جملة عسكره أخوه نصرة الدين^(٤) أمير أميران ، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه ؛ فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك عن الأجر الذى أعد لك لتميت أب تذهب الأخرى . وجدته فى حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تكمل عدتهم حتى فتحه الله تعالى . على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم ، فلك القلعة وملأها ذخائر وعدة ، ورجالا عدة .

وعاد نور الدين إلى دمشق وفى يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده فى شعراء بانياس ، وهى كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان . فلما أبعد من المكان الذى ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه فى طلبه ودلهم على مكانه ، وقال أظنه هناك ضاع . فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، وأظنه أحمد بن منير ، من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيئ به هذه الغزاة وعود الفص الياقوت :

إن يمتَرَ الشكَّاءُ فيك ، فإنك الـ مهديّ مطفيّ جرة الدجال

(١) يعنى به عماد الدين زكى .

(٢) فى الأنايب : ٢٣٣ - ٢٣٥ ، وهو اقتباس حرى .

(٣) فى سفح جبل الحرمون .

(٤) يلقب هذا الأمير كذلك بلقب ناصر الدين . انظر : ٢٦٨ من هذا الكتاب فى نص المتن ، وفى الحاشية رقم ٥ كذلك .

فلعودة الجبل الذى أظلمته بالأمس بين غناطل وجبال
مسترجماً لك بالسعادة آية ردت مطال الفال غير مُطال
لم يُعْطَهَا إِلَّا سُلَيْمَانُ ، وقد نلت الرقاء بموشك الإجمال
زجر جرى لسرير ملكك أنه كسريره من كل جذره عال
فلو البحار السبعة استهوينه وأمرتني قذفه في الحال
قلت : هذه الأبيات لابن منير بلا شك ، ولكن في غير هذه الغزاة ، فإن ابن منير
قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين^(١) ، وفتح بانياس كما تراه في نسخة ستين . وقد قرأت
في ديوان ابن منير : وقال يمدحه ، يعنى نور الدين ، ويهنته بالعود من غزاة وضياح فص
ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد شراؤه^(٢) ألف ومائة دينار . وفي نسخة : ووجد أن
خاتماً^(٣) ضاع منه في الصيد قيمته ألف ومائة دينار ، وأنشده إياها بقلمة حمص . فذكر
القصيد أولها :

* يوماك يوم ندى ويوم نزال *

يقول فيها :

أخرست شقشقة الضلال ، وقدته قود الدلول أطاع بعد صيال
ورميت دار المشركين بصيلم ألفت فيها الحرب بعد حيال
وسعرت بين تريبهم وتراهم ذعراً يُشيب نواصي الأطفال
فوق الخطيم ، وقد خطمت زعيمهم ضرباً سوابقه بغير توالى
ضرباً ملأت فرنجة من حره رهبا ، به سيف الصقال صالى
وبنج حارمٍ أحرمت لقراءهم هيم أحلن النوم غير حلال
عجموا على الجسر الحديد^(٤) حديدتها نبعاً يعاذمه^(٥) أدير دُصال

(١) الفار ما تقدم ص : ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) أى قبته وثمنه .

(٣) فى الأصل وكذلك فى ل ١٠٩ : خاتم ، وهو بنفس الوضع فى ق ١٠٧ ، وهو خطأ نحوى
أظنه من الأساخ .

(٤) فى ل ١٠٩ ، وكذلك فى ق ١٠٧ ب : عجموا على جسر الحديد .

(٥) عزم يعزم : عض أو أكل بجفاء ، وفسر عزم : عضوض .

زلزلت أرضهم بوقع صواعق أعطينا أمنا من الزلزال
 في مازق شمرت ذيلك تحته والنصر فوقك مسهل الأذيال
 في دولة غراء محمودية سحبت رداء الحمد غير مزال
 تنسى الفتوح بها الفتوح، وتجتفى زهر المقال بيساهر الأفعال
 لبست بنور الدين نور حدائق ثمراتهن غرائب الأفضال
 ملك تحجب في السرير بزارة زرت حواشيها على رثبال
 تنجأ عن ذي لبدتين شذاته في بردى بدل من الأبدال
 رفع الرواق بروق أنطاكية فرمى الخليج بمرهق البلبال
 بدر لأربع عشرة اقتبس السنا من خمس عشرة سورة الأنفال
 فوز المسأل أخاضه ماء الطلى وسواه يُقعده احتياز المال
 متقسم بين القسيمين العلا عن عمّ عمّ أو مخايل خال
 لازلت تطلع من ثنايا جحفل يقفوا لواءك كاللوى المنهال
 لك أن تطل على الكواكب راقياً ولحاسديك بكاً على الأطلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياغ ما بلغني
 أن موسى الهادي^(١) لما ولى الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لأبيه المهدي ، فبلغه
 أن أخاه الرشيد أخذه ، فطلبه منه فامتنع ، فألح عليه ، فحنق الرشيد ومر على جسر بغداد
 فرماه في دجلة . فلما مات الهادي وولى الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم
 من رصاص فرماه ثمّ ، وأمر الغطاسين أن يلتمسوه ، ففعلوا ، فاستخرجوا الخاتم الأول ،
 فعُد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه .

قال ابن الأثير^(٢) : ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين

(١) الخليفة العباسي ، وخلافته بين سنتي ١٦٩ - ١٧٠ هـ .

(٢) الأناطية : ٢٣٥ ؛ وهو اقتباس حرى ، والواقع أنه استمرار الاقتباس السابق في موضوع
 فتح بانياس ، قطعاً أبو شامة بمحاولة لتحقيق تاريخ قصيدة ابن منير ومناسبتها ، بعد أن أخطأ ابن الأثير
 فيها ، وبما اقتبس من بقية القصيدة زيادة عما جاء في الأناطية .

أنَّ الذي سلم بأناس إلى الإفرنج قائماً على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : لئلا ينس هذا الفتح فرحة واحدة ، ولك فرحتان ، فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى اليوم يرد جلدته والدك من جهنم . وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق ولما نزل الفرنج عليها^(٢) .

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني ، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن^(٣) . وكان عالماً ديناً مدبراً حنبلي المذهب ؛ وزيراً للمقتدى^(٤) ثم للمستنجد^(٥) بعده ، وله عدة مصنفات ، منها : الإفصاح في شرح الأحاديث الصحاح . وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب (١١٠هـ) الأربعة والنحاة وغيرهم ، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة . ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد الثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة . ورثت له منامات حسنة ، ومدحه جماعة من الفضلاء . ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دُجَيْل^(٦) تعرف بالدُّور^(٧) ، وهو الذي محارم رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلام عن خطتها بحسن تدبيره . ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ، فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام ، وأولى الأمور ستر العيوب .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة :

ففيها توفي فتوح الدين بن أسد الدين شيركوه ، أخو ناصر الدين ؛ وقبره بالمقبرة النجمية

-
- (١) أتابك دمشق أيام صاحبها مجير الدين آق بن محمد بن يورى ، تولى سنة ٥٤٤ هـ ، انظر ما تقدم في هذا الكتاب : ١٦٣ - ١٦٧ هـ ، وكذلك ذيل تاريخ دمشق لابن القلاسي : ٢٦٤ - ٣٠٦ هـ .
(٢) وذلك سنة ٥٤٢ هـ . انظر ما تقدم في هذا الكتاب : ١٢٧ - ١٣٨ هـ .
(٣) سبق شيء من التعريف به . انظر هذا الكتاب : ٢٢٣ حاشية : ١ .
(٤) الخليفة العباسي ، تولى الخلافة بين سنتي ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ .
(٥) وخلافته من سنة ٥٥٥ هـ إلى سنة ٥٦٦ هـ .
(٦) اسم نهر في موضعين ، أحدهما مخرجه شمالى بغداد بينها وبين تكريت ، وهو المقصود هنا ؛ والآخر نهر بالأهواز . معجم البلدان : ٤ : ٤١ - ٤٢ هـ .
(٧) اسم لسبعة مواضع بأرض العراق من نواحي بغداد ، والمقصود منها هنا تلك القرية التي تقسم في عمل دجيل ، وتعرف باسم دور بنى أولر ، أو دور الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، نفس المصدر : ٩٧ - ٩٨ هـ .

إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربعة قبور ، هما الأوسطان منها .
وفي هذين الأخوين ، ناصر الدين وفتح الدين ، يقول العرقلة حسان^(١) :

لله شبلا أسد خادر ما فيهما جبن ولا شج
ما أقبلا إلا وقال الورى قد « جاء نصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ »

وفيها^(٢) سار نور الدين أيضاً إلى حصن المنيطرة^(٣) ، وهو للفرنج ، ولم يحشد له
ولا جمع عساكره ، إنما سار إليه على غرة من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا
وجمعوا ؛ فانتهاز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها ، وجَدَّ في قتالها ، وأخذها عنوة وقهراً ،
وقتل من بها ، وسبى ، وغنم غنيمة [كثيرة]^(٤) لِأَمْنٍ مَنْ به ، فأخذتهم خيل الله بغتة
وهم لا يشعرون ؛ ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا للدفعه إلا وقد ملكه . ولو علموا أنه جرد
جريدة^(٥) لأسرعوا ، وإنما ظنوا أن نور الدين في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

هذا قول ابن الأثير . وذكر القاضي ابن شداد^(٦) أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين
كما سيأتى ، والله أعلم .

وفيها توفي الجليل بن الحباب بمصر . قال العماد في الجريدة^(٧) : القاضي الجليل
أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى ، جليل صاحب
مصر^(٨) ، ففضله مشهور ، وشعره مأثور . وكان أوحده عصره في مصر نظماً ونثراً ،

(١) انظر خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٩٤ .

(٢) اقتباس حرى من الأتابكة لابن الأثير : ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٣) وصف ياقوت هذه البلدة بأنها حصن بالشام قريب من طرابلس . معجم البلدان : ٨ : ١٨٦ .

(٤) ما بين الحامرتين من ل ١٠٩ ب .

(٥) الجريدة : الفرقة من العساكر الخيالة لا راجل فيها ، وخرج الجند جريدة أى مسرعين . من غير

أنقال . لسان العرب ؛ انظر كذلك : Dozy, Supp. Dict. Ar. .

(٦) في النوادر السلطانية : ٣٠ - ٣١ .

(٧) خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء مصر : ١ : ١٨٩ .

(٨) الخليفة الفائز الفاطمى (٥٤٩ - ٥٥٥) ؛ نفس المصدر ، وقد تولى الجليل ديوان الإنشاء

في مصر ، مع الموفق بن الخلال ، في عهد الوزير طلائع بن رزبك ؛ انظر فوات الوفيات : ١ : ٢٨٨ ؛
النجوم الزاهرة : ٥ : ١٩٢ ، ٣٧١ .

[و] ترسلوا وشعروا ؛ ومات بها في سنة إحدى وسبعين ، وقد أناف على السبعين . أنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال^(١) من قصيدة يقول فيها^(٢) :

ومن عجب أن السيوف لديهم تحيض دماء ، والسيوف ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج ناراً ، والأكف بحور
قال^(٣) : وأنشدني له الشريف إدريس الإدريسي قصيدة سيرها إلى الصالح بن رزيك
قبل وزارته ، يحرضه على إدراك (١١٠ - ب) ثار الظافر^(٤) ، وكان عباس^(٥) وزيرهم
قتله وقتل أخويه يوسف وجبريل ، يقول فيها :

أصادفهم قولا وغيباً ومشهداً نَحْوهم على عهدٍ بفعل أعادى^(٦)
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم وما لهم من منعة وزياد
(تدارك من الإيمان قبل دُورِهِ) حشاشة نفس آذنت بنفاد^(٧)
فلو عاينت عينك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فرق جموع المارقين ، فإنها بقايا زروع آذنت بمحصاد
وله فيه من أخرى في هذه الحادثة :

ولما ترمى البربري بجمله إلى فتكة ما رامها قط رائم

(١) من رجال الدولة الفاطمية ، ثم الأيوبية . تولى بعض إمارات الصعيد أيام الخليفة الحافظ الفاطمي ، وتولى الوزارة بعد طرد الوزير ابن السلار أوائل عهد الخليفة الظافر ، ولكنه لم يلبث أن فر أمام تقدم جيوش ابن السلار ، ولم يكن قد أقام في الوزارة أكثر من خمسين يوماً ، وهرب إلى الصعيد حيث تبعته جيوش ابن السلار ، وأُتت برأسه . وفيات الأعيان : ١ : ٤٦٨ ؛ الفاطميون في مصر : ٢٩٢ - ٢٩٦ .

(٢) الخريدة - قسم شعراء مصر : ١ : ١٩٠ .

(٣) نفس المصدر : ١٩٠ . (٤) الخليفة الفاطمي بين سنتي ٥٤٤ - ٥٤٩ . (٥) أبو الفضل عباس بن أبي الفتح ؛ تزوجت أمه ابن السلار وأقامت معه رداً من الزمن ، وتزوج عباس وأنجب ولداً سماه نصراً . وقد أرسل ابن السلار ، أيام وزارته ، عباساً إلى الشام لحرب الصليبيين ، فتآمر قرب بلبيس على قتل ابن السلار ، وحضر ابنه نصر المؤامرة وتولى تنفيذها . وولى عباس بعد ذلك وزارة الفاطميين . الفاطميون في مصر : ٢٩٦ وما بعدها .

(٦) هذا البيت ساقط من الخريدة : ١ : ١٩٠ .

(٧) غير موجود في ل ١١٠ ، وهو ساقط من ق كذلك ؛ ويحيى في الخريدة بعد البيت التالي له هنا . الخريدة : ١ : ١٩٠ .

(٣ الروضتين)

رُكبت إليه متن عزمتك التي
أعدت إليهم ملكهم بعد مالوى
وأفد إليه فى المعنى^(٢) :

وأعدت إلى جسم الوزارة روحها
أقامت زماناً عند غيرك طامناً
من العدل أن يحيا بها مستحشاً
إذا ملك الحسنة من ليس كمنها^(١)

وله يشكو طيناً^(٥) :

وأصل بللى من قد غزاني
طبيب طيبه كغراب بين
أنى الحمى وقد شاخت وباحت
ودبرها بتدبير لطيف
وكانت نوبة فى كل يوم
فصيرها بحذق نوبتين

قلت : الأبيات الرائية تمثل بها الجليس ، وهى لُصرد ، وقرأتها فى ديوانه ؛
وهى من قصيدة مدح بها وزير الخليفة بينهناد لخر الدولة أبا نصر محمد بن جهر ويهنيه بعوده
إلى الوزارة ؛ وأول القصيدة^(٦) :

لجاجة قلب ما يفوق غرورها وحاجة نفس ليس يقضى يسيرها

(١) فى الحريدة حق الأمانة ، وبين هذا البيت والذى قبله أبيات أربعة وردت فى الحريدة ، ولم
يقبضها أبو شامة ، الحريدة : ١ : ١٩٠ .

(٢) نفس المصدر : ١ : ١٩٣ .

(٣) فى الحريدة : * وهذا أوان نرثها وطهورها *

(٤) فى الحريدة : أهلها .

(٥) يسميه العماد فى الحريدة ابن السديد ، ويعلق محققها بأنه كان طبيب الفاملين وعاش بدم طويلا
حتى توفى سنة ٥٩٢ هـ ، وقد وردت الأبيات فى الحريدة : ١ : ١٩٢ - ١٩٣ .

(٦) فى ل ، وكذلك فى نسخة ق ٩٠٨ ب : وأولها .

(وهي طويلة يقول فيها متغزلاً) (١) :

وقفنا صفوفاً في الديار ، كأنها
يقول خليلي ، والظباء سوانح :
وقد قلتما لئى ليس في الأرض جنة
أراك الحى ، قل لى بأى وسيلة
صحائف ملقاة ونحن سطورها
أهذى التى تهوى ؟ فقلت : نظيرها
أما هذه فوق الركائب حورها ؟
وصلت إلى أن صادفتك ثغورها !

ويقول في مديحها :

وما لى بها علم ، فهل أنت عالم
على رسلكم في الهجر ، إنا عصابة
فقل لليالى : كيف شئت تقبلى
أمانى في نفس الوزارة بُلغت
لوت وجهها عن كل طالب متعة
إذا مثل الأقوام دون عرينه
تكاد لما قد ألبست من سكينه
أفصاها أولى بها أم نحورها
إذا ظفرت في الحب عف ضميرها
ففى يد عبل الساعدين أمورها
به كنهها حتى استحققت نذورها
إلى خاطب حل عليه سفورها
تساوى به ذو طيشها ووقورها
ترف على تلك الررس طيورها

(١١١ - ١) ثم دخلت سنة اثنتين وستين [وشمسانه] (٢) :

ففيها (٣) عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخرة ! وقد كان بعد رجوعه من مصر
لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصاً على الدخول إليها ، يتحدث به مع بكل
من يثق إليه . وكان مما يهيج به على العود زيادة حقه على شاور وما عمل معه . فلما كان
هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين
يوسف بن أيوب . وفي ذلك يقول العرقلة (٤) :

(١) ساقطة من ل ١١٠ ب ؟ وكذلك من ق ١١٠٩ .

(٢) من ل ١١٠ ب .

(٣) اقتباس حرى . أول من الأتابكة : ٢٣٦ - ٢٤١ .

(٤) هذه الأبيات ظهر موجودة في الأتابكة .

أقول والأترك قد أزمعت مصر إلى حرب الأعارب :
رب ، كما ملكتها يوسف الص (م) - سديق من أولاد يعقوب
يملكها في مصرنا يوسف الص (م) - سادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هامر العدا حقاً وضراب العزايب

ثم إن أسد الدين جد في السير على البر ، وترك بلاد الإفرنج عن يمينه ، فوصل إلى
الديار المصرية وقصد إطفيح^(١) ، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجزيرة^(٢)
مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ؛
فأتوه على الصعب والدلول ، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة
يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر الثوري على الإسراع في المسير ؛ فالجاء يقودهم
والخوف يسوقهم . فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ؛ وكان أسد الدين
والعسكر الثوري قد ساروا إلى الصعيد فبلغوا مكاناً يعرف بالباين ، وسارت العساكر
المصرية ، والفرنج وراءهم ، فأدركهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى .

وكان [شيركوه]^(٣) قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم ،
وجدهم في طلبه ؛ فعمز على قتالهم ولقائهم ، وأن تحسب السيوف بينه وبينهم .

إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي
عطيهم فيه أقرب من السلامة ، لقلّة عددهم وبعدهم عن بلادهم ؛ فاستشارهم ، فكلهم أشار
عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرق والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهمزنا ، وهو
الذي لا شك فيه ، فإلى أين نلتجئ ؟ ومن نحتسئ ، وكل من في هذه الديار من جندي
وعامى وفلاح عدو لنا ، ويؤدون لو شربوا دماءنا ؛ وحق لعسكر عدتهم ألفا فارس قد

(١) قرية من قرى الجيزة ، وهي الآن بمركز الصف . انظر المخطط التوفيقية : ٨ : ٧٧ - ٧٨ .

(٢) ويسمىها ياقوت جزيرة مصر ، ويسمونها بأنها من حال الفسطاط ، وكانت من مقاربات مصر ،
والشعراء فيها أقوال كثيرة . معجم البلدان : ٣ : ١٠٤ .
(٣) أضيف ما بين الحاصلتين للتوضيح .

بُعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك الثورية يقال له شرف الدين بزغش ، وكان من الشجاعة بالمسكن المشهور ، وقال : من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته ؛ والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تُعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودن (١١١ ب) عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أناخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار ؟ قال أسد الدين : هذا رأيي وبه أعمل ، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم كثر الموافقون لهم على القتال ، فاجتمعت الكلمة على اللقاء . فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ، وقد جعل الانتقال في القلب يتسكن بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فبينها أهل البلاد .

ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب ، وقال له ولئن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون بجزائهم بإزائه وحملتهم عليه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ؛ فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجمان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة . فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً ، ثم انهزموا بين أيديهم ، فتبعوهم . فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزمهم ، ووضع السيف فيهم فاتحن ، وأكثر القتل والأسر ، وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقماً ليس بها منهم ديار ، فانهزموا أيضاً . وكان هذا من أعجب ما يؤرخ : أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل (١) .

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال ، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها من غير قتال : سلمها إليه أهلها ؛ فاستناب بها

(١) يرد هذا في الأتابكة ، الذي نقل عنه أبو شامة ، في فصل جديد بعنوان مبتقل ..

صلاح الدين ابن أخيه ، وعاد إلى الصعيد وتملكه ، وجبى أمواله ، وأقام بها حتى صام رمضان .

وأما المصريون والفرنجة فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا ، وحشدوا ، وساروا إلى الإسكندرية ، وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم ، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج ، فاشتد الحصار وقتل الطعام بالبلد ، فصبر أهله على ذلك . ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم ، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركان ، ووصله رسل^(١) المصريين والفرنجة يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ؛ فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ، ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين . فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ؛ وعاد إلى الشام ، فوصل دمشق ثامن عشر ذى القعدة ؛ وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوال .

وأما (١١٢ - ١) الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة^(٢) ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليقنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار . وهذا كله يجري بين الفرنج وشاور ؛ وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء ، ولا يعلم بشيء من ذلك : قد حكم عليه شاور وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارثي ، وهو من أكابر أمراء الملك العادل ، وهو خال صلاح الدين يوسف ، بنهى محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجمع السكامة بمصر على طاعته ، ويجمع كلمة الإسلام ، وبذل مالا يجعله كل سنة . فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً . فبقى

(١) في ل ١١١ ب : رسول .

(٢) في الأصل ما يقام للدواب من العلف الذي يكفيها يوماً وليلتها . وشحنة البلد من فيه الكفاية لضبطها من قوات الأمن . والشحنكية رئاسة الشرطة . انظر القاموس المحيط ؛ وكذلك :
Dozy : Suppl. Dict. Ar.

الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سنة أربع وستين .

قال القاضي أبو الحسن [يوسف بن شداد] (١) : ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية ، وهي المعروفة بوقعة البابين : لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاوراً ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد ، وأنه لا بد له من قصدِها . فكتب الفرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً ، ويعينونه على استئصال أعدائه ، بحيث يستقر قدمه فيها . وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين ، فاشتد خوفهما على مصر أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها . فتجهز أسد الدين ، وأنفذ نور الدين معه العسكر ، وأزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهة منه لذلك ، وذلك في أثناء ربيع الأول . وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الفرنج إليها . واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين ، والمصريون بأسرهم (٢) ، وجرى بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة ، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين .

وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين ، قدس الله روحه ، جرد العساكر إلى بلاد الإفرنج وأخذ المنيطرة ؛ وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم وعادوا . وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواجهة الفرنج والمصريين ، وما عانوه من الشدائد وعائنه من الأهوال . وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر ، وعاد إلى الشام في بقية السنة ، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج ، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها . فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يحره إلى شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح ، والفقرة الواردة هنا اقتباس حرفي من ابن شداد : النوادر الساطانية : ٢٩ - ٣٠ .

(٢) يعني والمصريون بأسرهم متفقون مع شاور والفرنج على أسد الدين .

قال^(١) : وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب ، وخرّب قلعة (١١٢ - ب) أكاف بالبرية .
وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين بحمة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخر بواهنونين^(٢) في شوال منها .
وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر .
وفيها مات قرا أرسلان^(٣) بديار بكر .

فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم دمشق عماد الدين السكّان أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني ، مصنف كتابي الفتح والبرق ؛ فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري^(٤) بالمدرسة النورية الشافعية^(٥) عند حمام القصير بباب الفرج ، المنسوبة الآن إلى العماد . وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه الله تعالى ولاها إياه^(٦) في رجب سنة سبع وستين بعد الشيخ الفقيه بن عبد [الحارثي]^(٧) .

-
- (١) في النوادر السلطانية : ٣٠ - ٣١ ، وهو اقتباس حرفي .
(٢) بلد في جبال عمالة معطلى على نواحي مصر . معجم البلدان : ٨ : ٤٨٦ ، ويدكر الأستاذ جب « Gibb » أنها تقسم عند التقاء الطريق القادم من صفد بالمارق الموصلة من تيزين إلى بانياس . انظر : *The Damascus Chronicle of the Crusades, P. 334*
(٣) نور الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود ، صاحب ديار بكر ، تولى بين سنتي ٥٣٩ هـ ، ٥٦٣ هـ . انظر مفرج السكروب : ١ : ١٥٣ في المتن وفي الحاشية : ٣ .
(٤) أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله الفقيه الشافعي . تولى قضاء الموصل أيام زاسكي ، وقدم دمشق سنة ٥٥٠ هـ ، وتولى قضاءها سنة ٥٥٥ هـ ، وتولى سنة ٥٧٢ هـ . مطبقات الشافعية السكّرية .
(٥) وهي التي عرفت فيما بعد باسم العمادية أيضاً ، داخل باب الفرج . انظر الدارس : ١ : ٤٠٦ وما بعدها .
(٦) في ل ١١٢ ب : ولاه إياه ، وكلاما بمعنى .
(٧) ما بين الحاصرين من الدارس : ١ : ٤٠٧ ، وهو ساقط من ك ، ل ، ق وكذلك من بعض نسخ الدارس . وهو الفقيه أبو البركات الخضر بن شبل بن عبد الحارثي الدمشقي خطيب دمشق ، وقد تولى سنة اثنتين وستين وخمسمائة . انظر الدارس : ١ : ٤٠٧ . وفي مكان آخر من الدارس : الفقيه ابن عبد الواحد ، أو ابن عبد الله : انظر الدارس : ١ : ١٨٣ حاشية : ١ .

وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ابني شاذى من تسكريت ، بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه^(١) بقاعة تسكريت^(٢) ، ونجم الدين أيوب إذ ذاك واليها ، فانتسجت المودة بينهم من هناك . فلما سمع نجم الدين بوصوله ، بكر إلى منزله لتبجيله ، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر ، فدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أولها^(٣) :

يَوْمُ الذُّيْ لَيْسَ مِنْ عَمْرِى بِمَحْسُوبٍ	وَلَا الْفِرَاقُ إِلَى عَيْشَى بِمَحْسُوبٍ
مَا اخْتَرْتُ بَعْدَكَ ، لَكِنِ الزَّمَانُ أَتَى	كَرَّهَا بِمَا لَيْسَ ، يَا مَحْبُوبُ ، بِمَحْبُوبٍ
أَرْجُو إِيَّائِي إِلَيْكُمْ ظَافِرًا عَجَلًا	فَقَدْ ظَفِرْتُ بِنَجْمِ الدِّينِ أَيُوبَ
مَوْفِقِ الرَّأْيِ ، مَاضِي الْعِزْمِ ، مَرْتَفِعِ	عَلَى الْأَعَاجِمِ مَجْدًا وَالْأَعَارِبِ
أَحْبَبَكَ اللَّهُ إِذْ لَازِمْتَ نَجْدَتَهُ	عَلَى جَبِينِ بَتَاجِ الْمَلِكِ مَعْصُوبٍ ^(٤)
أَخُوكَ وَابْنَكَ ، صَدَقًا مِنْهُمَا ، اعْتَصَمَا	بِاللَّهِ ، وَالنَّصْرَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْذُوبٍ
هَما هَما مَانِ فِي يَوْمِي وَغَى وَفَرَى	تَعَوَّدَا ضَرْبَ هَامٍ أَوْ عِرَاقِيبٍ
غَدَاً يَشْبَانُ فِي الْكُفَّارِ نَارَ وَغَى	بِلَفْحِهَا يَصْبِحُ الشَّبَانُ كَالشَّيْبِ
بِمَلِكٍ مِصْرَ وَنَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ غَدَاً	تَحْطِي النُّفُوسُ بِتَأْنِسٍ وَتَطْيِيبِ
وَيَسْتَقِرُّ بِمِصْرِ يَوْسُفَ ، وَبِهِ	تَقَرُّ بَعْدَ التَّنَائِي عَيْنٌ يَعْطُوبِ
وَيَلْتَقَى يَوْسُفُ فِيهَا بِإِخْوَتِهِ	وَاللَّهُ يَجْمَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ تَشْرِيبِ

وكان إنشاده هذه القصيدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسة ، وتم ملكهم مصر بعد سنتين [قال]^(٥) فنظمت ما في الغيب تقديره .

(١) السلطان الساجق في العراق : تولى السلطنة سنة ٥١١ هـ ، وتوفي سنة ٥٢٥ هـ . انظر تاريخ دولة آل ساجق : ١٠٩ ، وما بعدها ، وكذلك : *Muhammadan Dynasties, Pt 154* .
(٢) راجع الظروف التي جرت فيها هذه الحوادث في تاريخ دولة آل ساجق : ١٥٢ - ١٥٤ .
(٣) في ك : منها أولها .
(٤) ما هنا من ل ١١٢ ب ، وهو كذلك في ق ١١١ ا . وفي الأصل : محبوب وفوقها : معصوب .
(٥) ما بين الحاصرين من ل ١١٢ ب ، وهي ساقطة من ك ووجودها ضروري ، لأن العماد هو القائل لا أبو شامة .

قال : وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرَّمْل في النصف من ربيع الأول ، ووصل في سادس ربيع الآخر إلى إطفيح وعبر منها إلى الجانب الغربي ، وأناخ بالجيزة محاذة مصر ، فأقام عليها نيفاً وخمسين يوماً . واستعان شاور بالفرنج ورتبوا لهم سوقاً بالقاهرة ، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب ؛ وعلم أسد الدين فساد أمامهم ، فالتقوا (١١٣ - ١) بموضع يعرف بالبا بين ، فكسروهم أسد الدين وأصحابه ، وقتلوا من الفرنج ومن تبعهم من المصريين ألوفاً ، وحصل منهم في الأسار سبعون فارساً من بارونيتهم . فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الإسكندرية ، فوجدوا مساعدة من أهلها فدخلوها . ثم قال أسد الدين : أنا لا يمكنني أن أحصر نفسي ؛ فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد فاستولى عليها ، وجبى خراجها . وأقام صلاح الدين بالإسكندرية فساد إليه شاور والفرنج ، فحاصروه أربعة أشهر ، وصدق أهل الإسكندرية القتال مع صلاح الدين ، وقوى أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص . فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار . وكان شاور قد استمال جماعة من التركان الذين مع أسد الدين بالذهب ، فلما راسلوه^(١) في المهادنة أجاب ، وطلب منهم عوض ماغرمه ؛ فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الإسكندرية في النصف من شوال ، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة ، وعادوا إلى الخدمة النورية . فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشد هذه القصيدة :

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر	ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدى للذى أنت اهتديت له	ومن له مثل ما أثرته أثرا
أسرت أم يسراك الأرض قد طويت	فأنت إسكندر في السير أم خضر
أوردت خيالا بأقصى النيل صادرة	عن الفرات يقاضى وردها الصدر
تناقلت ذكرك الدنيا ، فليس لها	إلا حديثك ما بين الوري سمر
فأنت من زانت الأيام سيرته	وزاد فوق الذي جاءت به السير
لوفي زمان رسول الله كنت ، أتت	في هذه السيرة المحمودة السور

(١) أي راسلوا شيركوه .

أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً
 إسكندر ذكروا أخبار حكمته
 ورستم خبرونا عن شجاعته
 إفخر^(١)؛ فإن ملوك الأرض أذهلهم
 سميت إذرقدوا، بل هجت إذ^(٢) سكنوا
 يستعظمون الذى أدركته عجياً
 قضى القضاء بما نرجوه عن كشب
 شكت خيولك إدمان السرى، وشكت
 يسرت فتح بلاد كان أيسرها
 قرنت بالحزم منك العزم، فانسقت
 ومن يكون بنور الدين مهتدياً
 يرى برأيك مافى الملك يبرمه
 لقد بغت فئة الإفرنج فانتصفت
 (١١٣-ب) غرست فى أرض مصر من جسومهم
 وسال بحر نجيع فى مقام وغى
 أنهرت منهم دماء بالصعيد، جرى
 رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا
 تحت الصوارم هائم المشركين، كما
 أفنت سيوفك من لافى، فإن تركت
 لم ينبج إلا الذى عافته من خبث
 والساكنون القصور القاهرية قد
 وشاور شاوروه فى مكائدهم
 كانوا من الرعب موتى فى جلودهم

فقل لنا : أعلّ أنت أم عمر
 ونحن فيك رأينا كل ماذكروا
 وصار فيك عياناً ذلكم الخبر
 ما قد فعلت ، فكل فيك مفكر
 وصلت إذ جبنوا ، بل طلت إذ فُصروا
 وذلك فى جنب ما نرجوه محقر
 حتما ، ووافقك التوفيق والقدر
 من قلها البيض ، بل من حطّمها السمر
 لغير رأيك قفلاً فتجعه عسر
 مآرب لك عنها أسفر السفر
 فى أمره ، كيف لا يقوى له بالمر
 فأنت منه بحيث السمع والبصر
 منها ، بإقدامك ، الهنديّة البتر
 أشجار خط لها من هاهم ثم
 به الحديد غمام ، والدم المطر
 منها إلى النيل فى واديهم نهر
 نصرأ فما عبروا حتى قد اعتبروا
 تحت الصوالج يوماً خفت الأكر
 قوماً فهم نفر من قبلها نفروا
 وحش الغلا ، وهو للمحذور منتظر
 نادى القصور عليهم أنهم قهروا
 فكاده الكيد لما خانه الحذر
 وحين أمتهم من خوفهم نُشروا

(١) بقطع الهزة ، ليستقيم الوزن .

(٢) لى ك : إن ، والتبت هنا ل ١١٣ ، وهو كذلك فى ق ١١١ ب .

وإنَّ من شيركوة الشرك منخزل^١ والكفر منخزل ، والدين منتصر
 عول على فتية عند اللقاء وقت وعدَّ عن تركان قبله غدروا
 وكيف يُخذل جيش أنت مالكة والقائدان له التأيد والظفر
 أجاب فيك إله الخلق دعوة من يطيب بالليل من أنفاسه السحر
 وقال العماد : واتصت بي وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودة ، تمت لي بها
 على الزمان عدة ؛ ولم يزل يستهديني نظمي ونثري ، ويشعرنى أنه يميل إلى شعري . فأول
 ما خدمته به هذه الكلمة :

كيف قلتم بمقلتيه فتور وأراها بلا فتور تجرور
 ومنها :

مستجير جوري ، وإني منه وابن أيوب يوسف مستجير
 فضله في يد الزمان سوار مثلها رأيه على الملك سور
 كرم سابع ، وجود عميم وندى سائح ، وفضل غزير
 أنت من لم يزل يحن إليه ، وهو في المهد ، سرجه والسيرير
 من دم الغادرين غادرت بالأم س صعيد الصعيد وهو غدير
 ولكل مما تطاولت فيهم أمل قاصر وعمر قصير
 لاذ بالنيل شاور مثل فرعو ن ، فذل اللأجي وعز العبور
 شارك المشركين بغيا ، وقديما شاركتها قريظة والنضير
 والذي يدعى الإمامة بالقا هرة ارتاع أنه مقهور
 وغدا الملك خائفا من سطاكم ذا ارتعاد كأنه مقررور
 وبنو الهنفر^(١) هانوا ففروا ومن الأسد كل كلب فرور
 إنما كان للكلاب عواء حيث ما كان للأسود زئير

(١) وردت في الأصل : 'الهنفري' ، وأمامها في الهامش كلمة : غريب . وفي ل ١١٣ ب وردت :
 الهنفرى ، وهي أولى لتناسب الحديث في البيت السابق لها عن الملك إذ المقصود به ملك بيت المقدس .
 وفي ١١٢ أ : وبنو الهنفرى . وهو أغرب !

وقلب عند الفرار سليم فهو بالرعب مطلق مأسور
 لم يبقوا سوى الأصغر للسبى فودوا أن الكبير صغير^(١)
 وحيت الإسكندرية عنهم ورحى حر بهم عليهم تدور^(٢)
 حاصروها وما الذى بان من ذب^(٣) (م) لك عنها وحفظها محصور
 كحصار الأحزاب طيبة قدماً ونبي الهدى بها منصور
 فاشكر الله حين أولاك نصراً فهو نعم المولى ونعم النصير
 (١١٤-١) ولكم أرجف الأعداء، فقلنا ما لنا تذكرونه تأثير
 ورقبنا كالعيد عودك فاليو م به للأنام عيد كبير
 عاد من مصر يوسف وإلى يه قوب بالتهنئات جاء البشر
 فلايوب من إياب صلاح الد^(٣) (م) ين يوم به توفى النذور
 ولكم عودة إلى مصر بالنصـر على ذكرها تمر العصور
 فاستردوا حق الإمامة ممن خان فيها فإنه مستعير
 وافترعها بكراً، لها [فى مدى]^(٣) الدهـر ر رواح فى مدحك وبكور
 أنا سيرت طالع العزم منى وإلى قصـدك انتهى التسيير
 وأرى خاطرى لمدحك ألفاً إنما يآلف الخطير الخطير
 وهى التى قبلها طولتان جداً . فانتظمت معرفة العباد بصلاح الدين وكان له مساعداً
 عند نور الدين .

(١) ورد هذا البيت ناقصاً مضطرباً فى ل ١١٣ ب :
 لم يبقوا الأصغر للسبى فودوا لو أن الكبير صغير
 وهو غير مستقيم وزناً أو معنى . وفى ق ١١٢ :
 لم يبقوا سوى الأصغر للسبى فودوا لو أن الكبير صغير
 (٢) فى ل ١١٣ ب :
 * ورحى من بهم عليهم تدور *
 وهو كذلك فى ١١٢ .
 (٣) ما بين الحاصرين مضاف ليكنتمل المعنى ويستقيم الوزن ، وهو غير موجود فى الأصل ، ساقط
 كذلك من نسخة ل ، ونسخة ق .

وقرأت في ديوان العرقلة : وقال يمدح أسد الدين شيركوه ، وقد أخذ الشقيف ورحل طالباً حصناً يقال له الفراق :

رحلت من الشقيف إلى الفراق بعزم كالمهتدة الرقاق
ونكست الأعادي منه قهراً ومجهدك في ذرا الجوزاء باقى
بجأشك لا بجيشك نلت هذا وبالتوفيق لا بالإتفاق^(١)
فداؤك من مضى بالحصن قبلى إلى دار الخلود من الرفاق
وما نخشى على الإسلام بؤساً إذا هلك الجميع وأنت باقى
أشاوركم تُشاور كل خب وتنفق عند مثلك بالنفاق
أصبر إن أتتك بحار خيل وقدما ما صبرت على السواقى
متى رفعت لك السودان رأساً وقد خلاهم مثل الزقاق
وعيشك ماله من مصر بد ومن عندي ثلاثاً بالطلاق
هو الأسد الذى ما زال حتى بنى مجدداً على السيع الطباق

فصل

قال ابن الأثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بمساركه ؛ فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة ، فاجتمعوا بنور الدين على حمص . فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج واجتاز على حصن الأكراد ، فأغاروا ونهبوا وأسروا ، وقصدوا عرق^(٢) ونزلوا عليها وحاصروها ، وحاصروا جبلة^(٣) وأخربوها . وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغرب البلاد ، وفتح القرية وصافيتها^(٤) . وعاد إلى حمص ، فصام بها شهر رمضان . ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين ،

(١) يقطع المهزة ليستقيم الوزن .

(٢) تقع قريباً من حصن الأكراد في السفح الشمالي لجبال لبنان ، وفي قلب الوادى الذى يصل حمص وساحل . *The Crusaders in the East, P. 31* .

(٣) قلعة مشهورة بمنطقة الساحل ، من أعمال حاب قرب اللاذقية . معجم البلدان : ٣ : ٥١ - ٥٤ .

(٤) تقع هاتان القلعتان في نفس المنطقة ، إلى الشمال من عرق :

The Crusaders in the East, P. 192

وهي للفرنج أيضاً ، من قلاعهم المنيعه ، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها ، فقصدها نور الدين فوصلها من الغد ، وخرب سورها جميعه . وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلف أوجب التفرق ، فعاد . وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه .

قال : وفي هذه السنة عمى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج^(١) على نور الدين ، وهو كان أقطعه إياها ، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه (١١٤ - ب) ، وأقطعهما أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلاً خيراً ، حسن السيرة ، فبقى بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتي .

وفي هذه السنة^(٢) توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير صاحب كتاب الجفان . قال العماد في الخبر يدة^(٣) : كان ذا علم غزير وفضل كثير ، قتله شاور صبراً في سنة اثنتين وستين ، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده . وأخوه المذهب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه وتوفي قبله بسنة ، لم يكن في زمانه أشعر منه^(٤) . وله^(٥) شعر كثير ، منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك ، وذكر فيها نور الدين ، وأولها^(٦) :

أعلمت حين تجاور الحيمان أن القلوب مواقف النيران
يا كاسر الأصنام قم فانفض بنا حق تصديرا مكسر الصليان
فالشام ملكك قد ورثت بلاده عن قومك الماضين من غسان
وإذا شككت بأنهما أوطانهم قدما فسل عن حارث الجولان^(٧)

(١) مدينة كبيرة واسعة في فضاء من الأرض ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وهي من حلب على عشرة فراسخ ، وكان يحيط بها سور عظيم . معجم البلدان : ٨ : ١٦٩ - ١٧١ .

(٢) في ل ١١٤ ب : وفيها .

(٣) قسم شعراء مصر : ١ : ٢٠٠ ، وبهامش من ٢٠٠ تعريف به يدل على أنه كان من أهل أسوان والتعلم في سلك الدعاة الفاطميين ، وذهب إلى اليمين داعياً للحفاظ على المذهب سنة ٥٣٩ هـ ، وقيل إنه ادعى بها الخلافة ، قتله شاور سنة ٥٦٢ هـ أو ٥٦٣ هـ .

(٤) انظر الخبر يدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٠٤ .

(٥) أي المذهب .

(٦) نفس المصدر : ١ : ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٧) جاء عنه في الحاشية « ١١ » من ٢١٠ من المصدر السابق : اسم إقليم في شمال شرق الأردن مقترن بالفسانة ... وكان ملائح (ابن رزيك) يذهب إليهم .

أورمت أن تتلو محاسن ذكرهم
مازلت أرض العدا ، بل ذاك ما
وأقول إن حصونهم سجدت لما
ولقد بعثت إلى الفرنج كتاباً
لبسوا الدروع ، ولم نخل من قبلهم
عجلت في تل العجول^(٣) قرام
وثلت في يوم العريش عروشهم
أجأتهم للبحر لما أن جرى
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما
وأعدت رُسل ابن القسم^(٤) إليه في
والقال يشهد في اسمه^(٥) أن سوف يف
وأراك من بعد الشهيد أباً له
وهو الذي ما زال يفعل في العدا
قتل البرنس ومن عساه أعانه
وأرى البرية حين عاد برأسه
وتعجبوا من زرقة في طرفه
عجبا لجود يديه إذ يبني الملا
قلدت أعناق البرية كلها
حتى تساوى الناس فيك وأصبح أ
فاسند روايتها إلى حسان^(١)
بقلوب أهلها من الخلفان
أوتيت من ملك ومن سلطان
كالأسد حين تصول في خفان^(٢)
أن البحار تحل في عُدران
وهم لك الضيفان بالذيفان^(٦)
بشبا ضراب صادق وطمان
منه ومن دمهم معاً بحران
لم يأت في حين من الأحيان
شعبان كي يتلاءم الشعبان
بدو الشام وهو عليهما قسمان
وجملته من أقرب الإخوان
ما لم يكن ليعد في الإمكان
لما عتا في البنى والعدوان
مُرَّ الجنى يبدو على المران
وكان فوق الرمح نصلاً ثانياً
والسيل يهدم ثابت الأركان
منفاً تحمل ثقلها الثقيلان
قاصى بمنزلة القريب الداني

(١) وهو حسان بن ثابت الذي اشتهر بمدحه للفاسانة قبل الإسلام . انظر افس المصدر : ٢١٠
حاشية : ٢ .

(٢) خفان : مأسدة قرب الكوفة . نفس المصدر ، حاشية : ٣ .

(٣) مكان قريب من كل من عسقلان وغزة . انظر *The Crusaders in the East*, P. 310 .

(٤) الذيفان : السم القاتل .

(٥) اور الدين محمود ، والقسم جده آق سنقر ، قسم الدولة ، والد عماد الدين زكي .

(٦) في الحريدة : باسمه .

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشهرزوري للسلطان نور الدين رحمه الله
حال العماد الكاتب وعرفه به ، وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلقا :

لو حفظت يوم النوى عمودها ما مٹلت بوصلكم وعودها^(١)
ومنها :

محمد يحمده عيش بلدة	مالكها بمدله محمودها
مؤيد أموره بعزمة	من السموات الملا تأييدها
آثاره حميدة ، وإنما	للمرء من آثاره حميدها
إن النوى بحبه وبفضله	يعرف من شقيها سنيدها
(١١٥-١) قد جاءكم نور من الله ، فن	به اعتدى فإنه رشيدها
جلا ظلام الظلم نور الدين عن	أرض الشأم ، فله تحميدها
إن الرعايا منه في رعاية	ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر ، بل لأمنها	يخاف ، بل يخلصها بجمودها
بالدين والملك له قيامه	وللملوك عنهما قمودها
ودأبه لم تغور الكفر ، لا	ثم تغور ناقع برودها
قد أسبغ الله لنا بمدله	ظلال أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم في دولته	وهم على رضعهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سجدوها	لله ، أضى للظبا سجدوها
إن فارقت سيوفه غمودها	فإن هاماتهم غمودها
كم مقلقات ، من حصون عزمه	مفتاحها ، وسيفه إقليدها
قد ودت الفرنج لو فرت نجت	منك ، ولكن روعها يبيدها
قهرتها حتى لود حثها	من ذلة لو أنه فقيدها
أمانها رعبك في حصونها	كأنما حصونها لجمودها

(١) هذا البيت غير موجود في مطلع القصيدة في نسخة ق .

وإن مصرًا لك ثعنو بعدما
والملة الغراء بخال بالها
مفترة ثغورها ، ممنوعة
وإن بنى جالوتها ضلالة
يا ابن قسيم الدولة الملك الذى
دع العدا بنيفظها ، فإنما
يادولة نورية أمن الورى
ما مثل الدنيا لمن يجمعها
أنت الذى يرفضها عن قدرة
فابق لنا ياملكا ، بقاؤه
فى نعمة جديدة سمودها
لسينفك العصب عنا صعيدا
عال سناها ، بك حال جيدها
بغورها ، محفوظة حدودها
فأنت فى إهلاكه داودها
خرت له من الملوك صيدها
يذيب أكباد العدا حقودها
وخصبها ، وجودها ، وجودها
بالحرص إلا قزة ودودها
فلا يشوب زهد زهيدها
فى كل عام للرعايا عيدها
ودولة سميدة جدودها

وهى طويلة . فرتبه نور الدين فى ديوانه منشئًا لاشتقبال سنة ثلاث وستين .
قال : وجدت على الأيام منه الإعزاز والتسكين . قلت : وذلك بعد أن استعفى أبو اليسر
شاكر بن عبد الله من الخدمة فى كتابة الإنشاء وقعد فى بيته . كذا ذكر العباد فى الخريدة .
وقال : تولى ديوان الإنشاء بالشام سنين كثيرة ، وله مقاصد حسنة فى الكتب ،
وهو حميد السيرة ، جميل السريرة .

وفى الحافظ أبو سعد عبد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسائة :

فذكر العباد أن نور الدين رحل إلى حمص ، ثم مضى إلى حماة ، ثم شق بقلعة حلب
ومعه الأسد والعتلاخ . ونزل العباد بمدرسة ابن المجبى وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن
أيوب ، وقد عثرفرسه فى الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى :

لا تُكرن لسابح عثرت به قدم وقد حمل الخضم الزاخرا

ألقى على السلطان طرفك طرفه فهو هذالك السلام مبادرا
 سبق الرياح بحريه ، وكففته عنها ، فليس على خلافتك قادرا
 ضعفت قواه إذ تذكر أنه في السرج منك يُقل ليثا خادرا
 ومضى تطيق الريح طودا شائحا أو يستطيع البرق جونا ماطرا
 فاعذر سقوط البرق عند مسيره فالبرق يسقط حين يُخطف سائرا
 (١١٥ - ب) وأقل جوادك عثرة ندرت له إن الجواد لمن يُقبل العائرا
 وتوق من عين الحسود وشرها لا كان ناظرها بسوء ناظرا
 واسلم لنور الدين سلطان الوري في الحادثات معاضدا ومؤازرا
 وإذا صلاح الدين دام لأهله لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا
 وجرت بين العماد^(١) وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون^(٢)
 مكاتبات . كتب إليه العماد :

أيا شرف الدين إن الشتا بكافاته كف آفاته
 وكفك من كرم كافها لقد كفلت لي بكافاته
 وإنك من عرفه شكرنا غدا عاجزا عن مكافاته
 قال : فكتب إلي شرف الدين في جوابها :
 إذا ما الشتاء وأمطاره عن الخير حابسة رادعه
 فكافاته الست أعطيتها وحوشيت من كافه السابعة
 وكف الممـابة والإحتشام لكفى عن بره مانعه
 وهمة كل كريم النجار بميسور أحبابه قانعه
 ونفسي في بسط عذري إليه ، جعلت الفداء له ، طامعه
 وشوقي إلى قربه زائد ومعذرتي إن جفا واسعه

(١) ما هنا من ل ١١٥ ب . وفي ك : العماد الدين .

(٢) الإمام التميمي الموصل قاضي قضاء دمشق ، ولد سنة ٤٩٢ ، وتوفي سنة ٥٨٥ . ولي قضاء
 سنجار ونصيبين وحران ، وجاء إلى حلب سنة ٥٤٥ ، ودخل دمشق مع نور الدين عند فتحها ٥٤٩ ،
 وتولى مناصب عدة في دمشق وخارجها ، وتولى منصب قاضي القضاء بدمشق سنة ٥٧٣ ، وكف بصره
 قبل وفاته بعشر سنين . انظر ترجمته في وفيات الأعيان ، وطبقات الشافعية ، وشذرات الذهب .

قال : فسكتت إليه جوابها :

أيا من له همّة في العلا لذرّتها أبداً فارعه
ومن كفه ديمة مانزا ل بالعرف هامية هامعه
ولافضل في سوق أفضاله بضائع نافقة نافعه
وهل كابن عَصْرُون في عصرنا إمام أدلّته قاطعه
خبر فوائده حجة وبحر موارد واسعه
أيا شرف الدين شرفتنى بإهداء رائقة رائعه
أطعت أوامرك الساميات وما برحت همّي طائعه
أرى كل نجارحة لى تودّ (م) لو أنها أذن سامعه
وأما الشتاء وكافاته وكفّك عن كافه الرابعه
فنفسى منزّهة بالعفا ف عنها ، وفي غيرها طامعه
وماذا تطيق إذا لم تكن بميسور سيدنا قاعه

وهي أكثر من هذا .

قال : وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله ، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه ؛ ثم توجه نور الدين إليها لتهديب أحوالها ، ومدحه العباد بقصيدة منها :

بشّرَى الممالك ففتح قلعة منبج فليهنّ هذا النصر كل متوجّ
أعطيت هذا الفتح مفتاحاً ، به في الملك يفتح كل باب مرتج
وإني يبدّشّر بالفتوح وراءه فانهض إليها بالجيش وعرج
أبشّر ، فبيت القدس يتلو منبجاً ولمنبج لسواه كالأنموذج
ما أمجزتك الشهب في أبراجها طاباً ، فسكيف خوارج في أبرج
ولقدّر من يعصيك أحقر أن يرى أثر العبوس بوجهك المتباج
لسكن تهدب من عصاك سياسة في ضمنها تقويم كل معوج
فانهد إلى البيت المقدس غازياً وعلى طراباسي ونابلس عيج

قد سِرت في الإسلام أحسن سيرة ماثورة ، وسليكت أوضَح منهج
وجميع ما استقرت من سنن الهدى جددت منه كل رسم منهج^(١)

قال العماد : وسار نور الدين من منبج إلى قلعة نجم^(٢) ، وعبر الفرات (١١٦ - ١)
إلى الرها ، وكان بها ينال صاحب منبج ، وهو سيد الرأي رشيد المنبج ، فنقله إليها مُقطَّعاً
والياً . وأقام نور الدين بقلعة الرها مدة : فُدَّحه العماد بقصيدة ، وتُحجَّب له صلاح الدين
في عرضها ، وهي :

أدركت من أمر الزمان المشتى	وبلغت من نيل الأمانى المنتهى
وبقيت في كنف السلامة آمناً	متكرماً بالطبع لا متكرماً
لا زلت نور الدين في فلك الهدى	ذا غرة للعالمين بها ألها
يا محيي العدل الذي في ظله	من عدله رعت الأسود مع لها
محمود الحمود من أيامه	لها ضحك الزمان وقهقهة
مولى الورى ، مولى الندى ، معلى الهدى	مُردى العدا ، مسدى الجدا ، معطى الأها
ارأوه بصوابها مقرونة	وبمقتضاها دائر فلك . النهى
متلبس بحصافة وحصانة	متقدِّ عن شوب مكر أودها
يا من أطاع الله في خلواته	متأوباً من خوفه متأوها
أبدأ تقدم في المعاش لوجهه	عملاً يبييض في العماد الأوجها
كل الأمور ولى ، وأمرك مبهم	مستحكم لا نقض فيه . ولا وها
ما صين عنك الصين لو حاولتها	والمشرقان ، فكيف منبج والرها
ما للملوك لدى ظهورك رونق	وإذا بدت شمس الضحى خفي الشها
إن الملوك لهم وإنك من غدا	وبعاله والملك منه مآآها
شرهت نفوسهم إلى دنياهم	وأبى لنفسك زهداً أن تشرها

(١) هذا البيت والذي قبله مثنى بالهامش لك مع إشارة إلى مكانهما بالمتن .

(٢) قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل ، وعندها جسر يعرف بجسر منبج تعبر عليه القوافل

من حران إلى الشام ، وبينها وبين منبج أربعة فراسخ . معجم البلدان : ٧ : ١٩١ .

ما نمت عن خير ولم يك نائماً من لا يزال على الجليل منبها
أخملت ذكر الجاهلين ، ولم تنزل ملكا بذكر العالمين منوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجبا تغنى فقيراً أو تجبر مدلسا
لرضاهم متحفظا ، ولخالهم متفقدا ، ولدينهم متفقهـا
وبما به أمر الإله أمرتهم من طاعة ونهيهم عما نهى
عن رحمة لصغيرهم لم تشتمل عن رافة لكبيرهم إن تشدها
باليأس عندك آمل لم يمتحن : بالرد دونك سائلا إن يُجَبَّها
أنعت نفسك كي تنال رفاة من ليس يتعب لا يعيش مرفها
فقت الملوك سماحة وحماة حتى عدنا فيهم لك مشبها
ولك النخار على الجميع ، فدوّنهم أصبحت عن كل العيوب منزها
وأراك تحلم حين تصبح ساخطا ويسكاد غيرك ساخطا أن يسفها

قلت : رحم الله العماد ، فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه ؛ وهذا البيت الأخير مؤكدا لما نقلناه في أول الكتاب^(١) من قول الخافظ أبي القاسم رحمه الله تعالى في وصف نور الدين رحمه الله تعالى ، إنه لم يستمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره^(٢) ، وقل من الملوك من له حظ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت السكاملة .

قال العماد : ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب ، وضربت خيمته في رأس الميدان الأخضر .

قال : وكان مولعا بضرب الكرة^(٣) ودر بما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفرة ، ويركب صلاح الدين مبكراً كل بكرة ، وهو عارف بأدائها في الخدمة ، وشروطها المعتبرة .

(١) انظر ص ١١ من هذا الكتاب .

(٢) التبت هنا من ل ١١٦ ب ، وفي ك : لم يستمع منه في رضاه ولا ضجره كلمة فحش . والتبت هنا يتفق مع ما جاء في أول الكتاب ص : ١١ .

(٣) انظر ما تقدم في هذا الكتاب ، ص : ١٢ - ١٣ ، في تقرير لعب نور الدين بالكرة من قول منسوب إليه .

قال : وأقطعته في تلك السنة ضيعتين إحداهما من ضياع حلب والأخرى من ضياع كافر طاب^(١) . قال : وكتبت إليه في طلب كنبوش :

أصبحت بغلتي تشككي^(٢) من العزى ، وأسراجها بلا كنبوش
قلت : كفى . فخير يومك عندي أن تفوزي بالتين أو بالحشيش
واهرجى ليلة الشعير كما يفـرح قوم بليلة الماشوش
لو تبصرتِ حالتي لتصبري ت ، فإياك عندها أن تطيشي
أوما مات في الشتاء من البرد ، ومن فرط جوعه ، إكديشي
فثقي واسكني بجود صلاح الد (م) ين غرس الملوك ملك الجيوش
فهو يجلوك للعيون بكنبو ش جديد مستحسن منقوش
كم عدو من بأسه في عشار وولى بجوده منعوش
والموالى على الأسيرة ، والأء ذاء تحت الهوان فوق النعوش

قال : وأقطع أسد الدين حمص وأعمالها ، فسار إليها ، فسد ثغورها ، وضبط أمورها ، وحى جمهورها . وكان نور الدين قد جدد سورها وحصن دورها ، وبلى الفرنج يمينه بالمعاور والمراوغ ، ذى البأس الدامغ . وسأله نور الدين في السؤال عن حب مصر ، وقال : قد نعت مرتين واجتهدت ، ولم يحصل لك ما طلبت ؛ وقد أذعنوا بالطاعة ، وشفعوا السؤال بالشفاعة ، وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة .

قلت : وأنشد العباد أسد الدين في رجب من هذه السنة :

دمت في الملك آمراً ذا نفاذ أسد الدين شيركوه بن شاذى
يا كرىماً عن كل شر بطيئاً وإلى الخير دائم الإغذاذ
وملاذ الإسلام أنت ، فلا زلت لأهل الإسلام خير ملاذ

(١) بين المعرفة وحلب في برية يشرب أهلها مياه الأمطار التي تتجمع في صهاريج . معجم البلدان : ٧ : ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) في ك : تشكو ؛ والمثبت هنا من ل ١١٦ ب ، وهو الذى يستقيم به البيت وزناً .

في نفوس الكفار رعبك قد حلَّ (م) بصنَّع الأكبَاد والأفلاذ
لم تدغ بالظُّبا ، رموساً وأصدأ ما من المشركين غير جسد
أنت من نازل الدَّعين في مصر لنصر الإمام في بغداد
وبلاد الإسلام أنقذتها إذ ت من الشرك أيما إنقاذ

فصل (١١٧ - ١)

في وفاة زين الدين ^(١)

قال ابن الأثير ^(٢) ، وغيره : في سنة ثلاث وستين سار زين الدين على بن بكتكين ،
نائب أتابك قطب الدين ، عن الموصل إلى إربل ، وسلم جميع ما كان من البلاد والقلاع
إلى قطب الدين ماعدا إربل ، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى . فمن ذلك
سندجار وحران وقلعة عفر الحميدية ^(٣) ، وقلاع الهكارية جميعها ^(٤) . وكان نائبه بتكريت
الأمير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت ولا بد له من
نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب ، فليس له مثلي ؛ فما أمكن محاققته لأجل مجاورة
بغداد . وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان ، فقال مثله أيضاً ، فأقرت بيده ؛ فكان
في طاعة قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عى وصمم ، وأقام بإربل إلى أن توفي بها ، في
ذى الحجة من هذه السنة ، وكان قد استمل على عليه الهرم وضعفت قوته .
وكان خيراً عادلاً حسيب السيرة ، جواداً ، محافظاً على حسن العهد وأداء الأمانة ، قليل

(١) في هامش ك أمان هذا العنوان : والد مظفر الدين ، صاحب إربل ؛ وهي غير موجودة في ل
١١٧ ، أو في ق .

(٢) في الأنايكة : ٢٤١٠ - ٢٤٤ ؛ وهو اقتباس حرى .

(٣) قلعة حصينة في جبال الموصل ، أهلها أكراد ، وتقع شرق مدينة الموصل . معجم البلدان :

٦ : ١٩٤ - ١٩٦ .

(٤) الهكارية : بلدة وناحية وقرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابن عمر ، يسكنها الأكراد
الهكارية ، ومنهم القاضي عيسى الهكاري الذي سبق إلى جاب صلاح الدين في مصر بعد وفاة عمه
أسد الدين شيركوه ، كما سيذكر فيما بعد . انظر معجم البلدان : ٨ : ٤٦٩ .

الغدر بل عديمه . وكان إذا وعد بشيء لا بد له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً . وكان حاله من أعجب الأحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغنى أنه أتاه بعض أصحابه بذهب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ؛ فأخذ ذلك الذهب أيضاً غيره من الأجناس فأحضره وذكر أنه نفق له دابة ، فأمر له بفرس وتداول ذلك الذهب اثنا عشر رجلاً كلهم يأخذ فرساً . فلما أحضره آخرهم قال لهم : أما تستحيون منى كما أستحي أنا منكم ؟ قد أحضر هذا عندي اثنا عشر رجلاً وأنا أتفاول لثلاثين رجل أحكم . أتظنون أننى لا أعرفه ؟ بلى والله ، وإنما أردت أن يصلحكم عطائى بغير من ولا تسكير ، فلم تتركوا !

ليس النعمى بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

قال (١) : وكان يعطى كثيراً ويخلع عظيماً ؛ وكان له البلاد الكثيرة ، فلم يخلف شيئاً بل أنفذه جميعاً في العطايا والإنعام على الناس . وكان يلبس الغليظ ويشد على وسطه كل ما يحتاج إليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك . وكان أشجع الناس ، ميمون النقيية ، لم تنهزم له راية . وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً ؛ وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها . وبلغنى أنه مدحه الخيص بيص (٢) ، فلما أراد الإنشاد قال له : أيا لا أدرى ما تقول لكن أعلم أنك تريد شيئاً ؛ وأمر له بمئسمائة دينار وأعطاه فرساً وخيلاً وثياباً ، يكون مجموع (١١٧ - ب) ذلك ألف دينار . قال ومكافأته كثيرة .

ولما توفي بإربل كان الحاكم بها خادماً لمجاهد الدين قايمار ، وهو المتولى لأمرها . وولى بعد زين الدين ولده مظفر الدين كوكبرى مدة ثم فارقه لخلف كان بيده وبين مجاهد الدين قايمار ؛ وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طريق زين الدين ، فسكره الناس

(١) استمرار لنفس الاقتباس .

(٢) تقدم شيء من التعريف به . انظر س : ٣٤٤ حاشية : ٣ .

وذمّوه فلم تطلّ أيامه : وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة :

ففي^(١) أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر^(٢) ، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيّب^(٣) ؛ وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك^(٤) . وهي من أمنع الحصون وأحسنها ، مطلة على الفرات لا يطمع فيها بحصار ؛ وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه ، وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين .

ثم اتفق أنه^(٥) خرج صاحبها منها يوماً يتصيد ، فصاده بنو كلب ، فأخذوه أسيراً وأوثقوه ، وحملوه إلى نور الدين ، فتقرّبوا به إليه ، وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين ؛ فحبسه بحلب وأحسن إليه ، ورغبه في الإقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ؛ فعذل به نور الدين إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل أيضاً ؛ فسير إليها عسكرياً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني ، فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء ؛ فأمدّم بعسكر آخر وجعل على الجميع محمد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية^(٦) ، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيمه ووالى معاقله ، فأقام عليها وعاطف حواريها فلم ير له في فتحها مجالا ، ورأى

(١) الاقتباس هنا من الأتابكة : ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ينصرف كثير . ويبدأ هذا الحديث في الأتابكة تحت عنوان : ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر .

(٢) قلعة على الفرات بين بلس والرقّة قرب صفين ، وكان جعبر صاحبها قبل تملكها يخيف السبيل ؛ واسم القلعة القديم دوسر . وقد استشهد عندها عماد الدين زنكي ، قتله أحد رجاله ، وقد تقدم تفصيل هذا . انظر ص : ١٠٨ - ١٠٩ من هذا الكتاب ، وكذلك معجم البلدان : ٣ : ١٠٨ .

(٣) كانوا من رجال الدولة الحمدانية ، ثم ، بعد سقوطها ، استقلوا بإساطانهم متخذين أصبيحين مركزاً يوسعون منه نفوذهم . وقد تفرغ العقيليون وتوزعوا في مناطق الجزيرة وشمالي الشام ، حتى استولى نور الدين محمود على قلعة جعبر في هذه السنة ، ٥٦٤ ، من صاحبها عنده ملك بن علي .

(٤) انظر ص ١٠٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٥) في ل ١١٧ ب ، وكذلك في ق : أن .

(٦) سبق ذكر شيء عنه ، ص ١٧٢ بالمتن والحاشية رقم ٥ ، وسيتردد ذكره مع إخوته في مناسبات أخرى .

أخذها بالحصر متعذرا محالا . فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ؛ ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج^(١) وأعمالها والملاحة التي في عمل حلب والباب^(٢) وبزاعة^(٣) وعشرين ألف دينار معجلة ؛ فأخذ جميع ما شرطه مكرها في صورة مختار . قال ابن الأثير : وهذا إقطاع عظيم جدا لسكنه لا حصن^(٤) فيه .

وتسلم مجد الدين قلعة جعبر وصعد إليها منتصف الحرم . ووصل كتابه إلى نور الدين بحلب ، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من الحرم ؛ ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين ابن الداية ، فولأها أخاه شمس الدين عليا . وكان هذا آخر أمر بني مالك ، ولكل أمر آخر^(٥) ولكل ولاية نهاية ؛ يؤتى الله الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء .

قال ابن الأثير : بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيما أحب إليك وأحسن مقاماً ، أسروج والشام أم القلعة ؟ فقال : هذا أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقتاه .

قال العماد : وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر (١١٨ - ١) قصيدة أولها :

اسلم لِسْكَرِ الفُتُوحِ مَفْارِعاً وَدُمُ لِمُلُوكِ الْبِلَادِ مَنَزَعاً
فَإِنْ أَوَّلَى الْوَرَى بِهَا مُلُوكٌ غَدَا بَعْبُ الْخَطُوبِ مَضْطَعاً
إِنْ ضَاقَ أَمْرُ فَنِيرِ هِمَّتِهِ لِكَشْفِ ضَيْقِ الْأُمُورِ لَنْ يَسْمَعَ
يَا مَحْمَدِي الْعَدْلُ بَعْدَ مِثْلَتِهِ وَرَافِعُ الْحَقِّ بَعْدَمَا اتَّضَعَا
وَنُورُ دِينِ الْهَدَى الَّذِي قَعَّ الشُّمُّ (م) رُكَّ ، وَعَفَى الضَّلَالِ وَالْبِدْعَا
أَنْتَ سَلِيمَانُ فِي الْعَافِ وَفِي الْإِلِّ مُلُوكٌ ، وَتَحْكِي بِزُهِدِكَ الْيَسْعَا
حُزْتُ الْبَقَا ، وَالْحَيَاءُ ، وَالْكَرَمُ الْحَضَّ ، وَحُسْنُ الْيَقِينِ ، وَالْوَرَعَا

(١) قرية من حران من ديار مصر . معجم البلدان : ٥ : ٧٧ .

(٢) بلدة صغيرة ، وتعرف بباب بزاعة في طرف وادي بطان ، تبعد عن حلب بمسافة أميال وعن منبج نحو ميلين . نفس المصدر : ٢ : ٩ .

(٣) بين منبج وحلب ، بينها وبين كل منهما مرحلة . نفس المصدر : ٢ : ١٦٢ .

(٤) في ل ١١٨ : لاحظ ، وهي كذلك في ق أيضاً . والمثبت هنا من ك ، وهو مطابق ما جاء في الأناطكة .

(٥) في ل ١١٨ : حد .

أسقطت أفساط ما وجدت من المسك سِ بدل ، والقاسط ارتدعا
 ولم تدع في ابتغاء مصالحة الله (م) ين لنا باقياً ، ولأن تدعا
 وكل ما في الملوك مُفترق من المعالي للملك اجتمعوا
 همك الرُّبُط والمدارس تدب فيها ثواباً وتهدم البيعة
 ما زلت ذا فطنة مؤيدة على غيوب الأسرار مطلعاً
 ببأسك البيض والطحلى اصطبحت بمسلك الذئب والطلا رتعا
 كم صائد لم يقع له قنص في شرك وهو فيه قد وقعاً
 ومالك حين رُمت قلمته غدا مطيعاً للأمر متبعاً
 عنسا خشوعاً ربّ مملكة لغير ربّ السماء ما خشعا
 كان مقبلاً منها على الفلك الّ أعلى شهاباً بنوره ساطعاً
 لكنما الشهب ما تنير إذا لاح صودُ الصباح فانصدعا
 يدفعها طائفاً إليك ، وكمن عنها إباءً بجهد دفعاً
 هي التي في علوها زحل كرك على وزدها وما كركا
 وهي التي قاربت عطارده في الّ أفق فلاحاً والفرقدَيْن معا
 كأن منها الشها إذا استرق الس (م) مع أنها في خيفة ودعا
 هضبة عزّ لولاك ما ارتفعت وطود ملك لولاك ما فرعا
 ما قبلت في ارتقاء ذروتها من ملك لارقي ولا خدعا
 عزت على المالك الشهيد وأغ طنتك قيادا مازال عتعا
 للأب لو جلّ خطبها لغدا محرّماً لابنه وما شرعا
 لازلت محمود في أمورك محموداً بثوب الإقبال مدرعا
 وفيها وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن
 الداية . وفيه وفي أخويه يقول العماد السكاتب من قصيدة :

أتمّ للمحمود كمال محمد متصادف الأفعال والأسماء
 يتلو أبا بكر على حسناته عمر المدح في سنا وسناء
 ويليه عثمان المرجى للعلو وعلى السأمول في اللأواء

وَتَقَبَّلَ الْحَسَنَ الْمَجْدَّ مَجْدُهُمْ فَهُمْ ذُووُ الْإِحْسَانِ وَالنِّعَاءِ
فَرَعَتْ لِحْدَ الدِّينِ إِخْوَتَهُ الدَّرَا دُونَ الْوَرَى فِي الْمَجْدِ وَالْعُلْيَاءِ
مِنْ سَابِقٍ كَرَمًا وَشَمْسَ سَادَةٍ شَرْفًا وَبَدْرَ دُجْنَةٍ وَبِهَاءِ
سُرُجِ الْهَدَى، سُحُوبِ النَّدى، شُجُبِ النَّهْيِ أَسَدُ الْحُرُوبِ ، ضِرَاعُ الْهَيْجَاءِ
يُرِيدُ سَابِقَ الدِّينِ عُمَانَ ، وَشَمْسَ الدِّينِ عَلِيًّا^(١) وَبَدْرَ الدِّينِ حَسَنًا^(٢) ، وَبِهَاءَ الدِّينِ
عَمْرًا ؛ وَمَجْدَ الدِّينِ الْأَكْبَرَ^(٣) ، فَهُمْ خَمْسَةٌ ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ .

فصل

(١١٨- ب) وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية ، سار إليها أسد الدين مرة ثالثة ،
فهمز العدو وقتل شاوراً وولى الوزارة مكانه ، ثم مات ، فولياها صلاح الدين .
وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأولى والثنتين استعان بهم شاور فيهما
على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها ، فطعموا فيها ونقضوا
ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد . فجمعوا وحشدوا ، وقالوا :
ما بمصر من يصدنا ، وإذا أردناها فنبردنا . ثم قالوا : نور الدين في البلاد الشمالية والجهة
الفراتية ، وعسكر الشام متفرق كل في بلده ، حافظ لما في يده ؛ ونحن نهض إلى مصر ،
ولا نطيل بها الحصر ، فإنه ليس لها معقل ، ولأهلها [مناً^(٤)] موئل ؛ وإلى أن تجمع
عساكر الشام ، [نسكرن^(٥)] قد حصلنا على المرام ، وقويننا بتملك الديار المصرية على سائر
بلاد الإسلام ، فتوجهوا إليها سائرين ، ونحوها ثائرين ، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم
على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط^(٦) وابن قرجلة^(٧) ، وغيرهما من أعداء شاور .

(١) في الأصل ، وفي ل ١١٨ ب : على . (٢) في ك ، وفي ل ١١٨ ب : حسن .

(٣) في ل ١١٨ ب : هو الأكبر .

(٤) الإضافة من ل ١١٨ ب . ومن ق ١١٧

(٥) ساقطة من الأصل ، وكذلك من ل ١١٨ ب ومن ق ١١٧ ، والسياق يقتضيها .

(٦) هو يحيى بن الخياط من رجال الدولة الفاطمية منذ عهد وزيرها الصالح ملائم بن رزيك .

خرج على شاور الوزير الفاطمي ولكنه تمكن من إخضاع ثورته . انظر النكت العصرية في
صفحات مختلفة .

(٧) سبرد أنه يسير في جيوش أموري في طريق القاهرة ، مع بعض الخارجين على شاور ،

بعد سقوط بلبيس في أيدي الفرنج .

وكان^(١) الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وسكر^(٢) فرسانهم أبواب البلدين ، والمقاتلين معهم ، على ما سبق ذكره^(٣) ، وتحكموا تحكما كبيرا ، فطعموا في البلاد ، وأرسلوا إلى ملكهم مري . ولم يكن ملك الفرنج منذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرأ ودهاء . يستدعونه لملك البلاد . وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه ؛ فلم يجبههم إلى المسير . واجتمع فرسان الفرنج وذوؤ الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأي عندي ألا نقصدها فإنها طعمة لنا ، وأمواها تساق إلينا ، نقتوي بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لملكها فإن صاحبها وعساكره ، وعامة أهل بلاده وفلاحيه ، لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين . وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام . فلم يصغوا إلى قوله وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حائط ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها .

وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها ؛ فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا ، وأظهروا أنهم على قصد الشام ، وخاصة مدينة حصص ، وتوجهوا من عسقلان في النصف من الحرم ، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونالوها ، وحصروها ، فملكوها قهراً ونهبوها وسبوا أهلها ، وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل (١١٩ - ١) بلبيس ، فحملهم الخوف [منهم]^(٤) على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه ، وبذلوا جهدهم في حفظه . ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة سرعة ، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

(١) بدء اقتباس حرق طویل من الأتابكة : ٢٤٦ - ٢٤٩ ؛ تصرف فيه أبو شامة بعض التصرف تقديماً وتأخيراً .

(٢) في الأصل : وسكن ، والمثبت هنا من ل ١١٨ ب ، ومن ق ١١٧ ب .

(٣) عند الحديث على نتائج الحملة التي قام بها شيركوه على مصر سنة ٥٦٢ .

(٤) الإضافة من ل ١١٩ ، وهي مثبتة كذلك في ق .

وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر، تاسع صفر، قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد، خوفاً عليها من الفرنج؛ فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر.

ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في تمحّل الحيل، وأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبة القديمة، وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاقد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه؛ ويشير بالصلح وأخذ مال لثلاثي البلاء إلى نور الدين. فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض؛ واستقرت القاعدة على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم وربما سلمت إلى نور الدين، فأجابوه كارهين، وقالوا: نأخذ المال نتقوى به، ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره. ﴿وَمَسْكُرُوا وَمَسَكَّرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١). فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسأهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاقد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصرى يستغثن بك لتُنقذهن^(٢) من الفرنج. فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر. ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال عاود العاقد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر^(٣)، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقبلاً عنده في عسكر وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث [الذي]^(٤) لنور الدين. هذا قول ابن الأثير^(٥).

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً، وإرغاماً له وإطعاماً،

(١) سورة آل عمران، آية: ٥٤

(٢) هذه الكلمة معطوسة في الأصل، والثبت هنا من ل ١١٩ ب، وهو مطابق لما جاء في الأتابكة.

(٣) في ل ١١٩ ب: ثلث البلاد من مصر (٤) الإضافة من ل ١١٩ ب.

(٥) في الأتابكة، وهو نفس الاقتباس الذي أشرنا إلى بدايته.

وواصل يُكثِّبه إلى نور الدين مستعصراً مستنفراً ، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبراً ؛ ويقول : إن لم تبادر ذهبت البلاد . وسير السكتب مسودة بمدادها ، كاسية لباس حدادها ، في طيها ذوائب مجزوزة ، وعصائب مجزوزة ، أظن أنها شعور أمل القصر ، للإشمار بما عرام من بليّة الحصر . وأرسلها تباعاً ، وأردف بها نجّابين سراعا ؛ وأقام منتظراً ، ودام متحيراً ، وعامل الفرنج بالمطال ، ينقدم في كل حين مالا ، ويطلب منهم إمهالا . وما زال يعطيهم ويستلمهم ، حتى أتى الفوت بمساكر نور الدين رحمه الله تعالى .

فصل

فيما فعله نور الدين

كان^(١) نور الدين لما أناه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل (١١٩ - ب) إلى أسد الدين يستدعيه من حمص ، وهي إقطاعه ، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها . وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر فبقى مسلوب القرار ، مغلوب الاضطبار ، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر فخاف خروجها من يده ، وأن يستولى عليها الكفر . فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب ، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله . فتمجّب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسرّه ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة ، وحكّمه في المساكر والخزائن ، فاختر من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركان ستة آلاف فارس . وكان في مدة حشد التركان^(٢) سار نور الدين لتسلم^(٣) قلعة جعبر ؛ ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق ، ورحلا في جميع المساكر إلى رأس الماء^(٤) . وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم

(١) من الأتابكة : ٢٤٩ - ٢٥٠ هـ من التصريف .

(٢) في ل ١٢٠ : في مدة حشده للتركّان .

(٣) في ل ١٢٠ التسليم .

(٤) في منطقة حوران على مسيرة يوم من دمشق . انظر :

The Crusaders in the East, pp. 195-196 وكذلك *Lane - Poole, Saladin, p. 93*

على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له . وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرد بك ، وغرس الدين قليج ، وشرف الدين بزغش ، وناصر الدين خارتسكين ، وعين الدولة [ابن] ^(١) الياروق ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وغيرهم . ورحلوا على قصد مصر ، مستنزلين من الله تعالى النصر ، وذلك منتصف ربيع الأول .

وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء ، وأقام ينتظر ورود المبشرات ؛ فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدین إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين ، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر ؛ وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق بذلك .

وقال القاضي أبو الحسن ^(٢) : لقد قال لى السلطان ، يعنى صلاح الدين : كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة ، وما خرجت مع عى باختيارى . قال : وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ^(٣) . وقال ابن الأثير : أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملسكه ^(٤) .

حكى لى عنه أنه قال : لما وردت السكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضى الله عنه ، مستصرخين ومستعجدين ، أحضرنى وأعلمنى الحال ، وقال تمضى إلى علك أسد الدين بحمص مع رسولى إليه يأمره بالحضور ، وتحته أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال ففعلت . فلما فارقتنا ^(٥) حلب على ميل منها لقيناه قيادماً في هذا المعنى ؛

(١) الإضافة من ل ١٢٠ . ومن ق ١١٨ ب .

(٢) في النواذر السلطانية : ٣١ ؛ وهو اقتباس حرى .

(٣) سورة البقرة : آية ٢١٦

(٤) إشارة من ابن الأثير إلى تطور الحوادث فيما بعد إذ استقر الأمر لصلاح الدين في مصر ، ثم في الشام ، وتأسست الدولة الأيوبية ، بينما كان استقرار ملك صلاح الدين تدبراً بتدهور سلطات أسرة زنكى .

(٥) ما ثبت هنا من ل ١٢٠ ليناسب ما بعده ، وفى ك : فارقت .

فقال [له] ^(١) نور الدين: تجهز للسير، فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير (١٢٠ - ١) أنا بنفسى إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال فالتفت إلى عى أسد الدين وقال: تجهز يا يوسف؛ قال: فكأنما ضرب قلبى بسكين! فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر مامرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساها أبداً. فقال عى لنور الدين: لا بد من سيره معى، فترسم له. فأمرنى نور الدين وأنا أستقيله. فالتقى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير، فقال لى نور الدين: لا بد من سيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه؛ فأعطانى ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت. وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه. فلما استقر أمره وتوفى، أعطانى الله من مملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضه أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها. قال ^(٢):

وهل أخشى من الأنواء بخلا إذا ما يوسف بالمال جادا ^(٣)
فتى للدين لم يبرح صلابا وللأعداء ^(٤) لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصناً فإن الله يعطيه البـلادا
إلى كم ذا التواني فى دمشق وقد جاء تكلم مصر تهـادى
عروس بعلها أسد هزبر يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الأجناد سيروا وراء لوائه تلقوا رشادا
فإكل امرئ صلى مع النـا س مأموماً كن صلى فرداى

(١) الإضافة من ل ١٢٠.

(٢) انظر الحريدة: قسم شعراء الشام: ١٩٩-٢٠٠. وبها ما ورد هنا الأبيات الخمسة الأولى، كما أن بها من نفس القصيدة زيادة عما جاء هنا.

(٣) فى الحريدة: ويوسف لى، فتى أيوب، جادا.

(٤) فى الحريدة: والأموال.

فلما سار صلاح الدين إلى مصر عبر العرقة على داره ، فوجدها مغلقة ، فقال :
 عبرت على دار الصلاح وقد خلت من القمر^(١) الوضاح والمنهل العذب
 فوالله لولا سرعة مثل عزمه لغرقها طرفي وأحرقها قلبي
 ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بجارة قطامش جوار قيسارية القصاب ،
 وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله . فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج
 وتملك صلاح الدين على ما سيأتي .

وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين قصيدة أولها :

* سلم على مصر لا ربع بذي سلم *

يقول فيها :

الناصر الملك الموفى بذمته ومن ندى كفه يغنى عن الديم
 ومن إذا جرد البيض الصوارم في الـ مهبجاء أغمدها في البيض والقلم
 ومن حوى الملك من بعد الطاعة في الـ تراءه بشبا الهندية الحزم^(٢)
 ورد طاغية الإفرنج يحسب ما رجاء من ملك مصر كاني في الحلم
 (١٢٠ ب) ولّى وراحته صفر وقد ملئت بعد الطاعة من يأس ومن ندم
 يصعدون على ما فاتهم نفساً لولافتح البحر أضحي الموج كالحلم
 وفي السلامة ، لولا جهلهم ، ظفر لمن أراد نزال الأسد في الأجم
 وهم أسود الشرى ، لكن أذلهم ملك لديه الأسود الغلب كالفهم
 وله من قصيدة أخرى :

أقمت عمود الدين حين أماله لطاغي الفرنج الغتم^(٣) طاغي بني سعد
 وجاهدت حزب الكفر ، حتى رددتهم خزايا ، عليهم خيبة الذل والرد

(١) في ك : الذهب ؛ وفوقها : القمر ؛ تصحيحاً .

(٢) الحزم : القاطم .

(٣) الفتنة : المعجزة ، والأغم : من لا يفصح شيئاً ، والجثم : غثم . القاموس المحيط .

أفدت بما قدمت ملكاً مخلداً وذكرأ مدى الأيام يقرون بالحد
وذكرك في الآفاق يسرى ، كأنه الصبح باح له نشر الألوّة والنسب
ولأبى الحسن بن الذري فيهِ من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مُرّى :
ولسك أشعت الروم أشام بارق أضحت مياه نفوسها من قطره
وأفاك بحر دروعها عن مدّه ومضى وقد حكمت ظبأك بجزره
ولقيت « مُرّياً » وطعم حيّاته حلّو ، فبدله القتال بمره
فاعدد إليه الرأى في عذب القنا واحلل بها عجلأ معاقده مكره
واطرده من وكر الشأم ، فإنه قد طار منك بخافق من ذهره

فصل

في القبض على شاور وقتله

وصل^(١) أسد الدين القاهرة رابع ربيع الآخر^(٢) واجتمع بالعاضد خليفة مصر ، فخلع
عليه وأكرمه ، وأجريت عليه وعلى حساكره الجرايات السكثيرة والإقامات الوافرة ؛ ولم
يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى المساكر كثيرة بظاهر البلد ، ورأى هوى العاضد
مهم من داخله ، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه ، فسكتمه ، وهو يماطل أسد الدين في
تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعشاكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين . وهو
يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ، ويعده ويمنيه « وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ
إِلَّا غُرُورًا »^(٣).

ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ، ويقبض عليهم ؛
فنهاه ابنه السكامل وقال له : والله لئن عزمتم على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين . فقال له

(١) اقتباس حرق من الأباكية : ٢٥١ - ٢٥٣ .

(٢) ل ل ١٢١ ، وكذلك في ق : سابع رابع الآخر . وقال ابن واصل في مفرج الكروب
(١ : ١٦١) لأربعم مضين من ربيع الآخرة .

(٣) سورة النساء : آية : ١٢٠ ، حيث جاءت : « يمدّم ويمنيهم وما يمدّم الشيطان إلا غرورا »
وسورة الأسراء : آية : ٦٤ ، حيث جاءت : « وباركهم في الأموال والأولاد ، وهدم ، وما يمدّم الشيطان
إلا غرورا » .

أبوه والله لئن لم أفعل هذا لفتلن جميعاً . فقال : صدقت ، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ، ويملكون البلاد ؛ فترك ما كان عزم عليه . فلما رأى المستنكر النورى المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف ، وعز الدين جرديك ، وغيرهما ، على قتل شاور ، وأعلموا أسد الدين بذلك ، فنهام ؛ فقالوا : إنا ليس لنا في البلاد شيء . فنهام هذا على حاله ؛ فأنسكروا (١٢١ - ١) ذلك . واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي ، رضى الله عنه ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به ، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ، ومعهما جمع من العسكر ، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ؛ فقال : نمضى إليه . فسار ، وهما معه قليلاً ، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه ؛ فهرب أصحابه وأخذ أسيراً ، ولم يمكنهم قتله بغير أمر^(١) أسد الدين ، فسجنوه في خيمته وتوكلوا بحفظه . فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً ، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه . وأرسل العاضد لدين الله ، صاحب مصر ، في الوقت ، إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله ؛ وتابع الرسل بذلك . فقتل شاور في يومه ، وهو سابع عشر ربيع الآخر ، وحمل رأسه إلى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه^(٢) على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ؛ فقصدوا الناس ينهبونها ، فتفرقوا عنه . هذا قول ابن الأثير .

وقال ابن شداد^(٣) : أقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان ، وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة ، فلم يوصل إليهم شيئاً . وعلقت مغاليب الأسد في البلاد ، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن ترددهم إليها في كل وقت لا يفيد ، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالإفرتج أخرى ، وملاً كما قد كانوا على البدعة

(١) في ل ١٢١ : إذن .

(٢) في ل ١٢١ ب : ماخافه .

(٣) في النوادر السلطانية : ٣١ - ٣٢ .

المشهوره عنهم ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور . فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم ، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به . وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والقلم ، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلا السلطان نفسه ، يعنى صلاح الدين ، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً وسار إلى جانبه ثم أخذ بتلابيبه ، وأسر العسكر أن خذوا على أصحابه ، ففروا ونهبهم العسكر ، وقُبض شاور وأُنزل إلى خيمة مفردة . وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول لا بد من رأسه ، جرياً على عاداتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه ، فحزت رقبتة وأنفذوا رأسه إليهم .

قال العماد : ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان ، وخُلع عليه ولقى الإحسان . وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد ، وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد . وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة ، والأطعمة الواسعة ، والحلاوات والميرة . فقال صلاح الدين : هذا أمر يطول ، ومسألة فرضها يقول ، ومعنا هذا العسكر الثقيل ، وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل ، ولا أمر لنا مع استيلاء (١٢١ - ب) شاور ، ولا سيما إذا راوغ وغادر . فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى^(١) إلى شاور يشير عليه بالاحتراز^(٢) ، وقال له : أخشى عليك من عندي من الناس . فلم يكثر بمقاله ، وركب على سبيل انبساطه واسترساله ، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النورية وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية ، فبغته وشجته ، وقبضه وأثبتته ، ووكل به في خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله . فجاء من القصر من يطلب رأسه ، ويمجّل من العمر رأسه . وجاء الرسول بعد الرسول ، وأبوا أن يرجعوا إلا بنجاح الشؤل . فحم حمامه ، وحمل إلى القصر هامة .

قلت : وبلغنى أن الذى حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك . وكان صلاح الدين

(١) أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد المكارى ، وسيكون له دور كبير في تجميع الكلمة حول صلاح الدين عند توليه وزارة مصر ، كما سيأتى . تولى سنة ٥٨٥ بعد حياة حافلة بالكفاح الحربى والعلى إلى جانب صلاح الدين الأيوبي . انظر وفيات الأعيان .
(٢) فى ل ١٢١ ب ، وكذلك فى ن : بالاحتراز .

المباقيهم في أصحابه سار بجانبه وأراد إفراجه عن العسكر ، فالتبس منه المسابقة بقرسئهما ، فأجابه ، ووافقهما في ذلك جرديك . وكان ذلك عن أمر قد تقرر ، فحركوا خيلهم ، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة .

وقد كثر هجاء شاور بغيره ومكره حتى قال عرقلة :

لقد فاز بالملك العقيم خليفة له شيركوه العاضد وزير
كان ابن شاذي والصلاح وسيفه على لديه شير وشير^(١)
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى ، حتى لقد قال قائل على مثلهما كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ولا زال فيها منكر ونكير
وقال أيضا :

إن أمير المؤمنين الذي مصر حياه وعلى أبو
نص على شاور فرعونها ونص موساه على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليماني في كتاب الوزراء المصرية الذي صنفه حال شاور في وزارته الأولى^(٢) ، ثم قال : وزارة^(٣) شاور الثانية : فيها تكشفت صفحاته ، وأحرقت لفحاته ، وأغرقت نفحاته ، وغضه الدهر وعضه ، وأوجعه الشكل وأمضه ، وبان غمره وثماده ، وجره ورماده ، ولم يحف من الأنكاد لبدته ، ولا صفا من الأقدام وزده . وما هو إلا أن تسلمها بالراحة ، وسلمت له الموم عوضاً عن الراحة .

وفي أول ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بابيس ، فأقام بها ، ثم عاد إلى القاهرة ، فسكس الناس يوم التاج وأسر أخوه صبح ، وأصيب على باب القنطرة بحجر

(١) شير وشير إسمان الحسن والحسين ولدى على بن أبي طالب . وقد جاء في اللسان : شير وشير ومشير أولاد هارون على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ومعناها بالعربية حسن وحسين وحسن . وبها سمي على أولاده . انظر لسان العرب ، وانظر كذلك : مفرج الكروب : ١ : ١٦٧ حاشية ٢ .

(٢) النكت المصرية : ٦٧ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ٧٨ - ٨١ .

كاد يموت منه ، وتعقب ذلك تنقل^(١) القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة . ثم تبع هذا مجيء الفرنج ، وعمل البرج ، وحصار بلبيس ؛ ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة ؛ ثم تلا ذلك نفاق لوائمة ومن ضامها من قيس ، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم (١٢٢) ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر . وفي أثناء هذه المدة قبضه على الأثير بن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله .

واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى إطفح بأم النوايب [الكبر] ^(٢) ؛ ووافق مجيء الغز قدوم الفرنج ناصر بن للدولة ، وتوجهوا من مصر في البر الشرقى تابعين للغز . ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ، ما تنقطع دونه الآمال ، وخيموا على ساحل المتقسم ، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ؛ فتجهز الكامل للمسير صحبة الإفرنج . حدثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم ^(٣) بن علي البيساني ، قال : أنا أذكر وقد خلونا في خيمة وليس معنا أحد ، إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم ، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج ، وعزم نجم الدين على التغريب إلى سليم وما وراءها ، وقال شاور : لكن لا أبرح أقاتل بمن صفًا معي حتى أموت . فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوى وصنيعة الملك جوهر وعز^(٤) [الأستاذ] وقد التزموا المال . وتفرع على هذا الأصل مقام الغز بالجيزة ، ونوبة البابيين ، وحصار الإسكندرية ، وانصراف الغز راجعين ، والفرنج بعدهم .

فما هو إلا أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا ، وصفح عن عادته وعفا ؛ وإذا الأيام لا تحطب إلا زواله وفوته ، ولا تريد إلا انتقاله وموته . فكان من قدوم الفرنج إلى بلبيس وقتل من فيها وأسره بأسرهم ما أوجب حريق مصر ، وكاتبة الأجل نور الدين بن القسيم ،

(١) في النسك : تثقيل .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٢٢ ١ ، وهي مشبهة كذلك في النسك : ٧٩ .

(٣) في ل ١٢٢ ب : الرحمن ، وهو خطأ من النسخ .

(٤) الاضافة من النسك المصرية : ٨٠ .

وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قُلت فيهم وقد ربط الإفرنج الطريق عليهم :

أخذنهم على الإفرنج كل ثلثة وقتلهم لأيدى الخيل مرّى على مرّى
لأن نصبوا في البر جسراً ، فإنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر
قلت : وهذان البيتان من قصيدة ستأنى . ومُرّى هو اسم ملك الإفرنج .

قال عمارة^(١) : ففضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية ، ولم يلبث شاور
أن مات قتيلاً بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً . وهذه السنوات التي وُزر فيها شاور وزارته
الثانية كثيرة الوقائع والنوادر ، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له^(٢) .

قال^(٣) : ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما ربح الصالح بن رزّك ، ولا أفنى
أعيانهم مثل ضرغام ، وكانت وزارته تسعة أشهر مدة حمل الجنين ، ولا أتلّف أموالهم
مثل شاور ؛ و شاور هو الذي أطمع الغز والإفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها .

ولما^(٤) عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق : كان يأمر بضرب
الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار .

وقال الحافظ أبو القاسم : لما خيف من شر شاور ومكره ، لما عرف من غدره وضرّه ،
واتضح الأمر في (١٢٢ ب) ذلك واستبان ، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان . فجاءه
قاصداً لعيادته ، جاريّاً في خدمته على عادته ؛ فوثب جُرديك و برغش ، مولياً نور الدين ،
فقتلا شاورا ، وأراحا العباد والبلاد من شره وما شاورا . وكان ذلك برأى صلاح الدين ،
فإنه أول من تولى القبض عليه ، ومد يده السكرية بالسكر وه إليه . رصف الأمر لأسد الدين
وملك ، وخلع عليه الخلع وحُذِنك ؛ واستولى أصحابه على البلاد ، وجرت أموره على السداد ،
وظهر منه جميل السيرة ؛ وظهرت كلمة السنة .

(١) استمرار للاقتباس السابق .

(٢) نهاية هذا الاقتباس .

(٣) في النسك المصرية : ٨٨ .

(٤) النسك المصرية : ٨٧ .

فصل

في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر . أنفذ إلى أسد الدين خاتمة الوزارة فلبسها ، وسار ودخل القصر ، وترتب وزيراً ، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة^(١) فنزلها ، وهي التي كان بها شاور قمن قبله من الوزراء ، فلم ير فيها ما يبعد عليه . واستقر في الأمر ولم يبق له فيه منازع ولا مناوئ . وولى الأعمال من يثق إليه ، واستبد بالولاية ، فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه ؛ وصالح الدين مباشر للأمور مقرر لها ، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمساكن كفايته ودرايته ، وحسن تأنيبه وسياسته^(٢) .

قال العماد : وكتب لأسد الدين منشور من القصر ، بسيط الشرح طويل الطي والنشر ، كتب العاضد في طرئه بخطه ، ولا شك أنه بإملاء كاتبه^(٣) : « هذا عهد لاهم لوزير بمنته^(٤) ، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله ، والحجة عليك عند الله بما أوصيحه لك من مرشد سبله . فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزرت^(٥) خدمتك إلى بنوة النبوة . واتخذ للفرز سبيلاً ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً^(٦) » .

ونسخة المنشور : « من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، ولي الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضية المسلمين ، وهادي دعاء المؤمنين ، أبي الحارث شيركوه العاضدي ، عضد الله

(١) هي الدار التي أنشأها الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي وأصبحت من بعده مقراً للوزراء ، ثم للأيوبيين متخذة اسم دار السلطنة أو الدار السلطانية ، ثم صارت داراً للضيافة بعد أن انتقل عنها الملك الكامل الأيوبي إلى القلعة . انظر خطط المقرري .

(٢) مصدر هذه الفقرة الأتابكة : ٢٥٣ ؛ وقد تصرف فيها أبو شامة بحرية كاملة في حدود الفكرة

(٣) في ل ١١٢٣ : كتابه . وفي مفرج الكروب (١ : ١٦٤) : وكتب له منشور بالإشارة الفاضل .

(٤) في مفرج الكروب (١ : ١٦٥) : هذا عهد لم عهد لوزير بمنته .

(٥) التلبس واتصلت .

(٦) سورة النحل : ٩١ .

به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته . سلام عليك ، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهديين وسلم تسليماً .

ثم ذكر باقى المنشور ، وهو مشتمل على كلام طويل ، وحشو غير قليل ، على عادة الكتاب المتأخرين الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين ، والبلاغة عكس ذلك . قال النهى صلى الله عليه وسلم : « بُعثت بجوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصاراً » .

ولما استقل أسد الدين (١٢٣) بالوزارة طلب من القصر كاتب لإنشاء ، فأرسل إليه بالقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى . وكان أبوه من أهل بيسان^(١) الشام . ثم ولى قضاء عسقلان ؛ وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولى كاتباً بالإسكندرية على باب السدرة . ثم إنه اتصل بالسكامل بن شاور فاستسكنه وزاحم به ككتاب القصر ، ففعل عليهم أمره ، فلما طلب أسد الدين كاتباً أرسل إليه ، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم ، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله ، فأرسلوا بالفاضل إليه وقالوا له يُقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا . فكان من أمره ما كان ، واستمر فى الدولة ، ولم يزد فى كل يوم إلا تقدماً ، بصدقه ودينه وحسن رأيه ، رحمه الله .

وأفخذ العباد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أولها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب	كم راحة جُنيت من دوحة التعب
ياشير كوه بن شاذى الملك دعوة مَنْ	نادى ، فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم	من المدى فى العلا ما حزت بالخب
تملّ من ملك مصر رتبة قصر	عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها	ميسراً فتح بيت القدس عن كشب

(١) بالأردن بالغور الشامى بن لعلبى حوران وفلسطين ، يذكر ياقوت أنها وبشة حارة وأهلها سم الوجوه جمعد الشمور لشدة الحرارة . معجم البلدان : ٢ : ٣٣١ - ٣٣٣ .

قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
أنت الذى هو فرد من بسالته
في خلق ذى الشرك من عدوى سطاك شجراً
زارت بنى الأسفر الببيض التي لقيت
وإنها نقد^(١) من خلفها أسد
لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا
شكاً إليك بنو الإسلام يُتهمهم
في كل دار من الإفرنج نادرة
من شر شاور أنقذت العباد ، فكم
هو الذى أطعم الإفرنج في بلد الـ
وإن ذلك عند الله محتسب
أذله [الملك]^(٢) المنصور منتصراً
وما غضبتَ لدين الله منتقماً
وأنت من وقعت في الكفر هيئته
وحين سرت إلى الكفار فانهزموا
يا محيي الأمة الهادي بدعوته
(١٢٣ ب) لما سمعت أوجه ' الله مرتقباً
أعدت نقمة مصر نعمة ، فعدت
أركبت رأس سنان رأس ظالمها
ردّ الخلافة عباسية ، ودع الد (م) عى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطن ذنب الأفعى وترسله فالخزم عدى^(٤) قطع الرأس كالذنب^(٥)

فتح البلاد ، فبادر نحوها ، وثب
والدين من عرفه في جحفل لجب
والقاب في شجن ، والنفس في شجب
حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
أرى سلامتها من أعجب العجب
في شكرنا ما به الإسلام منك حى
فقت فيهم مقام الوالد الحبيب
بما دهام ، فقد باتوا على نذب
وكم قضيت لحزب الله من أرب
إسلام حتى سقوا للقصد والطلب
في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
لما دعا الشرك : هذا قد تعزى إلى
إلا لنيل رضا الرحمن بالغضب
وفي ذويه وقوع النار في الخطب
نصرت نصر رسول الله بالرب
لارشده كل غوى منهم وغى
ثوابه ، نلت عفواً كل مرتقب
تقول : كم نكت الله في النكب^(٣)
عدلا ، وكنت لوزير غير مرتكب
ردّ الخلافة عباسية ، ودع الد (م) عى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطن ذنب الأفعى وترسله فالخزم عدى^(٤) قطع الرأس كالذنب^(٥)

(١) النقد : الفم الصفار الحجازية ، أو هي جنس من الفم قصار الأرجل .

(٢) ساقطة من ك ، وهي كذلك في ل ١٢٣ ب ، وفي ق ١٢٢ ب .

(٣) في المفرج (١ : ١٦٧) : نقول لكم نكت الله في النوب .

(٤) في ل ١٢٣ ب : عند ؛ وبه لا يستقيم وزن البيت .

(٥) في مفرج الكروب ١ : ١٦٧ : والذنب .

وقال العباد في الحريرة^(١) : أنشدني الحافظ أبو القاسم^(٢) لنفسه ، وقد أعنى الملك
العاذل نور الدين ، قدس الله روحه ، أهل دمشق من المطالبة بالخشب فورد الخبر باستيلاء
عسكره على مصر ، فكتب إليه يهنئه^(٣) :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب غوّضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر في ذلك عند الله مرتقب فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخبر بين الناس تسكبه خير من القضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد أصبحت تلك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممثلاً^(٤) لما تريد ، فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمة حتى ينال بها العالی من الرتب
فالجُدُّ والجُدُّ مقرونان في قرن والحزم في العزم ، والإدراك بالطلب^(٥)
فطهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات ، والإشراك ، والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنائاً وفي القيامة تلقى خير منقلب^(٦)

فصل

في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة
فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام .

(١) قسم شعراء الشام : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر صاحب موسوعة تاريخ دمشق .

(٣) في الحريرة : قسم شعراء الشام : ١ : ٢٧٦ . وأملأه على في الثاني والعشرين من جمادى الأولى
سنة أربع وستين وخمسمائة .

(٤) في ل ١٢٤ : ١ : ممثلاً ، وكذلك في ق ١٢٢ ب ؛ وهو خطأ .

(٥) في الحريرة : في الطلب ، والثبت هنا أولى .

(٦) في الحريرة : حسن منقلب .

وقال ابن شداد^(١) : كان أسد الدين كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة ، تتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد ، واعتراه خانوق عظيم ، فقتله رحمه الله . وفُوض الأمر بعده إلى صلاح الدين واستقرت القواعد واستتبّت الأحوال على أحسن نظام . وبذل الأموال ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فلما كتبها ، وشكر نعمة الله عليه فتأب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الجدة والاجتهاد ، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدًا ، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحته . ولقد سمعت منه ، رحمه الله ، يقول : لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي . ومن حين استتب له الأمر مازال يشن الغارات على الفرنج إلى السرك والشوبك وبلادهما ، وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ من غير تلك الأيام . هذا كله وهو وزير متابع للقوم^(٢) ، لكنه (١٢٤ - ١) مؤتمو مذهب السنة ، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون إليه من كل جانب ؛ وهو رحمه الله ، لا يجيب قاصداً ، ولا يعدم وافداً .

ولما^(٣) عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حصص من نواب أسد الدين ، وذلك في رجب من هذه السنة .

وقال ابن الأثير^(٤) : أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء الثورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على المساكر وولاية الوزارة ، منهم الأمير عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين خسرو بن تليل ، وهو ابن أخى أبى الهيجاء الهذبانى الذى كان صاحب إربل ، ومنهم سيف الدين على بن أحمد الهكاري^(٥) ، وجده كان صاحب قلاع الهكارية ، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين ؛ وكل من هؤلاء

(١) فى النواذر السلطانية : ٣٢ - ٣٣ : وهو اقتباس حرفى .

(٢) أى للفاطميين الشيعة .

(٣) نفس المصدر .

(٤) فى الأتابكة : ٢٥٥ - ٢٥٨ ، وهو اقتباس حرفى طويل .

(٥) فى مفرج الكروب (١ : ١٦٨) : سيف الدين على بن أحمد المشطوب .

قد خطبها ، وقد جمع ليغالب عليها . فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين ، فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ، ويوليه الأمر بعد عمه .

وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال ، كان في ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتمود البلاد إليه ، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين . فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام ، فألزم به وأخذ كارهاً . إن الله ليمجّب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل ! فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة : الجبة والعمامة وغيرهما^(١) ، ولقب بالملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه .

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى المسكاري^(٢) معه فسمى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له : إن صلاح الدين هو ابن أختك وملسكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تسكن أول من يسمى في إخراجه عنه فلا يصل إليك ؛ ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين وقال له : إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير اليازوقي ، وعلى كل حال فالجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك ؛ ووعده وزاد في إقطاعه ؛ فأطاع صلاح الدين أيضاً . وعدل إلى عين الدولة اليازوقي ، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً ، فلم تنفعه رُقام ولا نفذ فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبداً ، (١٢٤ - ب) وعاد إلى نور الدين ومعه غيره ، فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وثبت قدم صلاح الدين وزسج ملسكه ؛

(١) سيرد وصف هذه الخلع فيما بعد اقتباساً من وصف ابن أبي طي لها .

(٢) تقدم شيء من التبريف به وسيكرر ذكره فيما بعد في مناسبات عدة .

وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره .

وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار^(١) ويكتب علامته^(٢) في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه ، ولا يفرد في كتاب بل يكتب : الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا .

واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أشد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرج به ، فلم يمكنه منعه . فقال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، وكان كالباحث عن حقه بظلمه .

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته ، فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر ، فسير نور الدين العساكر ، وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين^(٣) فلما أراد أن يسير قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسير ، فإنك تنسد البلاد ، وأحضر ك حينئذ وأعانبك بما تستحقه ؛ وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدد . فقال : أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى . فكان كما قال .

(١) اصطلاح عسكري مركب من كلمتين : أسفه = مقدم ، وهى فارسية ، سار = عسكر . وهى تركية ، فعناه : مقدم العسكر . وقد استعمل هذا الاصطلاح منذ العهد الفاطمى ، وتغير معناه تغيراً طفيفاً بمرور الزمن وبفترة فاصلة في العصر المملوكى ، لكنه لم يخرج عن دائرة النظام العسكرى . انظر صبح الأعشى : ٣ ، ٦ .

(٢) العلامة اصطلاح يختاره الخليفة أو السلطان لموقع به على المنشورات والأوامر الرسمية ، وهى عبارة عن آية قرآنية أو حديث أو قول مأثور أو اقتباس شهير ، وقد تكون توقيعاً بالاسم . انظر الخطوط العرفية : ٣ ، والساوك : ١ : ٣٤٤ حاشية : ١ .

(٣) كان لتورانشاه جهد واضح إلى جانب أخيه صلاح الدين . ذلك أنه فتح النوبة سنة ٥٦٨ هـ ، واليمن سنة ٥٦٩ هـ وحكم بها نيابة عن أخيه . ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٧١ هـ وبقي بها حتى أتاه أخوه عنه فى الاسكندرية سنة ٥٧٦ هـ ، وبها ترض وتوفى . وسيرد تفصيل كل هذا فى موضعه . انظر أيضاً وفيات الأعيان : ١ : ٩٩ - ١٠٠ .

وقال العباد : لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم ، وكاد الشمل لا ينتظم ، والخلل لا يلتئم . فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة ، وأيد متساعدة ، وعقدوا اصلاح الدين الرأى والراية ، وأخلصوا له الولاء والولابة ، وقالوا : هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه ، والتزموا لصاحب القصر^(١) بتوليته . ونادت السعادة بتلميذه ، وشرع في ترتيب الملك وتربيته ، وفض ختوم الخزائن ، وأبض رسوم المزانن ، وسلط الجود على الموجود ، وبسط الوفور للوفود ، وفرق ما جمعه أسد الدين في حياته . وأنارت على منار الملا أناة آياته ، ورأى أوليائه تحت أويته وراياته ، وأحبوه ، وما زالت محبته غالبة على مهايته ، وهو يبالغ في تقريبيهم كأنهم ذرو قرابته . وما زاده الملك ترفعا ، وما أفاده إلا تأصلا في السماح وتفردا ؛ وضم من أمر المملكة ما كان منشورا ، وكتب له العاضد صاحب القصر منشورا ، وهو بالمثل الكريم الفاضل الذى هو السحر الحلال ، والعذب الزلال . ثم أورده العباد وهو شبيه بمنشور عمه أسد الدين^(٢) . وجرى القلم فيه بما خط له القلم فى الأزل من وصف (١٢٥ - ١) جهاده وسلمه .

ففى ذلك المنشور : « والجهاد أنت رضيع دَرَّة ، وناشئة حِجره ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الخيام مساكنك ، وفى ظلمات قساطله تجلج محاسنك ، وفى أعقاب نوازله تتلى مفاقبك . فشمّر له عن ساق من القنا ، وخُض فيه بجرأ من الظبا ، واحلل فى عقد كلمة الله وثيقات الحب ، وأسِل الوهاد بدم العدا ، وارفع برءوسهم الربا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذكورا لأيامك ، وشهوداً لك يوم مقامك » .

وفى طرته بالخط العاضدى ، ولم يذكره العباد فى كتابه : « هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله سبحانه عليك ، فأوف بعهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة ، ولن تبقى بثقته بنا أعظم سلوة . تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »^(٣) .

(١) فى ل ١٢٥ ، وكذلك فى ن : وألزموا صاحب القصر .

(٢) فى ل ١٢٥ : بمنشور أسد الدين عمه ، وكذلك فى ن ١٢٤ .

(٣) سورة القصص : ٨٣ .

يعنى بمن مضى أسد الدين و بمن بقى صلاح الدين .
ثم قال العماد : وهذا آخر منشور طُويت به تلك الدولة و خُتمت ، و تبددت عقودها
وما انتظمت .

و وصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام ، بما تسنى له من المرام ، و لمن يقصده
بالاستدعاء والاستبطاء ، و لمن تأخر عنه بالخلع والعطاء . و ترددت الكتب الصلاحية
بذكر الأشواق ، وشكوى الفراق ، و شرح الاستيحاش ، و برج القلوب العطاش ، فإن
أصحابنا وإن ملكوا ، و نالوا مقاصدهم وأدركوا ، حصلوا بين أمة لا يعرفونها ، بل ينسكرونها
ولا يألونها ، و رأوا وجوهاً هناك بهم عابسة ، وأعيناً للمكائد متيقظة ، وعن الود ناعسة ،
فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين ، وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين .

و كتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوله :

أيها الغائبون عني ، وإن كنتم تم لقابي بذكركم جيرانا
إني منذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عياناً
فسألني المکتوب إليه أن أكتب جوابه ، فقلت :

أيها الظاعنون عني ، وقلبي معهم لا يفارق الأظمانا^(١)
ملكوا مصر مثل قلبي ، وفي هـ هذا وهاتيك أصبحوا سكاناً
فاعدلوا فيهما فإنكم اليوم م ملكتم عليهما سلطاناً
لا ترؤعوا بالهجر قلب محب أورثته روعاته^(٢) الخفقانا
حبذا معمد قضينا به العيد ش فكنا بربره جيرانا
إذ وجدنا من الحوادث أمداً وأخذنا من الخطوب أماناً
ورتعنا من المنى في رياض وسكنا من المغاني جنانا
وبعد ، فإن وفود الهداء ، وأمداد الدعاء ، متواصلة على الولاء ، صادرة عن محض

(١) في مفرج الكروب (١ : ١٧٢) : ما يفارق الأشجانا .

(٢) في مفرج الكروب : أوصابه .

الولاء ، إلى غاية^(١) جذابه المأنوس ، ومنيع كنفه المحروس ، فليهنه الظفران : بالملك
وبالعدو ، وفرع هضاب الجحد والعلو ؛ وكيف لا يكون النصر مساوقا لدين هو صلاحه ،
والتأييد مرافقا لعزم هو نجاحه وفلاحه :

(١٢٥ب) فالشام يغبط مصراً مذ حلت بها كما الفرات عليكم يحسد النيل
فلتم من الملك عفواً ما الملوك به عُنُوا قديماً وراموه فما نِيلا
قال العماد : ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين وعزيت بها أخاه
نجم الدين ، منها :

تضعضع في هذا المصاب المباغت	من الدين ، لولا نوره ، كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة	لنا ، خلفاً من كل مودٍ وفائت
فما بالنار نبدى التصامم غفلة	وداعى المنايا ناطق غير صامت
نؤمل في دار الفناء بقاءنا	ونرجو من الدنيا صداقة ماقت
وما الناس إلا كالغصون ، يد الردى	تقرّب منها كل عود لناحت
لقد أبلغت رُسُل المنايا وأسمعت	ولكنها لم تحظ منا بناصت
فلهي على تلك الشائل ، إنها	لقد كُرمت في الحسن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين محمد ، يقول :

ما بعد يومك المعنى المدنف	غير العويل وحسرة المتأسف
مما أجزأ الحدثنان كيف سطا على	أسد الخوف سطا ولم يتخوف ^(٢)
من ذا رأى الأسد المحصور فريسة	أم أبصر الصبح المنير وقد خفي ^(٣)
من ثابت دون السكاة سواء إن	زلت بهم أقدامهم في الموقف ؟

(١) في ل ١٢٥ ب ، وكذلك في ق ، وفي مفرج الكروب (١٢٣ : ١) على .

(٢) في مفرج الكروب : ١ : ١٢١ .

مما أجزأ الحدثنان ، كيف عدا على أسد الخوف سطا ولم يتوقف
(٣) يتبادل هذا البيت والذي بعده مكائهما في مفرج الكروب .

ما كان أسفى البدر لو لم يستتر
(ما كنت أخشى أن يُلمّ ماله
أيام عرك لم تزل مقسومة
متجداً لعبادة ، أو تاليا
فُجّع الندى والبأس منك بجاتم
بالمملك فزت ، وحزته عن قدرة
ووصفت ، يا أسداً لدين محمد ،
وقفوت آثار الشريعة كلها
[أنفت من دنياك حين عرفتها

ومنها :

يا ناصر الدين استعذ بتصبر مُدْنٍ إلى مرضاة ربّ مزلف
وتعزّ نجم الدين عنه مهناً أبد الزمان بملك مصر ويوسف
لاستطيع سوى الدعاء ، فكلنا " إلا بما فى الوسع ، غير مكلف

ولعمارة اليمنى فى صلاح الدين مدائح ، منها قوله (٣) :

لك الحسبُ الباقي على عقب الدهر بل الشرف الراقى إلى قبة النسر
كذا فليكن سعى الملوك إذا سعت بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة أقلمتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتهم عن الإقليم غمته ، كما كسفتهم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
حميتهم من الإفرنج سرب خلافة جريتم لها مجرى الأمان من الدهر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم ودائرة الأنصار أضيق من شبر

(١) هذا البيت ساقط من ل ١٢٦ وكذلك من ق ١٢٥ ، ومن مفرج الكروب .

(٢) هذا البيت موجود فى ل ١٢٦ وكذلك فى ق ١٢٥ وفى مفرج الكروب : ١٧٢:١ ؛
وهو ساقط من الأصل .

(٣) فى دابون عمارة الملاحق بكتاب النكت المصرية ثمانية عشر بيتاً من هذه القصيدة : ٢٧٠-٢٧١ .

(١٢٦) جلبتم إليه النصر أوساً وخزرجاً
 كتائب ، في جَيرون منها أواخر
 طلعت فاطمتكم كواكب نصره
 وآبت إليكم يا ابن أيوب دولة
 حمى الله فيكم عزيمة أسدية
 أخذتم على الإفرنج كل ثنية
 لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم
 طريق تقارعت عليها مع العدا
 وأزعجه من مصر خوف يلزُهُ
 وم وقعة عذراء لما افتضضتها
 وأيديكم بالبأس كاسرة العدا
 أبوك الذي أنحى ذخيرة مجدهم
 ومن كنت معزوفاً له فاستغفره
 فكيف أبٌ أصبحت نار زناده
 توفره وسط الندى كرامة
 وتختلفه حرباً وسلاماً خلافة
 وم قت في بأس ، وجود ، ورتبة
 ولو أنطق الله الجادات لم تقم
 يد لا ينوب المسمون بشكرها
 بكم أمّن الرحمن أعظم يثرب
 ولو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى
 ولكن شددتم أزره بوزارة

وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
 وأوها بالنيل من شاطئ مصر
 أضاءت ، وكان الدين ليلاً بلا فجر
 ترأسكم في كل يوم مع السفر
 فسكنكم بها الإسلام من ربة الأسر^(١)
 وقتلتم لأيدى الخيل مرى على مرى
 عبرتم ببحر من حديد على الجسر
 ففزتم بها ، والصخر يقرع بالصخر
 كما لز مهزوم من الليل بالفجر
 بسيفك لم تترك لفريك من عذر
 ولكنها بالجود جارة الكسر
 وأنت له خير النفائس والذخر
 بمثلك تيه فهو في أوسع العذر
 وإلا كنور البدن من سنه البدر
 وتحمل عنه مايؤود من الوقر
 تؤلف أضداداً من الماء والجمر
 بما سره في الخطب ، والدست ، والشعر
 إنعمتكم بالمستحق من الشكر
 لكم آل أيوب إلى آخر الدهر
 وأمن أركان الثنية والحجر
 بساط الهدى من ساحة البر والبحر
 غدا لفظها يشق من شدة الأزر

(١) فهو ديوان عمارة : من ربة الكفر .

فَهْ يُنْتَمِ . فَتَحَا . تَقْدَمُ جَاهُ
وما بقيت في الشرك إلا بقية
وعند تمام الملك آتى مهنثا
ولولا اعتقادي أن مدحك قرينة
لما قلت شعراً بعد إعفاء خاطري
فأوص بـ الأيام خيراً ، فإنها
وجائزتي تسهيل إذني عليكم
وقال أيضاً من قصيدة :

يا شبيه الصديق عدلاً وحسناً
هذه مصر يوسف ، حل فيها
أنت حرمت أن يثلك فيها
إنما الملك والوزارة جسم
(١٢٦ ب) وقال أيضاً من قصيدة (١) :

ملك صلاح الدين ، لا قوضت
سيرة عدل حسنت عندنا
سافر في الدنيا وأقطارها
قل لابن أيوب ، وكم ناصح
حارب على مثل نجوم السما
قولاً لمن في عزمه فترة
فالقُدس قد أذن لإغلاقه
وقال أيضاً من قصيدة :

ونبت بمصر عن سميك يوسف
كما ناب عن سكب الحيا واكف سكب

(١) في النكت المصرية : ١٩٢ - ١٩٣ قصيدة من افس الوزن والغاية ، وهي أيضاً في مدح صلاح الدين ، وأرجح أن ما ذكر هنا هو بعض هذه القصيدة .
(٢) بقطع الهزة .

حذرت على سَجَلِي نداء وهدية وإن كنت لاسجن لحوالك ولا جُب
ووافقت في الصنح عن كل مذنب فما منك تثريب وإن عظم الخطب
ولالحكيم عبد المنعم الجلياني من قصيدة طويلة :

أبو المظفر مأوى كل مضطهد^(١) بحلمه^(٢) ونداء يضرب المثل
مهما يمل جائر أو عاثت عَمَهُ فعند عدل صلاح الدين يعتدل
أحيا به الله مصرأ فمى ناشزة وافتكها من عدو ما به قبل
كم للفرنج بها ورداً ومنتهجاً ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفاً الناصر المنصور جذوتهم وأدبروا بقلوب شهمها وجل
ملك تقلد سلك الملك منتظماً وقال للمال هذا منك لى بدل
ففرق المال جمعاً للقلوب به وحسبه فيهم إدراك ما سألو
إن الملوك الذين امتد أمرهم لم يخزنوا المال ، بل مهما حووا بذلو
كذا السياسة ، فالأجناد لو علموا بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

فصل

وهذا الذى ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت
وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى
ابن أبى طى الحلبي في السيرة الصلاحية ، فأحببت ذكره مختصراً .

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن رزك^(٣) ، وزير الديار المصرية ، لما قُتل في رمضان
سنة ست وخمسين ، بتدبير عمه العاضد عليه ، أوصى عند موته ابنه رزك بشاور ، وقال

(١) فى ق ١١٢٦ : مضطيد .

(٢) فى ق ١١٢٦ : بحكمة ، وكذلك فى ل .

(٣) تولى وزارة مصر سنة ٥٤٩ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها الفاطمى الخلافة وبقى طول عهد
الفائز ، إلى سنة ٥٥٥ هـ ، وأوائل عهد العاضد ، فى الوزارة ، حتى اغتيل فى دهليز القصر ، سنة ٥٥٦ هـ ،
بتدبير عمه العاضد وأمرها عليه . وكان للصالح طلائع بن رزك لشاط حربي كبير فى الشام ضده الصليبيين
ومحاولات للتعاقد مع نور الدين محمود ضد من استقر منهم بأرض الشام وفلسطين ، ليطرد وفيات الأعيان
١٠ هـ ، والنجوم الزاهرة ، وخريدة القصر : قسم شعراء مصر : ١٠ هـ ، وكذلك : الفاطميون فى مصر .

له : لا تزلزله من ولايته فإنه أسلم لك . ويقال إنه أنشد أبياتاً منها:-

فإذا تبدد شمل عقدك لا تأمنا من شاور السعدى

وكان شاور متولى قوص والصعيد الأعلى ؛ فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعدل . ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمه العاضد فحنقه ؛ واجتمع إلى رزيك أولاد عمته ، ومن جملتهم عز الدين حسام ، وأشاروا عليه بعزل شاور ، فامتنع ، ثم ألخوا عليه فأجاب . وبلغ شاوراً فجاهر بالعصيان وجمع العربان وأهل الصعيد وصار^(١) إلى القاهرة ، وخرج إليه جماعة من أسرائها كانوا كاتبوه ، فخرج رزيك تحت الليل (١٢٧) فضل الطريق وتاه ، فوقع عند إطفيح ، وتم بيوت عرب ، فقبضوا عليه ؛ وحمل إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلمها ، وأخرجت إليه خايم الوزارة وتم أمره .

ولما حصل رزيك عند شاور أكرمه وصاب الذى أتى به ونادى عليه : هذا جزاء من لا يراعى^(٢) الجليل ؛ وكان للصالح إليه إحسان . وتفرق آل رزيك في البلاد ، ونجا حسام الذى كان سبب هلاك بنى رزيك بأموال وصار إلى حماة فأقام بها واشترى القرى ، ولم يزل بها إلى أن مات . وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعمائة ألف دينار فوفوا له وردوها عليه . ثم أراد تقي الدين أخذها منه ، فقال : من العجب أن الفرنجى يبنى لى بردها وتأخذها أنت منى . فكف عنه .

وتمكن شاور ، وكان له ثلاثة أولاد : طي ، والكامل ، وسليمان ، فتبسطوا على الناس وتماظموا فمجتهم الأنفس .

وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك ؛ فلما شاهد ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذوا في مراسلة رزيك بن الصالح ، وهو في السجن ، والعمل له في إعادته إلى الوزارة . واتصل ذلك بطي بن شاور ، فدخل على أبيه وقال له : أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك ، وقد شرعا في أمر رزيك واستحلوا له جماعة من الأمراء ، ولا يمكن تلافى حالك إلا بقتل رزيك . فقال له : إن الصالح أولانى جيلا وبسببه

(١) فى ل ١٢٧ ا : وسار .

(٢) فى ل ١٢٧ ب : لا يراعى .

حالت هذا المحل . فتركه ولده طي ، ودخل على رزيك فقتله في سجنه ، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته ؛ ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا^(١) وأثارا من استخلفاه من الأمراء ، وزحفا بالعساكر [إلى شاور]^(٢) فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب إلى الشام . وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلهم ، وأسر السكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده ، وأراد ضرغام قتله فذمه منه ملهم وحفظ له جميلا كان قد فعله معه .

واستقر أمر ضرغام في الوزارة وبلغ عليه ولقب بالملك المنصور . ولما استقر به الأمر بلغه أن جماعة من الأمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاورا ، وكان صار إلى الشام ، فأخذ في أعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا ، ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنازلهم . وقيل إنه قتل منهم سبعين أميرا ، ويقال إنه جعلهم في توايت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه ، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه ، وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء .

وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحفة قتل ولديه . ولما وصل إلى بصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة إلى تلقّيه ، وأنزله في جوسق^(٣) الميدان الأخضر ، وأحسن ضيافته وإكرامه . ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه (١٢٧ ب) الدمشقيين وقال لهم : اخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه أعذارنا في التقصير في حقّه ، وسلوه فيما قدم ، وما حاجته ، فإن كان ورد علينا مختارا للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأربه وأوده ، ونكون عونًا له على زمانه ، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته ، فخرج الجماعة [إليه]^(٤) بالرسالة فشكر إحسان نور الدين وسكت عما وراء ذلك . فسأله القوم الجواب ، فقال : إذا لم يبيّث الرأي جاء فطيّرا . فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه ،

(١) في ل ١٢٧ ب . فثاروا ، وكذلك في ق ١٢٦ ب ، وهو خطأ .

(٢) ما بين الماصرين من ل ١٢٧ ب ، ومن ق ١٢٦ ب .

(٣) الجوسق معرب اللفظ الفارسي كوسك ، ومعناه القصر ، ويجمع على جواسق ، انظر السلوك :

٥٩٩ : ١ .

(٤) الإضافة من ل ١٢٨ ا

فأمرهم بالعود إليه من غدٍ ذلك اليوم ، ففعلوا ، وطلبوا الجواب ، فسكت وأطال أيضاً ، ثم قال : إن رأى نور الدين ، أطال الله بقاءه ، الاجتماع بى فله علوُ الرأى . فمرّفوا نور الدين بمقاتلته ، فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر . وركب نور الدين من الغد فى وجوه دولته وخواص مملكته فى أحسن زىٍ وأكمل شارة . فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتميا فى وسط الميدان بالتحية فقط ، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه . ثم سارا من موضع اجتماعهما ، وهو نصف الميدان ، إلى آخره ، ثم انفصلا من هناك وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق ، وأخذ وقتَه ذلك فى جمع العساكر .

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين ، على يد علم الملك ابن النحاس^(١) ، يظهر فيه الطاعة ويعرّض بخذلان شاور ، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول فى الظاهر وهو مع شاور فى الباطن ، وأجاب عن الكتاب ، وانفصل علم الملك عن دمشق . فلما كان بظاهر الكرك أخذه فيليب بن الرقيق الفرنجى وحصل على جميع ما كان معه ، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه إلى الساحل وسار إلى مصر .

وفى هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من إقطاعه من الرحبة ، وكان نور الدين قد تيمّن بأسد الدين وتبرك بميمون نقييته ، لأنه لم يرسله فى أمر إلا أنجح ، ولم يولج فى مضيق إلا انفتح . ولما حضر أسد الدين إلى دمشق خلا به نور الدين وتحدث معه بأشياء فى أمر مصر ، وأمره بالاستعداد ، وكان نور الدين قد أزاح علة العسكر الذى يريد تسييره إلى مصر ، فخرج من يومه .

وكان شاور قد أطمع نور الدين فى أموال مصر ورغبه فى ملكها ، وأنه إذا ملكها كان من قبله فيها .

ولما بلغ شاوراً استتبابُ أمر العسكر سأل عن المقدم عليه ، فقليل له أسد الدين شيركوه ، فلم يطب له ذلك ، لأنه ظن أن التقدمة تسكون له ، فلما زحم^(٢) بهذا العود سقط فى يده ،

(١) فى الحريدة ذكر ولده يحيى بن علم الملك بن النحاس المصرى ، وهو من أمراء الدولة المصرية أيام رزيك وولده ، وأصله من ولد تميم بن المعز الصنهاجى صاحب المهديّة بالمغرب ، انظر قسم شعراء مصر : ٢ : ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) فى ل ١٢٨ ، وكذلك فى : زوحم .

وفت في عضده ، ولم يجد بداً من السير . فخرج واجتمع بأسد الدين وسارا جميعاً حتى وصلوا^(١) أطراف البلاد المصرية ونزلوا على تل في الحوف قريب من بلبس يعرف بتل بسطة ، وضربوا خيامهم هناك .

ولما (١٢٨ - ١) اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية جمع أمراء مصر واستشارهم ؛ فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدةً وتلقى العساكر الشامية بصذر^(٢) ، وهي على يومين من القاهرة ، فإنهم لا يثبتون ، لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء ، ولمكان قلة الماء عليهم ، لأن المشافر إلى مصر يحمل الماء من أيلة^(٣) مسيرة ثلاثة أيام ، فلم يروا ذلك واختاروا أن يلقوهم على بلبس . فأمر ضرغام الأمراء بالخروج ، فخرجوا في أحسن زى وأكمل عدة ، والمقدم عليهم ناصر الدين منهم ، أخو ضرغام ، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلاً عليه .

ولما عين أسد الدين كثرة العساكر وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات وسدوا منافذ الطرقات ، قال لشاور : يا هذا ، لقد أرهقنا وغررتنا ، وقلت إنه ليس بمصر عساكر ، فجئنا في هذه الشدمة ! فقال له شاور : لا يهولك ما تشاهد من كثرة الجوع فأكثرها الحاقة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفريقهم العصا ، فما ظنك بهم إذا حى الوطيس وكَلَبَت الحرب ! وأما الأمراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي ، وسترى ذلك إذا لقيناهم . ثم قال : أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد للوثوب^(٤) ، ففعل ، ونهاهم شاور عن القتال . ووقف الفريقان مصطفىين من غير حرب إلى أن حى النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال ، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار ، وخلعوا السلاح ، ونزلوا عن الخيول ، وجلسوا في الظل . فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق

(١) الضمير في هذا وفيما بعده للجمع على تقدير : الجنود ، وفيما قبل بالثنية لموده إلى شاور وأسد الدين .
 (٢) يذكر ياقوت أنها كانت قلعة خراباً بين القاهرة وأيلة ، ويحدد ابن أبي طى هنا بعدها عن القاهرة بمسيرة يومين . انظر معجم البلدان ٥ : ٣٤٤ .
 (٣) على بحر القلزم عند التقاء بلاد الحجاز بالشام ، مدينة صغيرة بها زرع يسير ، وكانت مجتمع حجاج الفسطاط والشام نفس المصدر ١ : ٣٩١ - ٣٩٢ .
 (٤) في ل ١٢٨ ب : والركوب . وهي كذلك في ق .

عنانه وولى منهزماً . وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ ، فاحتوى عليها أصحاب
أسد الدين ، وأمر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين ، ولم يمكن شاور من تقييدهم
والاحتياط عليهم فهربوا . وساق أسد الدين وشاور في إثر الناس ، ونزلوا على القاهرة
وقاتلوا أياماً . وراسل شاور العاضد في إصلاح الحال وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة ،
فأذن له .

وكان ضرغام صار إلى تحت القصر وقال : أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل ،
فلم يجبه أحد . فذهب على وجهه منهزماً ، وخرج من باب زويلة والمامة تلعبه وتصبح عليه ،
فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله ، فقال له ضرغام : أوصلي إلى أسد الدين ولك منك ،
فلم يقبل منه وحمل عليه فطعمه ، فأرداه ، ونزل إليه واحتز رأسه وحمله إلى أسد الدين ،
وأعلمه بما جرى بينهما ، فصمب على أسد الدين وأوجعه ضرباً ، وأراد قتله ، فشنع فيه شاور .
ودخل شاور القاهرة وقتل ملهماً أخا ضرغام عند بركة الفيل ، وخرج ابنه السكامل من دار
ملهم ، وكان معتقلاً فيها ، وخرج معه القاضي الفاضل ، (١٢٨ ب) وكان أيضاً معتقلاً
فيها معه .

واستقام أمر شاور في الوزارة ، وأقام أسد الدين على المقسم ينتظار أمر شاور فيما ضمن
لنور الدين ، وأرسل إليه يقول له : قد طال مقامنا في الخليم وقد ضجر العسكر من الحر
والغبار . فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال : ترحل الآن في أمن الله تعالى ودعته^(١) .
فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه : إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه ، إذا ملك
شاور تكون مقيماً عنده ، ويكون لك ثلث مغل البلاد ، والثلث الآخر لشاور وللعسكر ،
والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه . فقال شاور : أنا ما قررت شيئاً مما تقول ،
أنا طلبت نجدة من نور الدين ، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى الشام . وقد سيرت إليكم نفقة
تخذوها وانصرفوا ، وأنا أتصرف^(٢) مع نور الدين . فقال أسد الدين : أنا لا يمكنني مخالفة

(١) ل ١٢٩ : في أمن الله وفي دعوته .

(٢) في ك : وأنا أتصرف ؛ ثم شطبت هذه الكلمة ، وكتب بعدها : أنفصل . وفي ل ١٢٩ ،
وفي ق : أنفصل . والأولي ما ثبت هنا .

نور الدين ، ولا أقدر على الانصراف إلا بامضاء أمره . فأمر شاور بإغلاق باب القاهرة ، وأخذ في الاستعداد للحصار ، واستعد أسد الدين أيضاً ، وسيّر صلاح الدين في قطعة من الجيش^(١) إلى بلبس للجمع الغلال والأتبان والأحطاب وماندعو الحاجة إليه ، ويكون جميع ذلك في بلبس ذخيرة ، وأخذ في قتال القاهرة .

وكاتب شاور ملك الفرنج مُرّى يستنجده ويقول له : إن شيركوه طلع معي مُجدةً على ضرغام ، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها ، ومتى ملكوها مضافةً إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار . وضمن له في كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار ، وقر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاستتاريته^(٢) . فخرج مُرّى من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة ، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار .

ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بلبس ، وانضاف إليه من أهلها الكنائية . وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج ، وجاء حتى خيم على بلبس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين ، يباكر الحرب ويراوحها ، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر .

وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين ، وكان اتصل بنور الدين ، وهو بدمشق خبر مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور ؛ فكاتب الأطراف بقدوم العساكر ، فقدم عليه عساكر الشرق جيمها واجتمعوا بأرض حلب ، فنزل بهم مجد الدين بن الداية ، وكان

(١) في ك : الخدم ؛ والمثبت هنا من ل ١١٢٩ .

(٢) الاستتارية : جماعة من فرسان الصليبيين حبسوا أنفسهم على حرب المسلمين ، وكانوا يعرفون باسم Hospitallers ، تأسست سنة ١٠٩٩ م ، بعد استيلاء الصليبيين على القدس ، وإن كان نشاطها قد ظهر قبل ذلك بكثير ، وهدف هذه الجماعة ، في أول أمرها ، علاج المرضى وإيواء الحجاج المسيحيين ومساعدتهم في مقرهم المعروف باسم Hospice بيت المقدس . وهناك جماعة أخرى تشبه هذه الجماعة هي فرسان المعبد Templars وكانت تعرف باسم جماعة الداوية أو الديوية ، أسسها Hugh de Payns سنة ١١١٩ بهدف حماية طريق الحجاج بين يافا والقدس ، ثم تحولت هي أيضاً إلى هيئة دينية حربية وقتل جبرودها على حرب المسلمين . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٣٣ حاشية : ٢٠ ؛ السلوك : ١ : ٦٨ جاشية : ٤ ؛ مفرج الكرب : ١ : ١٨٨ حاشية : ٢ .

نائب نور الدين بحلب ، (وسار)^(١) إلى جهة حارم ونزل على أرتاح^(٢) ، وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل ، وقتل وأسر عالماً عظيماً ، ثم قصد جهة حلب وجعل طريقه حصن الأكراد ؛ فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة ، ونزل في مرجه ، فخرج إليه الفرنج الإخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره (١٢٩ - ١) ، وقتلوا جماعة من المسلمين ؛ وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يماسك الناس وساروا على وجوههم .

وسار نور الدين إلى أن اجتمع بمساكره على أرتاح ، وكان أخوه نصرة الدين مع الفرنج ، فلما عين أعلام نور الدين لم يماسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين ، فلما قُرب منه نزل وقبل الأرض فلم يلتفت عليه^(٣) ، فتم على وجهه . واصطف الناس للحرب ، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ، ثم عادت فوجدت راجلها جميعه قد قتل والخييل قد أطبقت عليهم ، فنزلوا عن الخيل وألقوا أسلحتهم وأذعنوا بالأمان ، فأخذوا جميعاً قبضاً بالأيدى .

وسار إلى حارم ففتحها ، وأراد النزول على أنطاكية فلم يتمكن لشغل قلبه بمن في مصر من المسلمين ؛ فأنحرف قاصداً لدمشق ، ونزل على بانياس ، فافتتحها . وأغار على بلد طبرية وجمع أعلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عيبة وسلمها إلى نجاب ، وقال له : أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس ، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين ، وتعطيه هذه الأعلام والشعاف ، وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس^(٤) ، فإن ذلك مما يفت في أعضاء الكفار ويدخل الوهن عليهم . ففعل ذلك . فلما رأى الفرنج الأعلام والشعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم ؛ وسألوا شاوراً الإذن في الانفصال . فانزعج شاور لذلك ، وخاف من عاقبة الأمر ، وسأله التمهّل أياماً ؛ وجمع أمراءه للمشورة ، فأشاروا عليه بمصالحة

(١) ساقطة من ل ١٢٩ وكذلك من ق .

(٢) حصن منيع من أعمال حلب ، كان من العواصم . معجم البلدان : ١ : ١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) هكذا في الأصل وفي النسخ المساعدة ، والأولى : إليه .

(٤) في ل ١٢٩ ب ؛ وكذلك في ق : على أسواق بلبيس .

أسد الدين . وتكفل إتمام الصلح له الأمير شمس الخلافة ؛ فأنفذه إليه ، فتم الصلح على يديه ، على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى .

وحكى أن شاوراً أرسل إلى أسد الدين ، وهو محصور ببلييس ، يقول له : اعلم أنني أبقى عليك ولم أتمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك ؛ وإنما فعلت ذلك لأمرين : أحدهما أنني ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأقوى الفرنج عليهم . والثاني أنني خفت أن الفرنج إذا فتحوا ببلييس طمعوا فيها ، وقالوا هذه لنا ؛ لأننا فتحناها بسيوفنا ؛ وما من [يوم] ^(١) كان يمضى (بمصر) ^(٢) إلا وأنا أنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال ، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف .

قال : وأقام أسد الدين بظاهر ببلييس ثلاثة أيام ، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل ، وسار أسد الدين قاصداً الشام ، وجعل مسيره على البرية .

واتفق أن البرنس أرناط ^(٣) صاحب الكرك ^(٤) والشوبك ^(٥) تأول ليمينه أتى حلفها لأسد الدين ، وقال : أنا حلفت أتى ما ألحق أسد الدين ولا عسكره في البر ، وأنا أريد ألحقه في البحر . (وركب في البحر) ^(٦) وصار في يوم واحد إلى عسقلان ، وخرج منها إلى الكرك والشوبك وجمع عسكره المقيم هناك ، وقعد مرتقباً خروج أسد الدين من البرية ليوقع به . وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحُدس والتخمين ، فسلك طريقاً من خلف

(١) من ل ١٢٩ ب .

(٢) ساقطة من ل ١٢٩ ب ، وكذلك من ق .

(٣) هو Le Prince Arnaud صاحب الكرك والشوبك ، وكان يسمى قبل ذلك : Renaud de Chatillon .

(٤) قلعة حصينة جداً في طرف الشام بين أيلة وبحر القلزم ، وبيت المقدس ؛ على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الرض . معجم البلدان : ٧ : ٢٤٠ .

(٥) بين عمان وأيلة والقلزم ؛ قريباً من الكرك ، وهي تشبهها في قوة تحصينها . نفس المصدر : ٥ : ٣٠٥ .

(٦) ساقطة من ل ١٣٠ ، وكذلك من ق .

المسكان الذي كان فيه أرنطاط : شق إلى الغور^(١) (١٢٩ - ب) وخرج من البلقاء^(٢) ، وسلمه الله تعالى منه . ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين [وأخبره بالأحوال ، وأعلمه بضعف ديار مصر ، ورغبه فيها وشوقه إلى ملكها ، فرغب فيها نور الدين]^(٣) وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال .

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة ، ولم يكن له همة إلا تتبع من علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صفة . وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشتين الكردي وأقطعه شطنوف^(٤) ؛ وقتل شاور جماعة من أهل مصر وشرّد آخرين .

ثم توجه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية ، وكتب أخباره ، فإراغ شاوراً إلا ورود كتاب مرسي ملك الفرنج ، يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر . فطلب شاور منه إعادة النجدة ، والمقرر من المال يصل إليه على ما كان يصل إليه في العام الماضي . فسار مرسي في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر ، وكان أسد الدين سائراً في البر ، فسبقه الفرنج ونزلوا على ظاهر بلبيس ، وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع بالملك ، وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين .

وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بلبيس ، فنكب عن طريقهم وأمّ الجبل ، وخرج على إطفيح ، [وهي في]^(٥) الجنوب من مصر ، وشن الغارة هناك . واتصل بشاور خبره ، فسار في عساكره ، والفرنج في صحبته ، يقدّمونه . واتصل بأسد الدين ذلك

(١) هو غور الأردن بين البيت المقدس ودمشق منخفض عنهما ، ولذلك سمي الغور ، طوله مسيرة ثلاثة أيام وعرضه مسيرة يوم . فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة ، وعلى طرفه مدينة طبرية وبحيرتها . معجم البلدان : ٦ : ٣١١ - ٣١٣ .

(٢) كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي إفرى ، قبّتها عمان . نفس المصدر : ٢ : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١١٣٠ : وهو ساقط من الأصل ، ومثبت في ق ١١٢٩ .

(٤) هكذا في ل ١١٣٠ ، وهي في ك : شطوف . وشطوف كانت من إقليم الغربية يتفرع النيل عندهما فرعين في اتجاهي تليس ورشيد . وهي على فرسخين من القاهرة . ناظر معجم البلدان : ٥ : ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٥) أثبت هنا من ل ١١٣٠ ، وفي الأصل : ودخل . وتوافق نسخة ق ١١٢٩ نسخة ل .

فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة^(١) من صعيد مصر ، وتَحِيل في مراكب رُكبها ، وعدى إلى البرّ الغربي . ولما استكمل تعديته أدرك شاور [بعض]^(٢) ساقته ومنقطعي عسكريته ، فأوقع بهم . وأحضر شاور أيضاً مراكب وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج ، وسار أسد الدين إلى الجزيرة وخيم بها مقدار خمسين يوماً ، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريون والطلحيون والقرشيون^(٣) ، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له : أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً ، ولا أمكّن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلهاً عليه ، وما أوئلت منك إلا نصر الإسلام فقط ، وهو أن العدو قد حصّل بهذه البلاد ، والمجدة عنه بعيدة ، وخلاصه عسير ، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت والغنيمة التي قد كُتبت ، فنستأصل شأفته ونحمد ثأثرته ، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً .

فلما صار الرسول إلى شاور وأدى إليه الرسالة أمر به فقتل ، وقال : ماهؤلاء الفرنج ، هؤلاء الفَرَج اثم أعلم الفرنج بما أرسل به إليهم^(٤) أسد الدين وأعلمهم بما أجابه ، وجدد لهم أيماناً وثقوا بها . وبلغ ذلك أسد الدين (١٣٠) فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي ، وقال : لعنة الله ، لو أطاعني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج ا ونزل شاور في اللوق^(٥) والمقسم ، وأمر بعمل الجسر بين الجزيرة والجزيرة ، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال ، وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكري أسد الدين .

(١) يعرفها بالقوت بأنها في الصعيد الأدنى شرق النيل . معجم البلدان : ٥ : ٢٥٩ .

(٢) من الأصل : ل ١٣٠ ، وهي ساقطة من الأحد ومثبتة في ق ١٢٩ ب .

(٣) في جميع النسخ : الجعفريين والطلحيين والقرشيين .

(٤) في ل ١٣٠ ب : إليه به .

(٥) اللوق في الأصل : الأرض اللينة ، وقد أطلق في الأصل على الجهة التي انحسر عنها ماء النيل من ساحل المقس إلى منشأة المهراني بالقاهرة ، وعرفت هذه الناحية باسم باب اللوق ، وهو الداب الصالح المنسوب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، ذلك أنه بقي في هذه المنطقة التي بلغت الغاية في الحسن إلى جانب ميدانه الذي ياحب فيه بالكرة . الفطر السلوك : ١ : ٣٤١ - ٣٤٢ ، وكذلك خطاط المقرئ .

ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الإسكندرية يستنجدونهم^(١) على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الإسلام وتضييعه أموال بيت مال المساهين فيهم؛ فقاموا معه وأمرؤا عليهم نجم الدين بن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ إلى الإسكندرية مستخفياً فظهر في هذه الفتنة.

حدثني الشريف الإدريسي، نزيل حلب، قال: كنت بالإسكندرية يومئذ فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين، وقال لي: قل له إنني أخبرك أن السلاح وأصله. وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال فسبقتها بيومين، وحضرت بين يدي أسد الدين وأعطيته الكتب، وشافته بمقالة^(٢) ابن مصال في معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الأمير^(٣) ابن عوف. قال: وبقينا على الجيزة بيومين، فوصل إلينا رسول ابن مدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه ويأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما ينقل حماله، وسار سيراً حثيثاً حتى قارب دجلة^(٤)، فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت. ونزل الناس لتعشية الدواب فلم تستم عليها حتى أمر أسد الدين بالرحيل وأوقد المشاعل ليلاً وسرنا، فإذا الجاوش^(٥) ينادي في الناس بالرجوع، وعاد أسد الدين إلى دجلة فنزل عليها، ونزل شاور على الأشمونين^(٦). وأمر أسد الدين الناس أن يلقوا على تمبثة، فأصبحوا على ذلك والتقوا، فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كبيرة وانهزموا. وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين: فريقاً معه

(١) في ل ١٣٠ ب: يستنجد بهم.

(٢) في ل ١٣٠ ب: برسالة.

(٣) في ل ١٣٠ ب: الفقيه؛ ومي كذلك في ق.

(٤) قرية بصعيد مصر غربي النيل في الجبل بعيدة عن الشاطئ. معجم البلدان: ٤: ٦٧.

(٥) الجاوش أو الجاوش أو الشاوش: لفظ تركي، وجمعه جاوشية، وهم في نظام دولة المماليك، التي أعقبت دولة الأيوبيين أربعة جنود يسرون أمام السلطان، أو النائب، في مواكبة إنذابه الناس والنداء. والجاوش أيضاً جندي من رتبة بسيطة يكافئه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها. السالك: ١: ٨٧، نقل عن: Dozy, Suppl. Dict. Ar.

(٦) مدينة الأشمونين بين البحر المتوسط والنيل، تحول عنها النيل في القرون الوسطى فقامت مقامها مدينة المنيا، وكانت الأشمونين كذلك عاصمة عمل، إقام، الأشمونين، خامس أعمال الوجه القبلي، وموقعه بين البهنسا والمنفلوطية، وكانت تسمى أيضاً باسم الطحاوية. انظر المخطط للتوفيقية: ٨: ٧٤-٧٦ وكذلك صبح الأعشى: ٣: ٣٩٨-٣٩٩.

وفريقاً جعله مع صلاح الدين وأنفذه لياتي من خلف عسكر شاور ، فدخل الضعف من هذا الطريق . ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا ، وعلموا أنه لا ملجأ^(١) لهم إلا الصبر ، فتحالفوا على الموت وحملوا ، وطلع صلاح الدين من ورائهم . فلم تنزل الحرب قائمة إلى الليل ، فولت عساكر الإفرنج والمصريين الإذبار ، وكاد مرمى ملك الإفرنج يؤسر ، وصار شاور ومن سلم معه إلى منية ابن خصيب^(٢) . وسار أسد الدين على الفيوم إلى الإسكندرية فدخلها ، ونزل القصر وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم ، وكان فيها ابن الزبير متولياً ديوانها ، فحمل إلى أسد الدين الأموال ، وقواة بالسلاح . وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصره ، فربما تأذى بالحصار ، فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية وترك عنده (١٣٠ ب) جماعة من العسكر ، ومن به مرض أو جراح أو ضعف ، واستحلفت له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به ، ونزل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصعيد . ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال ، وبذل أهلها في نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم ، وقتل منهم جماعة عظيمة .

ولما صار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالاً عظيمة ، ولم ينزل هناك حتى صام شهر رمضان . واتصل به اشتداد الأمر على الإسكندرية فرحل من قوص إلى جهتها ، واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد . وبلغ ذلك شاوراً فرحل هو والفرنج ، واضطر إلى الصلح ، وضجرت الفرنج أيضاً ، فتوسط ملك الفرنج في ذلك ، فتقرر أمر الصلح على أن شاوراً يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفرة ، ثم يعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار ، ويعود كل منهم إلى بلاده . وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه فأنفذ له عدة مراكب .

(١) في ل : لا منجى .

(٢) يعرفها بالقوت بأنها منية أبي الخصيب على شاطئ النيل في الصعيد الأدنى . ويذكر المقرئ على مبارك أنها تقع على الشاطئ الغربي للنيل شمال أسيوط ، وتنسب إلى أبي الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر أيام الرشيد . انظر معجم البلدان : ٨ : ١٨٨ ؛ المواضع والاعتبار : ١ : ٢٠٥ ؛ الخطط التوفيقية : ١٦ : ٩١ - ٩٢ .

قال الإدريسي : كنت في جملة من خرج في المراكب ، فلما وصلنا إلى ميناء عكا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مُرّي فأطلقنا ، فخرجنا إلى دمشق .
وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بألا يعرض لهم بسوء ، واجتمع بعمه أسد الدين .

ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة من أعان صلاح الدين وضيق عليهم ، وتتبع أهل الإسكندرية . واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له : إن شاوراً نقض الأيمان . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه قبض على من لجأ إلينا . فقال : ليس له ذلك . وأنفذ إلى شاور وقال له : إن الأيمان جرت على ألا تعرض لأحد من أهل مصر ولا الإسكندرية ؛ وألزمه يميناً أخرى في ألا يعرض لأحد من لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين .

ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور ، فأخذوا في الرحيل إلى الشام . واتصل ذلك بشاور ، فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام ، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم ، فمنهم من سكن إلى أيمانه ، ومنهم من لم يسكن ورحل .

وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خاطر فقصدتها ، فراسل الملك مرّي وقال له : قد سأل أهل مصر يمين الملك ألا يدخل إليهم ولا يتعرض لهم . فامتنع الملك ، ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر ، فربما اجتمعا عليه ، فلم يجد بداً من اليمين (١٣١ - ١) لحلف وحلف أصحابه ؛ وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدوى منها ، لأنه شاهداً وشاهد مُغلّاتها فوجدها أمراً عظيماً . فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه ، وأقطعه حصص وأعمالها .

وحدثني أبي رحمه الله^(١) قال : حدثني غير واحد أن شاوراً كاتب نور الدين في ذلك وضمن له أن يحمل في كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة .

(١) المحدث والديّ ابن أبي طي .

ولما بلغ شاوراً أن نور الدين صرف همه أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها
أنفذ رسولا بهدية سنوية ، وأصحبه كتاباً حسناً ، أوله : « ورد كتاب استدعى شكرى
وحمدى ، واستخلص من الصفاء ما عندى ، واستفرغ في الثناء على مرسله جهدى ، فسكأنما
استملت^(١) معانيه مما عندى ، واشتملت على حقائق قصدى ؛ وسررت للإسلام وأهله ،
والدين الذى وعد الله أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون^(٢) مثله ملكاً من ملوكه ،
يرُجع إليه في عقده وحله ، وتشير الأصابع وتقدم المناصر على علو محله . والله يزيد [بمكانه] ^(٣)
تثبيتاً وقوة ، ويحقق على يديه مخايل النصر المرجوة ؛ فما أسعد رأساً دل على نصرة الحكمة ،
ودعا إلى سبيل الفئدة المسالمة ، ووفر على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة . وأنا مقم
من هذا الأمر ما صدر منى ، وباق منه على ما نقل عنى ، لا أتغير^(٤) عن المصلحة فيه ،
ولا يخالف ما أظهره منه لما أخفيه ، ولا أستكثر كبيراً أصل إليه وأتوصل به لما سبق للملك
العاقل من حقوق استوجب شكرها قولاً وفعلًا ، ونصرة كانت في هجير الخطوب . برداً
وظلاً ، وأنعم لاتزال آياتها بألسن الحمد تتلى وتلى . ولعمري لقد بنى بها فخراً ، وارتفع
على الأملاك قدراً وذكرًا . ووجب أن يستتمها فلا يصل إلى موارد السكدر ، ويحوطها
فلا تنطرق إلى جوانبها الغير . ووراء هذه المسكاتبة من اهتمامى ما لا يعوقه عائق إلا انتظام
العقد على الأمور المألوفة ، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة ، مع أن قوله كيميئه ،
وكتابه كصفحة يمينه ، والثقة به واقعة على كل حال ، والحجة له توجب الاحتراس على
الوداد من تطرق أسباب الاختلال » .

قال : وفي سنة أربع وستين طمع مرى ملك الفرنج في مصر وعول على الدخول
إليها والاستيلاء عليها ، وذلك لما انكشف له من عوارها ، وظهر له من ضعف من بقى
فيها . فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الداوية^(٥) والاسبطارية ، وتشاوروا ، فجرت بينهم في

(١) في الأصل ، وكذلك في ل ، وفي ق : استملت .

(٢) في ل وفي ق : بأن يكون .

(٣) ساقطة من ك .

(٤) في ل : لا يغير .

(٥) في ل ١٣٢ ، وكذلك في ق : الدولة .

ذلك خطوب ؛ ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية . فأحضر وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيلاته ، وفرق قراها على أجناده . وكان ، لعنه الله ، لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها ، وتعرف (١٣١ - ب) له خبر ارتفاعها^(١) . ثم سار حتى نزل الداروم^(٢) ، فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر ، وانتخب أميراً من أمرائه ، يقال له بدران ، وسيره إلى لقاء مري يسأله عن السبب في قصده . فاجتمع به وسأله ؛ فتكأ عليه ، ثم استلان جانبه ، وضمن له رضىخة على أن يورى عنهم ، ولا يكشف لشاور حالهم . ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتم على المصريين الحيلة ، ويعلم شاوراً أنه إنما قصد مصر للخدمة ؛ ففعل ذلك بدران . ولما سمع ذلك شاور أشفق منه ، وأخضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له : كأن بدران قد غشنى ولم ينصحنى ، وأنا فوائق بك : فأريد تخرج وتكشف لى حال الفرنج . فسار شمس الخلافة إلى مري ، وكان بينهما مؤانسة .

فلما دخل على الملك قال له : مرحباً بشمس الخلافة . فقال : مرحباً بالملك الغدار ، وإلا ما الذى أقدمك إلينا ؟ قال : اتصل بى أن الفقيه عيسى تزوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتزوج الكامل أخت صلاح الدين ، فقلنا هذا عمل علينا . فقال له شمس الخلافة : ليس لهذا صحة ، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد . فقال له الملك : الصحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على رأينا^(٣) ، وخرجوا طامعين فى بلادكم ، فخفنا من ذلك فخرجنا للتوسط الأمر بينكم وبينهم . فقال شمس الخلافة : فأى شيء قد طلبوا ؟ قال : ألفى ألف دينار . فقال : مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب . فقال له ملك الفرنج : فنحن نزل على بلبيس إلى أن تعود .

قال : وحكى أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم كتب إلى شاور يقول له : إني قد

(١) أى دخلها وإيرادها .

(٢) حصن صغير جنوبى فلسطين ، حصنه أمورى الأول ، قريباً من غزة بينها وبين مصر ، وأقام فيه فرسان الداوية أو المعبد . معجم البلدان : ٤ : ١٣ ، وكذلك : S. Lane - Poole فى كتابه Saladin : P.106 وانظر أيضاً Stevenson فى كتابه The Crusaders in the East, P.109

(٣) فى ل ١٣٢ : آرائنا .

فصدت الخدمة على ما قررت له من العطاء في كل عام . فأجابه شاور : إن الذي قررت له لك إنما جعلته متى احتجت إليك وإذا قدم^(١) على عدو ، فأمامع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة إليك ولا لك عندي مقرر . فأجابه مري أن لا بد من حضوري وأخذى المقر . فعلم شاور أنه قد غدر بالعهود ونقض الأيمان ، وأنه قد طمع في البلاد . فأخذ في تجنيد الأجناد وحشد المساكر إلى القاهرة ، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وفيرة وعُدّة .

ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لا يلوى على قول حتى خيم على بلبيس في صفر ، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك ابن النحاس ، وابن الخياط يحيى ، وابن قرجلة . وأرسل إلى طلي بن شاور^(٢) ، وكان ببلبيس ، وقال له : أين نزل ؟ قال : على أسنة الرماح . وقال له : أنجسب أن بلبيس جبهة تأكلها ؟ فأرسل إليه مري : نعم هي جبهة والقاهرة زبدة . ثم قاتل بلبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف ، وقتل من أهلها خلقاً عظيماً وخرب أكثرها ، وأحرق جُلّ آدرها ؛ ثم أخرج الأسارى إلى ظاهر البلد (١٣٢ - ١) وحشروا في مكان واحد ، وحمل في وسطهم برمح ففرقهم فرقتين ، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه ، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لسكره . وقال لفرقته : قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر ، فإني قد ملكتها بلا شك . ووقف إلى أن عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل^(٣) ، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقسمهم ؛ وبقى أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج ، وهلك أكثرهم في أيديهم ، وأفلت منهم اليسير . لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مُقَلّ بلبيس على كثرتة على فسكالك الأسرى منهم ؛ وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه .

ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر ، وأن الفرنج شحنوها

(١) في ل ١٣٢ ب ، وكذلك في ق : أو إذا قدم .

(٢) في الأصل : أبي طلي ، وهو خطأ ، وفي ل ١٣٢ ب : ابن طلي ، وهو خطأ أيضاً .

(٣) قرية بالمصرية تابعة الآن لمركز بلبيس . الخطط . التوفيقية : ١٦ : ٦٢ .

بالرجال والعُدد وجعلوها لهم ظهوراً ، أشفق من ذلك وطلب الإذن على العاضد ؛ فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال : اعلم أن البلاد قد ملكت علينا ، ولم يبق إلا أن تسكتب إلى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعوذته . فكتب جميع ذلك ، وأرسل شاور طيًّ تلك السكتب كتباً وسخّم أعاليها بالمداد .

قال : وحدثنى شمس الخلافة (موسى بن شمس الخلافة)^(١) محمد بن مختار قال : إنما كتب هذا السكتب برأى أبى شمس الخلافة ، لأنه لما رجع من عند مري ، لعنه الله ، بعد أخذ بلبيس اجتمع بالسكامل بن شاور وقال له : عندى أمر لا يمكنى أن أفضى به إليك إلا بعد أن تحلف لى أنك لا تطلع أباك عليه . فلما حلف له [قال]^(٢) له : إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين ، وهذا عين الفساد ؛ فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين ، فليس لهذا الأمر غيره . فقصد السكامل وكتب السكتب . فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً ، وأنفذ أسد الدين ، وكان ذلك من مناه ، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصله ، ورسالة سرية إلى القاضد ، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيّنهما ، وأن يكتب ذلك من شاور .

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر^(٣) ، وأمر شاور بإحراق مصر وأبذر أهلها ، فخرج الناس منها على وجوههم وهجؤوا إلى بلاد مصر ، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً ، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت . وأحرقت مصر في تاسع صفر ، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً .

ثم إن الفرنج ، لعنهم الله ، نزلوا في بركة الحبش^(٤) ، وانبثت أخبارهم في الأطراف ،

(١) ساقطة من ل ١٣٢ ب ، ومستدركة في هامشها .

(٢) ما بين الحامرين من ل ١٣٣ .

(٣) المقصود بها القسطنطين وما ألق بها .

(٤) كانت تعرف ببركة المعارف ، وبركة خير . رآها ياقوت وذكر أنها من أجل منتهات مصر [القسطنطين] مشرفة على ليلها ، وليست بركة الداء ، وإنما هى تشبهها . معجم البلدان ١٥١: ٢ - ١٥٢ .

وُخِطَفُوا مِنْ ظُفُرُوا بِهِ . فَأَنْفَذَ شَاوَرُ شَمْسَ الْخِلَافَةِ إِلَى مَرَى ، لَعْنَهُ اللَّهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ سَأَلَهُ أَنْ يُخْرِجَ إِلَى بَابِ الْخِيْمَةِ فَعَمِلَ ، فَأَرَاهُ شَمْسَ الْخِلَافَةِ (١٣٢-ب) جَهَةَ مِصْرَ وَقَالَ لَهُ : أَتَرَى دُخَانًا فِي السَّمَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : هَذَا دُخَانُ مِصْرَ ، مَا أَتَيْتَ إِلَّا وَقَدْ أُحْرِقَتْ بِعِشْرِينَ أَلْفَ قَارُورَةٍ نَقِطَ ، وَفُرِقَتْ فِيهَا عَشْرَةُ آلَافٍ مِشْعَلٍ ، وَمَا بَقِيَ فِيهَا مَا يُؤَمِّلُ بِقَاوِهِ وَنَفْعِهِ ؛ فَخَلَّ الْآنَ عَنْكَ مَدَافِعِي وَغَنَاتِي ، وَكَوْنِي كَمَا قُلْتَ لَكَ أَنْزِلْ فِي مَكَانٍ تَقْدُمْتُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَمَا بَقِيَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَنْزِلَ الْقَاهِرَةَ . فَقَالَ : هُوَ كَمَا تَقُولُ ، وَلَإِبْدٍ مِنْ نَزُولِ الْقَاهِرَةِ ، وَمَعِيَ فَرَجٌ مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ قَدْ طَمَعُوا فِي أَخْذِهَا . ثُمَّ رَحَلَ فَنَزَلَ عَلَى الْقَاهِرَةِ مِمَّا يَلِي بَابَ الْبَرْقِيَّةِ^(١) نَزُولًا قَارِبَ بِهِ الْبَلَدَ حَتَّى صَارَتْ سَهَامُ الْجُرُخِ تَقَعُ فِي خِيَمَتِهِ ؛ فَقَاتَلُوا الْبَلَدَ أَيَّامًا .

فَلَمَّا تَيَقَّنَ شَاوَرُ الضَّعْفَ عَدَلَ إِلَى طَرِيقِ الْخُدَاعَةِ وَالْخَتَاةِ ، وَالْمُغَاوَرَةِ وَالْمُدَافَعَةِ ، إِلَى أَنْ تَصَلَ عَسَاكِرُ الشَّامِ . فَأَنْفَذَ شَمْسَ الْخِلَافَةِ إِلَى مَرَى ، لَعْنَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، بِرِسَالَةٍ طَوِيلَةٍ فَيَلُّ بِهَا فِي غَارِبِهِ وَدَارٍ مِنْ حَوَالِيهِ ؛ وَفِي ضَمْنِهَا : « إِنْ هَذَا بَلَدٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ^(٢) وَفِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، وَلَا يُمْكِنُ تَسْلِيمُهُ الْبَتَّةَ وَلَا أَخْذُهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقْتُلَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَالَمٌ عَظِيمٌ ، وَمَا نَعْلَمُ أَنْتَ وَلَا أَنَا لِمَنِ الدَّائِرَةُ . وَالرَّأْيُ أَنْ تَحْمَنَ دِمَاءَ أَصْحَابِكَ وَدِمَاءَ أَصْحَابِي ، وَتَحْصُلَ شَيْئًا أَدْفَعُهُ لَكَ [فَيَحْصُلَ لَكَ]^(٣) عَفْوًا » . فَاسْتَقَرَّتِ الْمَصَالِحَةُ^(٤) عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَقِيلَ أَلْنِي أَلْفَ دِينَارٍ ، يَعْبَلُ لَهُ مِنْهَا مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ . فَأَجَابَ مَرَى إِلَى ذَلِكَ وَانْعَقَدَتْ الْمُدَّةُ ، وَحَلَفَ مَرَى ، وَرَحَلَ إِلَى بَرَكَةِ الْحَبَشِ ، وَحَمَلَ شَاوَرُ إِلَيْهِ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ فِي عِدَّةِ دَفْعَاتٍ سَوَّفَ فِيهَا الْأَوْقَاتَ ؛ ثُمَّ أَخَذَ يَمْطُلُهُ فِي الْبَاقِي^(٥) انْتِظَارًا لِقُدُومِ الْعَسَاكِرِ ، وَيَوْمَ أَنْهُ يَجْمَعُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ . فَلَمْ يَشْعُرِ الْفَرَجُ إِلَّا بِهَجُومِ عَسْكَرِ الشَّامِ عَلَيْهِمْ ؛ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ رَحَلُوا

(١) كَانَ عِنْدَ حَارَةِ الْبَرْقِيَّةِ مِنْ أَحْيَاءِ الْقَاهِرَةِ الْقَدِيمَةِ ، (وَالْبَرْقِيَّةُ طَائِفَةٌ مِنْ جُنْدِ الْفَاتَمِيِّينَ) ، وَيَذَكِّرُ عَلَى مَبَارَكٍ أَنَّ مَكَانَ هَذَا الْبَابِ غَيْرُ مَعْرُوفٍ بِالضَّبْطِ . انْظُرِ الْمَوَاضِعَ وَالْإِعْتِبَارَ : ٢ : ١٢ ، وَالْخَطَطُ التَّوْفِيقِيَّةُ : ٢ : ٨٤ .

(٢) سَاقِطَةٌ مِنْ ل ١٣٣ .

(٣) مَا بَيْنَ الْحَاضِرَتَيْنِ مِنْ ل ١٣٣ .

(٤) فِي ل ١٣٣ ، وَكَذَلِكَ فِي ق : الْمَصَالِحَةُ .

(٥) فِي ل ١٣٣ ب ، وَفِي ق : بِالْبَاقِي .

إلى بلبس ، ونزل أسد الدين بالمقس^(١) . ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس^(٢) واتبعه أسد الدين ونزل على بلبس .

وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صذر أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال ؛ فصار إليه واجتمع به ، وقال : قد قلّ علينا المال . فقال ملك الفرنج : اطلب منه ما شئت^(٣) قال : أشتري أن تهب لي النصف . قال : قد فعلت . فقال شمس الخلافة : ما بلغني أن ملكاً في مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لغيرهم في مثل حالنا . فقال ملك الفرنج : أنا أعلم أنك رجل عاقل وأن شاوراً ملكاً ، وأنكما ما سألتما أن أهبكما هذا المال العظيم إلا لأمر قد حدث . فقال له : صدقت . هذا أسد الدين قد وصل إلى صذر نصرته لنا ، وما بقي لك مقام ، وشاور يقول لك أرى لك أن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لك ولنا ، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشئ^٤ وحملنا الباقي إليك متى قدرنا ، وإن نحن أنخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار . فقال (١٣٣) ملك الفرنج : أنا راض بذلك وإن بقي على شئ^٥ حملته إليكم ؛ وعول على الرحيل ؛ فقال له : بعد أن تطلق طي^(٤) ابن شاور وجميع من في عسكريك من الأسارى ولا تأخذ من بلبس بعد انصرافك شيئاً . فأجابه إلى جميع ذلك .

ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق ، وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة . ولما اجتمعوا قال شاور لأسد الدين : قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وأن ندرك الفرنج ونوقع بهم . فقال أسد الدين : هذا كان رأيي والفرنج على البر الغربي وليس لهم وزر ، وأما الآن فلا ، لأنهم على البر المتصل ببلادهم

(١) بين يدي القاهرة على النيل في موقع أم دبين القديمة ، وكان العامل يجلس عندها على المكس ، فقلب وسمى المقس ويسمى أيضاً المقسم . انظر معجم البلدان : ٨ : ١٢٥ .

(٢) تحديد فاقوت لها يفيد في هذه المناسبة الحربية خاصة . قال : تقع في الحوف الشرقي الأقصى في آخر ديار مصر من جهة الشام ، وبينها وبين مصر [الفسطاط] أربعة وخمسون ميلاً . معجم البلدان : ٦ : ٣٣٣ .

(٣) في ل ١٣٣ ب ، وفي ق : شيئاً .

(٤) في الأصل : ابن أبي طي بن شاور ، وفي ل ١٣٣ ب : ابن طي بن شاور . وكل خطأ ، والتصحيح من ق ومن مفرج السكروب ومن غيرهما .

ونحن فقد خرجنا من البر في أسوأ حال من الضعف والضعف ؛ وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج .

ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلفاء كثيرة ، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه . ثم إنه خرج إليه في الليل سرا متبكرا ، واجتمع به في خيمته ، وأفضى إليه بأمور كثيرة ، منها قتل شاور ، ثم عاد إلى قصره . وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه ، فسأل عنه ، فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما حصل أسد الدين بالذيار المصرية وانفصل عنها الفرنج أممت البلاد ، وتراجع الناس إلى بيوتهم وأخذوا في إصلاح ما شعثه الفرنج وأفسدوه . وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة وأحسن إليهم .

وأما شاور فإنه أخذ في التوؤد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه ، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة ، حتى استحوذ على قلبه ، ونوى تبيته في ملكه وصفا له قلبه حتى أنفذ إليه سيرا : احرس نفسك من عساكر الشام .

وأما عسكر الشام فإنهم لما رأوا طيب بلاد مصر وكثرة خيرها وشعة أموالها تافت أنفسهم إلى الإقامة بها ، واختاروا سكنائها ، ورغبوا فيها رغبة عظيمة ؛ فقوى طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ، ثم علم أنه لا يتم ذلك وشاور باقي^(١) فيها ، فأخذ في أعمال الحيلة عليه . وكان العاضد قد تقدم إليه بقتله ؛ فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور ، وقال لهم : قد علمتم رغبتى في هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها ، لا سيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندى ، وعلمت أنهم قد كشفوا عورتها ، وعلموا مسالك رقتها ، وتيقنت أنى متى خرجت منها عادوا إليها واحتووا عليها ؛ وهى معظم دار الإسلام وحلوبة بيت مالهم ؛ وقد قوى عندى أن أنب عليها قبل وثوبهم (١٣٣ب) ، وأملكها قبل مملكتهم ، وأخلص من شاور الذى يلعب بنا وبهم ، ويغرنا ويغرم ، ويضرب

(١) من ل ١٣٤ ، ولي الأصل : باقى .

بيننا وبينهم ؛ وقد ضيَّع أموال هذه البلاد في غير وجهها ، وقوى بها الفرنج علينا ؛ وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبهم إلى هذه البلاد التي قد قلَّ رجالها وهدكت أبطالها . فتتخلَّات الآراء بين الأمراء أنه لا يتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور ؛ وتفرقوا على إيقاع القبض به .

وكان شاور يركب في الأبهة العظيمة ، والجلالة الجسيمة ، والمعدة الحسنة ، والآلة الجميلة ، على عادتهم الأولى . وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب سُجل في موكبه الطبل والبوق . وكان شاور قليل الركوب ، فجعل الأمراء يترصده . ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاور دخل إليه داره ، وناول سيفه وعمامته ؛ فتأوله أسد الدين بالقبض عليه وأخذ منصبه .

ثم إن شاوراً ركب يوماً في أهله وجلالته ، فلما عاينه الأمراء هابوه وأحجموا عنه ، وكان يوماً عظيم الضباب ؛ وكان خروج شاور من باب القنطرة^(١) للسلام على أسد الدين ؛ فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في موكبه ، ثم سايه ، ثم مد يده إلى تلايبيه وصاح عليه فرجَّله . ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزيماتهم ووقعوا في عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله^(٢) ، وقتلوا منهم جماعة ، وحمل الملك الناصر شاوراً راجلاً إلى خيمة لطيفة وأراد قتله ، فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين . وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور ، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال ، وأنفذ رأسه إلى القصر . وبلغ البكامل بن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر وخلع العاضد على أسد الدين وقلدة الوزارة ، وأنفذ إليه طبق فضة فيه رأس البكامل بن شاور ورؤوس أولاد إخوته .

ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد وفرح به

(١) كان ملاصقاً للبستان الكافوري ، وهو عند حي القنطرة المعروف اليوم بشارع الشمراي . وقد سمي الباب باسم القنطرة التي بناها جوهر على الخليج ليبر منها إلى القدس . وهناك باب آخر بنفس الاسم نسبة إلى قنطرة بني وائل ، وهو من بناء قراقوش . انظر المواعظ والاعتبار : ١ ، ٣٤٧ ، ٢ : ٢٤ ؛ وكذلك الخطط التوفيقية : ٣ : ٢ .

(٢) في الأصل : مع شاور ، والمذكور هنا من ل ١٣٤ ب ، وهو يبدو أكثر مناسبة للسياق الوصفي لما أصاب العسكر وشاوراً معاً .

غاية الفرح ، وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استمحيانا لمعانيه ، واستغظرافا لما أودع من بدائع الكلام فيه .

قال ، ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحا شديدا ، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده ؛ وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته وتزيين جميع بلاده ؛ وجلس الهنا ، بذلك ، وأنشده الشعراء في فتحها عدة أشعار . غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وزر للعاقد واستبد بالأمر في ذلك الصقع أمضه ذلك وأقلقه ، وظهرت في مخايل قسماته وفتات كلماته الكراهة ، وأخذ في الفكرة في أمره وسهر له ليل ، وأفضى بسرّه إلى محمد الدين بن الداية . حدثني جماعة عن شمس الدين على بن الداية ، أخي محمد الدين ، وحدثني الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبي وقد جرى ذكر فتح (١٣٤) مصر وأن نور الدين ابتهج به ، فقال : والله ما ابتهج به ، لقد كان وده ألا يفتح وألا يصير أسد الدين وصلاح الدين إلى ما صاروا إليه . ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه . ولقد أعمل الحيلة في إفساد أسر أسد الدين وصلاح الدين فأتهميا له ، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر ، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه ؛ واهتم لذلك حتى أفضى عليه الهم . ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً ، وعليه فضله محسوباً ، لما صبر على ما جرى ، ولا أغضى للملك الناصر^(١) على القذى . ولقد كاتب العاقد عدة دفعات في أمر الأسد والصلاح ، فلم يحصل له فيهما النجاح ، وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاقد التعريض بإنفاذ أسد الدين ، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال . فن بعض مكاتباته : « وقد افتقر العبد إلى بعثته ، وأعوز عسكره يمين نقيبته ، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته ، لأنه ما يزال يرى شياطين الضلال بشهابه الثاقب ، ويضمي معقل الشرك بسهمه النافذ الصائب » .

قلت : لعل نور الدين رحمه الله إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاقد فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم ، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب . هذا إن صح ما نقله ابن أبي طي ، والله أعلم .

(١) في الأصل وكذلك في ل ١٣٤ ب : الملك العادل ، وهو خطأ لأن صلاح الدين لقب بالناصر أما العادل فأخوه .

قال : وكان أسد الدين لمسا ولى الوزارة لم يغير على أحد شيئا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم ، إلى أن انقضت أيامه ، وفنيت أعوامه .

وكان قوما يحب أكل اللحم ويواظب عليه ليلا ونهارا ، فتواترت عليه التخم ، وانصلت به مرضاته ، إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه . ويقال إن هذا كل في ذلك اليوم مضيرة^(١) ودخل الحمام ، فلما خرج منها أصابه الخناق .

قال : وكان شجاعا ، بارعا ، قويا ، جلدأ في ذات الله شديداً على السكفار وطأته ، عظيمة في ذات الله صولته ، عفيفا ديناً ، كثير الخير . وكان يحب أهل الدين والعلم ، كثير الإيثار ، حادبا على أهله وأقاربه . وكان فيه إمساك ، وخلف مالا كثيراً ، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيراً ، وخلف جماعة من الغلمان ، خمسمائة مملوك ، وهم الأسدية .

وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية ، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت^(٢) على إقطاع مبلغه تسعمائة دينار ، وتنقل إلى أن ملك الديار المصرية . وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام .

قلت : وإليه تنسب المدرسة الأسدية بالشرف القبلى ظاهر دمشق^(٣) ، وهى المطلة على الميدان الأخضر ؛ وهى على الطائفتين الشافعية والحنفية ، والخانقاه الأسدية^(٤) داخل باب الجابية^(٥) بدرب الهاشميين .

قال ابن أبى طى : وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامى ، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين . وفى تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة ، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين (١٣٤ ب) محمود الحارمى خال صلاح الدين ،

(١) مضر اللبن أو النبيذ مضرأ ، يسكون الضاد وتحرك ، ومضورا : حمض وابيض ؛ والمضيرة : مريقة تطبخ باللبن المضير ، وربما خلط بالحليب . القاموس المحيط .

(٢) اسمه بهروز وكان شحنة بغداد أيضاً ، وسيأتى تفصيل الحديث عن صباه الأسرة الأيوبية به ، وبمهاد الدين زكى فيما بعد عند الحديث عن وفاة نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين .

(٣) انظر الدارس فى تاريخ المدارس : ١ : ١٥٢ - ١٥٧ ، ٤٧٣ ، وكذلك خطط الشام : ٦ : ٧٦ .

(٤) يذكر الأستاذ كرد على أنها غير معروفة الآن . خطط الشام : ٦ : ١٣٤ .

(٥) غربي البلد وينسب إلى قرية الجابية لأن الخارج إليها يخرج منه لكوته مما يليها . وكان ثلاثة أبواب أو سطها أكبرها . انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ، ١ : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

فأنفذ إليه وأحضره وخاطبه في تولى الوزارة ، فامتنع من ذلك ، وأشار بولاية الملك الناصر .
وكان الحارمى أولاً قد رغب في الوزارة وتحدث فيها ، وحصل ما يحتاجه ، فلما رأى مزاحمة
عين الدولة بن ياروق وغيره عليها خاف أن يشتغل بطلبها فيفوتها ، وربما فانت صلاح الدين
فأشار به لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته .

وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع ، وأعجبه عقله وسداد رأيه ، وشجاعته ،
وإقدامه على شارب في موكبه ، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يترث ولا توقف . فسارع
إلى تقايله الوزارة ، وما خرج شهاب الدين الحارمى من حضرة العاضد إلا وخلى الوزارة
قد سبقت إلى الملك الناصر .

وكانت^(١) خامة الوزارة عمامة بيضاء تسمى بطرز ذهب وثوب ديبقى بطراز ذهب ،
وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب ، وطيلسان ديبقى بطراز دقيق ذهب ، وعقد جواهر
قيمتها عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى بجواهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر
صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ،
وطوق ، وتخت وسرفسار ذهب مجوهر ، وفي زقبة الحجر مشددة بيضاء وفي رأسها مائتا حبة
جواهر ، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جواهر ، وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهر ،
وفي رأسها مشددة بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج ، وعدة من الخيل ، وأشياء
أخر ؛ ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض .

وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة أربع وستين
وخمسمائة ؛ [وقرىء المنشور]^(٢) بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة ؛
وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية ؛ وكان يوماً عظيماً .

(١) يلاحظ في هذه الفقرة أنها كتبت بأسلوب دارج ، ولما عرف عن أبي شامة من دقة في النقل
والاقتباس يمكن القول بأن الأصل الذي نقلت عنه كتب بهذا الأسلوب . ومن ثم يمكن القول أيضاً بأن
هذا النوع من الوثائق الحكومية ، كان يكتب بهذا الأسلوب . وسيرد مثل آخر لهذا عند
الحديث عن هدية صلاح الدين إلى نور الدين ، سنة ٥٦٩ هـ ، وهي الهدية التي سماها ابن القيسراني ،
الوزير النوري

(٢) ما بين الحاصرين من ل ١٣٥ ب .

وخلع السلطان على جماعة الأمراء والسكّراء ، ووجوه البلد ، وأرباب دولة العاضد ، وعمّ الناس جميعهم بالمهبات والصلوات .

ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة ، ونظم بحسن تديره من الدولة بدّدها ، وجرى في منهاج العدل على جدّدها ، وحَيَمَل^(١) إلى وجوده وفضله ، ونادى إلى رفقده وبذله ؛ وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان ، وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان ؛ واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل ، وروى بفسيح كرمه . مَنْ بعد منه وقرب من أهل الفضل ؛ وتاب من الخمر وعدل عن اللهو ، وتيقظ للتدبير وسها عن السهو ، وتقمص بلباس الدين ، وحفظ ناموس الشرع المبين ؛ وشمر عن ساق الجد والاجتهاد ، وأفاض على الناس من كرمه وجُود جوده (١٣٥ - ١) شأيب فضله الغائب عن العهد ؛ وورد عليه القصاد والزوار ، وأم^(٢) بنفائس الخطب وجواهر الأشعار .

حدثني بعض الأمراء قال : أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة ، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً ، فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره .

قال : ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ، ومال إليه العاضد ، وحكّمه في ماله وبلاده ، حسده^(٣) من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية ، كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين . ثم إنهم فارّقوه وصاروا إلى الشام :

وحدثني أبي رحمه الله تعالى^(٤) قال : حدثني جماعة من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره ، وتأنف منه وأنسكره ، وقال : كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمرى ! وكتب في ذلك عدة كتب ، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله ،

(١) بمعنى دعا ، وهو فعل مأخوذ من : حى على . . . على طريقة النحت ، وذلك مثل : حوّل من : لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) أم ، بضم الهمزة : قصد ، من أم بفتح الهمزة .

(٣) في الأصل ، وكذلك في ل وى ق ؛ وحسده . وزيادة الواو هنا تفسد المعنى .

(٤) المحدث والد ابن أبي طى .

إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره ، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته . وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه ، وطلب معه حساب مصر وما صار إليه . وكان كثيراً ما يقول : ملك ابن أيوب !

قلت : هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجليلة الآدمية . وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك ، إلا من عصم الله ، ومن أنصف عذر ، ومن عرف صبر . والذي أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته ؛ هذا مع أن ابن أبي طىّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به ، فإن نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب وأبطل شعارهم وقوى أهل السنة^(١) ؛ وكان والد ابن أبي طىّ من رؤوس الشيعة ففناه من حلب . وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طىّ في كتابه مفرقاً في مواضع ، فلماذا هو في الكتاب الذي له كثير الجمل على نور الدين رحمه الله ، فلا يُقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به . والله أعلم .

قال : ولما ملك الملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين ابن أسد الدين ، وفرق عماله وأعطاه تل باشر^(٢) ثم أخذها منه ؛ ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر . ويقال إنه لما مرض قال : ما أخطأت إلا في إنفاذ أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها ، وما يحزنني شيء كهلمى بما ينال أهلى من يوسف بن أيوب . ثم التفت إلى أصحابه فقال : إذا أنا مت فصيروا بابنى إسماعيل إلى حلب فإنه لا يبقى عليه غيرها .

قال ابن أبي طىّ : ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه ، غير أنه يلقاها بصدر رحب ، وخلق عذب . حدثني أبي^(٣) عن ابن قاضي (١٣٥ ب) الدهليز ، وكان من خواص الملك الناصر ، قال : جرى يوماً بين

(١) انظر ما تقدم في ص : ١٤٧ من هذا الكتاب . وقد كانت الحركات الثورية التي تنشب في حلب تعتمد ، إلى حد كبير ، في مناسباتها المختلفة على تأييد الشيعة وأقرب مثل لهذا ما حدث في مناسبة مرض نور الدين سنة ٥٥١ هـ عند ما التف الشيعة حول أخيه نصرة الدين أمير أميران وأيدوه على شريطة أن يسمح لهم بإعادة النظم الشيعية في الأذان . انظر ص : ٢٧٥ من هذا الكتاب .

(٢) شمال حلب . معجم البلدان : ٢ : ٤٠٢ .

(٣) المحدث والد ابن أبي طىّ .

يدى السلطان ذكر نور الدين فأكثر الترحم عليه ، ثم قال : والله لقد صبرته منه على مثل حَزَّ المدي ووخز الإبر ، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد على ما يعتده ذنباً ؛ ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدها على فلم يقدر . ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يُصبر على مثلها لعلّي أتضرر أو أتغير ، فيكون ذلك وسيلة له إلى مبادئتي ، فما أبلغته أربه يوماً قط .

قلت : وقد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله تعالى ، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي . كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون^(١) رحمه الله وهو بحلب ليوليه^(٢) قضاء مصر . صورته : « حسبي الله وكفى . وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته وختم له بخير . غير خاف عن الشيخ^(٣) ما أنا عليه وفيه ، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين ، وما يقر بني إلى الله ، والله ولي التوفيق ، والمطلع على نيتي . وأنت تعلم نيتي كما قال عز من قائل : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ »^(٤) . أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها ، فهي من الفتوحات الكبار ، [التي جعلها]^(٥) الله تعالى دار إسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق ؛ فله المنة والحمد . إلا أن المتقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل ، وبها النجاة ؛ وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة ، وهي خالية من أمور الشرع ؛ وما تُدخر الدموع إلا للشدائد ، وأنا ما كنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك . والآن فقد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها ، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت ، ولا أقدر أولى أمورها ولا أقدرها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله . فيجب عليك ، وفقك الله ، أن تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها ، وتعمل ما تعلم أنه يقر بك إلى الله . وقد برئت ذمتي ، وأنت تجاب الله . فإذا كنت أنت هناك ووليك أبو المعالي ، وفقه الله ، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي . وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة . أصل أنت ووليك عندي حتى أسيركم

(١) تقدم شيء من التعريف به . انظر ص : ٣١ : حاشية : ١ .

(٢) في الأصل : لتوليه . والمثبت هنا من ل ١٣٦ ب .

(٣) في ل ١٣٦ ب ، وكذلك في ق : على الشيخ .

(٤) سورة الرعد : آية : ٤٣ .

(٥) مستدركة في هامش الأصل ، ومى ل صميم ل ، وكذلك في ق .

إلى مصر والسلام . بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين ، وفقه الله ، فأنا منه شاكر كثير
كثير كثير ، جزاه الله خيراً وأبقاه ، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ، ومنفعة
لأهل الإسلام . الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير^(١) ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

قال ابن أبي طي : وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم : ما يستخرج بديوان
صناعة مصر مائة ألف (١٣٦) دينار ، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة
ألف دينار ؛ فسامح بجميع ذلك ، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء ، وأنفذ إلى
سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر . وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين
والمعاملين لعدة سنين متقدمة ، آخرها سنة أربع وستين وخمسة ، فكان مبلغه ينيف
عن ألف ألف دينار وألني ألف أردب غلة ، فسامح في جميع ذلك ، وأبطله من الدواوين ،
وأسقطه عن المعاملين^(٢) . وأنهى إليه ما يُستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من
المكوس ، فأنكره وأكبره ، وعوض عنه بعدة ضياع ؛ فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم
من العين والغلة أشياء يطول شرحها .

قلت : وسيأتي كل ذلك في موضعه . ونسخة منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة
سبع وستين ، وذلك بإشارة نور الدين رحمه الله ، وفي أيامه .

فصل

ذكر العباد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنيئه بملك مصر ، ولم يذكرها في
كتاب البرق . منها :

بملك مصر أهني مالك الأمم فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئماً وهل بعدلك شيء غير ملتئم

(١) في الأصل : خير ؛ والمثبت هنا من ل ١٣٦ ب .

(٢) في الأصل : من المعاملين ، والمثبت هنا من ل ١٣٧ .

يا فاعل الخير عن طيع بلا كلف
ووافقاً لم تغر الكفر تعجمه
لله درك نور الدين من ملك
آثار عزمك في الإسلام واضحة
بما من العدل والإحسان تنشره
أوردت مصرخيول النصر عادمة
فأقبلت في سحاب من ذوابها^(١)
تمكّن الرعب في قلب العدو بها
سرت لتقطع ما للكفر من سبب
مستهلات وعور الطرق في طلبها
وجاءلات من الإفريج غلّهم
لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت
أعانها الله في إطفاء جمر أذى
وأصبحت بك نصر بعد خيقتها
والشنة اتسقت ، والبدعة انمحقت
ملوكها لك صاروا أعبداً ، وغدا
أنبت عنك بها قرما ينوب بها
(١٣٦ ب) لله درك نور الدين من ملك

ومولى العرف عن خاق بلا سام
لائم ثغر شنيب واضح شم
بالعزم مفتتح بالنصر مختم
وسره لك باد غير مكتم
تخاف ربك خوف المذنب الأثم
ثنى الأئمة لإقداماً على اللجم
وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن النار بالإحراق في الفحم
واه ، وتوصل ما للدين من رحم
ملياء ، مقتحمات أصعب الفحم
والقيد في موضع الأطواق والحزم
من العدو بحمد الصارم الخديم^(٢)
من شر شاور في الإسلام مضطرم
للأمن والمز والإقبال كالكرم
وعاودت دولة الإحسان والكرم
بها عبيدك أملاكاً ذوى حرم
في البأس عن عنتر^(٣) ، في الجود عن هرم^(٤)
عدل لحفظ أمور الدين مأتم

(١) الذوابل : الرماح . القاموس المحيط .

(٢) حذمه يحذمه : قطعه ، والحزم ككتف : القاطم كالخديم . القاموس المحيط .

(٣) عنتر بن شداد الفارس الجاهلي الأسود ، صاحب المعركة التي أولها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

(٤) هرم بن سنان الجواد العربي الذي أصلح بين عبس وذبيان وتحمل ديات القتلى ، فأشد فيه زهير
ابن أبي سلمى معاقته التي مطلعها :

أمن أم أوفى دمنة لم تسكلم بحسومة الدراج فالمثلثم

كانت ولاية مصر قبل عزتها بكشف دولتها لحما على وضم^(١)
فالذيل ملتطم ، جار على خجل جاراً لبحر نوال منك ملتطم
أغزُ الفرج ، فهذا وقت غزوم واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب على البغاث^(٢) وثوب الأجدل^(٣) القطم^(٤)
فلت مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الإسلام منتظم
محمود ، الملك الغازي ، يسوسهما بالفضل، والعدل، والإفضال، والهم
بالشكر كل لسان ناطق أبدأ محمود الملك محمود بكل فم
فأشك مصر وأظهر عز سنتها كم تقتني ، وإلى كم تشتكي ، وم

وَلَعَلَّ الدِّينَ الشَّاتَانِي^(٥) فِي نَوْرِ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ :

مانال شأوك في المعالي سنجر كلا ، ولا كسرى ، ولا الإسكندر^(٦)
ياخير من ركب الجياد ، وخاض في لجج المنايا والأسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر ، وصار من أتباعه من جده المسية نصر^(٧)
والمستضي^(٨) بالله معتد به وبجده ، وبجده مستظمر
أو سدد بالشام الثغور محامياً للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكي فيروى الأرض بحر دموعه والجو من أنفاسه يتسعر

(١) الوضم : ما وقيت به اللجم عن الأرض من خشب أو حصير . وتركهم لحماً على وضم : أوقعهم فذلهم وأوجعهم . القاموس المحيط .

(٢) البغاث شرار الطير . والمثل : إن البغاث بأرضنا يستنصر ، يقصد به : من جاورنا عز بجوارنا . القاموس المحيط .

(٣) الأجدل والأجدلى : الصقر .

(٤) قطم الشيء : قطعه ، وقطم ككتف : القاطع .

(٥) أبو علي الحسن بن سعيد بن عبد الله ؟ فقيه شامي غلب عليه الشعر ، استوطن الموصل ، وردد على بغداد ، واتصل بصلاح الدين فأكرمه . ولد سنة ٥١٠ هـ وتوفي سنة ٥٩٩ هـ .

وشاتان قلعة بنيار بكر . انظر : وفيات الأعيان : ١ : ١٧٥ ؟ معجم البلدان : ٥ : ٢٠٦ .

(٦) في ١٣٧ ب ، وكذلك في ق : ولا إسكندر .

(٧) الخليفة الفاطمي ، تولى الخلافة ستين سنة بين سنتي ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ .

(٨) الخليفة العباسي ، تولى الخلافة بين سنتي ٥٦٦ - ٥٧٥ هـ .

أوما أبوك بسيفه فتح الزها والأسد تقتنص السكاة وتزار
هابت ملوك الأرض بأس كلماتها فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
ما ضره على النسيئة ذاته وصفاته بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزية لوقائع مشهورة لا تذكر
وإذا عددنا الأنام مناقباً فعليك قبل الكل يثنى الخنصر
في الرأي قيس ، في الساحة حاتم في النطق قس ، في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها وسواك في آماله يتعثر
من ذا يصون الصين عندك وأنت من أسد الشرى منه تخاف وتحذر

قال العماد : وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعة لجماعة من الأعيان ، وأنفذ للعماد عمامة
ملبوسة ، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى ، منها :

يا صلاح الدين الذي أصلح الفاسد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشام نوالاً ، أم سال نيل ثانی ا
وعلى نيلها إكفنيك فضل فهما بالنضار جاريتان
وصلت أعطياتك الغر غزراً فتلق آمالنا بالتهاني
خلع راق العيون ورقّت^(١) وعلا وصفها عن الإمكان
مذهبات كأنها خلع الرض وان قد أهديت لأهل الجنان
مشرقات بطارزها الذهبيا ت الحسان الرفيعة الأثمان
فالعمامات كالنعامات ، والطرو ز بروق كثيرة المعان
(١٣٧) والموالي بها من التيه والفض بر على الدهر ساحبو الأردن
كيف خص العماد بالأذون المنح لاق من دون عصبة الديوان
أخلاق من نسجه لك في المد ح جديد بأمن الخلقان ا
وكذا عادة الليالي : تخص الفاضل المستحق بالحرمان

(١) في الأصل : وراعت . والمذكور أولاً لمناسبة أسلوب العماد .

لم تزل سائرات جودك بالشا م لديه غزيرة الثمّان
فإذا لم تزده مصر كلالا في المنى فاحمه من النقصان
وكتب إلى فخر الدين أخى صلاح الدين^(١) قصيدة ، منها :

عبدك شمس الدولة المرتجى منتظر تشريفك المذهب
فاعتب صلاح الدين لى حالتي عساه بالإصلاح أن يعتبا
عرّفه ما نمّ ، فإنى أرى من فضله للفضل أن يفضبا
وكيف يرضى ذاك بعض الرضا ومجده يأباه كل الإبا
وقل له : جاءت ملبوسة تخلفت من تبع في سبا
عمامة رقت ورثت ، فاشترتها إلا وطارت هبّا

قال : فوصل إلى من صلاح الدين عمامة مذهبة ، وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها .
وكتب إلى سعد الدين كمشتكين [كتاباً يقول فيه]^(٢) : استعير^(٣) لسانه في الاعتذار
إلى العاد فإنى أستقل لمرامه لارم ذات العاد . فكتب العاد :

أما العاد فقد تضاعف شكره نعماك ، شكر الروض نعى الصيّب
لعمامة ذهبية كغمامة يبدو بها برق الطراز المغربي
ما كان أحسن حاله لو أنه شُفعت عمامته بثوب مذهب
قال : وكتب إليه :

أهني الملك الناصر رَ بالملك وبالناصر
وما مهد من بنيما ن دين الحق في مصر
وما أسداه من برّ بلا عدّ ولا حصر
وما أحياه من عدل وما خفف من إصر
وإعلاء سنا السدة في مجبوحة القصر

(١) اسم هذا الأخ تورانشاه ويعرف أيضاً بالمعظم شمس الدولة ، ساعد أخاه صلاح الدين في إقرار
الأمر بمصر بإخاد ثورة السودان بالقاهرة ، ثم اتجه إلى اليمن لفتحها سنة ٦٩٠ هـ وتولاها نائباً عن أخيه ،
ثم عاد إلى دمشق سنة ٧١٠ هـ فاستخلفه صلاح الدين بها مدة قصيرة ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٧٦٠ هـ .

(٢) ما بين الحاصرين من ل ١٣٨٠ .

(٣) في الأصل : يستعير . والمثبت هنا من ل ١٣٨٠ .

قد استولى على مصر بحق يوسف العصر
وأحيا سنة الإحسان في البدو وفي الحضرة
وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة يقول^(١) :

ديار الهوى حيا معالملك القطر وجادك جود الناصر الغديق الهمر
به رجعت في عنفوان شبابها ونصرتها من بعد ما هزمت مصر
وكم خاطب رده لم يك كفها إلى أن أتاهها خاطب سيفه المهر
حماها حمى الليث العرين ، وصانها كما صان عينك من مليم القذى شفر
وكان بها بحر أجاج ، فأصبحت ومن جوده العذب النير بها بحر
وله فيه من أخرى :

فما أنت إلا الشمس ، لولاك لم تزل على مصر ظلماء الضلالة سرمد
وكان بها طغيان فرعون لم يزل كما كان لما أن طنى وتمردا
فبعثتهم بعد النواية والعمى وأرشدتهم بعد الضلال إلى الهدى
وله فيه من أخرى :

قل للملوك : ترحزحوا عن ذروة الـ علياء الملك الهام الناصر
يعطى الألوف ويلتقيها باسمها طلق الحيا في القنا المتشاجر
وقرأت في ديوان العزقة^(٢) : وقال في المولى للملك الناصر وقد أنفذ له من ديار مصر
(١٣٧ - ب) ذهباً ولغيره سلاما^(٣) :

صلاح الدين قد أصلحت دنيا شقى لم يبت إلا حربصا
وأرسلت السلام لنا عمـوما^(٤) وجودك جاءني وحدي خصوصاً

(١) في الأصل ، وكذلك في نسخة ل ونسخة ق : ... من قصيدة أولها يقول ، بزيادة كلمة أولها ،
أو كلمة من .

(٢) أبو الندى حسان بن غير السكلى ، عاش بين سنتي ٤٨٦ - ٥٦٧ . انظر : الخريدة : قسم
شعره الشام : ١ : ١٧٨ - ٢٢٩ .

(٣) نفس المصدر : ٢١١ .

(٤) في الخريدة : أتى منك السلام لنا عموماً .

فكنت كيوسف الصديق لما تلقى منه يعقوب الثمينا
وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق ، فلما صار
إلى مصر وعد أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار . فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة
قصيدة منها^(١) :

إليك صلاح الدين مولاى أشتكى زمانا على الحرِّ الكريم يحور
تُرى أبصر الألف التى كنت واعدى بها فى يدى قبل المات تصير
وهيات والإفرنج يبنى ويبنكم سياج قتيل دونه وأسير
ومن عجب الأيام أنك ذو غنى بمصر ، ومثلى بالشأم فقير^(٢)
وقال أيضاً^(٣) :

قل للصلاح معنى عند إيسارى يا ألف مولاى أين الألف دينار ؟
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم وما تفى جنة الفردوس بالنار
لجند بها عاضديات^(٤) مسطرة من بعض ما خلف الطاغى^(٥) أبو الطارى^(٦)
حرأ كاسيافسكم ، غرا كحيلكم عثقا نقلا كأعدائى وأطارى

وأنفذه من مصر عشرين ألف دينار . فقال :

(يا مالكا ما برحت كفه تجود بالمال على كفى)^(٧)
أفلح بالعشرين من لم يزل فى رأس عشرين من الكهف

(١) المصدر السابق : ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) فى الخريدة : وإنى فى دمشق فقير .

(٣) نفس المصدر : ١٧٨ .

(٤) فى الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ١٧٨ : حاشية ٧ : منسوبة إلى العاضد الفاطمى ،
ضربها بالقاهرة سنة ٥٦٤ وضرب على وجهها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وآية من القرائن ،
وعلى ظهرها البسملة والتاريخ والمكان والاسم « أبو محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين » .

(٥) فى هامش الأصل تعليق نصه : يعنى بالطاغى شاوراً وله ابن اسمه الطارى .

(٦) فى الخريدة : أبو العار .

(٧) هذا البيت مثبت فى هامش ل ١٣٨ ب .

يا ألف مولاي ولكنّها محسوبة من جملة الألف .
 وذكر العماد في الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر فأعطاه ذلك ،
 وأخذله من إخوته مثله ؛ فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور ، وكان ذلك ختام حياته .
 ودنا أجل وفاته فمات بدمشق في سنة ست ، أو سبع ، وستين وخمسمائة .

قلت : وفي ديوانه ما يدل على قدومه مصر ، فإن فيه : وقال . وكتبها على حمام عمرها
 المولى الملك الناصر بديار مصر :

ياداخل الحمام هنتها دائرة كالفلك الدائر
 تأمل الجنة قد زُخرفت وعمرت للملك الناصر
 كأنما فيض أنابيبها نداء للوارد والصادر

فصل

في قتل المؤمنين بالخرقانية^(١) ، ووقعة السودان بين القصرين ، وغير ذلك .

قال العماد : وشرع صلاح الدين في نقض إقطاع المصريين ، فقطع منهم الدابر من أجل
 من معه من العساكر . وكان بالقصر خصى ، يدعى بمؤمن الخلافة^(٢) ، متحكم في القصر ،
 فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا (١٣٨ - ١) على الأسدية والصلاحية ،
 لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه ، فيؤخذ من بقي أصحابه بالقاهرة ، ويُتبع من
 وراءهم ، فتكون عليهم الدائرة فكاتبوا الفرنج ؛ واتفق أن رجالا من التركان عبر البئر البيضاء^(٣)

(١) قرية صغيرة بمديرية القليوبية على الشاطئ الشرقي للنيل بينها وبين القناطر الخيرية نحو ثلثي
 ساعة ، وكانت تسمى في العصر الفاطمي : الخاقانية . انظر مفرج الكروب : ١ : ١٧٦ حاشية : ١ ؛
 وكذلك المخطط التوفيقية : ١٠ : ٩٧ .

(٢) واسمه جوهري : انظر : المواعظ والاعتبار للمقرئ ، وكذلك مفرج الكروب : ١ : ١٧٤ :
 حاشية : ٢ .

(٣) قرية من بلبس بينها وبين الخانكة ، وكانها اليوم عزبة أبي حبيب بناحية الزوامل في حوض
 يعرف إلى الآن باسم حوض البيضاء . وفي معجم البلدان : البيضاء اسم لأربع قرى في مصر ، الأولى من
 كورة الشرقية (وهي المقصودة هنا) والثانية غرب النيل بين مصر والإسكندرية ، والثالثة من ضواحي
 الإسكندرية ، والرابعة قرب المحلة . انظر : المواعظ والاعتبار ، وكذلك معجم البلدان : ٢ : ٣٣٦ ؛
 النجوم الزاهرة : ٨ : ٤٤ حاشية : ٢ ، مفرج الكروب : ١ : ١٧٥ : حاشية : ٤ .

فرأى مع إنسان ذى خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشى ، فأنكرهما ، فأخذهما ، وجاء بهما إلى صلاح الدين ، ففتقهما ، فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر ، يرجون بحركتهم حصول النصر . فأخذ الكتاب وقال : دلوني على كاتب هذا الخط ؛ فدلوه على يهودى من الرهط . فلما أحضروه يسألوه ، ويماقبوه على خطه ويقابلوه ، نطق بالشهادة قبل كلامه ، ودخل في عصمة إسلامه ؛ ثم اعترف بما جناه ، وشيده من الأمر وبناءه ، رأن الأمر به مؤتمن الخلافة ، وأنه برىء من هذه الآفة . فحسن لدى السلطان إسلامه ، وثبت اعتصامه ، وعرف استسلامه ، ورؤى إخفاء هذا السر واكتناؤه .

واستشعر الخصى العصى ، وخشى أن تسبقه على شق العصا العصى ؛ فما صار يخرج من القصر مخافة ، وإذا خرج لم يبعد مسافة ؛ وصلاح الدين عليه غضب وعنه مغضب ، لا يأمر فيه ببسط ولا قبض ؛ إلى أن استرسل واستبسل ، فظن أن ما نسله من الشر العقيم فصل . وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية لحرقه ، ورقع ما يتسع عليه من خرقة ؛ وهو يقرب قايوب ؛ فخلا فيه يوماً للذته ، ولم يدر أنه يوم ذلته ، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته ؛ فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ راسه ، ونزع ما جاء به لباسه ، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة أربع ؛ فورد موارده من رداء على أدون مشرع .

قال : ولما قُتل غار السودان وثاروا ، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً . وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه ، واجتاحوه وأذلوه ، واستباحوه واستحلوه ؛ فحسبوا أن كل بيضاء شحمة ، وأن كل سواد فحمة . فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ، ومقدمهم الأمير أبو الهيجا (١) ؛ واتصلت الحرب بين القصرين ، وأطاحت بهم العسكرية من الجانبين ، ودام الشر يومين ، حتى أحس الأساحم بالحين . وكلما لجئوا إلى محلة أحرقوها عليهم ، وحوّوا ما حوالهم ، وأخرجوا إلى الجيزة ، وأذلوا بالنفى عن منازلهم العزيزة ؛ وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذى القعدة ، فما خلاص السودان بعدها من الشدة ؛

(١) في مفرج الكروب : أبو الهيجا « السمين » . وحذفها أولى لتوافق أسلوب العماد . انظر : مفرج الكروب : ١ : ١٧٦ .

ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا ، وأينما وقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا .

وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة^(١) ، وكانت بهم المعصرة المعمورة ، فأخلى بنيانها من القواعد فأصبحت خاوية ، ثم حرسها بعض الأمراء واتخذها بستانا ، فهي الآن جنة لها ساقية .

قال : وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر ، فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، (١٣٨ - ب) أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أزره بمصر ، لما سمع حركة الفرنج وأهل القصر ، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة . قال : وباشر بنفسه وقعة السودان هذه ، وكان له فيها أثر عظيم .

ومن عجيب ما انفق أن العاضد كان يتطلع من المنطرة يعاين الحرب بين القصرين ، فقيل إنه أمر من بالقصر أن يقدفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا ؛ وقيل إن ذلك كان من غير اختياره . فأمر شمس الدولة الزراقيين بإحراق منطرة العاضد ، فهم أحد الزراقيين بذلك ، وإذا باب المنطرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال : أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : دونكم والعبيد السكالب ، أخرجوهم من بلادكم . وكانت العبيد مشتدة الأنفس بأن العاضد راض بفعلهم ، فلما سمعوا ذلك فُت في أعضادهم ، فخبثوا وتخاذلوا وأدبروا .

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدة منها :

بالمالك الناصر استنارت في عصرنا أوجه الفضائل
على من حقه فروض شكراً لما جاد من نوافل
يوسف مصر الذي إليه تشد آمالنا الرواحل
أجريت نيلين في ثراها : نيل نجيع ونيل نائل
وما نفيت السودان حتى حكمت البيض في المقاتل

(١) هي الحارة المنصورية التي ذكرها المقريزي في المواعظ والاعتبار وذكر أنها كانت كبيرة متسعة وبها منازل عدة للسودان ، أمر صلاح الدين بتخريبها بعد وقعة سنة ٦٤٠ هـ التي لعل فيها بالثلاثين منهم وكانت خارج باب زويلة .

صيرت رحب الفضاء ضيقاً عليهم كفة لحابل
وكل رأى منهم كراء وأرض مصر كلام 'واصل' (١)
وقد خلت منهم المغاني وأقفرت منهم المسايل
وما أصيبوا إلا بطلٍ فكيف لو أمطروا بوابل
والسود بالبيض قد أبيحوا فهمي بَوَازٍ بهم نوازل (٢)
مؤمن القوم خان حتى غالته من شره غوائل
عاملكم بالخنس ، فأضحى ورأسه فوق رأس عامل (٣)
يا مخجل البحر بالأيدى قد آن أن تفتح السواحل
فقدس القدس من خباث أرجاس كفر غُتم أراذل (٤)

قال العماد : ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئة له بالملك وتعزية بعمه :

(١) في ك بالهامش. تعليق نصه : « حاشية : قال المؤلف : هذان البيتان اللذان أولهما : وما نفيت
السودان ، وكل رأى ، فيهما زحاف وذلك أنه استعمل مفعولن في موضع فاعلن لأن هذا الوزن هو
مسدس البسيط الخلق ، ومنه :

* أصبحت والشيب قد علاني *

وتعليقه :

* مستفعلن فاعلن فاعولن *

واستعمله العماد في هذين البيتين مخبونا :

* مستفعلن مفعولن فاعولن *

والله أعلم . يقول المحقق : ويلحق بهذين البيتين البيت التاسع وأوله :

* وما أصيبوا إلا بطل *

ويقول أيضاً : وفي تعليق أبي شامة نظر .

(٢) في ل ١٣٩ ب وكذلك في ق ١٣٨ ب :

* فهم نواز بهم نوازل *

وفي مفرج الكروب : ١ : ١٧٨ :

* فهم بواديهم نوازل *

(٣) العامل : صدر الرمح .

(٤) الأغتم : من لا يفصح شيئاً ، والجمع : غتم .

أيا يوسف الإحسان والحسن ، خير من
ومن للهدى وجه النجاح برأيه
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزة
أبوه أبى إلا السلام ، وعنه
وطال الملوك شيركوه بطوله
بنو الأصفر الإفرنج لاقوا ببعضه
وما ابيض يوم النصر واخضر روضه
رأى النصر فى تقوى الإله ، وكل من
ولما رأى الدنيا بعين مالة
وقام صلاح الدين بالملك كافلا
(١١٣٩) ولما صبت مصر إلى عصر يوسف
فأجرى بها من راحته بحوده
هزمت جنود المشركين برعبكم
وفرقت من حول مصر جموعهم
وأمنتم فيها الرعايا بعدلكم
بسفك دم حطمت دماء كثيرة
وما يرتوى الإسلام حتى تغادروا
فصّبوا على الإفرنج سوط عذابها
ولا تهلوا البيت المقدس ، واعزموا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم
وإن الذى أترى من المال مُقْتَرِ
قال : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه . فنها كتاب
ضمه هذا البيت :

ما كنت بالمنظور أقنع منكم ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابه أبياتاً منها هذه :

يا هَلْ لسالف عيشتي بفنائسكم من عودة محمودية ورجوع
قد غبتم عن ناظري ما أذنت للقلب شمس مرة بطلوع
كنتُ المشمّع في المطالب عندكم فغدوت أطلب طيفكم بشفيح
أصبحت أقنع بالسلام على النوى وبقر بكم كم بت غير قنوع

قال : ووصل أيضاً منه كتاب ضمنه هذا البيت :

وأثر در الدمع من قبل أبيضا وقد حال مذ بلثم فأصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه أبياتاً منها :

هنيئاً لمصر حوز يوسف ملكها^(١) بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتلُ يوسف شاوراً يماثل إلا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي : أبشر اليوم بالمنى فقد نلت ما أملت، بل حزت ما شيتا

قال : وفي هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابنى شاور الكامل وأخاه ، بمعنى الطارى ، يوم الاثنين الرابع من جمادى الآخرة وذلك أنه لما قتل شاور عادوا في القصر ، فكانوا نزلوا في القبر ؛ فلو أنهم جاءوا إلى أسد الدين سلموا ، وامتنعوا وعصموا ، فإنه ساء قتل شاور وإن كان أميناً بقتله ما حاذر .

قلت : الكامل هو شجاع بن شاور ، وكان له أخوان : طى تقدم ذكر قتل ضرغام له والآخر الطارى قال الفقيه أبو الحسن على بن محمد بن أبى السرور الروحى في تاريخه : أخذ ابننا شاور ، شجاع الملقب بالكامل والطارى الملقب بالمعظم ، وأخوه الملقب بفارس المسلمين ؛ فقتلوا ودير برءوسهم .

قال : ولما ولى صلاح الدين ساس الرعية وأظهر لهم من العدل ما لم يعلموه ، فاجتمع أهل البلاد^(٢) وكرهوه ، (١٣٩-ب) فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة إخراجاً عنيفاً ،

(١) في مفرج الكروب : ١ : ١٧٨ :

* هنيئاً لمصر كون يوسف ملكها *

(٢) المقصود بأهل البلاد أصحاب الأمر والنهى فيها .

وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتت شملهم ؛ « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا »^(١).

قال : ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها ، جليلها وحقيدها ؛ وغزا بلاد الشام غزوتين .

قال ابن شداد : وفي الحرم من هذه السنة توفى ياروق الذي تنسب إليه الياروقية ،
يعنى الحملة التي بظاهر حلب^(٢) .

قال غيره : وفيها احترق جامع حلب وأسواق البز ، وأخذ نور الدين في عمارته
آخر السنة .

ثم دخلت سنة خمس وسنين [وشمسة] :

ففي أول صفر منها نزل الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، على دمياط من الديار المصرية .
قال ابن الأثير^(٣) : كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك ،
فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ،
وأنهم خائفون على البيت المقدس (من المسلمين)^(٤) ؛ وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان
يحرضون الناس على الحركة ؛ فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا على النزول على
دمياط ، ظنوا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر . فلما نازلوها
حضروها ، وضيقوا على من بها^(٥) ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر
فيها كل من عنده ، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو

(١) سورة النمل ، آية : ٥٢ .

(٢) وتلصق إلى ياروق أحد أمراء نور الدين محمود ، وهو من التركمان ، نزل فيها بمسكرو وعمر بها
دورا ومساكن . توفى في ياروق سنة ٥٦٤ هـ . انظر : معجم البلدان : ٨ : ٤٩ .

(٣) في الأتابكة : ٢٥٨ - ٢٦٠ ، وهو اقتباس حرق .

(٤) ساقطة من نسخة ل ١٤٠ ب ، وكذلك من نسخة ق .

(٥) اشترك في هذه الحملة جنود أموري الأول (ملك المقدس بين سنتي ١١٦٢ - ١١٧٤)
وأسطول الإمبراطور البيزنطي عمانوئيل (حكم بين سنتي ١١٤٣ - ١١٨٠) وباغت عدة السفن مائتي
سفينة . انظر : The Crusaders in the East, p. 193 ، وكذلك تتحسن حديثي : نور الدين
والصليبيون : ١٣٤ - ١٤٠ .

له ما هر فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سار إليها خلفه المصريون في تخلفيه ومخلفيه عسكريه بالسوء ، وخرجوا من طاعته ، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه . فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ؛ فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً . ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الإفرنج فنهبا ، وأغار عليها واستباحها ، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع .

فلما رأى الإفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين بلادها ، ونهبها وإخربها ، رجعوا خائبين ولم يظفروا بشيء ؛ وهذا موضع المثل : « ذهبت النعمة تطالب قرنين فمادت بلا أذنين ! » ، فوصلوا إلى بلادهم فأروها خاوية على عروشها .

وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً ، أخرج منها صلاح الدين أموالاً لا تحصى حكى عنه أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد : أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها

قال القاضي ابن شداد^(١) : لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما منم (للسلطان)^(٢) من استقامة الأمر في الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الفرنج والروم جميعاً وحدثوا نفوسهم بقصد الديار (١٤٠) المصرية ، والاستيلاء عليها وملكها ، ورأوا قصد دمياط لتمكين القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه . فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات^(٣) والجروح^(٤) وآلات الحصار وغير ذلك . ولما سمع

(١) في النوادر السلطانية : ٣٣ - ٣٤ ، وهو اقتباس حرفي .

(٢) ساقصة من ل ١٤١ ، وهي موجودة في النوادر .

(٣) جمع دبابة ، شبه برج متحرك ، يتكون أحياناً من أربع طبقات ، من الخشب والرماس والحديد والنحاس ، ويتحرك على عجلات ، ويستقر الجنود داخله في طبقاته لمهاجمة الحصون وساقى الأسوار . والدبابة في أبسط صورها تتكون من الخشب المسكوب بالجريد المنقوع في الخل لصباتها من الاحتراق . انظر : السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٨ ، وكذلك : Dozy. Supp Dic Ar .

(٤) الجروح جمع جرخ : آلة حربية لتسحق لرمي السهام والنفط والحجارة ، ويقال لتستخدمها ==

الفرنج بالشام ذلك اشتد أمرهم ، فسرّقوا حصن عكا من المسلمين ، وأسروا صاحبها ، وكان مملوكاً لنور الدين يسمى خطّ الخالعة^(١) ، وذلك في ربيع الآخر منها . وفي رجب منها توفي العمادى صاحب نور الدين وأمير حاجبه ، وكان صاحب بعلبك وتدمر .

ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم ، فنزل على السكرى محاصراً لها في شعبان من هذه السنة ، فقصد فرنج الساحل ، فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يلقوهم . ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية [بجلب] ^(٢) في رمضان ، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام ، فبلغه خبر الزلزلة بجلب التي ضربت كثيراً من البلاد ، وكانت في ثمانى عشر شوال من السنة المذكورة وهو بمشتر ^(٣) . فسار [بطلب حلب ، فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل ؛ وكانت وفاته في الثمانى والعشرين من ذى الحجة ، وبلغه الخبر] ^(٤) وهو بقل باشر فسار ليلته طالباً بلاد الموصل .

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمّن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بأنفساكر والآلات ، وإزعاج العدو عنهم إن نزل عليهم ، وبالغ في الهدايا والعطايا والهبات . وكان وزيراً متحكماً لا يرد أمره في شيء . ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور واشتد زحفهم عليها وقتلهم لها ، وهو رحمه الله تعالى يشن الغارات عليهم من خارج ، والعسكر يقاتلهم من داخل . ونصر الله للمسلمين يؤيدهم ، وحسن قصده في نصرته دين الله يسعدهم وينجدهم ، حتى بان لهم الخسران ، وظهر على الكفر الإيمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤسهم ، ويسلمون بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مجانيقهم ، ونهبت

= الجند جرجى : افطن السلوك : ١ : ١٠٣ : حاشية : ١ ، وكذلك Dozy. Supp. Dict. Ar.

(١) في مفرج السكروب : ١ : ١٨١ : الجند .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٤١ .

(٣) يعرفها ياقوت بأنها موضع بحوران من أعمال دمشق : معجم البلدان : ٦ : ١٧٩ .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من صميم الأصل مثبت بهامشه ، وهو وجوده في صميم ل : ١٤١ .

آلاتهم ، وقتل منهم خلق عظيم ، وسلم البلد بحمد الله ومنه .

وقال العماد : أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه ، ومدار فليكه ، يُنفض إليها المدد بعد المدد ، ويرسل إليها العدد بعد العدد ، ويسهر ليله ، ولا يقيل نهاره ، وقد أخاض لله سره وجهاره ، ولا ينام ولا ينعيم ، وعنده من ذلك المُقعد المقيم . وسبق تقى الدين ، ابن أخى السلطان ، إلى دمياط فدخلها ، وكذا جاله شهاب الدين محمود فنزلها . واتصل الحصار ، وتواصل الأنصار ، ودب في الفرنج الفناء ، وهب عليهم البلاء ، فرحلوا عنها في الحادى والعشرين من ربيع الأول ، بالذل الأكمل ، والصغار الأشمل .

وكان لما وصل الخبر بوصولهم ، واجتماعهم على دمياط ونزولهم ، اغتم واهتم ، واستصعب الملم ، وأنهض من عنده عسكرياً ثقيلاً مقدّمه الأمير (١٤٠ ب) قطب الدين خسرو الهذبانى ، وكان مقداماً مقدّماً ، وهاماً مُعلماً ، وأمره أن يسير بالعسكر ، ويخوض بهم بحر العجاج الأكد ، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع ، فوقع رَوْعُهُ من الكفر في كل رُوع .

قُلت : وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبشيم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبشّم لتتم السلسلة ، على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحي من الله تعالى أن يرانى متبشماً والمسلمون محاصرون بالفرنج . وبلغنى أن إماماً للنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة ، فقال يارسول الله ربما لا يصدقنى فاذكر لى علامة يعرفها ، فقال : قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت : يارب انصر دينك ولا تنصر محموداً ، من هو محمود الكلب حتى ينصر !! قال : فاتميت ونزلت إلى المسجد ، وكان [من] (١)

عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بفلس ولا يزال يتركم فيه حتى يصلى الصبح ، قال :

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٤١ ب .

فتمرضت له ، فسألني عن أمري ، فأخبرته بالتمام ، وذكرت له العلامة ، إلا أنني لم أذكر لفظة السكب . فقال نور الدين رحمه الله تعالى : اذكر العلامة كلها ؛ وألح على في ذلك ، فقلتها ؛ فبكي رحمه الله وصدق الرؤيا . وأرخت تلك الليلة لجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة .

فصل

أرسل نور الدين كتاباً إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط ، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم ، والاقتصار على صلاح الدين وألزامه وخواصه . فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعله بأن قنطاريات^(١) الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك فإن الفرنج لا يربعون إلا منهم ، ولولا هم ل زاد طمعهم في الديار المصرية ، وتحصلوا منها على الأمانة ، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى ، مضافاً إليه نعمه التي لا تحصى . قلت : ولعمارة اليمنى من قصيدة :

من شاكِر ، والله أعظم شاكر ما كان من نعيمى بنى أيوب
طلب الهدى نصراً ، فقال ، وقد أتوا : حسبي ، فأنتم غاية المطالب
جلبوا إلى دمياط عند حصارم^(٢) عز القوى وذلة المغلوب
وجلوا عن الإسلام فيها كربة لو لم يجلوها أتت بكروب
(١٤١) فالناس في أعمال مصر كلها عتقاؤهم من نازح وقريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً وهم اللباب ، فأنت غير لبيب

(١) جم قنطارية ، وهي نوع من الرماح يصنع من خشب يعرف باليونانية بهذا الاسم : مفرج الكروب : ١ : ١٨٣ : حاشية : ١ .
(٢) في ل ١٤٢ : عند حصارها .

وللشهاب فتيان الشاغوري^(١) من قصيدة يقول :

ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم لديه رماح أشرعت أو سلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طامياً وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الإحصاء والعد جمعهم ألوف ألوف خيلهم والرواحل
رأوا دونهم أسداً ، بأيديهم التقا وبيضاً رقاقاً أحكتها الصياقل
وداروا بها في البحر من كل جانب ومن دونها سد من الموت حائل
رجا السكيب ، ملك الروم إذ ذاك ، فتحها خفاف ، فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة كأنهم - ذلاً - نعام جوافل
وما أمّلوا أن يلقوا بسلادهم لتمصهم بما رأوه المعائل
قال العماد : وسألني كريم الملك أن أعمل له أبياتاً في صلاح الدين تهنئة بالنصر في
دمياط ، فعملت قصيدة منها :

يا يوسف الحسن والإحسان ، يا ملكاً بجده صاعداً أعداؤه هبطوا
حلت من وسط العلياء في شرف ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيئ صوتك دمياط التي اجتمعت لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرفة وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها فللمصالح من أيامه نمط
قال [العماد] (٢) : وما سيرته إلى صلاح الدين قصيدة منها (٣) :

كأن قلبي وحب مالكة^(٤) مصر وفيها المليك يوسفها

(١) فتيان بن علي بن شمال ويعرف بالشهاب الشاغوري المعلم ، نسبة إلى حمى من أحياء دمشق ؛
لزم محبة نور الدين محمود بن المبارك شحنة دمشق ، وكان يعلم أولاده الخط . ولد بعد سنة ٥٣٠ هـ
وتوفي سنة ٦١٥ . انظر خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٢٤٧ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٤٢ .

(٣) الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٩ - ١٣ . وهي طويلة .

(٤) ضبطها في الخريدة : وحب مالكة بضم الكاف . والمثبت هنا أولى لأن المعنى طبقة للخريدة : وياحبذا
مالكة . ولبقا للضبط الذي فضائه نلاحظ تشبيها طرفاه القاب وجبه لملكه ، ومصر ويوسف مالكة .

هذا بسلب الفؤاد يظانه وهو يقتل الأعداء ينصفها
 الملك الناصر الذي أبدأ بعز سلطانه يشرفها
 قام بأحوالها يدبرها حسناً ، وأثقالها يخففها^(١)
 بعدله والصالح يعمرها وبالمدى والجميل يكتنفها
 من دنس الفادرين يرحضها ومن خباث العدا ينظفها^(٢)
 وإن مصرأ بملك يوسف جنة خلد يروق زخرفها
 وإنه في السماح حاتمها وإنه في الوقار أحنفها
 يوسف معمر الذي^(٣) ملاحها جاءت بأوصافه تعرفها
 كتب التواريخ لا يزيتنها إلا بأيامه^(٤) مصنفها
 وحطت دمياط إذ أحاط بها من برجوم البلاء يقذفها
 لاقت غواة الفرنج خيبتها فزاد من حسرة تأسفها
 أوردت قلب القلوب أرشية من القنا للدماء تنزفها^(٥)
 وليتها سفكها فعاملها عاملها^(٦) ، والسفان مشرفها
 يمضي لك الله في قتالهم عزيمة للجهاد ترهفها
 وله فيه من أخرى^(٦) :

قد استقرت أموري فيه بحسب اقتراحي
 كما استقر صلاح الذ (م) نيا بلك الصلاح
 تنير شمس أيادي به في سماء السماح^(٧)

(١) هذا البيت غير موجود في الخريدة .

(٢) في الخريدة : التي .

(٣) في الخريدة ، وفي مفرج الكروب : ١ : ١٨٤ : إلا بأوصافه .

(٤) القلب جمع قلب وهو البئر ، والأرشية جمع رشأ وهو الجبل .

(٥) العامل الأول : الوالي ، والثاني : صدر الرمح .

(٦) الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٢ - ٢٥ . وفي طويلة .

(٧) في الخريدة :

تنير شمس مساءه من سماء الصباح

وأمره مستفاد من القضاء المتاح

وأرسله نور الدين إلى خلاط^(١)، ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكان المعروف بشاه
أرمن. قال: فلما كنت بماردین^(٢) كتبت إلى بعض المعارف:

(١٤١ ب) قد نزلنا في جوارك وحلانا قرب دارك
وسرينا في الدياجي فهدانا ضوء نارك
فتدارك أمرنا اليوم بطول متدارك
وتفرّد باغتنام الشـ (م) سكر من غير مشارك

قال العماد: وفي هذه السنة خرج نور الدين إلى دارياً^(٣) فأعاد عمارة جامعها، وعمر
مشهد أبي سليمان الداراني، وشقّى بدمشق.

فصل

في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عمارة في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين، تقدم بعضها^(٤)،
يقول فيها:

صحت به مصر، وكانت قبله تشكو سقاماً لم يعن بطبيب
عجباً لمعجزة أنت في عصره والدهر ولأد لسكل عجيب
رد الإله به قضية يوسف نسقا على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم، وبدولة قد ساعدتك رياحها بهبوب

(١) عاصمة أرمينية الوسطى: معجم البلدان: ٣: ٤٥٣.

(٢) قلعة على قمة جبل تشرف على دارا وأصيبين. ودليس، نقل فيها عيون الماء ويشرب أهلها من
صهاريج معدة في الدور المبنية على شكل متدرج: معجم البلدان: ٧: ٣٦١.

(٣) من قرى دمشق بالغوطة: نفس المصدر: ٤: ٢٤.

(٤) انظر ما تقدم من: ٤٦٠.

قال العماد : لما دخل فصل النبروز وزاد استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصده ولده صلاح الدين والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسبده وابده^(١) ، وخيّم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جدده ؛ وسار في حفظ الله تعالى ، فوصل إلى مصر في السابع والمشرين من رجب ، وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدومه ما وجب ، وركب لاستقباله ، وزاد لإقبال البلاد بإقباله .

ولما عزم على التوجه إلى مصر شرع في تفريق أملاكه ، وتوفير ماله في شركة على أشراكه ، وما استصحب شيئاً من موجوده ، وجعله نهبة لجوده .

قلت : ووقف رباطاً داخل الدرب بزقاق العونية بهاب البريد^(٢) .

ثم قال العماد : ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضارب به ، وسحب للعلا على روض الرضا سحائبه ، خرج نور الدين إلى رأس الماء^(٣) بمسكركه وخيامه ، وأرهب للجد في الجهاد [حد اعتزامه . ثم أقام بعد توديعه ، والوفاء بحق تشييعه ، إلى أن اجتمعت إليه عساكره ، وحضر^(٤)] بادی جنده وحاضره ، وعب بحره ، وماج زاخره .

ثم توجهنا إلى بلاد الكرك مستهل شعبان ، ونزلنا أياماً بالبلقاء^(٥) على عمّان ، وأقنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها ، ونصبنا عليها منجنيقين . فورد الخبر أن الفرنج قد تجمعوا ووصلوا إلى ماعين^(٦) ، فقال نور الدين : نرى أن نعطف أعتنا وبالله نستعين ، فلما إذا كسرناهم وقسرناهم ، وقتلناهم وأسرناهم ، أدركنا المراد ، وملكنا البلاد . فحللنا

(١) السيد : القليل من الشعر . وجاء ماله سيد ولا لبد : أي لا قليل ولا كثير .

(٢) أحد الأبواب الأربعة لمسجد دمشق ومى باب البريد ، وباب جيرون ، وباب الزيادة ، وباب

الفراديس . انظر : *Le Strange. Palestine Under Muslima, p. 226.*

(٣) من أرض حوران وتقع على طريق الحج ، على مسافة عشرين ميلاً شمال درعا ، وعلى مسيرة

يوم جنوب دمشق . انظر : *The Comasus Chronicle of the Crusades p. 306*

وكذلك : *The Crusaders in the East, pp. 193-194, 235.* وانظر : *Soladin, p. 95*

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٤٣١ ، وهو مستدرك في هامش الأصل بخط مخالف .

(٥) كورة من أعمال دمشق ، عاصمتها عمان ، بها قرى ومزارع كثيرة . معجم البلدان ٢: ٢٧٧ .

(٦) شرق البحر الميت ، إلى الجنوب الغربي من حشبان (*Hishban*) . انظر :

The Crusaders in the East, p. 233

إليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا ، وقالوا رحيلهم عن الحصن قد حصل (١١٤٢) وهو مقصودنا . وعاد نور الدين إلى حوران فخيم بمشترى وصام رمضان .

وقال ابن الأثير^(١) : كان سبب حصر نور الدين السكرك أن نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، سار عن دمشق إلى مصر فسير نور الدين معه عسكرياً ، فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة ما لا يُعد ؛ فخاف نور الدين عليهم ، فسار إلى السكرك فنزل عليه وحصره ، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على السكرك الجانيق ، فأنه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه ، وأن ابن المنقري وفليب بن الرقيق ، وهما فارسا الفرنج في وقتها ، في المقدمة إليه . فرحل نور الدين ، رحمه الله تعالى ، نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج ، وكانا في مائتي فارس وألف تركيبي ومعهم من الراجل خلق كثير . فلما قاربهما رجعا القهقري إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه ، ونزل بعشتر ، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه .

وقال ابن شداد^(٢) : أنفذ صلاح الدين في طلب [والده ليكمل له السرور ، ويجمع القصة مشاكلة ما جرى للنبي يوسف الصديق عليه السلام . فوصل]^(٣) والده نجم الدين إليه ، وسلك معه من الأدب ما كان عادته ، وألبسه الأمر كله . فأبى أن يلبسه ، وقال : يا ولدي ، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفيل له ، فما ينبغي أن نغير موقع السعادة ؛ فحكاه في الخزانة كلها^(٤) . وكان رحمه الله تعالى كريماً يطلق ولا يرد . ولم ينزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله ، وبه ختم أمر المصريين .

وقال ابن أبي طي الحلبي : أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر ، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده

(١) في الأناطكة : ٢٦٠ - ٢٦١ ، وهو القتياس حرق .

(٢) في النواهد السطانية : ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ما بين الحاضرين من ل ١٤٣ ب ، وهو مستدرک في هامش الأصل بخطه مخالف .

(٤) في ل ١٤٣ ب : بأسرها .

بمصر بذلك ، وحمله رسالة منها : « وهذا أمر ثجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة ، والمنقبة النبيلة ، قبل هجوم الموت ، وحضور الفوت ، لا سيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته ، وهو عنده من أهم أمنيته » .

وسار نجم الدين ، وأصحابه نور الدين هدية سنية الملك الناصر ، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج^(١) ، ولم يحجر بذلك عادة لهم . وكان من أعجب يوم شاهده الناس ، وخلع العاضد عليه ولقبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من القصر الألفاظ والتحف والهدايا ، وأظهر السلطان من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر ، وأفرد له داراً إلى جانب داره ، وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة ، وأقطع شمس الدولة [تورانشاه]^(٢) أخاه قوص وأسوان وعينذاب^(٣) ، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وسنة وستين ألف دينار .

وسار شمس الدولة إلى قوص وللاها شمس الخلافة محمد بن مختار . وكان السلطان قبل إقطاعها شمس الدولة قد سبّر رسلان بن دغش لجباية خراجها ، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بنهميم^(٤) ، فغذمه رسلان وعاد إلى القاهرة . وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين علياً^(٥) وفرح (١٤٢ ب) به فرحاً عظيماً ، وخلع وأعطى ، وتصدق بما بهر به العقول . ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم ، قد تقدم بعضها^(٦) :

(١) شجر الإهليلج ، كما في القاموس المحيط : شجر له ثمر منه الأصفر ، والأسود وهو النضيج ، ومنه كابل ينغم من الخوايق ويحفظ العقل ويزيل الصداع . وصحراء الإهليلج ، وهي المقصودة هنا ، شرقي الخندق في الرمل ، إليها كانت تنتهي عمارة خلية الحسينية بالقاهرة من جهة باب الفتوح ، وكان بها شجر الإهليلج الهندي فعرفت به . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٣٨ .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٣) على البحر الأحمر ، وكانت مرسى المراكب التي تصل بين عدن والصعيد . معجم البلدان : ٦ : ٢٤٦ .

(٤) شرقي النيل من أعمال الصعيد . معجم البلدان : ٨ : ٧ .

(٥) في الأصل ، وكذلك في نسخة ل وفي نسخة ق : على .

(٦) الحكيم عبد المنعم الجليلاني . وقد سبق بعض هذه القصيدة قبيل الحديث الذي اقتبسه أبو شامة من ابن أبي طي عن شاور .

في مشرق المجد نجم الدين مطلعته وكل أبنائه شهب ، فلا أقولوا
جاءوا كي معقوب والأسباط ، إذ وردوا على العزيز من أرض^(١) الشام واشتعلوا
لكن يوسف هذا جاء إخوته ولم يكن بينهم نزاع ولا زلل
وملكوا أرض مصر في شماخته ومثلها لرجال مثلهم نزلوا

فصل

في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الأثير^(٢) : وفي ثلثي عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها ، عمت
أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها ؛ إلا أن أشدها وأعظمها
كان بالشام . فخربت بعلبك وحمص ، وحماة ، وشيزر ، وبعرين^(٣) ، وغيرها ؛ وتهدمت
أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك من الناس ما يخرج عن العدد والإحصاء
فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلاعها ، وكان لم
يبلغه خبر غيرها . فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها ، وخلوها من أهلها ؛
فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة ، ثم
إلى باري . وكان شديد الخذر على البلاد من الفرنج لا سيما قلعة باري ، فإنها مع قربها
منهم لم يبق من سورها شيء ألبتة ، فجعل فيها طائفة صالحة من الممسكر مع أمير كبير ،
وكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهاراً . ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة
ما ليس بغیرها من البلاد ، فإنها كانت قد أتت عليها ، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ ،
فكانوا لا يقدرّون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة ، فإنها عاودتهم
غير مرة ؛ وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها

(١) بتسهيل الهمزة .

(٢) في الأناضول : ٢٦١-٢٦٢ ، وهو اقتباس حرى .

(٣) بين حلب وحماة من جهة الغرب وهي قريبة من حماة ، وبين حمص والساحل . وصحة الاسم باري ،
أما بعرين فللهجة العامة . انظر : مفرج الكروب : ٧٢ : ١ ؛ ومعجم البلدان : ٢ : ٣٤-٣٥ ، ٢٢٥ .

وبأهلها أقام فيها وباشروا عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنايين . ولم ينزل كذلك حتى أحكم أسوارها ، وجميع البلاد وجوامعها ، وأخرج من الأموال ما لا يقدر قدره .

وأما بلاد الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريبا من هذا ، وهم أيضاً يخافون نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر .

قال العماد : وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبحرين والحصن الأكراد^(١) وصافينا والمريمية وعروحا^(٢) في بحر الزلازل غرقى ، لا سيما حصن الأكراد ، فإنه لم يبق له سور ، وقد تم عليه فيه دحور وثبور . فشغلهم سؤدهم عن سواه ، وكل اشتغل بما دهاه . وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام (١٤٣ - ١) بما أحدثته الزلزلة من الانهدام والانهدام .

قال : وما سكنت النفوس من رعبها ، وتسالت القلوب عن كربها ، إلا بما دم الكفار من أمرها وعراهم من ضرها ، فلقد خصتهم بالأمض الأشق ، وأخذتهم الرجفة بالحق ، فلما وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس ، فأصبحوا للردى فرانس ، شاخصة أبصارهم ينظرون « فَخَرَّ عَنِّيهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ »^(٣) .

ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها :

أهل لعانى الهوى من الأسر فادى ولسارى . ليل الصبابة هادى
جئبوني خطب البعاد ، فسهل كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت في غفلة من البين حتى ضاح يوم الأثيل بالبين حادى^(٤)
قد حللت من مهجتي في السويدا ، ومن مقلتي محل السواد

(١) حصن منيم يطل على جبل الجليل الذى يقابل حصن من جهة الغرب ؛ أنزل به بعض أمراء الشام جماعة من الأكراد ليسكنوا بينهم وبين الفرنج لخصوه . ثم أخذه الفرنج منهم شراء . معجم البلدان : ٣ : ٢٨٤ .

(٢) وعروحة : حصن من نواحي الروم : نفس المصدر : ٦ : ١٥٧ .

(٣) سورة النحل : آية ٢٦ .

(٤) في ل ١٤٤ ب : حسادى .

وبخلتم من الوصال بإسعا في ، أما كنتم من الأجواد
 وبعثتم نسيمكم يتلافا في ، فعاد النسيم من عوادي
 ستموني تجلداً واشتياقاً ومحال تجمع الأضداد
 أبقالا بعد الأوبة يا قلدا في ما هذه شروط الوداد
 ذاب قلبي وسال في الدمع لما دام من نار وجده في انتقاد
 ما الدموع التي تحدرها الأشواق إلا فتات الأكباد
 حبذا ساكنو فؤادي ، وعهدي بهم يسكنون سفح الوادي
 أتمنى بالشام أهلي ببغداد د ، وأين الشام من بغداد
 ما اعتياضي عن جهنم^(١) يعلم الله له تعالى إلا بحب الجهاد
 واشتغالي بخدمة الملك العا دل محمود ، الكريم ، الجواد
 أنا منه على سرير سروري راتع العيش في مراد مرادي
 قيدني بالشام منه الأيادي والأيادي للحر كالأقياد
 قد وردت البحر الخضم وخلة ت ملوك الدنيا به كالثياد
 هو نعم الملاذ من نائب الدهر ر ونعم المعاذ عند المعاد
 جل رزق الفرنج فاستبدلوا منه به بلبس الحديد لبس الحديد
 فرق الرعب منه في أنفس الكفة (م) ار بين الأرواح والأجساد
 سطوة زلزلت بسكانها الأر ض وهدت قواعد الأطواد
 أخذتهم بالحق رجفة بأس تركتهم صرعى صروف العوادي
 خفضت في قلاعها كل عال وأعادت قلاعها كالوهاد
 أنفذ الله حكمه فهو ماض مظهر سر غيبه فهو بادي
 آية آثرت ذوى الشرك بالهنا لك وأهل التوحيد بالإرشاد
 والأعدى جرى عليهم من التد مير ما قد جرى على قوم عاد

(١) في الأصل : بهمهم والمثبت هنا من ل ١٤٤ ب .

أشركت في الهلاك بين الفريقين : دعاة الإشراك والإلحاد
ولقد حاربوا القضاء ، فأملنى حكمه فيهم بغير جلال
(١٤٣ب) والإله الرؤوف في الشام عنا دافع لطفه بلاء البلاد

قال العماد : ومنها معنى مبتكر ابتدعته في الزلزلة ، وهو :

وبحق أصيبت الأرض لما سكنت من مقام أهل الفساد

قال العماد : في هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة الثورية كنت مقرظاً
للفضائل الشهرزورية ، وكان الحاكم بها القاضي محي الدين أبو حامد محمد ، ابن قاضي قضاء
الشام كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري . وكان كمال الدين قد
علق به تنفيذ الأحكام وإليه أمور الديوان ، وهو ذو المسكنة والإمكان ، في بسط العدل
والإحسان ؛ ومحبي الدين ولده ينوب عنه في القضاء بحلب وبلداتها ، وينظر أيضاً في
أمور ديوانها ؛ وبجدة وحمص من بنى الشهرزوري قاضيان ، وهما حاكمان متحكما . وكان
هذا محي الدين من أهل الفضل ، وله نظم ونثر ، وخطب وشعر ؛ وكانت معرفتي به في
أيام التفقه ببغداد في المدرسة النظامية ، منذ سنة خمس وثلاثين ، والمدرس شيخنا معين
الدين سعيد بن الرزاز ؛ وكان مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه بعلمه معلماً مذهب
الطراز . وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محي الدين وسلبت قراره ، وغلبت اصطباره ،
وحلبت أفكاره ؛ فكتبت إليه قصيدة مطلعها :

لو كان من شكوى الصبابة مشكياً لعدا على عدوى الصبابة معدياً
ومنها :

مات الرجاء ، فإن أردت حياته ونشوره ، فارح الإمام الحبيب
أقضى القضاء ، محمد بن محمد من لست منه للفضائل محصيا
قاضي به قضت المظالم نجبها وغدا على آثارهن معنيا
يا كاشفاً للحق في أيامه غرراً يدوم لها الزمان منطيا
لم تنعش الشهباء عند عشارها لو لم تجددك لطود حملك مرسيا

رجئت لسطوتك التي أرسلتها نحو الطغاة لحد عزمك ممها^(١)
وتظلمت من شرهم فتعلمت عجل أجازتها عليها مبقيا
أنفت من الثقلاء فيها إذ رمت أثقالها ورأتك منها ملجيا
حلب لها حلب المدامع سليل^(٢) أن لاقت الخطب القطيع^(٣) المبكيا
وبعدل نور الدين عاود أفقها من بعد غيم الغم جوا ، مصحيا
أضحي لبهجتها معيدا بعدما ذهبت ، وللمعروف فيها مبديا
لأمورها متدبرا ، لشتاتها متألفا ، لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظها والحق عاد بظله مستذريا
(١١٤٤) والذهر لاذ بعفوه مستغفرا مما جناه ، مطرقا ، مستحيا

فصل

في غزو صاحب البيرة و وفاة صاحب الموصل

قال ابن الأثير^(٤) : كان شهاب الدين محمد بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق ، صاحب
قلعة البيرة^(٥) قد سار في عسكره ، وهم مائتا فارس ، إلى الخدمة النورية وهو بعشتر . فلما وصل
إلى اللبوة ، وهي من أعمال بعلبك ، ركب متصيذا فصادف ثلثمائة [فارس]^(٦) من الفرنج
قد ساروا للغارة على بلاد الإسلام ، وذلك سابع عشر شوال ، فوقع بعضهم على بعض
واقْتَتَلُوا ، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون ، لأن ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلثمائة فارس

(١) أمي الجديدة : أحدها . القاموس المحيط .

(٢) في ل ١١٤٥ : مسيل .

(٣) في الأصل : القضييم ؛ والمثبت هنا من ل ١١٤٥ .

(٤) في الأتابكة : ٢٦٣-٢٧٢ ؛ وهو اقتباس طويل جرف في غالبه ، وبقي من الحذف
في بعضه .

(٥) قرب سمساط بين حاب ومنطقة الثفور ، وهي قلعة حصينة ، (معجم البلدان : ٢ : ٣٣) .
في نسخة أعلى الفرات قريبا من سروج والرها : Saladin, p. 49 .

(٦) ما بين الحاصرتين من ل ١١٤٥ .

من الفرنج . وكثر القتل بينهم والهزم الفرنج ، ومعهم القتل والأسر ، فلم يفلت منهم إلا من لا يمتد به . « وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ، وَلَكِنْ لَيَقْبِضَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا »^(١) وسار شهاب الدين بالأسرى وروس القتل إلى نور الدين ، فركب هو وعسكره إلى لقائه ، واستعرض الأسرى وروس القتل ، فرأى فيها رأس مقدم الأسبatarية صاحب حصن الأكراد ، وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ودينه عندهم ، ولأنه شجى في حلوق المسلمين ؛ وكذلك أيضاً رأى رأس غيره من مشهورى الفرنج ، فازداد سروراً ، والله الحمد . قال : وفي شوال سنة خمس وستين^(٢) توفى الملك قطب الدين مودود بن زنكى بالموصل^(٣) . وكان لما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى بن مودود ، وهو أكبر أولاده ، وأعزهم عليه ، وأحبهم إليه . وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته نحر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين زنكى لأنه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى ، وتزوج ابنته ، وكان عزيزه وحبيبه . وكان نور الدين يبغيض عبد المسيح [لظلم كان فيه ، ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته لأمره . لخاف عبد المسيح]^(٤) أن يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فانفق هو والختان ابنة حسام الدين تيمرتاش ، زوجة قطب الدين ، فردوه عن هذا الرأي . فلما كان الغد أحضر [قطب الدين مودود]^(٥) الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازى . وتوفى وقد جاوز عمره أربعين سنة .

وكان تام القامة كبير الوجه ، أسمر اللون ، واسع الجبهة ، جهورى الصوت . وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً .

ولما توفى استقر سيف الدين [غازى]^(٥) في الملك^(٦) ورحل عماد الدين إلى عمه

(١) سورة الأنفال : آية : ٤٢ .

(٢) في ل ١٤٥ ب : وفيها في شوال ، أعنى سنة خمس وستين .

(٣) الذى حكم بين سلقى ٥٤٤-٥٦٥ ؛ وكان تولى الموصل بعد وفاة سيف الدين غازى الأول .

(٤) مستدركه بهامش الأصل ؛ وهى فى صميم المتن بلسغة ل ، ١٤٥ ب .

(٥) أضيف ما بين الماصرتين للتوضيح .

(٦) واستمر فى الحكم إلى سنة ٥٧٦ ، وعندئذ خلفه أخوه عز الدين مسعود الأول ،

كما سيأتى ، فإنه .

نور الدين شاكياً ومستنصراً . وكان عبد المسيح هو متولى^(١) أمور سيف الدين وبمحكم في مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، لأنه في عنفوان شبابه وعزة حدائقه . قال^(٢) : وهذه حادثة تحث على العدل : كان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر^(٣) قرية تسمى العقيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقى ، يفصل بينهما دجلة (١٤٤ ب) لها بساتين كثيرة ، بعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الأرض التي قد زرعتم شئ معلوم^(٤) وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما . فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه منه إلا القدر القريب ، وكان لفا بها عدة بساتين . فحكى لى والدى قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة ، وأنا حينئذ أتولى ديوانها ، يأمر بأن تجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة ؛ فشق ذلك على لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولى بهم أنس وهم فقراء . فراجعته ، وقلت له : لا تظن أنى أقول هذا لأجل ملكى ، لا والله ، وإنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكى جميعه . قال : فأعاد الجواب بأمر المساحة ويقول : تمسح أولا ملكك ليقضى بك غيرك ، ونحن نطلق لك ما يكون عليه . فشرع النواب يمسحون . وكان بالعقمة رجلا صالحا يبنى ويبنهما مودة ، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، فحضرا عندى وتضررا من هذه الحال ، وسألانى المكاتبة فى المعنى ؛ فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جواباً عن كتابى ، فشكرانى ، وقالوا : وأيضاً تعود تراجعه . فعاودت القول ، فأصر على المساحة ؛ فعرفت أنهما الحالة . فلما مضى عدة أيام عدت يوماً إلى دارى وإذا هما قد صادفانى على الباب ، فقلت لفسى : عجبا لهذين الشيخين ، قد رأيا مراجعتى وهما يطلبان منى ما لا أقدر عليه ! فقلت لهما : والله إنى لأستحي منكما كلما جئتما فى هذا المعنى ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن عماجتنا قضيت . فظننت أنهما قد أرسلتا إلى الموصل من شفع لهما^(٥) ، فدخلت إلى دارى وأدخلتهما معى ، وسألتهما عن الحال كيف هو ، ومن

(١) فى ل ١٤٥ ب : وهو يتولى ؛ وفى الأتابكة ، وهو مصدر هذه الحادثة ، وهو الذى يدبر .

(٢) ابن الأثير فى الأتابكة ، وهو استمرار للاقتباس السابق .

(٣) انظر من : ٦٢ ، حاشية : ٤ من هذا الكتاب .

(٤) كل فدان مصرى يساوى ٣٠٧ جريبا . انظر كتاب الخراج للدكتور ضياء الدين الرئيس :

٢٦١ - ٢٧٩ .

(٥) فى ل ١٤٦ : من يشفع لهما .

الذى سعى لها . فقالا : إن رجلا من الصالحين الأبدال ^(١) شكونا إليه حالنا ، فقال :
قد قضيت حاجة أهل العقيمة جميعهم ^(٢) . قال : فوقع عندي من هذا ولكن تارة
أصدقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما ، وتارة أعجب من سلامة صدورهما ، كيف يعتمدان
على هذا القول ويعتقدانه واقعا لا شك فيه ! فلما كان بعد أيام وصل قاصد من الموصل
بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة وإطلاق كل مسجون وبالصدقة ، فسألت القاصد
عن السبب ، فأخبرنا أن قطب الدين شديد المرض . قال : فأفكرت في قولها وتمعجبت
منه ، ثم توفي بعد يومين من هذا . قال : ورأيت والدى إذا رأى أحد الرجلين يببالغ في
إكرامه ، ويحترمه ، ويقضى أشغاله ، واتخذها صديقين .

قال ^(٣) : وكان قطب الدين من أحسن الملوك ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسنا
إليهم ، كثير الإنعام عليهم ، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم ، حليماً عن المذنبين ، سريع
الانفعال للخير . حدثني والدى قال : استدعاني يوما وهو بالجزيرة ، وكنت أتولى أعمالها ،
فلامنى في بعض الأمر ، فقلت : أخاف من الاستقصاء ؛ لو دُعِى على بعض هؤلاء
الملوك ، (١١٤٥) وأومات إلى أولاده ، لكانت شعرة منه تساوى الدنيا وما فيها ، ولنا
مواضع تحتمل العارة لو عمرت لتحصل منها أضعاف هذا . فقال : جزاك الله خيراً ! لقد
نصحت وأديت الأمانة ، فاشرع في عمارة هذه الأماكن . ففعلت ، وكبرت منزلتي عنده ،
ولم يزل يثنى على .

قال : وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه . لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال
الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه . وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور
الدين كثير المساعدة والإنجاد له بنفسه وعسكره وأمواله ؛ حضر معه المصافح بحارم وفتحها
وفتح بانياس . وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف . وكان إحسانه إلى

(١) المقصود بهذا اللفظ الأولياء والعباد ، سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل به آخر .
تهذيب تاريخ دمشق : ١ : ٥٩ حاشية : ١ .

(٢) في ل ١١٤٦ : كلهم .

(٣) ابن الأثير في الأتابكة : نفس المصدر والصفحات ،

أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض . وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله . قال : وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد زنكي : سيف الدين ونور الدين وقطب الدين ، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، وحسن السيرة ، وعمارة البلاد ، والرفق بالرعية ؛ إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها ، أذكر قول الشاعر :

من تلقى منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى
قلت : وقرأت بخط الشيخ عمر الملا ، رحمه الله ، في كتاب كتبه إلى بعض الصالحين وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب الموصل وقال فيه : « يا أخى ، لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته أطلت وأضجرت . غير أنى أذكر لك ماخصه الله به من الأخلاق الصالحة : هو من أكثر الناس رحمة ، وأشدهم حياء ، وأعظمهم تواضعاً ، وأقلهم طمعاً ، وأزهدهم في الظلم ، وأكثرهم صبراً ، وأبعدهم غضباً ، وأسرعهم رضا . وهو من هذه الأخلاق على حد أحبه أنا محبة لا أقدر أصفها ، ويبنى ويبنه إخاء ومزاورة ، يزورنى وأزوره » .

فصل

قال ابن الأثير^(١) : ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده ، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور ، وحكمه على سيف الدين أنف من ذلك وكبر لديه ، وشق عليه . وكان يبغض عبد المسيح لما يباليه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة : وكان نور الدين رحمه الله تعالى ليناً رفيقاً عادلاً ، فقال : أنا أولى بتدبير أولاد أخى^(٢) وملسكهم . ثم سار من وقته فعبه الفرات عند قلعة جعبر أول الحرم .

(١) في الأتابكة : ٢٧٦ - ٢٧٩ ، وهو اقتباس حرق . ونلاحظ أن أبا شامة يؤثر أن يذكر نائب قطب الدين باسم عبد المسيح في كل مناسبة يذكره فيها ابن الأثير بلقب نجر الدين .
(٢) في ل ١٤٦ ب : بنى أخى .

ثم دخلت سنة ست وستين [وخمسمائة]

وقصد^(١) الرقة فامتنع الفائب بها شيئاً من الامتناع ، ثم سلمها على شيء اقترحه . فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها ؛ وسار إلى الخابور^(٢) فلما كان عليه ؛ ثم ملك نصيبين وأقام بها يجمع العساكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأثاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر^(٣) ، واجتمعت (١٤٥ ب) عليه العساكر ؛ وقد كان ترك أكثر عسكره^(٤) بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم . فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها ، وأقام عليها ، ونصب المجانيق ، وكان بها عسكر كبير من الموصل . فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار ، فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي . ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بلكد^(٥) وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرق ، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى^(٦) ، ودجلة بينه وبين الموصل .

وقال : ومن العجيب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة . وكان عبد المسيح قد سار عز الدين مسعود بن قطب الدين أتابك إيلديز^(٧) صاحب بلاد الجبل وآذربيجان وأران^(٨) وغيرها يستنجد به ، فأرسل إيلديز رسولا إلى نور الدين ينهيه عن

(١) الاقتباس من نفس المصدر والصفحات .

(٢) اسم النهر كبير يعتد بين رأس عين والفرات ويصب في الفرات عند قرقيسيا ، وهو اسم للولاية كلها كذلك : معجم البلدان : ٣ : ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٣) المقصود حصن كيفا . وقد حكم بين سنتي ٥٦٢ - ٥٨١ ، وتسلم آمد كذلك من صلاح الدين سنة ٥٧٩ . انظر معجم الأنساب لزمامباور .

(٤) في ل ١٤٦ ب : وقد ترك عسكره .

(٥) مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل وبينهما سبعة فراسخ ، وتبعد عن نصيبين ثلاثة وعشرين فرسخاً . معجم البلدان : ٢ : ٢٦٥ - ٢٦٧ .

(٦) نفس المصدر : ٨ : ٣٦٨ .

(٧) حكم بين سنتي ٥٣١ - ٥٦٨ . وضبط الاسم من معجم الأنساب . انظر كذلك :

Muhammadian Dynasties

(٨) في الأتابكة : أرامية . وأران إقليم بينه وبين آذربيجان نهر يسمى نهر الرس ، فما جاوره من ناحيتي الشمال والغرب فهو من أران ، وما جاوره من الشرق يعتبر من آذربيجان . معجم البلدان : ١ : ١٧٠ .

قصد الموصل ويقول له : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها . فلم يَلْتَفِتْ نور الدين إلى رسالته ، وكان بسنجار ، فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : قل لصاحبك : أنا أرفق ببنى أخي منك فلا تُدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام ^(١) وأهملت الثغور حتى غلب الكُرج ^(٢) عليها ؛ وقد بليت أنا وحدى بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم ، وأمرت ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ماأهملت من بلاد الإسلام ، وإزالة الظلم عن المسلمين . فعاد الرسول بهذا الجواب .

وحصر نور الدين الموصل ، فلم يكن بينهم قتال ، وكان هوى كل من بالموصل ، من جندي وعامى ، معه ، لحسن سيرته وعدله . وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه . فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين ، ويطلب الأمان وإقطاعاً يكون له . فأجابه إلى ذلك وقال : لا سبيل إلى إبقائه بالموصل ، بل أن يكون عندي بالشام ، فإني لم آت لأخذ البلاد من أولادي ، إنما جئت لأخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادي . فاستقرت القاعدة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى ، وسكن القلعة . وأقر سيف الدين غازي على الموصل ، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كشتكين ^(٣) ، وجعله دُزداراً فيها ، وقسم جميع ماخلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها

(١) في ل ١٤٧ : قد ملكت النصف من بلاد الإسلام .

(٢) الكرج أمة من المسيحيين كانت تسكن القوقاز في جوار مدينة تفليس ، ثم استولوا على تفليس سنة ٥١٥ هـ وبقيت معهم حتى أخذها جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢١ . انظر : مفرج الكروب :

١ : ١٩٢ في الهامش نقلاً عن Allen , History of the Georgian People

(٣) سيلعب كشتكين هذا دوراً هاماً في علاقة مصر بالشام بعد وفاة نور الدين محمود وولاية ابنه الملك الصالح إسماعيل ، عندما يبدأ النزاع بين أمراء نور الدين من جانب وصلاح الدين صاحب مصر عندئذ من الجانب الآخر . وسيأتى تفصيل هذا كله ابتداء من حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها نور الدين .

على سيف الدين . وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر مافتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النورى (١٤٦) بالموصل ، فبنى وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسة (١) .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً ، وسار إلى الشام ، فقبل له : إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرع العود ؛ فقال : تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت ؛ ويعنى أيضاً أنى ههنا لأكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد. ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازى ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعاً كثيراً .

وقال العماد : استدعانى نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال لى : قد أنست بك وأمنت إليك ، وأنا غير مختار للفرقة ، ولكن المهم الذى عرض ، لا يبلغ فيه غيرك الغرض ، فتمضى إلى الديوان العزيز جريدة (٢) ، وتودى عن رسالة سديدة سعيدة ، وتنهى أنى قصدت بيتى وبيت والدى ، ومعنى طريقي وتالدى ، وأنا كبيره ووارثه ، والذى له حديثه وجادته . فامض وخذلى إذناً فإنى أعد كل جراحة لما أخطب به أذنك ، وأمثل ما يصلنى من المثال لدفع كل مكروه ركنك . وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسيرنى إلى الرجة (٣) ، فى رجال مأمونى الصحبة وسرت منها على البرية غربى الفرات ، بخفير من بنى خفاجة . فذكر أنه وصل وقضى الحاجة ، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين ، وهو يحاصر سنجار ، فأخذها وسلمها إلى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى .

قال : ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد ، واستوضح فيها الجدد ، ودل هفاك فى دجلة على مخاضة ، وكان ذا أخلاق وهم مرتاضة ، فاستسهل من خوضها والعبور فيها

(١) فى الأناكة : سنة ثمان وستين وخمسة .

(٢) الجريدة فى الأصل اصطلاح يقصد به الفرقة من العسكر الحيلة لا راجل فيها ، وكانت تعنى كذلك أحياناً سير السلطان على وجه السرعة دون حشد أو أنقال Dozy ; Supp. Dict. Arabe وهى هنا تعنى سير العماد ، رسول نور الدين ، فى سرعة إلى بغداد قبل أن يضى الديوان فهم هذه الخطوة التى اتخذها نور الدين .

(٣) على شاطئ الفرات أسفل قرقيسىاء ، على مسافة نيف وعشرين فرسخاً من الرقة ومائة فرسخ من بغداد . معجم البلدان ٤ : ٢٣٦ - ٢٣٨ .

ما ظن مستصعبا ، وسهل لنا الله ذلك ورأيناه أمراً عجبا ؛ وجاء دليل تركاني قدامنا ، وهو يقطع دجلة تارة طولا وتارة عرضاً أمامنا ، ونحن وراءه كخييط واحد لا نميل يمينا ولا يساراً ، ولا نجد لنا في سوى الحجاز اختياراً ؛ حتى عبرنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي برجالنا وأثقالنا ، وخيلنا وبغالنا وجمالنا ؛ وأقمنا بقية ذلك اليوم ، حتى تم عبور القوم .

ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها ، وخيمنا على تل توبة^(١) ، فاستعظم أهلها تلك النوبة ، وما خطر ببالهم أننا نعبر بغير مراكب ، وأننا نأخذ عليهم ذلك الجانب . فعرفوا أنهم محصورون ، مقهورون ، محسورون ؛ وانقطعت عنهم السبل من الشرق ، وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق ؛ وبسط العطاء ، وكشف الغطاء ، وتسكلم في المصلحة والمصالحة الوسطاء ؛ ومُد الجسر ، وقضى الأمر ، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه ، ومثلوا بناديه ؛ وأقر سيف الدين غازياً على قاعدة أبيه ، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء .

ثم دخل قلعة الموصل (١٤٦٠ ب) وأقام بها سبعة عشر يوماً ، وجدد مناشير أهل المناصب وتوقيعات ذوى المراتب من القضاة والنقابة وغيرها . وأمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب ، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس ، فنه :

« وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال ؛ فسحقاً للسحت ، ومحققاً للحرام الحقيق بالملت ؛ وبعداً لما يبعد من رضا الرب ، ويقصى من محل القرب . وقد استخرنا الله وتقربنا إليه ، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه ، وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة ، في كل ولاية لنا بعيده أو قريية ؛ وإزالة كل جهة مشبهة مشوبة ، ومحو كل سنة سيئة شنيعة ، ونفي كل مظلمة مظلمة فظيعة ؛ وإحياء كل سنة حسنة ، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة ، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذ من الأموال المحظورة ، خوفاً من عواقبها

(١) موضع شرق دجلة يقابل مدينة الموصل ويتصل ببنوى . وقيل سمي بهذا الاسم لأن أهل بنوى ، وهم قوم يولس عليه السلام ، لجثوا إليه بعد أن أصابهم العذاب وأظهروا التوبة فتاب الله عليهم ، معجم البلدان : ٢ : ٤٠٤ .

الرديئة المحذورة ، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً ، ولا عمل لا يكون به الله راضياً ، إثارةً للثواب الآجل ، على الخطام العاجل . وهذا حق لله قضيناه ، وواجب علينا أديناه ، بل هي سنة استنناها^(١) ، ومحجة واضحة بيناها ، وقاعدة محكمة مهدناها ، وفائدة مفتنمة أفدناها .

فصل

قال العماد : وكان الموصل رجل صالح يعرف بعمر الملاء ، سعى بذلك لأنه كان يملأُ تنانير الجص بأجرة يتقوّت بها ، وكل ما عليه من قيص ورداد ، وكسوة وكساء ، قد ملكه سواء واستعاره ، فلا يملك ثوبه ولا إزاره . وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه ، وهو يتجر لنفسه فيه ، فإذا جاءه ضيف قراه ذلك المريد . وكان ذا معرفة بأحكام القرآن والأحاديث النبوية .

وكان العلماء والفقهاء ، والملوك والأمراء ، يزورونه في زاويته ، ويتبركون بهيمته ، ويتمنون ببركته . وله كل سنة دعوة يحتفل بها في أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل ، ويحضر الشعراء . وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحفل .

وكان نور الدين من أخص محبيه يستشير به في حضوره ، ويسكاته في مصالح أموره . وكانت الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا من ذهب عمره ، ولم يتم على مراده أمره . فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها ، ورفع بنائها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات ؛ ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة ، ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل ، ورتب فيه خطيباً ومدرساً^(٢) . وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي ، من أصحاب الإمام محمد بن يحيى ، فسأله أن يكون مدرساً في ذلك الجامع وكتب له به منشوراً .

قال : وحضر مجاهد الدين قايمآز صاحب إربل إلى الخدمة النورية في الموصل . وكان

(١) في ل ١٤٨ : سنناها .

(٢) سبق في هذا الكتاب قصة إشراف الشيخ عمر الملا على بناء هذا الجامع واعتراض بعض أمراء نور الدين على ذلك ورفضه اعتراضهم . انظر ص : ٢٠ - ٢١ .

دخولهم إياها في مجبوحة (١١٤٧) الشتاء ؛ فكتب العباد إلى بعض كبراء الموصل
قصيدة ، منها :

ما يمنع الخادم من قصده الـ خدمة غير الطرق والوحد
كأنما موصلكم مقطوع ما يهتدى فيه إلى وصل
وكل معروف بها منكرا كما تراه ضيق السبل
وكل من حل بها لا يرى في زمن الخصب سوى المحل
ومذ دخلناها حصلنا بها كرهاً على خرج بلا دخل
أصعب ما نلقاه من أهلها قول بلا أهل ولا سهل
وكنفت أهواها ، ولكنني لقيت منها كل ما يسلى
وأنت من أصبح إحسانه حلية هذا الزمن المظلل

قال : وعاد نور الدين إلى سنجار فأعاد عمارة أسوارها . ثم أتى حرّاب . وقد
اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونصيبين ، والخابور ، والمجدل^(١) . ووصل حلب
في خامس رجب .

قال ابن شدّاد^(٢) : دخل حلب في شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته .

قال العباد : وفوّض القضاء والحكم بنصيبين وسنجار والخابور إلى الشيخ شرف الدين
ابن أبي عصرون ، فولّى بها نوابه وحكم فيها أصحابه .

وقال القاضي ابن شدّاد : لما صارت الموصل إلى سيف الدين ، ابن أخى نور الدين ،
كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح كان نصرانياً فأسلم ، وقيل
إنه كان باقياً على نصرانيته وله بيعة في داره ، وتتبع أرباب العلم والدين وشتمهم وأبعدهم
وآذى المسلمين . فبلغ نور الدين ذلك ، وكتب له قصص في ذلك . فسار ونزل على الموصل
من جانب الشطّ ، والشط بينه وبينها ، وقال : لا أقاتل هذه البلدة وأهتلك حرمتها وهي

(١) الضبط من معجم البلدان : ٧ : ٣٨٧ ؛ ويعرفها ياقوت بأنها بلد طيب من إقليم الخابور .

(٢) في النواذر السلطانية : ٣٥ .

لولى . وراسل سيف الدين وقال له : أنا ليس مقصودى البلد وإنما مقصودى حفظ البلد لك ، فإنه قد كُتِبَ إلىّ فى عهد المسيح كذا وكذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين ، وإنما مقصودى أزيل هذا النصرانى عن ولاية المسلمين .

قال : وعهد المسيح يدبّر البلد ويدور فيه ، والأمر إليه . وبذل الصلح لنور الدين ؛ فقال نور الدين : أنا قد جئت ولا بدّ لى من دخول البلد . فقال : نعم لا يدخل إلا من باب السرّ ، فقال نور الدين : ما أدخل إلا من باب السرّ . فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات ، إلى أن علم أن نيته صالحة ، فصالحه فى السرّ ؛ وركب عهد المسيح وخرج يدور بين السورين ، فجاءه بعض أصحابه وقال له : أنت نائم ؟ دمك قد راح وأنت غافل ! فقال : ما الخبر ؟ فقال : سيف الدين قد صالح عمه وأنت فى مقابلة نور الدين . فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه^(١) بين يديه ، وقال له : أنت قد صالحت عمك وقد عملت ما عملت فى حفظ بلدك ، وما لى طاقة بمقابلة نور الدين ؛ فالله الله فى دى ! فقال له : ما لى طاقة بدفعه عنك ، ولكن عليك بالشيخ عمر الملائى ! فقال : والله لو مضيت إليه لم يفتح لى - لعله بما جرى [منه]^(٢) فى حق المسلمين - ولكن تسبّر أنت إليه . فأنفذ سيف الدين إليه واستحضره ، وكان معتكفاً ، فقال له : ما الخبر ! فقال سيف الدين (١٤٧ ب) لعهد المسيح : منك إليه ؛ فوقف بين يديه يبكى ؛ فالتفت إليه الشيخ عمر وقال : من يعادى الرجال يبكى مثل النساء ! فقال له : قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دى ! فقال : أنت آمن على دمك ؛ فقال : وعلى مالى ! فقال : وعلى مالك ؛ فقال : وعلى أهلى ! فقال : وعلى أهلك .

وكان شرف الدين بن أبى عصرون مع نور الدين حينئذ ؛ فقال سيف الدين لعمر الملائى : تخرج تحلّف نور الدين ؛ فأحضر الفقهاء وعملوا له نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعهد المسيح ؛ فأخذاهما عمر وخرج إلى نور الدين ، فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاء وأكرمه . فقال له عمر : الناس يعلمون حُسن عقيدتك فى ، وقد خرجت فى كذا وكذا ،

(١) الشربوش : قلنسوة طويلة تابس بدل العمامة ، وكانت للأمرأ ولا يلبسها رجال العلم . السلوك : ١ : ٢٥١ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٤٩ .

وناوله النسخة التي تتعلق بسيف الدين ، فقرأها وناولها لابن أبي عصرون ، فقال : نسخة جيدة . فقال له الشيخ عمر الملا : « إيش » تقول في هذه النسخة ؟ فقال : جيدة ؛ فقال : [إذا] ^(١) حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة ؟ فقال : بلى . فقال للحاضرين : اشهدوا على الشيخ بذلك ، يشير إلى أن نور الدين كان يجرى منه أيمان في وقائع ، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها ، فقيّد عليه القول ، فأجاب نور الدين إلى ذلك ، فقال له : قد علم الناس حسن عقيدتك فيّ ، وأن قولي مسموع عندك ، وقد خرجت إليك ولا بدّ لي من ضيافة ، فقال : كيف لي بذلك وأنت لا تأكل طعامي ولا تقبل مني شيئاً ! فقال : تحلف لي بهذه النسخة ، فوقف عليها وتغير وجهه ، وقال : أنا ما جئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منه ! فقال له ^(٢) الشيخ عمر : فما نطلب منك أن توليه على المسلمين ! فقال : قد أمنتته على نفسه ، فقال : وعلى أهله ! فقال : ومن أهله ؟ فقال : نصارى ، فقال : أمنتهم ، فقال : وعلى ماله ، فقال : ومن أين لهذا الكلب مال ؟ هذا مملوك لنا ، فقال : قد أعتق وماله له ، وهو اليوم كان صاحب الموصل ، قال : قد أمنتته على ماله . فخلف له على ذلك جميعه ، واستقرّ الصلح .

وخرج سيف الدّين إلى خدمة نور الدين ، فوقف بين يديه ، فأكرمه نور الدين ، وكان وصله خلعة أمير المؤمنين فخلعها عليه ، فدخل إلى الموصل بها ، وانتقل إلى جانب الشط الآخر ، ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جداً فدخل من باب السر إليها ، وأقام بها مدة ورتب أمورها وولى فيها كمشكين فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له : جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به ، وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين ! فاستيقظ من منامه وسار سحرة ذلك اليوم ولم يلبث ، ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه ، رحمه الله تعالى .

فصل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتنى ، ونور الدين نعيم

(١) ما بين الحاضرين من ل ١٤٩ .

(٢) ساقطة من ل ١٤٩ ، وكذلك من نسخة ق .

بشرقي الموصل بتلّ توبة . وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر ، وبويع ابنه المستنضيّ بأمر الله أبو محمد الحسن .

وكان مولد المستنجد مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسة ، وكانت خلافته إحدى عشرة (١٤٨) سنة وستة أيام . وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس . وهذا العدد له بحساب الجمل ، اللام والباء ، فيه يقول بعض الأدباء :

أصبحت « لب » بني العباس كلهم إن عُدَّت بحساب الجمل الخلفاء
وكان أسمر تام القامة طويل اللحية ، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ؛ كان عادلاً فيهم كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيراً ، ولم يترك بالعراق مكساً . وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس .

قال ابن الأثير^(١) : بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعائيات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكفّ شره عن الناس^(٢) .

وتوفي في أيامه^(٣) شيخ الشيوخ إسماعيل بن أبي سعد ، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ ، وذلك سنة إحدى وأربعين .

وفي سنة ثمان وأربعين توفي محمد بن نصر القيسراني ، وأحمد بن منير ، الشاعران . وقد تقدم ذلك^(٤) .

وفي سنة تسع وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشاعر الأندلسي .

وفي سنة إحدى وخمسين توفي الواواء الشاعر الحلبي .

(١) في الأناطكة : ٢٧٥ ؛ وهو اقتباس حرفي .

(٢) ينتهي هنا هذا الاقتباس الحرفي .

(٣) في ل، ١٤٩ ب : وفي أيامه توفي ، وكذلك في ق .

(٤) انظر هذا الكتاب : ٢٢٧ - ٢٢٨ .

وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النجيب الصوفي الفقيه الواعظ .
قال العماد : وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضيء ، واتفق ذلك يوم
عبور دجلة . وركب يوم النزول على تل توبة في الأهبة السوداء ، واليد البيضاء ، وذلك
بمراى ومنظر أهل الموصل الحدياء . ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى
بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام . ومما نظمته العماد فيه :

قد أضاء الزمان بالمستضيء وارث البُرد ، وابن عم النبي
جاء بالحق ، والشريعة ، والعد ل ، فيا مرجاً بهذا الجي
فهنيئاً لأهل بغداد ، فازوا بعد بؤس بكل عيش هني
ومضى* إن كان في الزمن المظ لم ، فالعود في الزمان المضي
وله من قصيدة أخرى :

لُفَى على زمن الشباب ، فإننى بسوى التأسف عنه لم أتعوض
نقضت عهود الغايات ، وإنها لولا نقاء شبيبتي لم تنقض
يا حسن أيام الصبا ، وكأنهن أيام مولانا الإمام المستضي
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها والطلعة الغراء ، والوجه الوضى
قسَم السعادة والشقاوة ربُّنا في الخلق ، بين محبته والمبغض
ومنها :

فضل الخلائف والخلائق بالتقى والفضل ، والإفضال ، وأخلق الرضى
فانعم أمير المؤمنين بدولة ما تنتهى ، وسعادة ما تنقضى

قال : ووصل نور الدين ، رحمه الله تعالى ، إلى دمشق وأدى فرض الصيام ، وخرج
بعد العيد إلى الخيام ، وأخرج سرادقه إلى جسر الخشب^(١) ، وسرنا إلى عشترا . ثم ذكر

(١) جنوب دمشق بينها وبين منازل العسكر . ومنازل العسكر منطقة كانت تتجمع فيها الجيوش التي
تريد مهاجمة دمشق ، وكان قريباً منها جسر خشبي أقيم على نهر الأردن أسفل بحيرة طبرية . انظر :
The Crusaders in the East, p. 179 وكذلك : The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 283

العقاد هنا سرية^(١) صاحب البيرة الأرتقي باللوبة، وقد مضت في أخبار سنة خمس وستين^(٢)
(١٤٨ ب) فتم ذكرها ابن الأثير .

فصل

فيما جرى بمصر في هذه السنة

قال العقاد : كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة^(٣) فأعادها صلاح الدين
مدرسة للشافعية في أول سنة ست وستين ، وعمل في النصف من المحرم دار الغزل مدرسة
للمالكية^(٤) ، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة
وأعمالها ، وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة . ثم خرج إلى الغزاة وأغار على
الرملة وعسقلان وهجم ربض غزة ، ثم رجع إلى القاهرة .

ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فأشفق عليها وأحب أن يجتمع بها
شمله ، فخرج في النصف من ربيع الأول . وكانت بأيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل
الكفر ، فعمر لها مراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال ، وركبها الصناع هناك وشحنها
بالرجال ، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر ، واستعملها واستباح بالقتل والأسر
أهلها ، وملأها بالعدد والعدد ، وحصنها بأهل الجلال والجلد . واجتمع بأهله وسار بهم على
سمت القاهرة ، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الأولى إليها . وسار إلى
الإسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشهدها ويرتب قواعدها ، وهي أول دفعة
سار إليها في أيام سلطانه ، وعم أهلها بإحسانه ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها .

(١) في الأصل : سيرة ، والمثبت هنا من ل ١١٥٠ .

(٢) انظر ما تقدم من : ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٣) هما داران للمعونة ، كانت كل منهما تعرف باسم حبس المعونة ، إحداها بالفسطاط والأخرى
بالقاهرة ، واسمها مأخوذ من ظروف لإنشائها إذ أنها بنيت بمعونة المسلمين لينزلها ولاتهم ، ثم جعلت داراً
للشرطة ، ثم حولت في عهد العزيز بالله الفاطمي إلى سجن عرف باسم حبس المعونة ، ثم حولها صلاح الدين
إلى مدرسة للشافعية . مفرج الكروب : ١ : ١٩٧ : حاشية : ٤ .

(٤) وكانت قبل ذلك قيسارية يباع فيها الغزل ، وعرفت كذلك باسم المدرسة القمحية لأن القمح
كان يوزع على فنها من ضيعة بالفيوم أوقفها صلاح الدين عليها ، ففس المصدر : ١ : ١٩٨ : حاشية : ١ .

وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه^(١) ، وهو ابن أخى صلاح الدين ، منازل العز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية ، واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرها من الأملاك ووقفها عليها .

وفي النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة ، أخو السلطان ، بالصعيد على العربان ، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان .

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحجاج يوسف ابن الخلال^(٢) ، وكان من الأمائل الأفاضل ، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كبر . وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له ، وقام به مدة حياته بكرم عهده ويسكفه . وقال [العماد]^(٣) في الخريدة : هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره ، وجامع مفاخره ؛ وكان إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل يكتب ما يشاء ، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره ، وأضر ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر . ومن شعره :

يا أخا الغرة ، حسب الدهر من عظة المغرور ما أصبح يبدى
تؤثر الدنيا ، فهل نلت بها لحظة تخلص من هم وكد ١١

قلت : وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزرى في أول كتابه المسمى بالوشى المرقوم في حل المنظوم ، قال حدثني عبد الرحيم بن على اليبساني رحمه الله بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين (١١٤٩) وخمسمائة قال : كان فن الكتابة بمصر في زمن بنى عبيد^(٤) غصاً طريا ، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس

(١) صاحب حماة ، من رجال صلاح الدين الذين اعتمد عليهم في حروب الوحدة بين مصر والشام وفي تحرير فلسطين ، وناب عنه في مصر سنة ٥٧٩ هـ ، وحاول السير إلى المغرب لسوء تفاهم بينه وبين صلاح الدين ، ورضاه السلطان وولاه حماة ، وكان قبل هذا صاحب إقطاع الفيوم حيث أنشأ مدرستين للشافعية والمالكية . وسيأتى تفصيل ذلك في موضعه . انظر أيضاً : وفيات الأعيان : ١ : ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٢) آخر رؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، وكان له فضل تدريب القاضي الفاضل عبد الرحيم اليبساني على صناعة الإنشاء . انظر وفيات الأعيان وشذرات الذهب .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح . انظر : الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٣٥ - ٢٣٧ .

(٤) يعني الخلفاء الفاطميين .

يرأس مكاناً وبيناً ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً . وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولدو شداً شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع . قال : فأرسلنى والدى ، وكان إذا ذاك قاضياً بشفر عسقلان ، إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ، وهو أحد خلفائها^(١) ، وأمرنى بالمسير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام رجل يقال له ابن الخلال . فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبى ، رحّب بى ومهل ، ثم قال : ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شئ سوى أى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة . فقال : وفى هذا بلاغ . ثم أمرنى بملازمته ؛ فلما ترددت إليه^(٢) تدربت بين يديه ، ثم أمرنى بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة ، فخلته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية ، فخلته .

وقال ابن أبى طىّ : فى هذه السنة شرع السلطان ، يعنى صلاح الدين ، فى عمارة سور القاهرة ، لأنه كان قد تهشم أكثره وصار طريقاً لا يردّ داخلًا ولا خارجاً ، وولاه لقراقوش الخادم^(٣) ، وقبض على القصور وسلمها إليه ، وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية ، وقطع من الأذان « حى على خير العمل » ، وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس .

وفيهما طلب شمس الدولة [تور انشاه] ؛^(٤) من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة وازداد على إقطاعه بوش^(٥) وأعمال الجيزة وسمنود^(٦) وغيرها .

(١) حكم بين سنّى ٥٢٤ - ٥٤٤ .

(٢) فى ل ١٥٠ ب : فترددت إليه .

(٣) أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى ، نسبة إلى أسد الدين شيركوه ، فقد كان من مماليكه ، ثم خدم صلاح الدين ، وتولى زمام القصر الفاطمى ، وناب عن صلاح الدين فى بعض المناسبات وأشرف على بناء القلعة والسور وقناطر الجيزة ، ولما فتحت عكا تولاهما وسورها ، ثم أسره الفرنج فافتك نفسه بعشرة آلاف دينار . توفى سنة ٥٩٧ ودفن بسفح المقطم ، وسيأتى تفصيل هذا كله فى مناسباته . وقراقوش لفظ تركى معناه العقاب الطائر . انظر وفيات الأعيان : ١ : ٥٤٣ .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٥) مدينة بصعيد مصر غربى النيل بعيدة عنه ، من أعمال بنى سويف . معجم البلدان : ٢ : ٣٠٤ ، الخطط التوفيقية : ١٠ : ٥ .

(٦) على ضفة النيل غربى الفرع الدمياطى بينها وبين المحلة ميلان ، انظر معجم البلدان : ٥ : ١٣٣ ؛ الخطط التوفيقية : ١٢ : ٤٦ .

قلت : وقد وقفت على كتاب فاضلي وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله في زمان وزارته ^(١) وكان الكتاب إلى مدينة قوص ، وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السابق أول الكتاب ^(٢) : « فَأَتَقَلَّبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » ^(٣) .

وفيه : « توجهنا من بركة الحب ^(٤) يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول ، ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور ، والعساكر بالتسهل والوعر منتظمة ، والمهم على السهل والصعب مزدحمة وجنود الله في الأرض المغممة ، قد أيدتها جنود السماء المسومة . وصاحبنا الدير ^(٥) يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا ، ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال بشهاب القذف ضاربا . فلما تعالى النهار ملكنا ربضه ، وأطلقنا فيه النيران ، ورملنا الرجال بالدم ، وأرملنا النسوان ^(٦) ؛ وزحفنا إلى أبراجه وهي أبراج قد استعدت للبلبي جلبابا ، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وبابا ، وسرحنا إليهم رسل المنايا من الشباب ، وقصدنا أحد الأبراج والبيوت توثى في الحرب (١٤٩ ب) من غير الأبواب ، وتقدمت إليها ^(٧) نقابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره ، وتراجع به بالسنة المعاول وتشاوره . وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه ، وتيسر تحريقه ، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود ، فلم يكن إلّا مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعا سريعا ، وعقر بين أيدينا سامعا مطيعا . وانتظمت الرجال على أحجاره ، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره ؛ فحصلت في القبضة ، وعجز من كان

(١) انظر : Saladin, pp. 105-107 ، وكذلك : The Crusaders in the East, p. 199 .

(٢) انظر ما تقدم في أول هذا الفصل .

(٣) سورة آل عمران : آية : ١٧٤ .

(٤) خارج القاهرة من الجهة الشمالية ، وكان صلاح الدين يخرج إليها للصيد ، وفي زمن المقرئ كانت مقر تجمع الحجاج في طريقهم إلى الحجاز ، وسميت عندئذ باسم بركة الحاج : السلوك : ١ : ٥٨ : حاشية : ٢ .

(٥) في الأصل هنا بالهامش تعليق نصه : « حاشية ؛ قال المؤلف : بلغني أن الدير هو الداروم ، والله أعلم » اهـ . وقد استمر هذا الحصار أربعة أيام وأتيحت الفرصة لأموري ملك القدس كي يسرع إلى نجدة الداروم فتركها صلاح الدين وتقدم نحو غزة وهاجمها وضرب المدينة ، ولكنه لم يستطع أخذ قلعتها .

انظر : ستيشنسون : The Crusaders in the East وكذلك : Saladin تأليف لين پول .

(٦) المثبت هنا من ل ١٥١ ؛ وفي الأصل : وأرسلنا النسوان .

(٧) المثبت هنا من ل ١٥١ ؛ وفي الأصل : وتقدمت إليهم .

فيهما عن النهضة ؛ واحتكم فيها العذاب بالسيف والدار ، وضاق عليهم مجال النفس والقرار .

« واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المذنبين ، وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق ، هذا والسُّلُوب والنهب قد امتارت منها العساكر ، وخرجت فيها مكنونات الذخائر ، وأشبه اليوم يَوْمُ تَبَلَّى السَّرَائِرُ ، وظهر الأرض منهم بالدم المائر .

« فلما كان بكرة الجمعة وَرَدَتْنَا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزوة في فارسه وراجله ، وراحه ونابله ، وحشود دياره ، وجنود أنصاره ؛ فركبنا مستبشرين بزحفه ، موقنين بحتفه ، ولقيناه ، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه . وناوشته الخيل الطراد ، وأحدثت به أحدات الأغلل بالأجساد ، وانتظرت حملته التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع ، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع ؛ فلما الله قلبه رعباً وثني صدقه كذباً . ولم يزل يخالل ولا يقاتل ، ويواصل المسير ولا يصاول ، والقتل في أعقابه ، وأيدى السيوف وسواعد الرماح لا تنفي في عقابه ، حتى تحصل في الدبر هو وخيله ورجله ، ولم يبق له من مُلْك الشام إلا ماوطنته رجليه . فناصبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه ، والوقوف عليه ، لعله يبرز ويبارز ، ويخرج ولا يحاجز ؛ فخرست غماغمه ، واستذابت ضراغمه ، فتركناه وراء ظهورنا ، وجعلنا بلادَهُ أمام صدورنا ؛ فكنا في توليته مرضين لله تعالى سبحانه لا مغضبين ، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله مقتربين .

« وواجهنا غزوة بعساكرنا المنصورة ، وأطفنا بها في أحسن صورة ، وهي على ما علم من كونها بكرًا لم تفتزعها الحوادث ، وحصاناً لم يطمشها أمل طامث ؛ وهي معقل الديوية^(١) الذين هم جرة الشرك ، وداهية الإفاك ؛ وأتى الله ببنينها من القواعد ، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد ، ووردناها بأيمن الموارد ؛ وفتحناها من عدة جوانب ، ووطئناها وإذا هي كأمس الذاهب ، فألقَتْ إلينا أفلاذ كبدها ، وذخيرة يدها ، فمن بين مَواشٍ بخراب البلاد التي منها خرجت^(٢) ، وخیول مسومة كأنها لركوبنا أسرجت وألجت ، وحوامل

(١) انظر هذا الكتاب : ٢٨٤ : حاشية : ١ .

(٢) في الأصل : تخرب البلاد التي خرجت منها ، والثابت هنا من ل ١٥١ ب ، وهو الذي يتفق مع الأسلوب المسجوع لهذا الخطاب .

أُتْقَالَ وَزَوَامِل خَفَّتْ عَنْ صَاكِرْنَا وَفَرَّجَتْ ، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت ، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقد ، وأُنْقَذُوا بِلُطْفِ اللَّهِ مِنْ سُوءِ الْمَسْكِيدَةِ وَشِدَّةِ الْجَهْدِ . فَأَمَّا الرُّؤُوسُ (١١٥٠) الْمُقْطُوعَةُ وَأَسَارَى الْفَرَنْجِ الَّذِينَ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ مَجْمُوعَةٌ ، فَإِنَّ الْفَضَاءَ الْفُضَى تَعْصِفُ مِنْ دِمَائِهِمْ وَتَذْهَبُ ، وَجَرَى مِنْهَا مَا بِهِ اضْطَرَمَّ وَقَدْ الْجَحِيمُ وَتَلْتَلَبُ . وَفِي الْحَالِ أَمْرُنَا بِالنَّارِ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهَا وَتَشْتَعَلَ ، وَبِالْهَدْمِ أَنْ يَنْقُلَ عَنْهَا مَعَاوِلُهُ وَيَنْتَقِلَ ، « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » ^(١) ، أَوْ تَنْظُرُ إِلَّا طُلُولا عَلَى عُرُوشِهَا خَاوِيَةٍ ، وَعِرَاصًا مِنْ سَكَايَا خَالِيَةٍ ، قَدْ بَقِيَتْ عِبْرَةٌ لِلْعَابِرِ ، وَذِكْرٌ لِلذَّاكِرِ ، وَمَوْعِظَةٌ سَارَةٌ لِلْمُسْلِمِ مَرْغَمَةٌ لِلْكَافِرِ .

« ثُمَّ عَدْنَا بِقِيَةِ يَوْمِ السَّبْتِ إِلَى الْمَلِكِ ، خَذَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، رَاجِينَ أَنْ يَحْمِلَهُ الشَّكْلُ عَلَى الْإِقْدَامِ ، وَيُخْرِجَهُ حَرَّ النَّارِ إِلَى مَقَامِ الْإِنْتِقَامِ ، فَإِذَا شَيْطَانُهُ قَدْ نَصَحَهُ ، وَقَتْلُ أَصْحَابِهِ قَدْ جَرَحَهُ ؛ فَبِتَّنَا عَلَيْهِ وَالْأَلْسِنَةُ بِفَرَارِهِ تَعْيِرُهُ ، وَاسْتِبَارُهُ يَقْرَعُهُ وَيَقَرُّرُهُ . »

« وَأَصْبَحْنَا يَوْمَ الْأَحَدِ ثَانِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ وَالْكَسْبُ قَدْ أَثْقَلَ الْمَقَاتِلَةَ ، وَنَصَرُ اللَّهِ قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ الْمُسْتَأْصِلَةَ ، وَرَحَلْنَا وَالسَّلَامَةُ لِصَغِيرِ عَسْكَرِنَا وَكَبِيرِهِ شَامِلَةً ، وَالْعَدُوُّ قَدْ غُزِيَ فِي عُقْرِهِ وَعُقُرٍ ، وَأَذَلَّ فِي دَارِ مَلِكِهِ وَاحْتَقَر . وَوَصَلْنَا إِلَى مُسْتَقَرِّ سُلْطَانِنَا فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ ، فَاسْتَقْبَلَنَا مِنْ مَوْلَانَا ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَتَشْرِيفُهُ وَاسْتِقْبَالُ رُكَابِهِ ، وَمَشَافَهَتُنَا بِمَقْبُولِ دَعَائِهِ الشَّرِيفِ وَمَجَابِهِ ، مَا عَظُمَتْ بِهِ النِّعَمُ وَجَلَّتْ ، وَزَالَتْ بِهِ وَعِثَاءُ الطَّرِيقِ وَتَجَلَّتْ ، وَجَادَتْهَا سَمَاءُ إِنْعَامِهِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَجُودُنَا وَاسْتَهَلَّتْ . »

قَلْتُ وَمِنْ قَصِيدَةِ لِمَارَةٍ فِي مَدْحِ صَلَاحِ الدِّينِ أَوَّلَهَا ^(٢) :

✽ فَوَادِ بِنَارِ الشُّوقِ وَالْوَجْدِ مَحْرُوقِ ✽

يقول فيها :

لَعَلَّ بَنِي أَيُّوبَ إِنْ عَلِمُوا بِمَا تَظَلَّمْتَ مِنْهُ أَنْ يَرْقُوا وَيَشْفَقُوا
غَزَوْا عُقْرَ دَارِ الْمُشْرِكِينَ بِغَزَاةٍ جَهَارًا ، وَطَرَفِ الشَّرِكِ خَزْيَانِ مَطْرُقِ

(١) سورة الحاقة : آية : ٨ .

(٢) انظر النكت المصرية : ٢٩٩ - ٣٠٠ .

وزاروا مصلى عسقلان بأرعن
وكانت على مشاهد الناس قبلكم
وما عصمتهم منك إلا معاقل
جابت لهم من سورة الحرب ماالتقى
وأخربت من أعمالهم بكل عامر
أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ
وهيجت للبيت المقدس لوعة
تنشق من ملقائك أعظم نفحة
وغزوك هـذا سلم نحو فتحة
هو البيت، إن تفتحه، والله فاعل،
يفيض إناء البر منه ويفهق
طرائق من شوك القنا ليس تطرق
تأنوا على تحصينهم وتأنقوا
وآذره سور عليهم وخندق
يمر به طيف الخيال فيفرق
خايل، فأبشر، أنت غاز موفق
بطول بها منه إليك التشوق
نطيب على قلب الهدى حين تنشق
قريباً، وإلا رائد ومطرق
فما بعده باب من الشام مغلق

ثم دخلت سنة سبع وسنين [وخمسمائة]

واستفتحتها صلاح الدين رحمه الله تعالى بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني
العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع (١٥٠ ب) ذكر خلفاء مصر.
وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتها ما دام لها
من العصر.

وذكر العماد أيضاً في أخبار سنة اثنتين وسبعين، كما سيأتي، أن الذي خطب بمصر
لبني العباس أولاً هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي؛ وذكر
ذلك أيضاً ابن الديلمي في تاريخه. وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتاب له إلى وزير
بغداد سيأتي ذكره.

قال ابن الأثير^(١): كان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما
ثبتت قدمه في مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد، وهو الخليفة بها، ولم يبق من
الساكنين المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية

(١) في الأناضلة: ٢٨٢ - ٢٨٤؛ وهو اقتباس حرى.

وإقامة الخطبة العباسية . فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك ، لميلهم إلى العلويين ؛ فلم يصنع نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه .

واتفق أن العاضد مرض ، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له ، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية ؛ فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين . وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم ، وقد رأيناه بالموصل كثيراً ، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال : أنا أبتدىء بها . فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله ، فلم ينكر أحد ذلك عليه ؛ فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عزاز ؛ وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا ، إن سلم فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغي أن نُنغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله ؛ فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم .

قال ^(١) : ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه . وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش ، وهو خصي^٢ ، لحفظه ، وجعله كأستاذ دار^(٢) العاضد ؛ فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ، وكل لحفظهم ، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الإيوان في القصر ، وجعل عندهم من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والإماء ، فأعتق البعض

(١) ابن الأثير في الأناطية ؛ وهو استمرار للاقتباس السابق .

(٢) أو أستاذ دار : وهو من يتولى شئون مسكن السلطان أو الأمير . صبح الأعشى : ٤ : ٢٠ ،

٤٥٧ : ٥ .

ووهب البعض وباع البعض ، وأخلى القصر من أهله وسكانه ؛ فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور .

قال : ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة ، فلم يمش إليه ، فلما توفي علم (١١٥١) صدقه فندم على تخلفه عنه .

قلت : أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد ، وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمائة^(١) وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر ، أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر ، قال وأحضرنا ، يعني أولاده وهم جماعة صغار ، فأوصاه بنا ، فالتزم إكرامنا واحترامنا ، رحمه الله . وأما ندم صلاح الدين ، فبلغني أنه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو رريض ، وقال : لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت .

قال العماد : وجلس السلطان للعزاء ، وأغرب في الحزن والبكاء ، وبلغ الغاية في إجمال أمره ؛ والتوديع له إلى قبره ؛ ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه . وكان منذ نافق مؤتمن الخلافة وقتل ، صُرف من هو زمام القصر وعُزل ، ووكل بهاء الدين قرقوش بالقصر وجعله زمامه ، واستنابه مقام نفسه وأقامه ؛ فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع ، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفوة مشرع . فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد ، ووهب المقاعد ، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد ، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد .

قلت : أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار برجوان^(٢) في الحارة المنسوبة

(١) وكان أبو شامة قد سافر إلى مصر لزيارتها والاتصال بعلمائها ، وفي هذه الزيارة نجده خرج من دمشق آخر ربيع الثاني سنة ٦٢٧ ، فوصل دمياط في جمادى الأولى ، ودخل القاهرة والفسطاط في جمادى الثانية ، والاسكندرية في ذى الحجة ، ثم عاد إلى دمشق في ربيع الثاني سنة ٦٢٨ . انظر المذيل على الروضتين .

(٢) وزير الحاكم بأمر الله الفاطمي ، وقد قتل سنة ٣٩٠ . وقد اشتهر برجوان بالبذخ والترف ، وهما ظاهران من ظواهر العصر الفاطمي في أوجه وعزه ؛ وبلغ من ترف برجوان أنه وجد في خزانته عند مقتله ألف سرور وديق وعدد ضخمة من الآلات الموسيقية والطرف المختلفة . انظر « الفاطميون في مصر » وانظر كذلك : « المواعظ والاعتبار » .

إليه بالقاهرة ، وهي دار كبيرة واسعة ، كان عيشهم فيها طيبا ؛ ثم نقلوا بعد الدولة
الصلاحية منها ، وأبعدوا عنها .

قال العماد : وهم إلى اليوم في حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره ، يكاؤهم
ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره ؛ وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في
أيوان ، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا
فيكثروا ، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا ، وقد نقص عددهم ، وقلص
مددهم . ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد ، والعدّة والعديد ، والطريف والتليد ،
فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن ، وجمع الباقيات فوهبن^١ وفرقهن ؛ وأخلى دوره ، وأغلق
قصوره ، وسلط جوده على الموجود ، وأبطل الوزن والعدّة عن الموزون والمعدود ، وأخذ كل
ما صلح له ولأهله وأسرائه ، ونحواص ممالكه وأوليائه^(١) ، من أخائر الذخائر ، وزواهر
الجواهر ، ونفائس الملابس ، ومحاسن العرائس ، وقلائد الفرائد ، والدرّة اليتيمة ، والياقوتة
العالية الغالية القيمة ، والمصوغات التبرّية ، والمصنوعات العنبرية ، والأواني الفضيّة ،
والصواني الصينيّة ، والمنسوجات المغربيّة ، والمزوجات الذهبيّة ، والمحركات النضاريّة ،
والسكرائم والبتائم ، والعُود والتائم ، والمعقود والنقود ، والمنظوم والمنضود ، والمحلول
والمشدود ، والمنعوت والمنحوت ، والدرّة والياقوت ، والحلى (١٥١ ب) والوشى ، والعبير
والخبير ، والوثير والنثير ، والعينيّ واللجيني ، والبسطوالفرش ، ومالا يعدّ إحصاء ، ولا يحد
استقصاء ؛ فوقع فيها الغناء ، وكشف عنها الغطاء ، وأسرف فيها العطاء ؛ وأطلق البيع
بعد ذلك في كل حدث وعتيق ، وليس وسحيق ، وبأل وأسمال ، ورخيص وغال ، وكل
منقول ومحمول ، ومصوغ ومعمول . واستمر البيع فيها مدّة عشر سنين ، وتنقلت إلى البلاد
بأيدي المسافرين الواردين والصادرين .

ونقلت من ديوان العماد بخطه قال : ولما وصل خبر موت العاضد الذي كان بمصر في
القصر ، موسوماً بالأمر ، في ليلة عاشوراء سنة سبع وستين ، بعد الخطبة بها للمستضى بالله
أمير المؤمنين ، عملت هذه الأبيات . فذكر قصيدة منها :

(١) في الأصل : كل ما صلح له ولأهله ، والنحواس وأسرائه ، ممالكه وأوليائه . والمثبت هنا من ل
١٥٣ .

توفي العاضد الدعي ، فما
وعصر فرعونها انقضى ، وغدا
وانطفأت جمره الغواة ، وقد
وصار شمل الصلاح ملتئما
لما غدا معلنا شعار بني ال
وبات داعي التوحيد منتصرا
وظل أهل الضلال في ظلال
وارتبك الجاهلون في ظلم
وعاد بالمستضيء مجتهدا
واعتلت الدولة التي اضطهدت
واهتز عطف الإسلام من جذل
واستبشرت أوجه الهدى فرحا
عاد حريم الأعداء منتهك ال
قصور أهل القصور أخربها
أزعج بعد السكون ساكنها

يفتح ذو بدعة بمصر فما
يوسفها في الأمور محكما
باح من الشرك كل ما اضطرها
بها ، وعقد السداد منتظما
مبّاس حقا ، والباطل اكتملا
ومن دُعاة الإشرار منتقما
داجية من غيابة وعي
لما أضاءت منابر العلما
بناء حق قد كان منهدما
وانتصر الدين بعدما اهتضما
وافترّ ثغر الإيمان وابتما
فليقرع الكفر سنّه ندما
حمى ، وفيء الطغاة مقتسما
عاصر بيت من الكمال سما
ومات ذلا وأنفه رُغما

ومن كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب
شمس الدين بن أبي المضاء في بعض السفين : (١) « كتب الخادم هذه الخدمة من
مستقره ودين الولاء مشروع ، وعلم الجهاد مرفوع ، وسؤدد السواد متبوع ، (٢) وحكم
السداد بين الأمة موضوع ، وسبب الفساد مقطوع بمنسوع . وقد توالى الفتح غربا
ويمنا وشأما ؛ وصارت البلاد بل الدنيا ، والشهر بل الدهر ، حرما حراما ، وأضحى (٣)
الدين واحدا بعدما كان أديانا ؛ والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها [إلا] (٤)
(١) وهو الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه في أول الحديث عن حوادث هذه السنة . انظر ما تقدم
ص : ٤٩٢ .

(٢) يقصد بالسواد شعار العباسيين .

(٣) في ل ١٥٣ ب : فأضحى .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٥٣ ب .

صُماً وُحْمِيَانَا ؛ والبُدعة خاشعة ، والجمعة جامعة ، والمذلة في شيع الضلال شائعة ؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعة ، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا ، وكذبوا بالنار فعبجبت لهم نار الختوف ، ونثرت أقلام الظُّباحروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف ، (١١٥٢) ومزقوا كل ممزق وأخذوا منهم كل مخفق ، وقطع دابرهم ، ووعظ آيهم غابرهم ، وورغمت أنوفهم ومنابرهم ، وحققت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا ، وتمت كلمات رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ؛ وليس السيف عن سوام من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سير إليهم بنائم . ولا خفاء عن المجلس الصاحبى أن من شد عقد خلافة وحلّ عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد هجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يُشكر ما نصح ، ويُقَدِّ ما فتَح ، ويبلِّغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة ، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة ، وتُكَبِّى دعوته بما أقام من دعوة ، وتوصل عروته بما وصل من غزوة ، وترفع دونه الحجب المعترضة ، وترسل إليه السحب المروضة ، فكل ذلك تعود عوائده ، وتبدو فوائده ، بالدولة التي كشف وجهه لنصرها ، وجرّد سيفه لرفع منارها ، والقيام بأمرها . وقد أتى البيوت من أبوابها ، وطلب النجعة من سحابها ، ووعد آماله الوائقة بجواب كتابها ، وأنهض لإبصال ملطفاته وتمجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر ، وهو الذى اختاره لصعود درجة المنبر ، وقام بالأمر قيام من برّ ، واستفتح بلباس السواد الأعظم ، الذى جمع الله عليه السواد الأعظم ، أملا أنه يعود إليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ، ويخلد الشرف فى عقبه .
ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الإر بلى ^(١) من قصيدة فى مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى :

ملك من القوم الذين رماهم دعائم هذا الدين فى كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصرا مؤزرا به عزّ فى الآفاق كلّ موحد
وهم قهروا غلب الفرنج ببأسهم فدانوا لهم بالرغم لا عنّ توّد

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر الحنفى ، عاش بين سنّى ٦٠٢ - ٦٧٧ ، وهو من مواليد إربل ، وتلمذ ، مثل أبى شامة ، على الشيخ علم الدين السخاوى ، ودرس بالمدرسة القيازية لمنشأ صارم الدين قايماز النجمى المتوفى سنة ٥٩٦ . انظر شذرات الذهب : ٥ : ٣٥٩ ؛ وكذلك الدارس فى تاريخ المدارس : ١ : ٥٧٢ - ٥٧٣ .

وردوا إلى البيت المقدس نوره
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا
وقد ركبت فرسانه بحر أيلة
وهم رجعوا مصرأ إلى دعوة الهدى
وهم شيدوا ركن الخلافة بالذى
وهم شرفوا قدر المنابر باسمها
وهم وهبوا عز المالك ، واكتفوا
فَسَلَّ عَنْ ظُهُبِهِمْ يَوْمَ «حَطِين» كَمْ مَضَتْ
وَضَعُفَ حَدِيثُ الْعَدْلِ وَالْبَأْسِ وَالنَّدَى
وقد كان في ليلٍ من الشَّركِ أسود
بها الركب خوف الكافر المتشدد
يخوضون في بحر من الكيد مُزِيد
بعزمٍ ورأى في العظام محمد
أعادوه من حق طريف ومتلد
وذكرٍ منوطٍ بالرسول محمد^(١)
بُسْمِ الْعَوَالِي وَالْعِلَاءِ الْمَشِيدِ
بمرّ مراد الله في كل أصيد
إذا كان عن أيامهم غير مُسَدِّدِ

وقال ابن أبي طىّ الحلبي : قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين رحمه الله وإلحاحه على صلاح الدين في إقامة الخطبة بمصر للعباسيين وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك . ولما ولي ابنه المستضى أقبل أيضا (١٥٢ ب) على مكاتبة نور الدين فيه ، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه ، وأفضى به الأمر إلى أنه اتهم صلاح الدين وشنع عليه بسببه ، وأكثر القول في ذلك .

ولما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر بعد ، وأموره مضطربة ، وأعداؤه كثيرون ، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم ، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله . فلما أوقع السلطان الملك الناصر بالسودان والأرمن ونكث أمر المصريين وقطع أخبارهم ، وترك أجناده في دورهم ، ثم قطع إقطاع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البلاد ، واستولى على القصور ووكّل بها وبمن فيها قراقوش الخادم ، خلت له بلاد مصر من معاند ومناذب ؛ ثم شرع وأبطل من الأذان « حتى على خير العمل » ، وأنكر على من يتسم بمذهبهم الانتساب إليهم . فلما رأى أموره مواتية ، وأعداءه قليلين^(٢) شرع حينئذ في الخطبة

(١) في الأصل : مجيد ، وفوقها : محمد .

(٢) في الأصل : وأعداؤه قليلون .

لبنى العباس. ولما عول على ذلك أسرو والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعة من أصحابه وأسراء دولته ، وذلك في أول جمعة من السنة ، وأمره أن يُحضر الخطيب إليه ويأمره بما يختاره . وإنما فعل الملك الناصر ذلك ووكّل الأمر إلى غيره استظهاراً وخوفاً من فادحة ربما طرأت ، أو عدوّ ربما ثار ، فيكون هو معتذراً من ذلك .

ولما حصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال [له ^(١)] : إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك . فقال فلن أخطب ؟ قال : للمستضيء العباسي . فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً لكنّه دعا للأئمة المهديين والسلطان الملك الناصر ، ونزل ، فقيل له في ذلك فقال : ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته ، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة ، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاری العادة في مثل ذلك .

قال : وقيل إنّ العاضد لما اتّصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال لمن خُطب ؟ قيل له لم يُخطب لأحد مسمّى . قال : في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمّى . واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية . قيل إنه أفكروا ستولى عليه الفكر والهّم حتى مات . وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط ، فأقام متعلّلاً خمسة أيام ومات . وقيل إنه امتنع فصّ خاتمه ، وكان تحتها سمّ ، فمات .

ولما اتّصل موته بالملك الناصر قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة . فحكى أن القاضي الفاضل قال للسلطان : لو علم أنّكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت ؛ أشار إلى أن العاضد قتل نفسه . وكان موته يوم عاشوراء .

قال : وحكى ابن المارستانى في سيرة ابن هبيرة الوزير ^(٢) قال : إن من عجيب ما جرى

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٥٤ ب .

(٢) وهو أبو الحسن أمين الدولة هبة الله بن صاعد البغدادى ، وبعد وزارته أصبح يعرف بأبى المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة ، وقد وضع له نسب خاص بعد أن تولى الوزارة . تفقه على مذهب أحمد بن حنبل وسمع الحديث ، وقرأ القرآن بقراءاته المختلفة ، وله كتب في الحديث والنحو واللغة والمنطق والعبادات . تولى الوزارة للمعتضى حتى توفى سنة ٥٥٥ هـ ، ثم للمستنجد حتى سنة ٥٦٠ هـ . انظر الفخرى ، وكذلك وفيات الأعيان : ٢ : ٣٢٦ - ٣٣٣ .

في أمر المصريين أن رأى إنسان من (١٥٣) أهل بغداد^(١) في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، كأن قرين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، ويهب أدنى نسيم فيحركها، وأثر حركتها وظلها في الأرض؛ وكان الرجل يتعجب من ذلك وكأنه سمع أصوات جماعة يقرءون بالحن وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال ما هذا، فقالوا قد استبدل الناس بإمامهم. قال وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برّاً تقيّاً، واستيقظ الرجل. وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به وتسكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية السوداء، وقوى هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أوّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده.

وقيل في ذلك الزمان أشعار في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين ابن محمد بن تركان، وكان صاحب^(٢) ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويله المنام^(٣):

لتهنك يامولى الأنام	بشارة	بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الأعدى بهمة	تقاصر عنها السهمرى المتقف	
بعثت إلى شرق البلاد وغربها	بعوثاً من الآراء تحيى وتكف	
فقامت مقام السيف والسيف قاطر	ونابت مناب الرمح والرمح يعرف	
وقدت لها جيشاً من الروع هائلاً	إلى كل قلب من عدانك يزحف	
ملكته به أقصى المغارب عنوة	وكادت بمن فيها المشارق ترجف	

(١) في الأصل هنا تعليق بالهامش نصه: « حاشية. قال المؤلف: رأيت في السيرة المذكورة أن الذى رأى هذا المنام هو الفقيه الزاهد أبو محمد عفيف بن المبارك بن محمود الأحمدي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة. والله أعلم ».

(٢) في ل ١٥٥: حاجب.

(٣) في مقابل هذا بهامش الأصل تعليق نصه: « حاشية. قال المؤلف: أول هذه القصيدة:

لعل حداثة الركب أن يتوقفوا
ليشفي غليلها بالمدايع مدنف
وبعد قوله: فشابهته...:

كشفت بها عن آل هاشم سبة وعاراً أبى إلا بسيفك يكشف

لنهنك يا مولاي فتحاتت بعت : إليك به حوص الركائب توجف
أخذت به مصرًا وقد حال دونها من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنت منها المنابر عصابة يعاف التقي والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة أغرّ غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا تنيه على كل البلاد وتشرف
ولاغرو أن دانت ليوسف مصره وكانت إلى عليائه تنشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف وخلصها من عصابة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبى طى : يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النّبي صلى الله عليه وسلم ،
وبيوسف الثانى المستنجد بالله الخليفة يومئذ ، وقاله على سبيل الغال ؛ ألا تراه قال بعد
هذا البيت :

فشابهته — خلقا وخلقا وعفة وكل عن الرحمن فى الأرض يخلف
وجرى الغال فى البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد
مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس ، وهذا من عجيب الاتفاق .

قلت : وذكر ابن المارستانى فى السيرة المذكورة (قال) ^(١) : وكان هذا المنام سببا
إلى أن كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكى يحثه على التعرض لمصر والبعث إليها ؛
واتفق فى أثناء ذلك (١٥٣ ب) نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدمه هارباً منه إلى
نور الدين ، فحرك ذلك ما كان تخمر فى نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة ، فاستطلع من
شاور الأسباب التى يمكن بها الدخول على المصريين ^(٢) ، فشرحها وأوضحها ، فسير إليها
أسد الدين ، كما سبق ذكره .

قال : ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم ،
وصاروا لا يقدرّون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرىاً ^(٣) أخذ
ثيابه، وعظمت الأذية بذلك ؛ وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد ، وفرح الناس بذلك ،
وكتبت الكتب به إلى الأقطار وتحدث به الشمار :

(١) ساقطة من نسخة ل ١١٥٥ .

(٢) يعنى الفاطميين .

(٣) أى اسماعيلياً فاطمياً .

ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون ، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها يقول فيها : « أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه ، وأوضح لنا منهاجه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية ، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية ، ومصر والقاهرة ، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة ؛ واتته إلى القريب والبعيد ، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد ؛ وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله . وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة ، وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ، والأقدار في الأزل بقضاء آرائنا وإنجاز مواعيدنا قاضية ، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها ، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها . وطالما مرت عليها الحقب الخوالي ، وآبت دونها الأيام والليالي ، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين ، مملوءة بحزب الشياطين ، سابعة ظلالم للضلال ، مقفرة الحل إلا من الحمال ، مفتقرة إلى نصره من الله تملكها ، ونظرة ستدركها ، رافعة يدها في أشكائها ، متظلمة إليه ليمسكف بإعدادها على أعدائها ، حتى أذن الله لغمتها بالانفراج ، ولعلتها بالعلاج ؛ وسبب قصد الفرنج لها ، وتوجههم إليها طمعا في الاستيلاء عليها . واجتمع داءان : الكفر والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ، فلسكننا الله تلك البلاد ، ومكن لنا في الأرض ، وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الإلحاد والرفض ، ومن إقامة الفرض ، وتقدمنا إلى من استنبدناه أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجح مالنا من الإرادة ، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأدياء ودعاة الإلحاد بها المهالك » .

وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا .

قال : وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر ، وقرأ فيها هذا (١١٥٤) المنشور العظيم الخطر والذكر ، حتى وصل إلى بغداد ، فخرج الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد ، مكرمين لخطير وروده ، معظمين لجليل موروده . ونثرت عليه دنائير الإنعام ، وحُي بكل إحسان وإكرام ، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصالح الدين ، كما سيأتي ذكره .

وقال العماد : كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى
الأمين ، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين . وقد كان كاتبه نور الدين في شوال
سنة ست وستين بتغيير الخطبة ، وتذليل أمورها (هذه)^(١) الصعبة ، واقتراع بكر هذه
القصة ، وفرع الرتبة ؛ وأيقن أن أمره متبوع ، وقوله مسموع ، وحكمه مشروع ، ونطقت
بذلك قبل التمام ، السُن الخواص والعوام ، فسير نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر ،
ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون ، بهذه البشارة ، وإشاعة ما تقدم له بها من
الإشاعة ، وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام ، وبشارة خاصة للديوان
العزیز بحضرة الإمام ، في مدينة السلام - ثم ذكر نسخة السكتابين .

ثم قال : ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها :

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا لنصرة العضد العا ضد القاصر الذي بالقصر
أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء^(٢) .

قال العماد في كتاب الخريدة : قصدت بالعضد والعا ضد الجانسة ، ونصرة وزير الخليفة
كفصرته . ثم قال :

وأشغفنا بها شعار بني العبد (م) اس ، فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعي يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمي في أرض مصر
ولديننا تضاعفت نعم الآه ، وجلت عن كل عدو وحصر

(١) ساقطة من ل ١٥٦ .

(٢) أبو الفرج عضد الدين محمد بن أبي الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء الذي كان من قبل أستاذ
البار أيام المستنجد . وبعد وفاة المستنجد استولى عضد الدين على الوزارة وأخرج المستضيء من حبسه
وأخذ البيعة له ؛ وقد عزله المستضيء وسجنه ، ثم أعاده إلى الوزارة . وفي أواخر أيامه كان في طريق
الحج فتقدم منه شخص ، وضاح : مظلوم ، ثم مد يده بشيء فظن عضد الدين أنه يتقدم بمظلمة ، ولكن
لم يلبث أن تلقى طعنة بسكين كانت بيد هذا المظلم ، وعاونته في هذا الهجوم آخران ، وقيل : إنهم جميعاً
كانوا من الباطنية ، فقتل عضد الدين . انظر الفخرى ٢٥٧ - ٢٥٩ ، وانظر كذلك النجوم الزاهرة :
٨٢ - ٨١ : ٦ .

ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون ، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها يقول فيها : « أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه ، وأوضح لنا منهاجه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية ، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية ، ومصر والقاهرة ، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والهادية والحاضرة ؛ وانتهت إلى القريب والبعيد ، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد ؛ وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله . وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة ، وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ، والأقذار في الأزل بقضاء آرائنا وإنجاز مواعيدنا قاضية ، حتى ظفرتنا بها بعد يأس الملوك منها ، وقدرنا عليها وقد هجزوا عنها . وطالما مرت عليها الحقب الخوالي ، وآبت دونها الأيام والليالي ، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين ، مملوءة بحزب الشياطين ، سابعة ظلالها للضلال ، مقفرة الحل إلا من الحال ، مفتقرة إلى نصره من الله تملكها ، ونظرة ستدركها ، رافعة يدها في أشكائها ، متظلمة إليه ليتكفل بإعدادها على أعدائها ، حتى أذن الله لغمتها بالانفراج ، ولعلتها بالعلاج ؛ وسبب قصد الفرنج لها ، وتوجههم إليها طمعا في الاستيلاء عليها . واجتمع داءان : الكفر والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ، فلكننا الله تلك البلاد ، ومكن لنا في الأرض ، وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الإلحاد والرفض ، ومن إقامة الفرض ، وتقديمنا إلى من استندبنا أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجح مالنا من الإرادة ، وقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأعداء ودعاة الإلحاد بها المهالك » .

وهو كتاب طويل اختصرت منه الفرض وهو هذا .

قال : وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر ، وقرأ فيها هذا (١٥٤) المنشور العظيم الخطر والذكر ، حتى وصل إلى بغداد ، فخرج الموكب إلى تلقية وجميع أهل بغداد ، مكرمين لخطير وروده ، معظمين لجليل موروده . ونثرت عليه دنائير الإنعام ، وحُجِّي بكل إحسان وإكرام ، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين ، كما سيأتي ذكره .

وقال العماد : كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى
الأمين ، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتيقن . وقد كان كاتبه نور الدين في شوال
سنة ست وستين بتغيير الخطبة ، وتذليل أمورها (هذه)^(١) الصعبة ، واقتراح بكر هذه
القصة ، وفتح الرتبة ؛ وأيقن أن أمره متبوع ، وقوله مسموع ، وحكمه مشروع ، ونظمت
بذلك قبل التمام ، السُّنن الخواص والعوام ، فسيّر نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر ،
ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون ، بهذه البشارة ، وإشاعة ما تقدم له بها من
الإشاعة ، وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام ، وبشارة خاصة للديوان
العزیز بحضرة الإمام ، في مدينة السلام - ثم ذكر نسخة الكتابين .

ثم قال : ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها :

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى لإمام العصر
وخذلنا لنصرة العضد العا ضد القاصر الذي بالقصر
أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء^(٢) .

قال العماد في كتاب الخريدة : قصدت بالعضد والماضد المجانسة ، ونصرة وزير الخليفة
كنصرته . ثم قال :

وأشقنا بها شعار بني العبد (م) اس ، فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعي يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشي في أرض مصر
ولديننا تضاعفت نعم الآه ، وجلت عن كل عدو وحصر

(١) ساقطة من ل ١٥٦ .

(٢) أبو الفرج عضد الدين محمد بن أبي الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء الذي كان من قبل أستاذ
البار أيام المستنجد . وبعد وفاة المستنجد استولى عضد الدين على الوزارة وأخرج المستضيء من حبسه
وأخذ البيعة له ؛ وقد عزله المستضيء وسجنه ، ثم أعاده إلى الوزارة . وفي أواخر أيامه كان في طريق
الحج فتقدم منه شخص ، وضاح : مظلوم ، ثم مد يده بشيء فظن عضد الدين أنه يتقدم بمظلمة ، ولكنه
لم يلبث أن تلقى طعنة بسكين كانت بيد هذا المظلم ، وعاونوه في هذا الهجوم آخرا ، وقيل : إنهم جميعاً
كأنوا من الباطنية ، فقتل عضد الدين . انظر الفخرى ٢٥٧ - ٢٥٩ ، وانظر كذلك النجوم الزاهرة :
٦ : ٨١ - ٨٢ .

فاغتدى الدين ثابت الركن في مه
واستنارت عزائم الملك العا
وبنو الأصفر القوامص منه
عرف الحق أهل مصر، وكانوا
قل لداعي الدعى: حسبك، فالأ
هو فتوح بكر، [و]^(١) دون البرايا
وحصلنا بالحمد، والأجر، والنه
ونشرنا أعلامنا السود قهرا
واستعدنا من أدياء حقوقا
والذى يدعى الإمامة بالفا
(١٥٤ب) خانه الدهر في مناه، ولا يط
ما يقام الإمام إلا بحق
خلفاء الهدى سراة بنى العباس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظافر، مستقيم ظاهر قوة، قوى الظهر
كشموس الضحى، كمثل بدور الة (م) م، كالسحب، كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد
وليس مثرى الرجال من ملك الما
ولهذا لم ينتفع صاحب القصة
دام نصر الهدى بملك بنى العباس حتى يقوم يوم الحشر

قال العماد في ديوانه، ونقلته من خطه، قال: ووصل الخبر [بأن الخطبة قامت] ^(٢)
في الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشر
شهر رمضان لمولانا الإمام المستضى بأمر الله أمير المؤمنين، وإقامة شعار بنى العباس بها.

(١) ساقطة من الأصل، وكذلك من ل ١٥٦؛ ووجودها لازم لاستقامة الوزن.
(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من ل ١٥٦ ب. وفي الأصل. وصل الخبر بالخطبة في الإسكندرية.

فقلت ، ونحن نزول بحسر الخشب من دمشق في عاشر شوال ، وكتبت بها إلى بغداد -
فذكر هذه القصيدة .

وقال في البرق : ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صندل^(١)
وهو من أكابر الخدم المقتفوية ، من ذوى الروية والهمة القوية . وتولى أستاذية الدار
العزیزة بعد عزل كمال الدين بن عضد الدين عنها ، فأكرم نور الدين بإرسال مثله إليه ،
وعول في هذا الأمر المهم عليه . وهو أكرم رسول وصل ، فأبجح الأمل ، وجاء بالنشريف
الشریف لنور الدين مكملًا ، معظمًا مجملًا ، بأهبة السوداء العراقية ، وحلله الموشية ، وطوقه
النقیل ، ولوائه الجلیل .

وعین يوم يحضر فيه الرسول ، ونصوا على من يحضر في مجلس نور الدين وأغفلوا
ذكر العماد ، فطلبه نور الدين لما حضروا ، وقام لقيام الرسل له لما حضر ، وقصد أن يعرفهم
منزلته عنده ، وناولہ الكتاب ليقراءه . قال : فتناوله منى الموفق بن القيسراني خالد ، وكان
عنده في مقام الوزير وله انبساط زائد ، فداريته ومآريته ، وتركته يقرأ وأنا أرد عليه ،
وأرشدته في التلاوة إلى ما لا يهتدى إليه ، حتى أنهاء ، وأنا على افتنياته على لا أنهاء .
فأعجب نور الدين صمتي وسمتي ، وأجحد منى فضل التائي والتائي . واجتأب الأهبة ولبس
الفرجية فوقها ، وتقلد مع تقلد السيفين طوقها ؛ وخرج وركب من داخل القلعة ، وهو
حال بما عليه من الخلعة ؛ واللواء منشور ، والنصار منشور ، والمركبان الشریفان أحدهما
مركوبه ، والآخر بحليته مجنوبه .

قال : وسألت عن معنى تقليده السيفين ، (١٥٥) واشتماله بالنجادين ، فقيل لي هما
للشام ومصر ، والجمع له بين البلادين .

وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر ثم عاد شريف
المفخر ، جميل المنظر ، جليل الحضر ، حميد الخبر ، سعيد المورد والمصدر ، لبيقًا بالأعظمين
السريير والمنبر . وكان وزن الطوق مع أكرته ألف دينار من الذهب الأحمر . وحلوا

(١) في الأصل : صندل ، والمثبت هنا من ل ١٥٦ ب ، وهو كذلك في النجوم الزاهرة : ٦ : ٦٤ ، ٧٦ ؛
واسمه هناك الحسن صندل ، وكان في أواخر أيامه أستاذ دار الخليفة المستضيء .

لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً ، رائعاً رائعاً ، لجماله وكماله لاثناً ؛ لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل ، وأجل وأكمل ؛ فسير تشريفه برمته إليه بمصر ليحتابه ، وسير أيضاً بخلع من عنده يكرّم بها أصحابه . ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها ، وأنس من السعادة الدائمة قبسها ؛ وطاف بها في الحادى والعشرين من رجب . وهى أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية ؛ يعنى بعد استيلاء بنى عبيد عليها .

قال : وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ، ورايات سود ، وأهبة عباسية ، للخطباء في الديار المصرية ، فسُيّرت إلى صلاح الدين ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء ؛ والحمد لله على ما أنعم وأولى ، ووهب وأعطى .

قال ابن أبى طى : ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة أمر بالقبض على القصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك ، فلم يوجد من المال كبير أمر ، لأن شاور كان قد ضيّعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدّمنا ذكرها ، ووجد فيها ذخائر جليله من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجواهر . ومن عجيب ما وجد فيه : قضيب زمرد طوله شبر وكسر ، قطعة واحدة ، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام ، ووجد فيه طبل للقوانج^(١) ، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المسامك ، ووجد فيه سبعانة يقيمة من الجواهر . فأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه وأحضر صانعاً ليقطعه ، فأبى الصانع قطعه ، فرماه السلطان فانتقطع ثلاث قطع ، وفرقه السلطان على نسائه . وأما طبل القوانج : فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره ، لأنه ضرب به فخيق^(٢) . وأما الإبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد .

واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد ، وقرر لهم ما يكفيهم ، وجعل أسرهم إلى قراقوش الخادم ، وفرّق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم . واستعرض من بالقصر من الجوارى والعبيد ، والعدة والعديد ، والطريف والتليد ، فأطلق من كان منهم حراً ، وأعتق من رأى

(١) القوانج : مرض معوى يعسر معه خروج الثقل والريح . القاموس المحيط .

(٢) الحقيق والحبايق : الضراط ، والفعل حَبَقَ يَحْبِقُ حَبْقًا وَحَبَقًا وَحَبَقًا . القاموس المحيط .

إعتاقه ، ووهب من أراد هبته . وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً ، وحصل هو على اليتيمات (١٥٥ ب) وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد ، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق ، فأقام البيع في القصر مدة عشر سنين .

قال : ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر . ومن عجائبها : أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ، ويقال إنها كانت تحتوى على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة^(١) . وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها ؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها ، فكل كتاب صالح له قطع جلده ورماء في بركة كانت هناك ، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك ، ومنها حصل ما حصل من الكتب ، كذا أخبرني جماعة من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد^(٢) .

واقسم الناس بعد ذلك دور القصر ، وأعطى السلطان القصر الشمالى للأمرء فسكنوه وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة^(٣) ، وهو قصر عظيم على الخليج الذى فيه البستان الكافورى ؛ ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه ، وأخذ باقى الأمراء دور من كان ينتمى إليهم ، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها . وانقضت تلك الدولة برمتها ، وذهبت تلك الأيام بحملتها ، بعد أن كانوا قد احتلوا على البلاد ، واستخدموا العباد ، مائتين وثمانين سنة وكسورا .

قال : وحكى أن الشريف الجليسى^(٤) وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدثه ،

(١) فى ل ١٥٧ ب : شيئاً كبيراً ؛ وهو خطأ .

(٢) فى مفرج الكروب : ٢٠٣ : ١ : « وكانت خزانة الكتب لهم تزيد على مائة وعشرين ألف مجلدة . . . فعمل من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال ، وترك الباقي ، فبيع بعضه وأطلق البعض لمن يختص به » : وسيرد فى كلام العماد بعد قليل ما يؤيد ما جاء فى مفرج الكروب .

(٣) منظرة اللؤلؤة أو قصر اللؤلؤة : من قصور الفاطميين ، يطل من شرفيه على البستان الكافورى الذى أنشأه محمد بن طغج الإخشيد ، واهتم به من بعده ولداه ثم عبده كافور الذى تولى أمور مصر بنفسه . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٨٧ ؛ ٢ : ٤٢٧ .

(٤) القاضي الجليسى أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب السعدى التميمي ، تولى ديوان الإنشاء للخليفة =

عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخى السلطان بعد القبض على القصور وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم ، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا ، وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الأمراء . فلما جالسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف : حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم . قال : نعم . طلبني العاضد يوما وجماعة من الندماء ، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثل أقبيةكم وقلانس كقلانسكم وفي أوساطهم مناطق كمنطقكم ، فقلنا له : يا أمير المؤمنين ، ما هذا الزى الذى ما رأيناه قط ؟ فقال : هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا وذخائرنا .

قال العماد : وأخذت ذخائر القصر ، فقصصها كما سبق . ثم قال : ومن جملتها الكتب فإني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين ، وكانت خزائنها مشتملة على قريب (١١٥٦) مائة وعشرين ألف مجلدة ، مؤيدة من العهد القديم مخلدة ، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي ، واقتطعه التعدي ؛ وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الاتهاب والالتهام ، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام . وتقاسم الخواص يدور القصر وقصوره ، وشرع كل من سكن في تخريب معموره ؛ وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه ، واستمرت سكناه فيه ؛ وخطب لإمامنا المستضى في قوص وأسوان والصعيد ، والقاصى والدانى والقريب والبعيد . وشاعت البشائر ، وذاعت المفاخر ، وسار بها البادى والحاضر ؛ وتملك السلطان أملاك أشياعهم ، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم ، ثم ملكها أمراءه ، وخص بها أوليائه ؛ وباع أماكن ، ووهب مساكن ، وعفى الآثار القديمة ، واستأنف السنن الكريمة .

وقال ابن الأثير^(١) : لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ، ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيرا ؛ وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة

== الفائز الفاطمى (٥٤٩ - ٥٥٥) ؛ وسمى «الجليس» لأنه كان يجالس الخلفاء الفاطميين . وهو من اسل بنى الأغلب أصحاب إفريقية . انظر : النكت المصرية ، فوات الوفيات ، الحريرة : قسم شعراء مصر : ١ . (١) انظر الكامل : ١١ : ١٣٨ .

مالم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين وممر الدهور ، فمذه القضيبي
الزمرّد طوله نحو قبضة ونصف ، والحبل الياقوت ، وغيرها ؛ [و] من السكتب المنتخبة
بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

فصل

ولما خطب بالديار المصرية لبنى الجباس ومات العاضد انقضت تلك الدولة ، وزالت
عن الإسلام بمصر بانقراضها الذلة . واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه ،
وكلّهم من قبل نور الدين رحمه الله ، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه ^(١) . وفيهم
يقول العرقلة ^(٢) :

أصبح الملك بعد آل على مشرقا بالملوك من آل شاذى
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو م ، ومصر تزهو على بغداد ^(٣)
ما حوؤها إلا بحزم وعزم وصليل الفولاذ فى الفولاذ ^(٤)
لا كفرعون والعزيز ومن كان بها كالخصيب والأستاذ ^(٥)

يعنى بالأستاذ كافور الإخشيدي . وقوله : بعد آل على ، يعنى بذلك بنى عبيد
المستخلفين بها ، أظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون ، فملكوا البلاد ، وقهروا
العباد . وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ولا نسبهم صحيحا ،
بل المعروف أنهم بنو عبيد .

(١) يريد ابن الأثير أن يؤكد أن نور الدين صاحب السلطة العليا فوق أمراء البيت الأيوبي ، وذلك
بسبب ما يذكره بعض المؤرخين ، وعلى رأسهم ابن الأثير نفسه ، من محاولة صلاح الدين وأسرته التخلص
من سيطرة نور الدين . ويؤكد ابن الأثير سخطة على الأسرة الأيوبية فى مناسبات مختلفة ، وبخاصة بعد
أن يتولى الصالح اسماعيل سلطنة الشام عند وفاة والده نور الدين محمود .

- (٢) النظر الحريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٣) بالذال المعجمة .

(٤) فى الحريدة : * من صليل الفولاذ فى الفولاذ *

(٥) الأستاذ : هو كافور الإخشيدي ؛ والخصيب هو الخصيب بن عبد الحميد والى خراج مصر زمن الرشيد
ولايه تنسب منية ابن خصيب .

وكان والد عبيد هذا من نسل القدّاح الملحد المجوسى^(١) ، وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سَلَمِيَّة^(٢) من بلاد الشّام ، وكان حدادا ؛ وعبيد هذا كان اسمه سميّداً ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمى ، وادّعى نسباً (١٥٦ ب) ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنّفى الأنساب العلوية ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه ، وهو ما قدمنا ذكره . ثم ترقّت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وبني المهديّة بالمغرب ونسبت إليه . وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام ، متظاهراً بالتشيع متسترّاً به ، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية ؛ قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده إعدامهم من الوجود ، لتبقى العالم كالبهايم ، فيتمكّن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون . ونشأت ذريته على ذلك منطوئين ، يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسرّوه ، والدعاة لهم مندبّون في البلاد ، يضّلون من أمكنتهم إضلاله من العباد . وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة .

وفى أيامهم كثرت الرافضة واستحكمت أمرهم ، ووضعت المسكوس على الناس واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بنفوس الشام كالنصيرية والدّرزيّة ؛ والحشيشية نوعٌ منهم . وتمكّن دعائهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم . وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشّام والجزيرة ، إلى أن منّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي وتقدّمه مثل صلاح الدين ، فاستردّوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد .

وكانوا أربعة عشر مستخلفاً ، ثلاثة منهم بإفريقية ، وهم الملقّبون بالمهدى والقائم والمنصور ، وأحد عشر بمصر وهم الملقّبون بالمعزّ ، والعزّيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ،

(١) مما يفيد في دراسة هذا الموضوع ، موضوع نسب الفاطميين ، الاطلاع على كتاب : The Origins of Isma'illism للأستاذ برنارد لويس ، وقد ترجم إلى العربية باسم « أصول الاسماعيليّة » .

(٢) بليدة من أعمال حماة ، وتعتبر من أعمال حمص أحيانا ، ولا يعرفها أهل الشّام إلا باسم سلمية . اتخذها صالح بن علي بن عبد الله بن عباس منزلاً له ولولده : معجم البلدان : ٥ : ١١٢ - ١١٣ . ثم اتخذها الاسماعيليّة مقراً لدعوتهم قبيل قيام الخلافة الفاطمية ، وهي لا تزال حتى الآن مقراً للمعقل الاسماعيلية الرئيسيّة .

والمستعلى ، والآسر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاقد ؛ يدعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسى أو يهودى ، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة العلوية ، وإنما هي الدولة اليهودية أو المجوسية الباطنية الملعنة^(١) . ومن قبحهم^(٢) أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ، ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها .

وخطب بعدهم جوهر ، الذى أخذ لهم الديار المصرية وبنى لهم القاهرة المعزية ، بنفسه خطبة طويلة قال فيها : « اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة وسليل العترة الهادية المهديّة ، معدّ أبى تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين ، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين » .

كذب عدوّ الله اللعين ، فلا خير فيه ولا فى سلفه أجمعين ، ولا فى ذريته الباقين ، والعترة (١٥٧) النبوية الطاهرة منهم بمعزل ، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الأول .

وقد بين نسبهم هذا ، وأوضح محالهم وما كانوا عليه من التّمويه وعداوة الإسلام جماعة من سلف^(٣) من الأئمة والعلماء ، وكل متورّع منهم لا يسميهم إلا بنى عبيد الأدعياء ، أى يدعون من النسب بما ليس لهم . ورحمة الله على القاضى أبى بكر محمد بن الطيب ، فإنه كشف فى أول كتابه ، المسمى بكشف أسرار الباطنية ، عن بطلان نسب هؤلاء إلى على رضى الله عنه ، وأنّ القدّاح الذى انتسبوا إليه دعى من الأدعياء ، ممخرق كذاب ، وهو أضلّ دعاة القرامطة^(٤) لعنهم الله .

وأما القاضى عبد الجبار البصرى ، فإنه استقصى الكلام فى أصولها وبينها بياناً شافياً فى آخر كتاب تثبيت النبوة له . وقد نقلت كلامهما فى ذلك وكلام غيرها فى مختصر تاريخ دمشق^(٥) فى ترجمة عبد الرحيم بن إلياس ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس .

(١) فى ل ١٥٨ ب : وإنما هي الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية الملعنة .

(٢) فى ل ١٥٨ ب : ومن قبحهم .

(٣) فى ل ١٥٩ : جماعة من سلف .

(٤) ل ١٥٩ : وهو أصل دعاة القرامطة .

(٥) الذى هذب به أبو شامة كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر .

وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الإسلام .

وأظهر عبد الجبار القاضى فى كتابه بعض مافعلوه من المنكرات والكفرات التى يقفّ الشّعْر عند سماعها ، ولكن لا بد من ذكر شيء من ذلك تنفيذاً لِمَنْ لَعَنَهُ يَعتَمِدُ إمامتهم ، وخفى عنه محالهم ، ولم يعلم قبحهم ومكابرتهم ، وليعذر من أزال دولتهم ، وأمات بدعتهم ، وقلل عدّتهم ، وأفنى أمّتهم ، وأطفأ جمرتهم .

ذكر عبد الجبار القاضى أنّ الملقّب بالمهدى^(١) ، لعنه الله ، كان يتّخذ الجهال ويسلّطهم على أهل الفضل ؛ وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبّحون فى فرّشهم ؛ وأرسل إلى الروم وسلّطهم على المسلمين ؛ وأكثر من الجور واستصفاة الأموال وقتل الرجال . وكان له دعاة يضلونّ الناس على قدر طبقاتهم ، فيقولون لبعضهم : « هو المهدى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه » . ويقولون لآخرين : « هو رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وحجة الله » . ويقولون لطائفة أخرى^(٢) : « هو الله الخالق الرازق . لا إله إلا الله وحده لا شريك له » تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً^(٣) .

ولما هلك قام ابنه المسمّى بالقائم مقامه^(٤) ، وزاد شرّه على شرّ أبيه أضعافاً مضاعفة ، وجاهر بشتّم الأنبياء ، فكان ينادى فى أسواق المهديّة وغيرها : « أَلْعَنُوا عَائِشَةَ وَبَعْلَهَا ، أَلْعَنُوا الْغَارَ وَمَنْ حَوَى »^(٥) . اللهم صل على نبيّك وأصحابه وأزواجه الطاهرين ، وآلِهم هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين ، وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم ، ومن جرّئ على يديه تفريق جمعهم ؛ وأصلبهم سعيماً ، ولقّمهم ثبوراً ، وأسكنهم النار جميعاً ، واجعلهم ممن قلت فيهم : « الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا »^(٦) .

(١) هو عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بإفريقية ، ٢٩٧ - ٣٢٢ هـ .

(٢) فى ل ١١٥٩ ويقولون لأخرى .

(٣) راجع المراحل التسع للدعوة الاسماعلية ، الفاطمية ، فى المواعظ والاعتبار : ٢ ؛ وكذلك فى كتاب الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية .

(٤) وهو أبو القاسم محمد وحلافته بين سنتي : ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ .

(٥) فى ل ١١٥٩ : وما حوى . والفصوصد غار حراء حيث كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يتعبّد فيه قبيل بعثته على ملة إبراهيم عليه السلام . أو غار ثور ، وهو الذى اختفى فيه مع أبى بكر فى أول مراحل الهجرة .

(٦) سورة الكهف : آية : ١٠٤ .

(١٥٧ ب) وبعث إلى أبي طاهر القرمطى المقيم بالبحرين ، وحثه على قتل المسلمين وإحراق المساجد والمصاحف .

وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور^(١) فقتل أبا يزيد مخلدًا الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذكره ، وسأخه وصاحبه ، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم ، خوفًا من أن يثور عليه ثأر مثل أبي يزيد .

وقام بعده ابنه الملقب بالمعز^(٢) ، فبث دعائه فكانوا يقولون : هو المهدي الذي يملك الأرض ، وهو الشمس التي تطلع من مغربها . وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم ، واحتجب عن الناس أيامًا ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه إليه ، وأنه كان غائبًا في السماء ، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له ، فامتلات قلوب العامة والجهال منه . وهذا أول خلفائهم بمصر ، وهو الذي تنسب إليه القاهرة المعزية . واستدعى بفتية الشام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملي ، ويعرف بابن النابلسي ؛ فحُمل إليه في قفص خشب ، فأمر بسأخه ، فسأخ حيا ، وحشى جلده تبذًا وصلب ، رحمه الله تعالى . قال أبو ذر الهروي سمعت أبا الحسن الدارقطني يذكره ويبكى ، ويقول : كان يقول وهو يسأخ : « كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا »^(٣) .

قلت : وفي أيام الملقب بالحاكم^(٤) منهم أمر بكتب سب الصحابة رضى الله عنهم على حيطان الجوامع ، والقياسر والشوارع ، والطرق ؛ وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب ، ثم أمر بقلع ذلك ؛ وأنا رأيته مقلوعًا في بعض أبواب دمشق في الأمكنة العليا منقورًا في الحجر ، ودلتني أول الكلام وآخره على ذلك ، ثم جدّد ذلك الباب وأزيل الحجر . وفي أيامه طوّف بدمشق برجل مغربي ونودي عليه : هذا جزاء من يحب أبا بكر

(١) أبو طاهر اسماعيل ، الخليفة بين سنتي ٣٣٤ - ٣٤١ :

(٢) أبو تميم معدّ ، تولى بين سنتي ٣٤١ - ٣٦٥ .

(٣) سورة الإسراء : ٥٨ .

(٤) أبو علي منصور خليفة الفاطميين بين سنتي ٣٨٦ - ٤١١ ؛ وقبله العزيز أبو منصور نزار الذي استخلف بين سنتي ٣٦٥ - ٣٨٦ .

وعمر ، ثم ضربت عنقه . وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي ، أحد الصالحين ، وكان أذن ببيت المقدس وقال في أذانه « حيّ على الفلاح » فأخذ وقطع لسانه . ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابلسي الحافظ أبو القاسم في تاريخه . وما كانت ولاية هؤلاء الملاحين إلا محنة من الله تعالى ، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عدّتهم ، فإن عدّتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر ، وأولئك بقوا نيفاً وتسعين سنة وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانياً وستين سنة ؛ فالحمد لله على ما يسّر من هلكهم وإبادة ملكهم ، ورضى الله عنّ سعى في ذلك وأزالهم ، ورحم من بين محرّقتهم ، وكذبهم ومحالهم .

وقد كشف أيضاً حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن نصر الشاشي في كتاب الردّ على الباطنية ، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده ^(١) . ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدة سماها : الإيضاح عن دعوة القدّاح ، أولها :

حيّ على مصر إلى خلع الرّسن فتمّ تعطيل فروض وسنن

(١١٥٨) وقال لو وفق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاحين ، فإنهم من شر أعداء دين الإسلام ، وقد خرجت من حدّ المنافقين إلى حدّ المجاهرين ، لما ظهر في ممالك الإسلام من كفرها وفسادها ، وتعيّن على الكافة فرض جهادها . وضرر هؤلاء أشدّ على الإسلام وأهله من ضرر الكفار ؛ إذ لم يقدّم بجهادها أحد إلى هذه الغاية ، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض .

قلت : ثم إنّي لم يقم معنى هذا من بيان أحوالهم ، فأفردت كتاباً لذلك سمّيته « كشف ما كان عليه بنو عبيد ^(٢) » ، من الكفر والكذب والمنكر والكيد » ، فمن أراد

(١) عندما توفي المستنصر بالله الفاطمي ، سنة ٤٨٧ تولى بعده المستعلى بالله أحمد الذي كان الوزير قد حصل له على ولاية العهد من الخليفة المستنصر قبل وفاته . فنار نزار بالإسكندرية وأعلن نفسه خليفة وتلقب المصطفى لدين الله ، ولكنه قتل آخر الأمر مظلماً جماعة من الاسماعيلية عرفت بالزارية .
(٢) في الأصل ، وكذلك في ل ١٦٠ : ما كانوا عليه بنو عبيد . ولم أعتد لهذا الكتاب على أثر .

الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به ، فإنى بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم . ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمي رحمه الله ^(١) ، وكان في أيام الملقب بالعز يز ثاني خلفاء مصر ، فبين فيه أصولهم أتم بيان ، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبيتهم على البلاد ، وتتبع ذكر فضائلهم وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والخزقة ، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة ، وبالله التوفيق .

وما أحسن ما قال فيهم بعض من مدح بنى أيوب بقصيدة منها :

أستم مزيلي دولة الكفر من بنى عبيد بمصر ، إن هذا هو الفضل
زنادقة ، شيعية ، باطنية مجوس ، وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفرًا ، يُظهرون تشيعًا ليستتروا شيئا ، وعظم الجهل

أما ما فعله هؤلاء من الانتساب إلى عليّ رضوان الله عليه والتستر بالتشيع فقد فعله جماعة القرامطة ^(٢) ، وصاحب الزنج ^(٣) الخارج بالبصرة ، وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عرفت من سيرهم من وقف على أخبار الناس ، وكلّهم كذبة في ذلك وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال ، واستتباعهم لهم ، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ، ويفعل الله ما يشاء . ولا يُعتر بأبيات الشريف الرضى ^(٤) في ذلك ، فقد حصل الجواب عنها في كتاب

(١) أبو القاسم علي المرتضى نقيب الطالبيين ؛ عاش بين سنتي ٣٥٥ - ٤٣٦ . وفيات الأعيان .

(٢) بدأ ظهورها كجماعة حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى وقضى على تجمعها في منتصف القرن الخامس أيام المستنصر بالله الفاطمي . انظر : الخلافة والدولة في العصر العباسي ، للمحقق ، ففيه تعريف مختصر مركز بهذه الجماعة .

(٣) نائر ظهر بالبصرة ، واشتد أمره أيام الخليفة المعتمد وزعم أنه من نسل آل عليّ وتسمى باسم علي بن محمد بن أحمد ... بن زيد . وكثر أتباعه من عبيد الأرض الذين كانوا يعملون في حل الخصبات (السباخ) وغيرها لأهل البصرة واستمرت ثورته الخطيرة التي شملت جنوبي العراق بين سنتي ٢٥٥ - ٢٧٠ ، ثم انهارت أمام جيوش الموفق أخى الخليفة المعتمد .

(٤) أبو الحسن محمد ، أخو الشريف المرتضى الذي سبق ذكره ؛ عاش بين سنتي ٣٥٥ - ٤٠٦ . وفيات الأعيان . والأبيات المقصودة هي التي مطلعها :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمى

وفيها ما يثبت صحة نسب الفاطميين إلى علي ، ومن ذلك :

أحمل الضيم في بلاد الأعادى وبمصر الخليفة العلوى

من أبوه أبى ، ومولاه مولا ي إذا ضامنى البعيد القصى

لف عرقى بعرقه سيدا النسا س جميعا : محمد وعلى

الكشف بوجوه حسنة ، وبالله التوفيق .

وقد صنف الشريف العابد الدمشقي ، رحمه الله ، كتاباً في إبطال نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفصل ذلك تفصيلاً حسناً ، وأطنب في ذكر أخبار إخوانهم من القرامطة ، لعنهم الله تعالى .

فصل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شداد :^(١) واستمرت القواعد على الاستقامة ، وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها ، وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها ، ولا يُبقى لنفسه شيئاً . وشرع في التأهب للغزاة ، وقصد بلاد العدو ، وتعبئة الأمر لذلك ، وتقرير قواعده .

وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة ، واستدعى صاحب (٥٨ ب) الموصل ابن أخيه ، فوصل بالعساكر إلى خدمته . وكانت غزوة « عرقة » فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في الحرم سنة سبع وستين .

وقال ابن أبي طى : جمع نور الدين عساكره وخرج إلى « عرقة » ونازلها ، وقاتلها ، أياماً حتى فتحها ، واحتوى على جميع ما فيها ، وغنم الناس غنيمة عظيمة .

قال ابن الأثير^(٢) : خرجت مراكب من مصر إلى الشام فأخذ الفرنج في اللاذنية مركبين منها مملوءتين من الأمتعة والتجار ، وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا . فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه ، وراسل الفرنج في ذلك ، وأمرهم بإعادة ما أخذوه ، فطأطؤوه ، واحتجوا بأموالهم منها : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لسكسر فيهما ؛ وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضي الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته ؛ فلم يردوا شيئاً ، فجمع العساكر من

(١) في النواذر السلطانية : ٣٥ ؛ وهو اقتباس حرى .

(٢) في الأناطكة : ٢٧٩ - ٢٨٢ ؛ وهو اقتباس حرى .

الشام والموصل والجزيرة ، وبث السرايا في بلادهم ، بعضهم نحو أنطاكية ، وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقة وأخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصني صافينا والعريمة ، فأخذها عنوة وكذلك غيرها ؛ ونهب وخرّب ، وغنم المسلمون الكثير ، وعادوا إليه وهو بعرة فساد في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب . وأما الذين ساروا إلى أنطاكية فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين ، ويحدّد معهم الهدنة ؛ فأجابهم . وكانوا في ذلك كما يقال : اليهودى لا يعطى الجزية حتى يُلطم ، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن ، فلمّا نهبت بلادهم وخربت أعادوها .

قال ^(١) : وكان لوالدى في المركبين تجارة مع شخصين ، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسان إلّا اليسير . وكان يُحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه . وكان في الناس من يأخذ ما ليس له ، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة ، وكان نصرانياً ، فلم يأخذ إلّا ما عليه اسمه وعلامته ، فذهب من ماله وما لاشيء كثير بهذا السبب . وكان الذى حصل من مالنا أكثر من الذى حصل له ، فلما عاد إلينا سلم الذى لنا إلى والدى ، فأمتنع من أخذه وقال : خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه وأنا في غنى عنه ؛ فلم يفعل ؛ فقال خذ النصف وأنا النصف ، واجتهد به ^(٢) والذى فلم يفعل . فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام ومعه عدّة من الأثواب السوسية ^(٣) وغيرها ؛ وقال : هذا من قماشنا قد حضر اليوم . وسبب حضوره أن إنساناً فقاعياً من أهل تبريز كان معنا في المركب وقد أعادوا عليه ماله ، فرأى هذه الأثواب واسمى عليها فلم يسهل (١٥٩٠) عليه أن يردّها ، يعنى عليهم ، وسأل عنى وقد قصدنى ، وهى معى ، وحضر عندى الساعة وسلمها إلىّ ، وقال : قد تركت طريقى لتبرأ ذمتى . فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد ، وطلب والدى الرجل ، وسأله أن يقيم عندنا

(١) القائل : ابن الأثير في نفس المصدر ومن نفس الصفحات .

(٢) في الأصل : فاجتهد ؛ والمثبت هنا من ل ١٦٦١ .

(٣) في الأصل السوسى ؛ والمثبت هنا من ل ١٦٦١ .

لنسلم إليه مالاً يتجر فيه ، فلم يفعل ، وعاد إلى بلده . قال : وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان .

فصل

في عزم نور الدين على الدّخول إلى مصر

قال العماد : وكان صلاح الدين واعدّه نور الدين أن يجتمعا^(١) على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك ، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم ، بالعزم الأجرم ، والرأى الأحزم ؛ فاتفق للاجتماع عائق ، ولم يقدر للانفاق قدر موافق ؛ فلقى في تلك السفرة شدة ، وعدم خيلا وظهرا وعدّة ؛ وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الأول .

قال ابن الأثير^(٢) : وفي سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين .

وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرتة ، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم . فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر؛ وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو . فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها^(٣) فعاد إليها ؛ فلم يقبل نور الدين عذره .

(١) في ل ١٦١ أن يجتمعا .

(٢) في الأنابكة : ٢٨٦-٢٩٠ ؛ وهو اقتباس حرق . وفيه بمحاول ابن الأثير أن يثبت خيانة صلاح الدين مولاه نور الدين محموداً وخروجه عن طاعته .

(٣) كذا في الأصل ، وكذلك في ل ١٦١ . ولعلها : يخاف عليها من البعد عنها .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين . فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه ، وعظم عنده ، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها . فبلغ الخبر صلاح الدين^(١) فجمع أهله ، وفيهم والده نجم الدين ، وخاله شهاب الدين الحارثي ، ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه ؛ واستشارهم ، فلم يجبه أحد منهم بشيء . فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال : إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد : روافقه غيره من أهله . فستهمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه ، وكان ذا رأى ومكر ، وكيد وعقل ، وقال لتقي الدين : أقعد ، وسبه ؛ وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك ، أنظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا . فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك (١٥٩ ب) بالسيف لفعلنا ؛ فإذا كننا نحن هكذا كيف يكون غيرنا ، وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعته إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ؛ وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، فإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى الجي ؟ يأمر بك كتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويوتى بلاده من يريد . وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا فنحن ممالك نور الدين وعبيده ، ويفعل بنا ما يريد . فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر .

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال : أنت جاهل قليل المعرفة ؛ تجمع هذا الجمع الكبير وتطلعهم على مافى نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أمم الأمور إليه وأولاه بالقصد ، ولو قصدك لم ترمك من هذا العسكر أحدا ، وكانوا أسلوك إليه ؛ وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون إليه ويعرفونه قولى ، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول : أى حاجة إلى قصدى ؟ يحى نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى ؛ فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله كل وقت فى شأن .

(٢) فى له ١٦١ ب : إلى صلاح الدين .

فجعل صلاح الدين ما أشار به والده . فلما رأى نور الدين رحمه الله تعالى الأمر هكذا عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ؛ توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها .

فصل

في الحَمَام

قال ابن الأثير^(١) : وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الموادي ، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، فاتخذت في سائر بلاده .

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد النوبة إلى باب همدان ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . وكان الفرنج ، لعنهم الله ، ربما نازلوا بمض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض ؛ فحينئذ أمر بذلك وكتب به إلى سائر بلاده ، وأجرى الجرايات لها ولمربيها ؛ فوجد بها راحة كبيرة . وكانت الأخبار تأتيه أوقتها ، لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقتته وعلقوه على الطائر ، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتنبّل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ؛ وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه . فأنحفظت الثغور بذلك ، حتى إن طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له فأتاه الخبر ليومه ، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير (١١٦٠) بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج قد آمنوا لبعد نور دين عنهم : فرحم الله نور الدين ورضى عنه ، فما كان أحسن نظره للرايا وللبلاد .

وقال العماد : وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على

(١) في الأنايبكة ، وهو استمرار للاقتباس السابق من الصفحات نفسها .

الثغر ، وصوتاً من الحيف ، ليحمي البلاد من العدو بالسيف ، وهو منشوف إلى أخبار مصر وأحوالها ، وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها . فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدرجها على الطيران ، لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان^(١) ؛ وتقدم إلى بكتب منشور لأربابها ، وإغزاز أصحابها ، وهو حينئذ بظاهر دمشق ، مخيم بوادي اللوان^(٢) ، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان ، عادون على أهل العدوان ؛ وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة .

ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام ، فقال : « هي برائد الأنباء ، المخصوصة^(٣) بفضيلة الإلهام والإيحاء ، وهي فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء ، والسابقات الهوج في الاهتداء ؛ والحاملات لمطقات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعاد غاية ، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية ، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والمواحي ، والنفاذات بنجح المرام بعود التسهام إلى الرامي ؛ وهي تطوى الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة ، وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعة . وقد عم بها نفع الم رابطين للفرزة والجاهدين في سبيل الله ، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها ، دالة على مكايدها ومكامنها ، طائفة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرائيا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفيا ؛ وإنها لميمونة المطار ، مأمونة العثار ، سالمة على الأخطار ، مهديّة في الأسفار ، أمينة على الأسرار ، سابقة إلى الأوكر ، صادرة بالأوطار ، سائرة إلى المؤمنين بنبا الكفار » .

قلت : وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة^(٤) . وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بالطف من هذه الأوصاف وأخضر فقال : « الطيور ملائكة الملوك » ؛ يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء ، مع فرط ما فيها من الأمانة ، لا يتوهم من جهتها

(١) في الأصل بالأخبار البلدان ؛ والتصحيح من ل ١٦٢ وهو يتفق مع ما جاء في ق .

(٢) من ضواحي دمشق النزهة : خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٠٢ .

(٣) في ل ١٦٢ ، وكذلك في ق : المخصوصات .

(٤) في ك : وكل هذه من أوصاف حسنة . . . الخ . بزيادة (من) ولا لزوم لها ، وهي غير موجودة في ل ١٦٢ ب ولا في ق .

خيانه . فلهذا أحسن فيما وصف ، وأبدع فيما استنبط وأنصف ، وهو بذلك أولى وأعرف .
رحم الله الجميع .

فصل

في باقى حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجل بإسقاط المكوس (١٦٠ ب) بمصر ، قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسة ، عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين رحمه الله ، فهو كان الأمر وذاك المباشر^(١) ، يقول فيه :

« أما بعد ؛ فإننا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض ، وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض ، ونصبتنا له من إزالة النصب عن عباده ، واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده ، وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل ، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على التقير والفتيل ، وأولانا من شجاعة الساحة ، فيوماً نهب ما اشتتات عليه الدواوين ، ويوماً نقطع ما سقاء النيل ؛ فالبشائر في أيامنا تترى ، شفعاً ووترًا ، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى ، والمساحات قد ملأت المسامع والمظامع ، وأسخطت الخيمة والصنائع^(٢) ، وأرضت المنبر والجامع . ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بالقاهرة ومصر^(٣) ، أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة ، وأن نتجرد منها للنيل أثواب الأجر الفاخرة ، ونطهر منها مكاسبنا ، ونصون عنها مطالبنا ، ونكفي الرعية ضررهم الذي يتوجه إليهم ، « وَنَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ »^(٤) ، ونعيد لها اليوم كأمس الداهي ، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ، ولا قلم كاتب . فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى ، ورأينا فرصة أجر

(١) في عيون الروضيين ١٣٤ (وهو مخطوط بالمتحف البريطاني) تفصيل لبعض هذه المكوس الملقاة نقلاً عن ابن أبي طي .

(٢) في ك ، وكذلك في ل ١٦٢ ب : والصناعة . وقد صححت بما أثبت بالمتن لتتسجم مع الأسلوب المسجوع ومع المعنى .

(٣) في ل ١٦٢ ب : بمصر والقاهرة . وهي كذلك في ق .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .

لا تغض عليها بصائر الأبصار ولا يُغضى ؛ وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما ، وإلى ساحل المقسم^(١) ، والمنية ، بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فَيَرِدُ التَّاجِرُ وَيُسْفِرُ ، وَيَغِيبُ عَنْ مَالِهِ وَيَحْضُرُ ، وَيَقَارِضُ وَيَتَجَرَّ بَرًّا وَبَحْرًا ، مَرْكَبًا وَظَهْرًا ، سِرًّا وَجَهْرًا ، لَا يَحِلُّ مَا شَدَّ ، وَلَا يُحَاوَلُ مَا عِنْدَهُ ، وَلَا يَكْشِفُ مَاسْتَرَهُ ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا أوردته وأصدره ، وَلَا يُسْتَوْقَفُ فِي طَرِيقِهِ ، وَلَا يَشْرُقُ بِرِيقِهِ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ طَعْمُهُ ، وَلَا يَسْتَبَاحُ لَهُ حَرَمُهُ . والذي اشتملت عليه المساحة في السنة من العَيْنِ مائة ألف دينار ، مساححة لا يتعقبها تأويل ؛ وَلَا يَتَخَوَّنُهَا تَحْوِيلُ ، وَلَا يَغْتَرِبُهَا زَوَالُ ، وَلَا يَغْتَوِرُهَا انْتِقَالُ ؛ دَائِمَةٌ بِدَوَامِ الْكَلِمَةِ ، قَائِمَةٌ مَا قَامَ دِينَ الْقِيَمَةِ ؛ مَنْ عَارِضُهَا رَدَّتْ أَحْكَامُهُ ، وَمَنْ نَاقِضُهَا نَقَضَ إِبْرَامُهُ ، وَمَنْ أَرَاها زَلَّتْ قَدَمُهُ ، وَمَنْ أَحَالَها حَلَّ دَمُهُ ، وَمَنْ تَعَقَّبُها خَلَّتْ اللَّعْنَةُ فِيهِ وَفِي عَقْبِهِ ، وَمَنْ احْتَاطَ لِدُنْيَاهُ فِيهَا أَحَاطَ بِهِ الْجَحِيمُ الَّذِي هُوَ مِنْ خُطْبِهِ . فَنُقْرَأُ ، أَوْ نُقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْ كَافَّةِ وَلَاةِ الْأَمْرِ مِنْ صَاحِبِ سَيْفٍ وَقَلَمٍ ، وَمُشَارَفٍ^(٢) أَوْ نَاضِرٍ ، فَلَيَمْتَثِلُ مَا مِثْلُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَلَيُضْمِنَهُ عَلَى مَمَرِ الدَّهْرِ^(٣) (١١٦١) مُرَضِيًّا لِرَبِّهِ ، مُمْضِيًّا لِمَا أَمَرَ بِهِ .

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو بكر^(٤) يحيى بن سعدون القرطبي المقرئ النحوي ، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى .

وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين ، والمنصور محمد^(٥) بن تقي الدين .

وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نصر بن عبد الله الإسكندري^(٦) ، المعروف بابن

(١) وهي المقيس أيضا : الميناء النهرى للقاهرة الفاطمية ، وهي تقرب من موضع حديقة الأربكية الحالية . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٢١ ، ١٣٠ .

(٢) الإشراف مراقبة الأمور المالية عامة في جهة معينة ، وبسمى متوليها المشرف والمشارف : صبح الأعشى : ٤ : ٢٥ - ٢٧ ، ٦٤ - ٦٦ .

(٣) في الأصل وفي ل ١١٦٣ : الدهور ، وهي لا تتفق مع الأسلوب المسجوع الذي كتب به المنشور .

(٤) في الأصل وكذلك في ل وفي ق : أبي بكر .

(٥) في ل ١١٦٣ : والمنصور ومحمد ، بزيادة الواو خطأ .

(٦) في الخريدة : قسم شعراء مصر : ٢ : أبو الفتوح نصر بن عبد الرحمن بن اسماعيل ... الإسكندري انظر كذلك : النجوم الزاهرة : ٦ : ٥٩ حاشية : ١ :

فلاقس الشاعر ، بعذاب ، ومولده بالإسكندرية ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسة ، فيكون عمره نحواً من خمس وثلاثين سنة .

ثم دخلت سنة ثمان وستين [وخمسمائة]

ففيها توفي ملك البجاة الحسن بن صافي .

وفيها ترتب العباد السكاتب مشرفاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الإنشاء .

قال : وكان نور الدين ذكياً أليماً ، فطناً لودعياً ، لا تشبه عليه الأحوال ، ولا يتبهرج عليه الرجال ، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال .

قال : ولما عرض صلاح الدين بعد العاصد خزائنه ، واستخرج دقائمه ، سير منها عدة من الأمتعة المستحسنة ، والآلات المثمرة ، وقطع البلور واليشم ، والأواني التي لا يتصور وجودها في الوهم ، ومعها ثلاث قطع من البلخش ، أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً ، والثانية ثمانية عشر ، والأخرى دونها ، وقرن بها من الآلى مصونها ومكنونها ؛ وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار ، ووصلت من غرائب المصنوعات بما لا يجتمع مثله في أعصار وأعمار ، ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار . فشكر نور الدين همته وذكر بالكرم شيمته ، ووصف فضيلته ، وفضل صفته ، وقال : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا نسد به خلّة الإقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا ^(١) الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جُذنا به قدر . وتمثل بقول أبي تمام :

لم يُنفق الذهب المُربى بكثرة على الحصار وبه فقر إلى الذهب
لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد ، ووفور الأعداد من الأجناد ،
وقد عم بالفرنج بلاء البلاد ؛ فيجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة ،
والمعونة بالإمداد ^(٢) .

(١) في ك : نفقنا ، والتصحيح من ل ١٦٣ .

(٢) في ل ١٦٣ ب : على الإمداد بالمعونة بالإمداد .

فاستنزره وما استغزره ، واستقل الحمول في جنب محرّره ، وتروى فيما يدبّره ،
وأفكر فيما يقدّمه من هذا المهم ويؤخره .

قال ابن أبي طى : لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع ، وجرد الموفق بن
القيسراني وزيره إلى مصر وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها ،
وأن صرفت أموالها ؛ فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة^(١) يحملها في كل
سنة . وعظم على نور الدين أمر مصر ، وأخذ من إستيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد ،
وأكثر في مراسلته في حل الأموال .

حدثني أبي^(٢) قال : لم تحف حال نور الدين في كراهية الملك الناصر ؛ ولقد علم
(١٦١ ب) ذلك جميع الأجناد والأمرء وتحذرت به العوام ، ولا سيما حين أنفذ هذه
الهدية . واشتد بعد ذلك في مراسلته ، وأنفذ ابن القيصراني لكشف الأحوال ؛ ولو طال
عمره لم يكن له بدٌّ من الدخول إلى مصر^(٣) .

قال العماد : وكان نور الدين مذمومت مصر ، وتوجه له فيها النصر ، يؤثر أن
يقر له فيها مال للحمل ، يستعين به على كلف الجهاد وتخفيف ماله من النقل ، والأيام
تباطئه ، والأعوام تطاوله ، وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريد ، وهو
لا يستدعي منه ولا يستزيده . فلما حمل من أخائر الذخائر والمال الحاضر ما حمله ، وعرف
مجمله ومفصله ، تقدم إلى الموفق خالد بن القيصراني أن يمضى ، ويطلب ويقتضى ، ويعمل
أيضا بالأعمال المصرية جزاة ، ولا يبنى في نفوس ديوانه من أمرها جزاة ؛ وأرسل معه
الهدايا ، والتحف السنيا ، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء^(٤) ، فجمع بين
الإشراف والاستيفاء ، ومنصب الإنشاء . ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره .

قال العماد : وخرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل ، والحجارة
العتائية ، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر ، وهي معدودة من محاسن

(١) ضريبة .

(٢) المحدث والد ابن أبي طى .

(٣) في ل ١٦٣ ب : دخول مصر .

(٤) المستوفى من كتاب الأموال ، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه المصلحة .

العصر ، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين ، وقوبلت بالإحسان والتحسين . ووصلت الحمار وكثرت لها النظارة ؛ وأما الفيل فإنه وصل إلينا في سنة تسع وستين ونحن بحلب في الميدان الأخضر ، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من ثُحفة الثياب والعود والعنبر . ثم سيّره سيف الدين إلى بغداد هدية للخليفة ، مع ما سيّره معه من التّحف اللطيفة ؛ وسيّر نور الدين الحمار العتانية إلى بغداد مع هدايا ، وتحف سنايا .

فصل

في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد : ونزل صلاح الدين على الكرك^(١) والشوبك^(٢) وغيرها من الحصون فبرح بها ، وفرق عنها عربها ، وخرب عماراتها ، وشنت على أعمالها سراياه بغاراته . ووصل منه كتاب بالمثل الفاضل : « سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل ، أعز الله سلطانه ومدّ أبدأ إحسانه ، ومكن بالنصر إمكانه ، وشيد بالتأييد مكانه ، ونصر أنصاره ، وأعان أعوانه . علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقصّ أجنحتهم ويقلل أسلحتهم ، ويقطع مواردهم ، ويخرب بلادهم ؛ وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان . وما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم ،

(١) قلعة على مرتفع تحيط بها أودية إلا من جهة الغرب . وقد حصنها Fulk صاحب بيت المقدس حوالي سنة ١١٤٢ م شرق البحر الميت لتكوين قوة لبيت المقدس . وقد حاصر نور الدين هذه القلعة بعد وصول نجم الدين أيوب إلى مصر متوقفاً تأييد صلاح الدين في هذا الحصار ولكنه لم يبادر إلى هذا التأييد . وحاصرها صلاح الدين في هذه السنة (١١٧٣ م) وكذلك في سنتي ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ثم استسلمت للعادل سنة ١١٨٩ قبيل صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد . انظر معجم البلدان ٧ : ٢٤٠ ؛ وكذلك . Saladin, pp. 249-250 تأليف S. Lane-Pole . انظر أيضاً كتاب ستيفنسون : The Crusaders in the East .

(٢) بناها الملك بلدوين الأول Baldwin I ، صاحب بيت المقدس ، سنة ١١١٥ م جنوب البحر الميت على منطقة عالية ليسهل عليه مهاجمة القوافل المارة بهذه الطريق إلى مصر أو منها . وسمى الجبل الذي بليت عليه Mont Royal . انظر معجم البلدان ٥ : ٣٠٥ ، وكذلك : The Crusaders in the East, p. 65 .

والحرص في تبديل دارهم ، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً ، ولا يستطيع حيلة ، ولا يَهْتَدَى سبيلاً .
ثم ذكر باقي الكتاب .

قال ابن شدّاد ^(١) : وهذه أوّل غزوة غزاها صلاح الدين (١١٦٢) من الديار المصرية . وإتّما بدأ ببلاد السكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتّى يخرج هو بنفسه يعبّرها ببلاد العدو ؛ فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتّصل البلاد بعضها ببعض ، وتسهل على السابلة . فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين ، فحاصرها ، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة ؛ وحصل ثواب القصد .
وأما نور الدين فإنه فتح مرعش ^(٢) في ذى القعدة من هذه السنة وأخذ بهسنى ^(٣) في ذى الحجة منها .

وقال العماد : حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق ، في العشرين من صفر ، ووجهه بنور البشر قد سَفَرَ ، والحديث يجرى في طيب دمشق وحسن آلائها ، ورقة هوائها ، وبهجة بهائها ، وإزهار أرضها كزهر سمائها ، وكلّ منا يمدحها ، وبحبّه يمدحها ، وكلّ منا يطرّيقها ؛ فقال نور الدين : أنا حُبّ الجهاد يسليني عنها ، فما أرغب فيها . فارتجلت هذا المعنى في الحال ، فقلت :

ليس في الدنيا جميعاً بلدةٌ مثل دمشق
ويسليني عنها في سبيل الله عشق
والنقى الأصل ، ومن يركبها يشقى ويشقى

(١) في النوادر السلطانية ؛ ٣٦ ، وهو اقتباس حرفي . والعبارة : « وهذه أوّل غزوة . . . الديار المصرية » عنوان هذا الحديث في النوادر .
(٢) من بلاد الثغور ، لها سوران وخندق ، وفي وسطها حصن عرف باسم المرواني نسبة إلى بانيه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية بدمشق ، ثم أنشأ الرشيد المدينة كلها بعد ذلك : معجم البلدان : ٨ : ٢٥ - ٢٦ .
(٣) في معجم البلدان : ٢ : ٣١٥ : بهسنا ، بالألف ، قلعة قرب سميساط ومرعش ، وكانت من أعمال حلب .

كم رشيق شاغل عنه بسهم الغزو رشق
وامتساق البيض يغنى عنه بالأقلام مشق
قال : وسألني نور الدين أن أعمل دو بيتيات في معنى الجهاد على لسانه ، فقلت :
للفزو نشاطي وإليه طري مالي في العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نبح الطلب والراحة مستودعة في التعب
وقلت أيضا :

لاراحة في العيش سوى أن أغزو سيفي طربا إلى الطلى يهتز
في ذل ذوى الكفر يكون العز والقدره في غير جهاد عجز
وقلت أيضا :

أقسمت سوى الجهاد مالي أرب والراحة في سواء عندي تعب
إلا بالجد لا ينال الطلب والعيش بلا جد جهاد لعب
قال : واتفق خروج كلب الروم اللعين ^(١) ، في جنود الشياطين ، يقصد الغارة على
زُرّا ^(٢) من ناحية حوران ، وهم في جمع غلبت كثرتة الخبر والعيان ؛ ونزلوا في قرية تعرف
بسمكين ^(٣) . فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة ^(٤) إليهم ، وأقدم بمساكره عليهم ؛
فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ^(٥) ثم نزلوا بالشلالة ، ونزل نور الدين
عشترا ، وقد سرّه ماجرى ؛ فأنفذ سرّية إلى أعمال طبرية ، واغتم خلّوها ، فأدلبت تلك
الليلة وحدث في شنّ الغارة غدوّها . (١٦٢ ب) فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة فوقف
الشجعان ، وثبت من ثبته الإيمان ، حتى عبرت السرية ، وانفصلت تلك القضية . ورحل
نور الدين من عشترا فنزل بظاهر زُرّا .

(١) امبراطور الروم في هذه الفترة هو : Manuel Comnenus الذي حكم بين سنتي ١١٤٣ -

١١٨٠ م .

(٢) وأصبح اسمها في القرن السادس الهجري : زرع ، من أعمال حوران . معجم البلدان : ٤ : ٣٨١ .
وقد وردت في ل ١٦٤ ب زوار .

(٣) من أعمال دمشق من ناحية حوران : معجم البلدان : ٥ : ١٢٧ .

(٤) أول منزل تنزله القوافل التي تخرج من دمشق في اتجاه مصر . نفس المصدر : ٧ : ٣٥٢ .

(٥) قرب البلقاء ، سميت بذلك لسواد حجارتهما . معجم البلدان : ٥ : ١٥٩ .

قال العماد : وكنت راكباً في لقائهم مع الملك العادل وهو يقول : كيف تصف ماجرى ،
فدحته بقصيدة منها :

عُقدت بنصرك راية الإيمان وبدت لعصرك آية الإحسان
يا غالب الغلب الملوك ، وصائد الصَّ (م) يد الليوث ، وفارس الفرسان
ياسالب التيجان من أربابها حُزت الفخار على ذوى التيجان
محمودُ المحمود ما بين الورى في كل إقليم بكل لسان
يا واحداً في الفضل غير مُشارك أقسمت : مالك في البسيطة ثانی
أحلى أمانيك الجهاد وإنه لك مؤذنٌ أبداً بكل أمان
كم بكر فتح ولدتَه طُباك من حرب لقمع المشركين عَوان
كم وقعة لك بالفرنج ، حديثها قد سار في الآفاق والبلدان
قمصت قومصهم رداء من ردَى وقرنت رأس برنسهم بسفان
وملكت رقّ ملوكهم ، وتركتهم بالذل في الأقياد والأسجبان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم وسحبتهم هُوناً على الأذقان
إذ في السوانج تحطم السمر القنا والبيض تخضب بالنَّجيع القاني
وعلى غناء المشرقية في الطلى والهَام رقص عوالى المران
وكان بين النقع لمع حديدها نارٌ تألق من خلال دخان
في مأزقٍ ورد الوريد مكفل فيه برى الصَّارم الظمآن
غطى العجاج به نجومَ سمائه لتنوب عنها أنجم الخرصان^(١)
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا طرُق الضلال ومركب الطغيان
يا خيبة الإفرنج حين تجمَّعوا في حيزة وأتوا إلى حوران

ومنها :

وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم^(٢) لما أتيت بواضح السـ برهان

(١) الخرس ، بتثنية الخاء ، ما على الجبة من السنن ، أو الحلقة تطيف بأسفله ، أو الرمح نفسه ؛ والجمع خرصان ؛ وجبة السنن ما دخل فيه من الرمح . لسان العرب .
(٢) في ك : ظلمهم ؛ ثم شعلت وكتب فوقها : كفرهم .

وهزمتهم بالرأى قبل لقائهم
أصبحت للإسلام رُكناً ثابتاً
قوّضت أساس الضلال بعزمك الـ
قل أين مثلك في الملوك مجاهد
لم تلقهم ثقةً بقوة شوكة
مازال عزمك مستقلاً بالذى
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ
دانت لك الدنيا ، فقاصها إذا
فمن العراق ، إلى الشام ، إلى ذرا
لم تله عن باقي البلاد ، وإنما
للروم والإفرنج منك مصائب
أذعنت لله المهيمن إذ عنت
أنت الذى دون الملوك وجدته
(١١٦٣) فى بأس عمرو ، فى بسالة حيدر
سير^(١)، لو أن الوحي ينزل أنزلت
فاسلم ، طويل العمر ، ممتد المدى
وهى قصيدة طويلة ، وصف فيها أمراء الحاضرين الجهاد معه ومدحهم .

فصل

فى فتح بلاد النوبة

قال العماد : وفى جمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، أخو صلاح الدين ،

(١) بتعريك واو « لو » وتسهيل همزة أن كن يستقيم وزن البيت .

بلاد النوبة ، وأراهم سَطَّاه المرهوبة وفتح حصناً لهم يعرف بإبريم^(١) ، وآلى ألا يريم ؛ وهي بلادٌ عديمة الجدوى ، عظيمة البلوى . ثم جمع السَّي^(٢) وعاد به إلى أسوان ، وفرّق على أصحابه في الغنائم السودان .

وقال ابن أبي طىّ الحلبي : وفي هذه السنة اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة وخرجوا في أممٍ عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر ، وصاروا إلى أعمال الصعيد ، وصمّوا على قصد أسوان وحصارها ، ونهب قراها . وكان بها الأمير كنز الدولة ،^(٣) فأنفذ يُعلم الملك الناصر وطلب منه نجدة ، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبيكي . فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها ؛ فاتبعهم الشجاع والكنز ، فحرت حربٌ عظيمة قُتل فيها من الفريقين عالم عظيم .

ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد ، وتمكّنهم من بلاد الصعيد ، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار قاصداً بلادهم وشحنّ مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميزة ، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة . وسار إليها ونزل على قلعة إبريم ، وافتتحها بعد ثلاثة أيام ، وغنم جميع ما كان فيها من المال والسكر والميزة ، وخلص جماعة من الأسرى ، وأسّر مَنْ وجده فيها ، وهرب صاحبها .

وكتب إلى السلطان بذلك فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروي^(٤) يهنته بفتح يريم قصيدة ، منها :

(١) بلدة قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل في منطقة النوبة المصرية التي عرفت في العصر الروماني باسم Nabilia وفي المراجع العربية القديمة باسم مريس . انظر الإسلام والنوبة في العصور الوسطى للدكتور مصطفى مسعد : ٢٧ ، ٩٣ ، ٩٦ .

(٢) في ل ١٦٥ : رجم السي .

(٣) لقب منح لأول مرة أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي لأمير أسوان أبي المسكرم هبة الله بعد انتصاره على ثورة أبي ركوّة . وأصبح هذا اللقب وراثياً في أسرة أبي المسكرم بعد اندماجها مع النوبيين . وكان هذا الخارج أيام صلاح الدين آخر من حمل هذا اللقب ، وقد قتله العادل ، أخو صلاح الدين سنة ٥٧٠ . انظر مفرج الكروب : ٢ : ١٦ حاشية : ٢ .

(٤) انظر فوات الوفيات ٢ : ٩٤ وكذلك حسن المحاضرة ١ : ٣٢٦ .

فقدم العزم فذا مُبْتَدَاهِ
 واستحب ذبول الجيش حتى أرى
 سواك من ألقى عصاه بها
 عليك بالروم ودع صاحب الـ
 فقد غدت إبريم في ملكه
 لأبد للثوبة من نوبة
 تظل من نوبة منسوبة
 تكسو الغزاة القاطني أرضها
 سود وتحمّر الظبا حولها
 (١٦٣ ب) أولاً ، فسمّر^(٢) يحتملها القفا
 لله جيش منك لا ينثنى
 ما بين عقبان ولكنهما
 آساد حرب فوق أيديهم
 تقلدوا الأنهار^(٣) واستلأموا الـ
 يقصر ملك الأرض عن منتهاه
 أنجمه طالعة عن دجاءه
 قنائة لما استقرت نواه
 باج^(١) إذا شئت وتورا نشاه
 تبرم أمراً فيه كبت العداه
 ترضى لسخط الكفر دين الإله
 لعزمة كمنصة في أناه
 ما نسجت للحرب أيدي الغزاه
 كأعين الرمد بدت للأساه
 مثل دنان بزلتها الشقاه
 إلا بفصل دميت شفرتها
 خيل وفرسان كمثل البزاه
 أساود الطعن ، فهم كالحواه
 غدران ، فالنيران تجري مياه

قال : ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص ، وكان في صحبته أمير يقال له
 إبراهيم الكردي ، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم فأقطعه إياها وأنفذ معه جماعة من
 الأكراد البطالين^(٤) ، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا . وكانوا يشنون الغارات^(٥) على بلاد
 النوبة حتى برحوا بهم ، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم .
 واتفق أنهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان^(٦) ففرق أميرهم إبراهيم

(١) يعني البجاة . وفي ل ١٦٥ ب : التاج . وقد تكون صحيحة .

(٢) في ل ١٦٥ ب : فر .

(٣) في ل ١٦٥ ب : آلاتها .

(٤) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من إقطاعات الدولة ووظائفها لكبر السن ، أو لفضب
 السلطان ، أو لغير ذلك : السلوك : ١ : ٧٣ : حاشية : ٤ .

(٥) في ل ١٦٥ ب ، وكذلك في ق : الفارة .

(٦) في ل ١٦٥ ب : ذبدان ؛ ولم أعتد إليها .

وجماعة من أصحابه ورجع من بقى منهم إلى قلعة إبريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين ، فعاد النوبة إليها وملكوها .
 وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح ومع الرسول هدية ، عبد وجارية . فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجي^١ نشاب ، وقال مالك عندي جواب إلا هذا . وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها ؛ فزار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقله ، وهي مدينة الملك . قال مسعود فوجدت بلادا ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة ، وعندهم نخل صغار منه إدامهم . ووصف ملكهم بأوصاف منها [أن]^(١) قال : خرج علينا يوما وهو عريان قد ركب فرسا عريا وقد التف في ثوب أطلس وهو أقرع ليس على رأسه شعر ؛ قال فأتيت فسلمت عليه فضحك وتفاشى وأمرني أن تكوى يدي ، فكوى عليها هيئة صليب ، وأمرني بقدر خمسين رطلا من الدقيق ، ثم صرفني . قال : وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيها أخصاص .

فصل

في وفاة نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، وطرف من أخباره

قال العماد : وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط الحجة ، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة ، وحمل إلى منزله ، وعاش ثمانية أيام ، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة .

وكان كريما رحيا ، عطوفا حلما ، وبابه مزدحم الوفود ، وهو متلف الموجود ، يبذل الجود ؛ وكان ولده صلاح الدين عنه غائبا ، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظبا ، (١١٦٤) فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت في الدار السلطانية ، ثم نقل بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، والإجلال والإعظام ، وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٦٥ ب .

قلت : وقبرها في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدم ذكره^(١) ،
رحمهم الله تعالى .

وقال القاضي ابن شدّاد^(٢) : ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر
وفاة أبيه نجم الدين فشقّ ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته . وكان سبب وفاته وقوعه من
الفرس : وكان ، رحمه الله تعالى^(٣) ، شديد الرّكض ولعباً بلعب الكرة^(٤) بحيث من
رآه يلعب بها يقول ما يموت إلّا من وقوعه عن ظهر الفرس .

ومن كتاب فاضليّ عن السلطان إلى عز الدين فرّخشاه^(٥) بمصر يقول فيه : « صحّ
من المصاب بالمولى الدارج ، غفر الله له ذنبه ، وسقى بالرحمة تربة ، ماعظمت به اللوعة ،
واشتدت الرّوعة ، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة ، فاستجعدنا بالصبر فأبى وانحدرت
العبرة ، فياله فقيداً فقد عليه العزاء ، وهانت بمدّه الأرزاء ، وانتثر شمل البركة بفقدته فهي
بعد الاجتماع أجزاء .

وتخطفه يد الردى^(٦) في غيبتى هبّنى حضرت ، فكنت ماذا أصنع ؟ -
قال ابن أبي طى الحلبي : وهو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى ، ولا يُعرف في نسبه
أكثر من والده شاذى . وحدّثنى أبي رحمه الله قال : كان تقى الدين عمر يزيد فيقول :
شاذى بن مروان . قلت : وسمعت أنا من يقول شاذى بن مروان بن يعقوب .

قال ابن أبي طى : وقد ادّعى ابن سيف الإسلام لما ملك اليمن أنهم من بنى مروان
ابن محمد الجعدى المعروف بالحمار ، يعنى آخر خلفاء بنى أمية . قال : وقد نقبت عن ذلك
فأجمع الجماعة من آل أيوب أنّ هذا كذب ، وأنّ جميع آل أيوب لا يعرفون جدّاً فوق

(١) انظر ما تقدم في هذا الكتاب : ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٢) فى النوادر : ٣٦ ؛ وهو اقتباس حرفى :

(٣) فى ل ١٦٦ وكذلك فى ق : وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس ، رحمه الله ، وكان شديد
الركض . . . الخ .

(٤) لعبة الكرة من ألعاب الفروسية ، وكان يقام لها احتفال خاص أحياناً يخرج إليه السلطان فى موكب
رسمى ، ويشارك فيها الأمراء . ومن أدواتها الكوجان أو الصولجان ، وهو المحجن الذى تضرب به
الكرة ، وهو عصا مدهونة برأسها خشبة معقوفة . صبح الأعشى : ٤ : ٤٧ ؛ ٥ : ٤٥٨ .

(٥) هو ابن شاهنشاه بن أيوب ، تولى بعلبك وفاب مدة بدمشق عن عمه صلاح الدين . توفى سنة
٥٧٨ ودفن فى قبته التى بمدرسته . انظر شذرات الذهب : ٤ : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٦) فى ل ١٦٦ ؛ أبدى الردى ؛ ولا يستقيم الوزن به .

شاذى . وكذلك أخبرنى السلطان الملك الناصر رحمه الله .

قلت : ودليل صحة ذلك أنى وقفت على كتاب وقف الرباط النجمى بدمشق ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذى العادلى . وابن سيف الإسلام هذا هو أبو الفداء اسماعيل ، بن طغتكين بن أيوب بن شاذى ، ابن أخى السلطان صلاح الدين ؛ ملك المين بعد أبيه وتماظم إلى أن ولّى نفسه الخلافة وأدعى أنه من بنى أمية ، وعزم على إعادة الخلافة من بنى هاشم إلى بنى أمية ؛ وله فى ذلك أشعار كثيرة ؛ وتلقب بالإمام الهادى بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين ، ومدحه كثير من الشعراء بذلك وزينوا له فعله وما هو فيه . فمن شعره :

وإنى أنا الهادى الخليفة والذى أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد
(١٦٤ب) ولا بد من بغداد أطوى ربوعها وأنشرها نشر التماسر للبرد
وأنصب أعلامى على شرفاتهم وأحيى بها ما كان أسسه جدى
ويخطب لى فيها على كل منبر وأظهر دين الله فى الغور والنجد
ثم قال ابن أبى طى : وكان نجم الدين أيوب عدلا مرضيا كثير الصلاة والصلات ،
غزير الصدقات والخيرات ، يحب العلماء ، ويميل إلى الفضلاء ؛ وكان ممدحا ، مدحه العباد
الكاتب بجملة قصائد .

قال : وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان ، كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقذ .
وحدثنى جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل جور^(١) ، وربى فى بلد الموصل . ونشأ شجاعا
باسلا ، وخدم السلطان محمد بن ملكشاه^(٢) فرأى منه أمانة وعقلا ، وسدادا وشهامة ؛
فولاه قلعة تكريت^(٣) ، فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها أكرم ضبط ، وأجلى من

(١) يعرفها ياقوت بأنها كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية ، وفيها فلاح وقرى ، وأهلها

نصارى . معجم البلدان : ٣ : ٤٩

(٢) هياث الدين أبو شجاع ؛ تولى السلطنة السلجوقية بعد وفاة أخيه بركياروق ، وكانت بينهما حرب
قبيل ذلك ، وبقي فى السلطنة حتى توفى سنة ٥١١ هـ . انظر كتاب السلجوقية للعماد الكاتب ، وكذلك
كتاب : Muhammeden Dynasties .

(٣) تكريت يفتح التاء وكسرهما : غربى دجلة بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب وتبعد عنها
ثلاثين فرسخا . معجم البلدان : ٢ : ٣٩٩-٤٠١ .

أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث ، حتى عمرت أرضها ، وحسن حال أهلها ، وأمنت سبلها .

فلما ولي السلطان مسعود^(١) الملك أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومُتَوَلَّى العراق ؛ وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى الموصل إلى أصفهان ، وكانت خيله خمسة آلاف فارس ؛ فأقر الأمير نجم الدين في ولاية تكريت ، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له ، وقرّر أمره عند السلطان مسعود وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله ، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين ومَعْدُوقاً بهِمَّتِهِ .

وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة ؛ وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به إلّا حل إليه المال والضيافة الجليلة ، وكان لا يسمع بأحد من من أهل الدين في مدينة إلّا أنفذ إليه .

وقد ذكر العماد الكاتب في سيرة السلجوقية^(٢) الأمير نجم الدين وقرّظه وأثنى عليه ، وذكر من دينه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنة ؛ وحكى قضية عمه^(٣) العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدرگزيني^(٤) وأمره بقتله ، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدرگزيني .

ثم إن السلطان مسعوداً حشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سنقر في بغداد ، وجرّد^(٥) عسكراً ضخماً وسار^(٥) إلى تكريت طامعين في بغداد ، وانصل

(١) غياث الملك من سلاجقة العراق ، تولى السلطنة بين سنتي ٥٢٧ - ٥٤٧ . انظر :

Muhammadian Dynasties

(٢) عم العماد الأصفهاني ،

(٢) ١٥٢ - ١٥٣

(٤) أبو القاسم الأنساباذي الدرگزيني . تولى الوزارة للسلطان علي بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١٨ ، ثم لأخيه السلطان طغرل ، وقد قتله طغرل سنة ٥٢٧ . يقول العماد : وأنساباذي ضعيف من إقليم الأعظم قريبة من درگزين فنسب نفسه إليها لأنها أكبر . ويتهمه العماد بأنه كان من الملحدين ، من جماعة المزدكية الحرامية ؛ ويذكر أنه لُكِل في أثناء وزارته بكثير من أعلام الدولة ، وفيهم العزيز عم العماد . انظر السلجوقية ، في مواضع مختلفة ، وانظر كذلك : معجم البلدان ، ١ : ٣٥١ ؛ ٤ : ٥٤٤ .

(٥) الفعلان مسندان ، خطأ ، إلى ضمير المفرد في ل ١٦٧ .

هذا الخبر بقراجه الساقى ، وهو أتابك ابن السلطان محمود ، فجرد ألف فارس للقاء زنكى ، ثم أردفهم بعسكر ضخم ، فانهزم زنكى وقتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ما كان فى عسكره ، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدة جراحات . وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه ففتحاه إلى القلعة بحبال وداوياً جراحاته ، وخدماه أحسن خدمة (١١٦٥) وتقربا إليه؛ فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً ، ثم سار إلى الموصل ، وأعوزة الظهر ، فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى إنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ماسم معه من أمتعته . فكان زنكى يرى لأيوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنيعة ، ويواصله بالهدايا والألطف مدة مقامه فى تكريت . فلما انفصل [نجم الدين] ^(١) عنها ، على ماسنذكره ، تلقاه زنكى بالرحب والسعة ، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعته عدة قطائع .

وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم . وكان أخوه شيركوه معه فى القلعة ، وكان شجاعاً باسلاً ، ينزل من القلعة ويصعد إليها فى أسبابه وحاجاته . وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها . فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد إليها ، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارض ، وكان رجلاً نصرانياً ، فاتفق فى ذلك اليوم أن النصرانى صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة فعبث به بكلمة مُبْضَّة ، فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد إلى القلعة ، وكان مهيباً ، فلم يتجاسر أحدٌ على معارضته فى أمر النصرانى بشئ ^(٢) ، وأخذ النصرانى برجله فألقى من القلعة .

وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ماجرى ، وحضر عنده من خوفه جرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة ، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا ، وأنه ربما كان منهما أمرٌ تخشى عاقبته ويصعب استدراكه . فكتب إلى نجم الدين ينكر

(١) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٢) ساقطة من ل ١١٦٧ ، وكذلك من ق .

عليه ماجرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيّره ضحبة الكتاب ؛ فأجاب
نجم الدين [إلى] ^(١) ذلك بالسمع والطاعة ، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل
ومال ، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمّا على قصد عماد الدين زنكى بالموصل .
وقيل إن أسد الدين كان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين .

وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم ، ولم يبق أحدٌ إلا خرج
لتوديعه وأظهر البكاء والأسف على مفارقتة .

ولما اتصل بأتاكك زنكى قُصدوئهما أفرحه ذلك وأمر الموكب بلبقائهما
وأكرمهما إكراما عظيماً ، وأقطعهما في بلد شهرزور إقطاعاً سنّياً ؛ وقيل إنه أقطع أسد الدين
بالمؤزر ^(٢) .

وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد
منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته . وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين
وأمر أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك [زنكى] ^(٣) وجعلهما عنده بالمنزلة
العظيمة . وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار وقتال الفرنج ، لعنهم الله
تعالى ، وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء والفعلّة الغراء .

وحدثني أبي رحمه الله قال : حدثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملى ، وكان أحد أصحاب
نجم الدين أيوب ، (١٦٥ ب) قال : وحدثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك
الصالح قال : حدثني حسام الدين سنقر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب ، وكان سنقر هذا
يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى ، قال : كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما
أنفذ نور الدين بن زنكى إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة
المصريين وإقامة دعوى بنى العباس ، في أول سنة سبع وستين وخمسمائة ؛ واتفق أنى
كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة وقد

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٦٧ ب .

(٢) كورة بالجزيرة بها مدينة نصيبين . معجم البلدان : ٨ : ١٩٣

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين للإيضاح .

قعدا على طُرَاحَة^(١) واحدة ، والجلس خاصٌّ بأرباب الدولتين ، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول . فبينما الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصرانيّ كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين ، والتفت إلى نجم الدين وقال له : يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين وُلد هذا السلطان . فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله . ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه ، والتفت إلى الجماعة الذين حوله ، من أكابر العلماء^(٢) ، والقضاة والأمراء ، وقال : لكلام هذا النصرانيّ حكايةٌ بحجية ، وذلك أنّي ليلة رُزقت هذا الولد ، يعني السلطان الملك الناصر ، أمرني صاحب قلعة تكريت^(٣) بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله وقتله النصراني ؛ وكنت قد ألفت القلعة وصارت لي كالوطن ، فنقل على الخروج منها والتّحوّل عنها إلى غيرها ، واعتصمت لذلك . وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشأمت به وتطّيرت لما جرى عليّ ، ولم أفرح به ولم أستبشر . وخرجنا من القلعة وأنا على طيّرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه . وكان هذا النصرانيّ معي كاتباً ؛ فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى منّي أن آذن له في الكلام ، فأذنت له ، فقال لي : يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطّيرة بهذا الصبي وأنى شيء له من الذنب ، وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضرّ ولا يُغني شيئاً ! وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله تعالى سبحانه وقدر ، ثم ما يدريك أنّ هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت جليل المقدار . فعطفتي كلامه عليه ؛ وهاهو [ذا]^(٤) قد أوقفني على ما كان قاله . فتعجّب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكّراه .

قلت : ولأمانة في نجم الدين مدائح وصرائح . منها قوله^(٥) :

(١) الطراحة : مرتبة تفرش للسلطان إذا أراد الجلوس : Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) ما بين الفاصلتين ساقط من له ١٦٧ ب ، وكذلك من ق .

(٣) في ك هنا زيادة لا لزوم لها ، ونصها : في تلك الليلة .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين للتصحيح ، إذ أنّ الرأي المشهور يقضي بضرورة ذكر اسم الإشارة المناسب في مثل هذا التركيب كما في قوله تعالى : « هاتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » وما ورد بغير اسم الإشارة شعرا فهو خلاف المشهور .

(٥) في النكت المصرية : ٣٥٥ - ٣٥٦ مقتبسات أخرى من هذه القصيدة .

ففسر الزمان بنجم الدين مهتسم
يقول فيها :
ووجهه بدوام العز متسم

أضحى بك النيل محجوجاً ومُعْتَمِراً
جاءت بنوك وشمل الدين منتشراً
وما درى أحدٌ من قبل رؤيتهم
نامت عيون الورى فى عدل سيرتهم
والناصر ابْنك كافى كلِّ معضلة
أعزّ بالباس والإحسان حوزتنا
تبسم الدست من أيوب عن ملك
وقال فى مرثية (١) :

على هول ملقاها تضاعف أجره
تبسم عن ثغر المنية لخره
تداعى سمالك الجو منها (٢) ونسره
على فقد أيوب فقد بان عذره
يراعُ بها نيل العزيز ومصره
فرى نابه أهل الصليب وظفره
بأسرك فى إدراكها تم أمره
يبيت بقطر النيل ينهل قطره
فغنناك مغناه ، وقطرك قطره
ففسرك فى دار القرار وقبره
وإلا فسكان الحجون وحجره
وقدّرتة فوق الرجال وقدره
هى الصدمة الأولى فمن بان صبره
أذم صباح الأربعاء ، فإته
أصاب الهدى فى نجمه بمصيبة
فلا تعذلونا ، واعذرونا ، فمن بكى
أقام بأعمال الغرات ، وخيله
إلى أن رماها من أخيه بضيقه
فلما قضى نحبه حياة ودولة
تعاقبتا مصرأ تعاقب وابل
نزلت بدار حلها فخلت لها
وأخيتة (٣) فى البرّ حيا وميتا
وقد شخصت أهل البقيع إليكما
هينئاً لملك مات والعز عزه

(١) تجدد بعض أبيات هذه القصيدة فى النكت المصرية : ٢٦٠ - ٢٦١ ؛ وهى هنا أكل . راجع
كنك مفرج الكروب : ١ : ٢٣١ - ٢٣٢ .
(٢) فى مفرج الكروب : فيه .
(٣) فى الأصل : وواخيتة .

وأدرك من طول الحياة مراده
 وأسعد خلق الله مَنْ مات بعدما
 شهيد تلقى ربّه وهو صائم
 مضى وهو راضٍ عنك لم ترم صدره
 حتى حوزة الإسلام والدين بعده
 فكيف نلّيس^(١) آل أيوب أسده
 رعى الله نجماً تعرف الشمس أنّه
 وأبقى المقام الناصريّ، فإنّه
 وقال أيضاً :

صفو الحياة وإن طال المدى كدر
 وما يزال لسان الدهر^(٢) ينذرنا
 فلا تقل غرت الدنيا مطامعنا
 كأسّ إذا ما الردى حيا الحياة بها
 كم شامخ العزّ لاقى الذل من يدها
 في كل جيلٍ وعصرٍ من وقائعها
 (١٦٦ب) أودى على عثمان بخلها
 ومن أراد التأسّي في مصيبتّه
 نجم هوى من سماء الدين منكدر
 منظومة أنجم الجوزاء من جزع
 وكيف ينسى بحياه الكريم، ومن

وحادث الموت لا يبقى ولا يذر^(٢)
 لو أثرت عندنا الآيات والنذر
 فما مع الموت لا غشّ ولا كدر
 لم ينبج من سكرها أنى ولا ذكر
 ما أضعف القدر إن ألوى به القدر
 شواء يقطر منها الناب والظفر
 ولم^(٤) يفتها أبو بكر ولا عمر
 فللورى برسول الله معتبر
 والنجم من أفقه يهوى وينكدر
 له، وعقد الثريا منه منتثر
 نعماء في كلّ عيش صالح أثر

(١) في ل ١٦٨ ب : بنحيس . والخيس : الشجر الكثير الملتف وموضع الأسد كالحية .
 القاموس المحيط .

(٢) يتبادل هذا البيت وما بعده مكانهما في ك . والترتيب الموجود هنا من ل ١٦٨ ب ، وهو مطابق
 لما جاء في ق أيضاً ، وهو أكثر مناسبة .

(٣) في ل ١٦٨ ب : لاسان . وهو خطأ .

(٤) في ك : ولا . والتصحيح من ل .

جددت من أسد الدين الشهيد لنا
قد كان للدين والدنيا بعزمكما
إن فاح نشر كلام تمدحان به
تنحى ذبال مصاييح إذا طلعا
كانما صور الله الكمال بهم
لا «شوبك» منه معصوم ولا «كرك»
لم يرتحل قافلاً إلا وساكنها
مامات أيوب إلا بعد معجزة
مضى سعيداً من الدنيا وليس له
وطول الله منه باع أربعة
وأشرف الملك ما امتدت مسافته
ومن سعاده أن مات لا سأم

حزناً، به يتسارى الصبر والصبر
ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
مسكاً فطرة أيوب هي العتر
صُبْحاً وتندى ملوك الأرض إن ذكروا
شخصاً، ويوسف منه السمع والبصر
ولا «جليل» ولا «قدس» ولا «زغر»^(١)
إما مباح حماء، أو دم هدر
في الجدل يؤتتها من جنسه بشر
في رتبة أرب باقي ولا وطر
منها: الندى، والتقى، والملك، والعمر
في صيحة أخاها العقل والكبر
يشكوه منه معانيه ولا ضجر

فصل

قال العماد : وسأر نور الدين [قاصداً جانب الشمال لتسديد ما اختل هناك من
الأحوال . فسار إلى بعلبك ومنها^(٢)] إلى حمص ثم حلب ، وفعل في كل منها من المصالح
ماوجب ؛ وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم^(٣) ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة
ثم فتح بهسنى ، واتبع في كل منهما [الطريقة] ^(٢) الحسنى .

(١) في طرف البحر الميت بينها وبين القدس ثلاثة أيام بتقدير ياقوت : معجم البلدان
٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من صميم ك ومضاف بها مشها ، وهو في ل ، وكذلك في ق ،
في صميم المتن .

(٣) من سلاجقة الروم ، وهو عز الدين بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلش . تولى بين
سنتي ٥٥١ ، ٥٨٤ ، وقسم المملكة بين أولاده ، وتوفي سنة ٥٨٨ . انظر كتاب ستاللى لين پول :
Muhammadan Dynasties, p. 155 وانظر كذلك معجم الأنساب لزماور : ٢١٥ ، ترجمة زكى حسن
وجسن أحمد محمود . ويلاحظ أن ما جاء في شجرة النسب التي أعدها لين پول مقابل ص : ١٥٢ في كتابه
يدل على أن قليج أرسلان (الثاني) هذا ابن ملك شاه (الثاني) لا ابن مسعود ؛ وهذا يخالف ما سيجىء
هنا بعد قليل . أما زماور فيوافق ما جاء هنا .

وكتب العماد إلى صديق له بدمشق ، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن الشمس :

كتابي ، فديتك ، من مَرعش وخوف نوابها مُرعشي
وما مرّ في طرفها مُبصرٌ صحيحُ النواظر إلا غشي
وما جلّ في أرضها آمَنٌ من الضيم والضرر إلا خشي
تُرْتَحَى نشواتُ الغرام كَأَنّي من كأسه منتشى
أُسرُّ وأُعلن برّحَ الجوى فقلبي يُسرُّ ودمعي يَشِي
بذلك لكم مهجتي رشوةٌ فإكم حبّكمُ مرثى
وكيف يَلدّ الكرى مغرم بنار الغرام حشاه حشي
بمرعش أبقى وبأوطها مضاهاة جَلَقِ الشمس

قال العماد في الخريدة : فسارت هذه القطعة ونُمت حديثها إلى نور الدين ، فاستنشدنيها ، فأنشدتها إياه ونحن سائرون في وادٍ كثير الأشجار مع بيتين بدت بهما في الحال ، وهما :

وبالملك العادل استأنست بجاحاً مُنى كلّ مستوحش
وما في الأنام كريمٌ سواه فإن كنتَ تنكر ذا فتش
قال ابن الأثير^(١) : وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلاجوقي ، وهي ملطية وسيواس وقونية وأقصر ، عازماً على حربه وأخذ بلاده منه .
وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند^(٢) صاحب ملطية وسيواس وغيرها

(١) في الأتابكة : ٢٩٠ - ٢٩٢ ؛ وهو اقتباس حرفي .

(٢) دانشمند ، هو الأمير التركي الذي كون لنفسه إمارة مستقلة عن السلاجقة في مدن ملطية وسيواس وقيسارية ، وذلك في أثناء تقدم السلاجقة نحو آسيا الصغرى . وقد لعب أفراد أسرته دوراً هاماً في تاريخ الحروب الصليبية ؛ ولم تلبث دولتهم أن بدأت في الانهيار بعد سنة ٥٦٠ . وقد حكم « ذو النون » هذا في مناسبتين ، أولاً بين سنتي ٥٣٧ - ٥٥٠ ؛ وثانياً ، التي يدور الحديث عنها هنا ، بين سنتي ٥٦٤ - ٥٦٩ وتوفي في نهاية هذه الفترة الثانية . انظر : Muhammeden Dynasties ; p. 156 وكذلك : معجم الأنساب : ٢٢٠ - ٢٢١ .

من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً ، فصار إلى نور الدين مستجيراً وملتجئاً إلى ظله ، فأكرم نزله وأحسن إليه ، وجعل له ما يليق أن يُحمل للملوك ، ووعدته النصر والسعى في رد ملكه إليه . وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، إنما ليستعين بها على قتال الفرنج أو للخوف عابئاً منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرها . فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده فلم يجبه إلى ذلك ، فصار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون^(١) وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون ، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها .

وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً وفزقاً ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ؛ فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأنه من الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح .

وكان في جملة رسالة نور الدين إليه : « إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء : أحدها أن تجدد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام ، فإني لا أعتقدك مؤمناً - وكان قليج أرسلان يثبم باعتقاد مذاهب الفلاسفة - والثاني إذا طلبت عسكرك للفرقة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام وتركك الروم وجهادهم وهادتهم ، فإما أن تكون تُنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم . والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي » . وذكر أموراً غيرها .

فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال : ما قصد نور الدين إلا الشناعة على بالزندقة ، وقد أجبتُهُ إلى ما طلب ، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله . واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون ، فبقي العسكر

(١) لعل المقصود بها كيسوم التي يعرفها ياقوت بأنها قرية من أعمال سيمساط ، وتسمى أيضاً روضة أكسوم ويكسوم . ويؤيد هذا حديثه عن بهسنى (بهسنا) إذ يقول إنما قلعة عجيبية قرب مرعش وسيمساط ورستاقها هو رستان كيسوم معجم البلدان : ٢ : ٣١٥ : ٧ : ٣٠٦ .

بها إلى أن مات نور الدين رحمه الله تعالى ، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان وملكها .

قال العماد : وفي هذه السنة وصل الفقيه الإمام الكبير (١٦٧ ب) قطب الدين التيسابوري ، وهو فقيه عصره ونسيج وحده ، فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق ، ثم أطلعه إلى دمشق ، فدرس بزاوية الجامع الغريبة المعروفة بالشيخ نصر المقدسي رحمه الله ، ونزل بمدرسة الجاروق ^(١) . وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله ، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله .

قلت : هي المدرسة العادلية الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته ^(٢) ، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد والحراب الآن . ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس ، وهي المأوى وبها المثوى ، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى ^(٣) .

وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام الناصرية في سنة ثمان وسبعين . وقد وقف كتبه على طلبة العلم ، ونقلت بعد بناء هذه المدرسة إليها ، فافاتها ثمرته إذ فاتها مباشرة رحمه الله تعالى .

قال العماد : وكان وفد في سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن محمد بن حمويه ، فأقبل عليه نور الدين وأسرني بإنشاء منشور له بمشيخة الصوفية ، ورغبه في المقام بالإحسان إليه بالشام . ومن جملة ما أتحفه به عمامة بأعمدة ذهبية أنفذها صلاح الدين من مصر ، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها فلم يجب من سامها إلى طلبها .

(١) هي الجاروخية ، وكانت داخل بابي الفرج والفراديس شمال الجامع الأموي ، بناها سيف الدين جاروخ التركاني . انظر . الدارس في تاريخ المدارس : ١ : ٢٢٥ وما بعدها ، وكذلك : ٣٦١ .
(٢) وهي المدرسة العادلية الكبرى التي أنشأها العادل داخل دمشق شمال الجامع . انظر : الدارس : ٢ : ١٥٩ وما بعدها ، وانظر كذلك : خطط الشام : ٦ : ٨٣ .
(٣) أقام أبو شامة بالمدرسة العادلية ، مع أسرته ، مدة طويلة . انظر الدراسة التي تقدمت أول هذا الكتاب (ص : ٦-٧) .

قلت وقد سبق ذكر هذه العمارة في أخبار نور الدين أول الكتاب
من كلام ابن الأثير^(١)، وابن المعطى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله ،
رحمهم الله تعالى .

ثم ذكر العمارة نسخة المنشور وفيه : « فليُنظر في رباط السميساطى وقبة الطواويس
ورباط الطاحونة وغيرها من رباط الصوفية^(٢) بدمشق المعمورة وبعلبك » .

ثم ذكر العمارة أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل الرحيل من دمشق كان
أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني^(٣) قطائف
وكتب إليه :

ما راقدات في صحون مستوطنات في سكون
يجلن أمثال العرا ئس بين أبكار وعون
أو كالعقائل في الخدو ر قد اعتقلن على ديون
هن اللذيزات اللوا ئذ بالسهول من الحزون
أو كالتأمم للصحا ف ، وما نسبني إلى جنون
السكريات الغرير قات الغلائل والشئون
صرعى وما دارت لها يوما رحي الحرب الزبون
لُفْنُ في أ كفافهمـن (م) على المنى لا للمنون
يحيين بالغريق بل يَسْمَنُ في ضيق السجون
المستطابات الظلمـو ر المستلذات البطلون
(١١٦٨) نضدن بالتزصيع في الـ جامات كالدر المصون

(١) انظر ص : ١٣ من هذا الكتاب .

(٢) في ل ١٧٠ : من الرباط الذي للصوفية .

(٣) هو الحسن بن سعيد بن عبد الله الشاتاني من شعراء الموصل ؛ وفد إلى مصر سنة ٥٧٢ هـ ، وقربه
الأمير فرخشاه منه . انظر شذرات الذهب ؛ البداية والنهاية ، وكذلك وفيات الأعيان ؛ ١ : ١٤٠ ؛
والنجوم الزاهرة ؛ ٦ : ٤٨ .

المستقيّات الصفو ف وقفن كالحليل الصفون
وقد اشتملن من اللطائف والصفات على فنون
اسمع حديثي في انبسا طي فالحديث أخو شجون
وهي أكثر من هذا .

فصل

قال العماد : قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين
وتطاوله بقوته على الروم والأرمن . وكانت الدروب : أذنه ، والمصيصة ، وسيواس ،
يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده ، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل
وأسر ، وساق لنور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيرا . فأرسل نور الدين القاضي كمال
الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه
الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه : .

« وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة ، وكلاهما في
وحشة ليل الظلام المدهم على انتظار صباح المؤانسة ، والله تعالى بكرمه يدني قطاف
الفتحين لأهل الإسلام ، ويوفق الخادم لحيازة مراضى الأمام » .

وفي آخره ^(١) : « ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تأسى في هذه النوبة ،
من افتتاح بعض بلاد النوبة والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنايك الخليل الإسلامية
في العصور الخالية . وكذلك استولت عساكر مصر أيضا على برقة وحصونها ،
وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها ، حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من
الشؤال بعنقاء مغرب » .

قلت : كان اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الديار المصرية

(١) يسبق هذا في مفرج الكروب عنوات : فصل في فتح بلاد النوبة والمغرب - انظر مفرج
الكروب : ١ : ٢٣٥ .

مع طائفة من الترك وانضم إليهم جماعة من العرب فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهديّة (١) وسفّاقس (٢) وقفصة (٣) وتونس (٤) .

وفي آخر ذلك الكتاب : « ونسأل الله التوفيق لا استدناء قواصى المنى ، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى ، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتوح مراده ، ومقتدح زناذه ، ومُقترحه فى جهاده ، وأن يملكه الساحل بجميع بلادده » .
وسير العباد معه قصيدة منها :

بالمستضىء أبى محمد الحسن	رجعت أمور المسلمين إلى السنن
فى أرض مصر دعا له خطباؤها	وأنت لتخطب بكر خطبته عدن
فالمغرب الأقصى بذلك مشرق (٥)	وبنصر مصر محقق يمين اليمن
ورأى الإله المستضىء لشرعه	وعباده نعم الأمين المؤمنين
سر النبوة كامن فيه ومن	فطير الإمامة مشرق نور الفطن
تقوى أبى بكر ، ومن عمر الهدى	وحياه عثمان ، وعلم أبى الحسن
وبجده عرفت مقالة حيدر	لامن دَرِ أنا، لا، ولامنى الددن (٦)
(١٦٨ ب) (ك من عدو ميت فى جلده	رعبا وخوفا ، فهو حى فى كفن (٧)

(١) أنشأها عبيد الله المهدي الفاطمي بقرب الفيروان لتكون عاصمة لدولته ، وبدأ لإنشاءها سنة ٣٠٠ وانتقل إليها سنة ٣٠٨ معجم البلدان : ٨ : ٢٠٥ - ٢٠٨ .

(٢) على مقربة من المهديّة وسوس وقابس ، على ضفة الساحل فى وسط غابة للزيتون . وكان لها سور عظيم : نفس المصدر : ٥ : ٨٧ - ٨٨ .

(٣) فى طرف مقاطعة إفريقية من ناحية المغرب ، فى أرض سبخة ، ولها سور : نفس المصدر : ١٣٨ : ٧ .
(٤) كان تقي الدين عمر طموحا غيورا ؟ وقد رأى تورانشاه يستولى لنفسه على اليمن ، فطمع فى أن يؤسس هو أيضا ملكا له بالمغرب . وكان صلاح الدين يترضاها كثيرا ، فأنحه مدينة عزاز إقطاعا له سنة ٥٧١ هـ وجعله نائبا عنه فى مصر سنة ٥٧٩ هـ وأرسل معه القاضي الفاضل ؟ وانصرف تقي الدين بجنوده عن عكا ، سنة ٥٨٧ هـ ، إلى إقطاعه فيها وراء الفرات طامعا فى توسيع ممتلكاته ، وهناك توفى . وسيأتى تفصيل هذا كله فى مناسباته .

(٥) فى ك : لذلك : والتصحيح من ل ١٧٠ ب .

(٦) الدد ، والددن : اللهو واللعب : القاموس المحيط .

(٧) هذا البيت ساقط من ل ١٧٠ ب وكذلك من ق .

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله :

هل مثل محمود بن زنكي مخلص متوحد يبغى رضاك بكل فن
ورع لدى الحراب أروع محرب في حالتيه إن أقام وإن ظعن
يمسى ويصبح في الجهاد ، وغيره يضحى رضيع سلافة وضجيع دن^١
وبعزة الإسلام منتصراً حرّاً وبذلة الإشرار منتهماً قن

قال ابن أبي طى وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عسرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين^(١) وخمسين ديناراً من دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر ، وزن كل دينار عشرة دنانير .

قال العماد : وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين قديماً من إنعام أمير المؤمنين ، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم في حقّه ، فأُنعم بهما الخليفة عليه ووجه بهما مثاله الشريف إليه . وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضاً يبنّيها مدرسة للشافعية ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر ، والذكر الباقي على ممر الدهر ، فقليل له ما تمّ موضع يصلح لهذا إلا دار التمر ، فعاقه أمر القدر عن قدرته على الأمر .

ثم دخلت سنة تسع وستين [وخمسمائة]

وتور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها ، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته . ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب ملطية^(٢) ؛ وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المجدل^(٣) ، فسرحهم بالعطاء الأجل ،

(١) كلناهما من أعمال بغداد وصريفون (صريفين) على ضفة نهر دجيل ، قرية كبيرة غناء . معجم البلدان : ٥ : ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) شمالى أعلى الفرات من بلاد الثغور . معجم البلدان : ٨٠ : ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) وفتح اليم أيضاً : بلد من إقليم الحابور إلى جانبه تل عليه قصر . نفس المصدر : ٧ : ٣٨٧ .
والخابور اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات ، ويطلق على الإقليم كله بتغليب اسمه عليه . نفس المصدر : ٣ : ٣٨٣ - ٣٨٤ .

والسمت الأجل ؛ وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الغزاة ، فتقبله مستخلف الأرض بالبراة ، وحمل خمسين ألف دينار ، على سبيل الجزية مصانة بذلّ وصغار ؛ وعاد إلى حلب وقد نجح في كل ما طلب .

وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتأت سريره لآليات سريته^(١) ، وحظى بمرض القلب لمرض جسم حقيقته ، وجرت شكايته شكاية جاريتة ، فتصدّق عنها بألف ، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف ؛ ثم سيرها في محفة ، تحمل على أيدي الرجال في خفة ؛ وسارت على الطريق المهيّج مع العسكر ، يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر ؛ فما تُقرّب إليه بمنزل حملها والمشى معها ، وتقدّم بحقّ لازم من بخدمته شيعها . وتأخر نور الدين جريدة مع عدّة من مماليكه وأمرائه الماحضين في ولايته ، وتقدّم إلى أن أسيره في طريقه وأحاوره ، وأحاضره في منازل وأسامره .

وسرنا على طريق قبة ملاعب والمشهد وسلمية ، فجاء الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران ، (١١٦٩) فثنى إلى الجهاد العنان ؛ وسمع الفرنج فتفرّقوا ، وقلقوا بعد ما كانوا أقلقوا ؛ ودخلنا دمشق .

قلت : وفي جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فرضة الأتبان ، ورأيت منشوره بذلك ، وعلامته عليه بخطه « الحمد لله » ؛ يقول فيه :

وبعد فإنّ من سنتنا العادلة ، وسير أيامنا الزاهرة ، وعوائد دولتنا القاهرة ، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم ، وإعفاء رسم ماسّة الظالمون من جائزات الرسوم . وما نزال نجدد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه ، ويرتوون من حياضه ، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفّيها من الشبه والشوائب ، ونلحق ما يعثر عليه من بواق رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب ، تقرّبنا إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب . وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فرضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة ، وضياع القنطرة ، والمرج ، وجبل

(١) في الأصل : فالتأت سره لآليات سيرته ؛ والتصحيح من ل ١١٧١ . والآليات الاختلاط الذهني . القاموس المحيط .

سَنِير^(١) ، وقصر حجاج^(٢) ، والشاغور^(٣) ، والعقيبة^(٤) ، ومزارعها الجارية في الأملاك ، وجميع ما يَقسَط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة ، وقرناه على أربابه ، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه ، وهربا من انتقامه وأليم عقابه . وسبيل التواب إطلاق ذلك على الدوام ، وتعفية آثاره ، والاستعفاء من أوزاره ، والاحتراز من التدنس بأوضاره ، وإبطال رسمه من الدواوين ، لاستقبال سنة تسع وستين ، وما بعدها على تماقُب الأيام والتسعين .

فصل

في فتح اليم

قال العماد : وفي رجب توجه تورانشاه ، أكبر إخوة صلاح الدين ، إلى اليم فلما كان يحنه على المسير إليها سحارة اليمى شاعر القصر ، وكان كثير المدح لتورانشاه ، فتجهز وسار إلى مكة ثم إلى زَبِيد^(٥) فلما كان قبض على الخارجى بها^(٦) ، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ . ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجبلى ، وفتح حصن تمر وغيره من القلاع ، ففتح إقليبا ومنح ملسكا عظيما ، واقترع بكرا وأشييع^(٧) ذكرنا .

(١) جبل سنير : بين حصن وبلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة . ويمتد غربا إلى بلبك وشرقا إلى سلمية والقرتين ، وجبل الجليل مقابله من جهة الساحل وبينهما الوادى الذى فيه حصن وسحارة وغيرها . معجم البلدان : ٥ : ١٥٥ .

(٢) محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية من دمشق ، قيل لانه ينسب إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان . معجم البلدان : ٧ : ١٠٠ .

(٣) محلة بالبواب الصغير من دمشق بظاهر المدينة : نفس المصدر : ٥ : ٢١٥ .

(٤) قرية من ضواحي دمشق : السلوك : ١ : ٢٥٧ : حاشية : ١ .

(٥) مدينة باليمن أحدث أيام المأمون بإزاء ساحل باب النذب . ويطلق هذا الاسم أيضاً على الوادى الذى به المدينة . انظر : النكت العصرية : ٢١ وما بعدها ؛ معجم البلدان : ٤ : ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٦) وهو عبد النبي بن علي بن مهدي ، ثالث حكام الأسرة المهديّة وآخرهم ، حكم بين سنتي ٥٥٨ - ٥٦٩ ، وكان حكم الأسرة قد بدأ سنة ٥٥٤ ، وشمل نفوذها منطقة تهامة حيث كان لأعيانها مشايخون عرفوا باسم الأنصار والمهاجرين : انظر Muhammadan Dynasties, p. 96 .

(٧) في ل ١٧١ ب ، وكذلك في ن : وشيخ .

وقال ابن شداد^(١) : ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عدد إخوته وقوة بأسهم . وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها ، وهو يخطب لنفسه ، يسمى عبد النبي بن مهدي ، ويزعم أنه ينشر ملكه إلى الأرض كلها ، واستتب أمره ؛ فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه ، وكان كريما أريحا حسن الأخلاق ؛ سمعت منه ، يعنى من صلاح الدين رحمه الله ، الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه ، وترجيحه إياه على نفسه ؛ فمضى إليها (١٦٩ ب) وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجى الذى كان بها .

قلت : وكان أخو هذا الخارجى قد خرج باليمن قبله . ذكر عمارة اليمنى في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال^(٢) : وكان جماعة من أمائل الناس مثل بركات المقرئ وعلى بن محمد النيل والفقهاء أبي الحسن على بن مهدي القائم الذى قام باليمن وأزال دولة أهل زييد وغيرهم قد سبقونى ، يعنى إلى صاحب عدن ، فذكر كلاما يتعلق به . وقال العماد في الخريدة : على بن مهدي ملك اليمن في زماننا هذا ، وسفك الدماء وسبى المسلمين ، وأقبل على شرب الخمر ، وادعى الملك والإمامة ودعا إلى نفسه ؛ وكان يحدث نفسه بالمسير إلى مكة ، فمات سنة ستين ، وتولى بعده أخوه ؛ وله شعر حسن يدل على علو همته .

قال ابن أبي طى : كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريما جوادا ، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته ، ولا ينهض بمروته^(٣) ؛ وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر ، وكان من أهل اليمن ، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم ، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه . وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن ، وكثرة أموالها وخيرها ، وضعف من فيها ، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها . قلت : فمن جملة شعره في ذلك قوله في القصيدة التى أولها^(٤) :

(١) في النوادر السلطانية : ٣٦ - ٣٧ ؛ وهو اقتباس حرى .

(٢) النكت المصرية : ٢٩ وما بعدها .

(٣) بمروته بتسهيل الهمزة وتشديد الواو لتناسب ما قبلها .

(٤) انظر النكت المصرية : ٣٥٢-٣٥٥ ، وبه بعض الأبيات التى لا تجدناها هنا ، كما تجد هنا أبيانا ساقطة من النكت . انظر أيضا مفرج الكروب : ١ : ٢٣٨ - ٢٤٠ ، وفيه زيادات .

العلم مذ كان محتاج^(١) إلى العلم
كم تترك البيض في الأجفان ظامئة
أمامك الفتح من شام ومن يمن
فعلمك الملك المنصور^(٢) سوتها
فاخلق لنفسك ملكا لاتضاف به
هذا بن تومرت^(٣) قد كانت بدايته
وقد ترقى^(٤) إلى أن أمسكت يده
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل
وله من أخرى :

أفتح أرض النيل، وهي عظيمة^(٥)
متى توقد النار التي أنت قاذح
وتفتح ما بين الحصين وأبين
وتملك من مخلاف طرف وجعفر
وتخلق ملكا لا تحيل بفخره
وله من قصيدة أخرى :

قالوا : إلى اليمين الميمون رحلته
سائر يسر بني الدنيا ، وطيب ثنأ
(١١٧٠) لا توقدن لها النار التي خمدت^(٦)
فقلت مادونه شيء سوى السفر
وطول عمر ، كذا يحكى عن الخضر
خفف عليك تنل ماشئت بالشر

(١) في الأصل وكذلك في ل ١٧٢ : محتاجا .

(٢) أسد الدين شيركوه .

(٣) أبو عبد الله محمد بن تومرت ، بربري من مصمودة ، تلقب بالمهدي وظهر في شمال إفريقيا داعيا إلى مذهب جديد يدور حول مفهوم كلمة « التوحيد » ؟ وتوفي سنة ٥٢٢ هـ تاركا تلميذه عبد المؤمن في زعامة قومه فنجح هذا الزعيم في تأسيس دولة الموحدين التي امتد سلطانها إلى الأندلس .

(٤) في الأصل : ترقى وكذلك في ل ١٧٢ . والتصحيح من النكت المصرية .

(٥) في ل ١٧٢ : منيعه .

(٦) يشير إلى حادثة الأخدود التي أحرق فيها صاحب اليمين نصارى نجران ، وهي التي ورد ذكرها في

سورة البروج : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . . . ﴾ الآيات .

المال ملء يدي ، والقوم ملك يدي ولا أطيل ، وهذا جملة الخبر
قال ابن أبي طي : ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم
ابن غانم وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف
هاشم ؛ فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه ، فتجهز^(١) ، ثم دخل على
أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن ، فأذن له ، وأطلق له مغلّ قوص سنة ، وزوّده
فوق ما كان في نفسه ، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عن سيرة
من حلقته^(٢) . وسار في البر والبحر ، في البر العساكر وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد
والعدد والآلات . فوصل إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، فدخلها زائراً ، ثم خرج متوجهاً
منها إلى اليمن ؛ فوصل زبيد في أوائل شوال ، فنزل عليها ، ولقيه الشريف هاشم بن غانم
الحسني وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كثير ، فهجم زبيد
وتسلمها ، واحتوى على ما فيها ، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخى
على بن مهدي .

ثم رحل إلى عدن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عنوة وولاه عز الدين الزنجيلي . ثم
سار إلى الخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي ، كتمز وغيرها ؛ وسار إلى
صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها ، فأحرقت صنعاء ، فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها
إلا شيخاً وامراًة عجوزاً ؛ فأقام بها ثمانية أيام ، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة ، فرجع إلى زبيد
فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي . وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد
[الأمير]^(٣) سيف الدولة المبارك ابن منقذ وأمره بحمله ؛ فلما بلغ شمس الدولة خاف ابن
منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتله ، فقتله ابن منقذ بزبيد ؛ فلما بلغ شمس الدولة
قتله استصوبه .

ولما حصل شمس الدولة في زبيد أنفذ إليه صاحب طار وصالحه هو وباقي الملوك على أداء

(١) في الأصل : وتجهز .

(٢) جند الحلقة هم ممالك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم ، يحترفون الجندية وتكون لهم أنصبتهم
في ديوان الجيش . صبح الأعشى : ٤ .

(٣) مابين الحاصرتين من ل ١٧٢ ب .

المال . ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها ، وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر ، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان ، وخوَّله من ملك البلدان . فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن عليّ بن عيسى النقّاش بالبشارة بذلك إلى بغداد .

فصل

ذكر العماد همنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزييد ووصفه بأنه من الكفاة الكرماء ، والدّهاة ذوى الآراء . وهو فاضل من أهل بيت فضل كتب العماد من شعره :

لما نزلت الدّير قلت لصاحبي قم فاخطب الصّهباء من شماسه
(١٧٠ب) فأنى وفى يمناه كأس خلّتها مقبوسةً فى اللّيل من نبراسه
وكانّ مافى كأسه من خذه وكانّ مافى خذه من كاسه
وكانّ لذّة طعمها من ريقه وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بغنائها إذ بات يحلوها على جلاسه
إذ قام يسقينا المدام ، وكلما عابثته^(١) ردّ الجواب براسه^(٢)

قلت : ومدحه أبو الحسن [بن]^(٣) الذروى المصرى بقصيدة غراء ذاتية ما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً وأدق معنى . أوّلها :

لك الخير ، عرّج بى على ربهم ، فذى ربوع يفوح المسك من عرّفها الشذى
يقول فيها :

مبارك عيسى الوفد باب مبارك وهل منقذ القصد غدير ابن منقذ
قال العماد : ثم سيّر نور الدين إلى بغداد بشارة بأمرين ، أحدهما فتح اليمن ، والآخر

(١) فى ل ١٧٢ ب ، وفى ق ، عابته .

(٢) بتسهيل الهمة .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١٧٢ ب . وهو الوجيه على بن يحيى من شعراء مصر . توفى سنة ٧٧٢ هـ فى نحو الأربعين من عمره . انظر : الخريدة : شعراء مصر : ١ : ١٨٧ - ١٨٨ .

كسر الروم مرة ثانية ومقدمهم الدوقس كلان ، وكان قديما أسيرا عند نور الدين من نوبة حارم^(١) ، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوبا أطلسا ، وسير معه أسرى من الروم ؛ وذلك في شعبان هذه السنة .

وبما تضمنه كتاب البشارة : « ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » .

وقبل ذلك بشهرين سیرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد ، أثرها :

أطاع دمعى وصبرى فى الغرام عصى والقلب جرّع من كأس الهوى غصصا
وإن صفو حیاتى ما يكدره إلا اشتياقى إلى أحبائى الخلصا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا وأسعد القلب من بلواه لو خلصا
ومنها :

من ذا الذى سار سبرى فى ولائكم غداة قال العدا : لا سير عند عصا
قد نال عبدك محمود بها ظفرا مازال يرقبه من قبل مرتبصا
من خوف سطوته أن العدو إذا أمّ الثغور على أعقابها نكصا
قال العماد : وكلّف نور الدين فى هذه السنة بإفادة الألفاف ، والزيادة فى الأوقاف ، وتكثير الصدقات ، وتوفير النفقات ، وكسوة النسوة الأيامى فى أيامها ، وإغناء فقراء الرعية وإنجاءها بعد إعدامها ، وصون الأيتام والأرامل ببذله ، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعلده .

ثم ذكر ما قدّمنا ذكره فى أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة^(٢) .
قال العماد : وفى يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة ، وجلسنا

(١) واسم هذا الدوق قسطنطين كولمان ، وكان يحكم قليقيا البيزنطية للامبراطور ما نويل كومنين . وكان نور الدين قد أسره مع بوهمند الثالث صاحب أنطاكية ورعوند الثالث صاحب طرابلس وتوروس الثانى ابن حوسلين صاحب أرمينية ، وذلك سنة ٥٥٩ (١١٦٤ م) عندما التقى بهم عند حارم . انظر ما تقدم فى هذا الكتاب : ٣٣٩ ؛ وكذلك : The Crusaders in the East ; p. 189 ؛ وانظر أيضا :

A History of the Crusades, vol. II ; p. 369 .

(٣) انظر ما تقدم فى الصفحات : ٩ - ٤٤ .

نحن في ديوانه ، حافلين في إيوانه ، لبسط عدله وإحسانه ، وتنفيذ أوامر سلطانه . فجاءني من أخبرني أن نور الدين نزل إلى المدرسة التي (١١٧١) أتولاها^(١) ، وبسط سجاده في قبلتها لسنة الضحى وصلّاها ؛ فقامت في الحال ، ومضيت على الاستعجال ، فلقيت في الدهليز خارجا ، في أجر العباداة ناجحا ولنهج العادة ناهجا ؛ فلما رأيته توقّف ، ولقولي تشوف فقلت له : إن الموضع قد تشرف ؛ أما ترى أنه من أيام الزلزلة قد تشعث ؟ فلما رأى حاله تلبّث ، وقال : نعيده إلى العماراة ، ونكسوه حلال النّضارة . ثم حملت له وجوه سكر ، وشيئا من ثياب وطيب وعنبر ، وكتبت معها هذه الأبيات :

عند سليمان على قدره هدية النملة مقبولة
ويصغر المملوك عن نملة عندك ، والرحمة مأمولة
رقّ لمولانا ، وملكي له وذمّتي بالشكر مشغولة
وكيف يقضى الحق ذمّة ضعيفة بالعجز معلولة
ولمّا شيمة مولى الورى . طاهرة بالخير محبّة وله

قال : وكان رأى قبلة المدرسة غير مفصصة ، وبالترخيم والتذهيب [والتذهيب^(٢) غير مخصصه ؛ فأنفذ^(٣) إلى لمارتها فصوصا مذهبة وذهبا . ثم حم مقدور حمامه ، وعاق القدر عن إتمامه ؛ ودفعت إلى الموصل فرأيت في المنام ، وهو يجاريني في الكلام ، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه ، وقال الصلاة الصلاة ؛ فعرفت أنه أشار إلى الخراب ، وأنه الآن على هيئة الخراب ؛ فكتبت إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته ؛ ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه .

(١) المدرسة المهادية ، وكانت داخل بابي الفرج والفراديس ، تولى العماد التدريس بها ، والإقامة ، سنة ٥٦٧ . الدارس : ١ : ٤٠٦ - ٤١٣ .
(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١١٧٣ .
(٣) في الأصل وفي ل ١١٧٣ . فنفذ .

فصل

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسرائي إلى الديار المصرية، واجتمع بالسلطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد. فصعب ذلك على السلطان وأراد شق العصا لولا ما ثاب إليه من السكينة. ثم أمر بعمل الحساب، وعرضه على ابن القيسرائي، وأراه جرائد الأجناس بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامعياتهم^(١) ورواتب نفقاتهم. فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسرائي وهي خمس ختمات؛ إحداها ختمة ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق، مضببة بصفايح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب، بخط يانس؛ وختمة بخط راشد مغشاة بديباغ فستقي عشرة أجزاء؛ وختمة بخط ابن البواب، مجلد واحد بقفل ذهب؛ وختمة بخط مهمل، جزء واحد؛ وختمة بخط الحاكم البغدادي؛ ثلاثة أحجار باخش، حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف؛ ست قصبات زمرّد، قصبه (١٧١ ب) وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلاث وربع، وقصبه وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبه وزنها مثقالان ونصف، وقصبه وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبه وزنها مثقالان وثلاث^(٢)؛ وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل؛ وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس؛ مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً؛ خمسون قارورة دهن بلسان؛ عشرون قطعة بلور؛ أربع عشرة^(٣) قطعة جزع، وذكر تفصيلها؛ إبريق يشم^(٤)، طشت يشم سقرق ميناء وذهب؛ صحن صيني وزبادي

(١) الجامكية: رواتب الجند بصفة عامة. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) وأين القصبه السادسة؟ لم أجدها ذكرًا؟

(٣) في الأصل: أربعة قطعة جزع، وفي ل ١٧٣ ب، وكذلك في ق أربعة عشر قطعة جزع.

(٤) اليشم، واليشب، حجر ثمين قريب من الزبرجد منه الأبيض والأصفر والزيق. مفرج الكرب:

١ - ٢٢٤ حاشية: ٣.

وسكارج^(١) ؛ أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار ؛ كرتان وزن إحداهما ثلاثون رطلا بالمصرى والأخرى [و] احد وعشرون رطلا ؛ مائة ثوب أطلس ؛ أربعة وعشرون بقيارا^(٢) مذهب ؛ أربعة وعشرون ثوبا حريري ؛ أربعة وعشرون ثوبا من الوشى حريرية بيض ؛ حلة فللى مذهب ؛ حلة سرايش صفراء مذهب . وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية ، وعدة من الخليل والغلمان والجواري ، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه^(٣) .

قال : وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته ، فنها ما أعيد ومنها ما استهلك ، لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعها عليها من نهبها واستبدوا بأكثرها^(٤) . وقيل إنها وصلت جميعا إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين فأفند من ردها .

قال : وحدثنى من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره .

وقال العماد : ولما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين ، وهو الموفق خالد ، أطلعه على كل ماهو فيه وأحصى له الطريف والتالذ ، وقال هؤلاء الأجناد فاعرضهم وأثبت أخبارهم ، وما يضبط مثل هذا الإقليم إلا بالمال العظيم ؛ ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها ، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعاها ، وقد تصرفوا في مواضع لا يمكن اتزاعها ، ولا يسمعون بأن ينقضى ارتفاعها ؛ فالوارد مشفوهة ، والشدائد مكروهة ، والمقاصد بردعها مجبوهة ، والههم بها مشدوهة . وشرع في جمع مال يسيره ويحمله ،

(١) جمع سكرجة وهي الصخرة . والزبادى جمع زبدية وهي وعاء الشراب . السلوك : ١ : ٥٥ . حاشية : ١ .

(٢) السجادة السوداء من وبر الجمل ؛ وهي أيضاً نوع من العمام الكبار للوزراء ورجال العلم . السلوك : ١ : ٥٥ حاشية : ٤ .

(٣) يلاحظ ماى الأسلوب الذى صيغت به هذه الوثيقة من لهجة دارجة ، ويبدو أن النقل أمين عن الأصل ؛ وهذا ، إن صح ، يدل على جانب من الاستعمال العامى للغة فى الوثائق الإحصائية الحكومية . انظر المثال الذى تقدم فى ص : ٤٣٩ ، وهو يؤكد نفس الفكرة .

(٤) فى الأصل ، وفى ل ١٧٣ ب ، وكذلك فى ق : لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها . وهو خطأ نحوى .

بجهد يبذله ، وبخطر يحتمله ؛ وحصل لخالد منه ما لم يكن في خلده ، وجاء مطرف غناه
أضعاف مثله .

فصل

في صلب^(١) عمارة الشاعر اليمنى وأصحابه

قال العماد : واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتصعبة ، المتشددة المتصلبة ،
وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفية ، واعتقدوا أمنيّة ، عادت بالعقبى عليهم منيّة ،
وعينوا الخليفة والوزير ، وأحكموا الرأى والتدبير ، وبَيّتوا أمرهم بليل ، وستروا عليه
بذيل ؛ وكان عمارة اليمنى الشاعر عقيدهم ، ودعا (١٧٢) للدعوة قريتهم وبعيدهم .

وكانوا قد أودعوا سرهم عند من أذاعه ، واستحفظوا من أضعاه ، وأدخلوا عدّة من
أنصار الدولة الناصرية في جملتهم ، وعرفوهم بجهلتهم .

وكان الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجبا^(٢) يُنَاجِيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم ،
ويدخلهم في عزم خروجهم مطلعا على أحوالهم ؛ وتقاسموا الدور والأملاك ، وكادت آمالهم
تدنو من الإدراك . فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم ، وما سيؤولوه
من مراد مرادم ، وطلب ما لابن كامل الداعى^(٣) من العقار والدور ، وكلّ ماله من
الموجود والمذخور ؛ فبذل له السلطان كل ما طلبه ، وأمره بمخالطتهم ورغبه .

ثم أمر السلطان بإحضار مقدميهم ، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم ، وصلب يوم
السبت ثاى شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين ، منهم عمارة ، وأفنى بعد ذلك من بقى
منهم ، ومات بموتهم الخبير عنهم .

(١) فى ل ١٧٤ : طلب . وكذلك فى ق .

(٢) تقدم شىء من التعريف به . انظر ص : ٣١٢ من هذا الكتاب ، حاشية : ٣ .

(٣) أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل ، وكان يلقب فخر الأمان ، وهو أول من نفذ فيه حكم
الصلب . الحريرة : شعراء مصر : ١ : ١٨٦ - ١٨٧ .

وكان منهم داعى الدعاة ابن عبد القوى ، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه ، فباد ولم يسمح بإبدائها ، وبقيت تلك الخزائن مدفونة ، وتلك الدفائن مخزونة ، قد دفن دافئها ، وخزن تحت الثرى خازنها ، إلى أن يأذن الله فى الوصول إليها ، والاطلاع عليها ؛ وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام ، للاستعانة به على حماية ثغور الإسلام .

قال ابن أبى طى : وفى هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وتأمروا فيما بينهم خفية ، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذل والفقر ، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً ، وتجمعوا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم ، [وقرروا] أن يكتبوا الفرنج ، [وأن] ^(١) يثبوا بالملك الناصر . وأدخلوا معهم فى هذا الأمر ابن مصال ، وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها ، وكانوا الفرنج بذلك ، وقرروا معهم الوصول إليهم فى ذلك الزمان المقرر . فخانهم ابن مصال فيما عاهدتم عليه ، ونسكت فى المدين وكفر عنها ، وصار إلى الملك الناصر وعرفه بحيلة ماجرى .

فأحضرهم واحداً واحداً وقرروهم على هذه الحالة ، فأقروا واعترفوا ، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم ، وأخذت أموالهم . فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم فى أمرهم ، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم ، فأمر بصلبهم .

وقيل إن الذى أذاع سرهم زين الدين على الواعظ ، وطلب جميع ما لابن الداعى من العقار والمال ، فأعطاه جميع ذلك .

وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضى ، وابن عبد القوى الداعى ، والعوريس وكان [قد] ^(٢) تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشبرما كاتب السر ، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين ، ونجاح الحمقى ، ورجل منجم نصرانى أرمنى كان قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم (١٧٢ ب) النجوم ، ومُعامرة اليمنى الشاعر .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٧٤ ب .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٧٤ ب .

قلت : وبلغنى أن مُمارة إنما كان تحرّضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر ، لأن فيه تقليلاً لمسكر صلاح الدين وإبعاداً لأخيه وناصره عنه .
قال العماد في الخريدة : ووقعت اتفاقات عجيبة من جعلها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له ، يعنى فى القصيدة التى حرّض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن أولها :

* العلم مذ كان محتاج إلى العلم *

وقد تقدم ذكرها^(١) ؛ وأما البيت فهو هذا :

قد كان أول هذا الدين من رجل سعى إلى أن يدعو سيّد الأمم
قال العماد : ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه ، فأفتى فقهاء مصر بقتله ، وحرّضوا السلطان على المثلة بمثله .

قال : ولعمارة فى مصلوب بمصر يقال له طرخان وكان خرج على الصالح بن رزيك فظفر به الصالح وصلبه ، وكان يستحسن أبيات مُمارة فيه ، وهى^(٢) :

أراد علو مرتبة وقدر فأصبح فوق جذع وهو على
ومُد على صليب الجذع منه يمين^(٣) لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب دعاه إلى الفواية والضلال
قال العماد : فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره .

وقال فى البرق : ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قريش ، يعنى المرتضى .

وقال بن أبى طى : وقد كتب القاضى الفاضل إلى نور الدين كتاباً شرح فيه قضية

(١) انظر ما تقدم فى هذا الكتاب : ٥٥٣ .

(٢) انظر النكت العصرية : ٤٦ - ٤٧ .

(٣) فى النكت : يميناً .

المصلّين ، فقال بعد مطلع الكتاب ^(١) : « قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله ، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كله ، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النّجح ، وأوائل كالليلة البهيمية إلا أنها انفرجت عن الصبح ؛ فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا ، وضرب في البلاد بجراحه بعد أن كان الكفر يتم عليه تحيلا عجيبا ؛ إلا أن الله سبحانه أطلع كلّ أمرها من أوله ، وأظهر على سرها من مستقبله ؛ والملوك يأخذ في ذكر الخبر ويعرض عن ذكر الأثر » .

« لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم ، ونقض من عرى دولتهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن تعدّت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام . وكان لا يحتقر منهم حقيرا ولا يستبعد منهم شرا كبيرا ، وعيونه لمقاصدهم موكلة ، وخطراته في التحرز منهم مستعملة ، لا تخلو سنة تمر ، ولا شهر يكرّ ، من مكر يجمعون عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يبرمونها ، ومكيدة يتممونها . وكان أكثر ما يتعللون به (١١٧٣) ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة ، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى ، التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها على العظام والفظائع ، ويزينون لهم الإقدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربة الإسلام خلع المرتد الخصوص ؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم ، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عاداتهم . وكان ملك الفرنج كلما سوّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم ، والتحيل في مفاوضاتهم ، سير « جرج » كاتبه رسولا إلينا ظاهراً وإليهم باطناً ، عارضا علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا ، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا . ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردد ، وكتب إلى الفرنج تتجدد » .

(١) هو نفس الكتاب الذي ذكر الماد في الفقرة السابقة أنه كان بخط ابن قريش ، يعني المرتضى . انظر أيضاً مفرج الكروب : ١ : ٢٤٨ .

ثم قال « والمولى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقاباً مؤلماً ، ولا يعتدوا عذاباً^(١) محكماً ؛ وإذا طال لهم الاعتقال ، ولم ينجع السؤال ، أطلق سراحهم ، وخلي سبيلهم ، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة ، ولا الرقة عليهم إلا قساوة . وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه ، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه ، يذكر أن رسول مختلة ، لا رسول مجاملة ، وحامل بلية ، لا حامل هدية ؛ فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه ، فتوصل مرة بالخروج ليلاً ، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهارا ، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخذامه ، وبأمراء المصريين وأسبابهم ، وجماعة من النصارى واليهود وكلاهم وكتابهم . فدرسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم ، فصار ينقل إلينا أخبارهم ، ويرفع إلينا أحوالهم . ولما تكاثرت الأقوال ، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال ، استخبرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة ، وطائفة من هذا الجنس متمردة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرائر المناققة ، فكلاً أخذ الله بذنبه ، فمنهم من أقر طائفاً عند إحضاره ، ومنهم من أقر بعد ضربه ، فأنكشفت أمور آخر كانت مكتومة ، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة ، وتقريرات مختلفة في المراد ، متفقة في الفساد » .

ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك ، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بنى عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيراً ؛ واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له . وأما بنو رزيك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة .

ثم قال : وكانوا فيما تقدم ، والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر ، قد كاتبهم وقالوا لهم إنه بعيد والفرصة قد أمكنت ، فإذا وصل الملك الفرنجى إلى صدر (١٧٣ ب) أو إلى أيلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجوع الأرمن وعامة الاسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة .

(١) ساطعة من صميم المني في الأصل مستدركة بهامشها .

ثم قال : « ولما وصل « جرج » كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي^(١) إقطاعاتهم ، وعلى قرب من موسم غلاتهم ، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده وبقي في البلد وحده ، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة » .

ثم قال : « وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سنانا صاحب الحشيشية^(٢) بأن الدعوة واحدة والسكلمة جامعة ، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصره ؛ واستدعوا منه من يشتم على المملوك غيلة ، أو يبيت له مكيدة وحيلة ، **وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ**^(٣) وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخيه عند الفرنج » .

« ولما صبح الخبر وكان حكم الله أولى مأخذ به ، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه ، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى ، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى ، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار ؛ وشفقوا على باب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ؛ ووقع التبع لأتباعهم ، وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا ، ونودى بأن يرحل بكافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد . فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأى يمضى فيهم ، ولا رأى فوق رأى المولى ، والله سبحانه مستخار^(٤) ، وهو المستشار ، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده ، وتمضى الحدود بتحديدده . ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسر الأطماع عنها ، فإنه حباله للضلال منصوبة ، وبيعة للبدع محجوبة » . قال المؤلف لعلها محجوبة^(٥) .

(١) مستدركة في هامش الأصل .

(٢) وكان يلقب شيخ الجبل . ومقر الحشيشية عندئذ مصيف وقد ظلوا بها نحو قرن ، بين سنتي ٥٥٧ - ٦٦٠ . وسنان ، راشد الدين أبو الحسن سنان بن سليمان تولى زعامة الحشيشية سنة ٥٥٧ ، ثم سنة ٥٦٠ . انظر معجم الأنساب : ١٦١ .

(٣) سورة البروج ، آية : ٢٠ .

(٤) في الأصل : مستجار ؛ وما هنا من ل ١٧٥ ب وهو يناسب الجملة التالية .

(٥) لتناسب الأسلوب المسجوع .

« وما يطرف ^(١) به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، أطلّحَ البحث أن فيه داعية خبيثا أمره ، محتقرا شخصه ، عظيما كفره ، يسمى قديد القفاص ، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية ، قد فشت في الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعاش فيه يحملون إليه جزءا من كسبهم ، والنسوان يبعثن إليه شطرا وافيا من أموالهن ؛ ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض له ، والمهجوم ^(٢) عليه ، كُتِبَ محرّرة فيها خلع العذار ، وصرح الكفر الذي ما عنه اعتذار ، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود (وكان يدعى النسب إلى أهل القصر ، وأنه خرج منه صغيرا ونشأ على الضلالة كبيرا ^(٣) .) وبالجلة فقد (١١٧٤) كفى الإسلام أمره ، وحق به مكروه ، وصرعه كفره . »

قلت : وفي قضية مُحارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه الله تعالى ^(٤) ، ونقلته من خطّه ^(٥) :

مُحارة في الإسلام أبدى جناية وباع فيها بيعة وصليبا
وأسمى شريك الشرك في بُغض أحمد فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته تجد منه عودا في النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله ويسقى صديدا في لظى وصليبا
قلت الصليب الأول النصارى والثاني بمعنى مصلوب والثالث من الصلابة والرابع
ودك العظام ، وقيل هو الصديد أى يسقى ما يسيل من أهل النار نعوذ بالله منها .
وكان مُحارة مستشعرا من الغزو وهم أيضا منه ، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية ومن

(١) في ل ١١٧٦ : طرف ،

(٢) في ل ١١٧٦ : والهجوم .

(٣) هذه الفقرة ساقطة من ل ، وكذلك من ق .

(٤) أبو الين زيد بن الحسن بن زيد ، الكندي ، البغدادى المولد والمنشأ ، دمشق الدار والوفاة ، المقرئ النحوى الأديب . ولد سنة ٥٢٠ هـ وتوفى سنة ٦١٣ . انظر وفيات الأعيان : ١ : ١٩٦-١٩٧ والمذيل على الروضتين لأبى شامة .

(٥) انظر النكت المصرية : ٣٩٧ . وقد اختلف ترتيب هذه القصيدة في نسخة الأصل ، فتبادل البيتان الثانى والثالث مكانهما خطأ بدليل تعليق أبى شامة على معنى كلمة « صليبا » . والترتيب المذكور هنا من ل ، ومن النكت ، وتتفق معهما النسخة ق .

انتفع بها واختل أمره بعدها ، فلم تصف القلوب بعضها لبعض ، وصار يظهر في فلتات لسانه ،
في نظمه ونثره ، ما يقتضى التحرز منه وإبعاده ، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فسادا في نيته ،
وإن مدحهم تكلف ذلك ، وصرح وعرض فيه بما في ضميره .
وقد قال في كتاب الوزراء المصرية : ذكر الله آياتهم بحمد لا يكلّ نشاطه ،
ولا يطوى بساطه ، فقد وجدت فقدم ، وهنت بعدهم .

وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب ^(١) :

وكان لى فى ملوك النيل قبلكم مكانة عرفتها العرب والمجم
وكان بينى وبين القوم ملحمة فى حربها ألسن الأديان تحتصم
وما تزال إلى دارى عوارفهم يسعى إلى بها الإنعام والكرم
تركت قصدك لما قيل إنك لا تجود إلا على من مسه العدم
ولست بالرجل المجهول موضعه ولا لنزر من الإحسان أغنم
ولا إلى صدقات المال أطلبها . ولا عمى نال أعضائى ولا صم
ولمّا أنا ضيف للملوك ، ولى دون الضيوف لسان ناطق وفم
وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله :

قررت لى أبناء رزىك زرقا كان فى عصرهم مسئى مهنا
وأنت بعدهم ملوك فسنوا فى ما كان صالح القوم سنا ^(٢)
ورعوى ، لما اقتداء بماض أو لمضى ، فكلمهم بى يعنى
وله فيه من أخرى :

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها فلا تشبعوا منها ونحن جياع
إذا لم تزيدونا ^(٣) فكونوا كن مضى فى الناس أخبار لم وسماع
وليس على مرّ العظماء إقامة فهل فى ضروع المكرمات رضاع

(١) تجد بعض هذه الأبيات فى النكت المصرية : ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(٢) هو الصالح طلائع بن رزىك وزير الفاطميين .

(٣) فى ل ١٧٦ ب : تزيدونا .

وقال في قصيدة مدح بها نقي الدين :

هل تأذنون لمن أراد عتابكم
أم ليس في إعتابكم من مطمع
مازال قبل اليوم غير مضيع
أكشف قذاع مذلة وتضرع
ورجوت نفعك بالشفاعة عنده
فسمحت لي بشفاعة لم تنفع
وإذا نطاق الرزق ضاق بمجالة
أمسى مجال النطق غير موسع
وقال أيضا (١) :

تيممت (٢) مصراً أطلب الجاه والغنى
وزرت ملوك النيل أرتاد (٣) نيلهم
وفزت بألف من عطية فائز
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى
وأوحى إلى سمعي ودائع شعره
وليست أيادي شاور بدميمة
ملوك رَعَوْا لي حرمة صار نبتها
مذاهبهم في الجود مذهب سنّة
فقل لصالح الدين، والعدل شأنه
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر
وكم في ضيوف الباب ممن لسانه
فيأراعي الإسلام، كيف تركتنا (٤)
ففلتتما في ظل عيش ممنع
فأحمد مرتادي وأخصب مربعي
مواهبه للضع لا للتصنع
بما زاد عن مرمي رجائي، ومطعمي
فخيره مني بأكرم مودع
ولا عهدا عندي بعهد مضيع
هشياً رعته النائبات وما رعى
وإن خالفوني باعتقاد (٥) التشيع
من الحاكم (٥) المصنعي إلى فادعي
أقول لصدرى كلما ضاق : وسع
إذا قطعوه لا يقوم بأصبعي
فريقتي ضياع من عرايا وجوع

(١) في النكت المصرية بعض هذه القصيدة (س : ٢٨٧ - ٢٩١) ، وعنوانها هناك : شكايه المتظلم ونسكايه المتألم ، وقد كتب بها عمارة إلى صلاح الدين ولم ينشدها .
(٢) في النكت : تيممت . وهو أولى ، لأن هذا البيت ورد هناك بعد خمسة أخرى فيه حديث متألم عن ماضيه باليمن واضطراره إلى الخروج منها .
(٣) في النكت : إذ زاد نيلهم . والمذكور هنا أكثر مناسبة .
(٤) في النكت : في اعتقاد . (٥) في النكت : من الحكم .
(٦) في النكت . تركتها . وهو خطأ .

دعوناك من قرب وبعد، فهب لنا
وقال أيضا (٢) :

أسنى على زمن الإمام العاضد
جالست من وزرائه وصحبت من (٣)
أسف العقيم على فراق الواحد
أمرائه أهل الثناء الخالد
لحنى على حجرات قصر كإذخلت
وعلى انفرادك من عساكر كرك الذى
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم
فعمى اللى إلى أن ترد إليكم
وقال أيضا :

قست رافة الدنيا، فلا الدهر عاطف
عفا الله عن آرائه كل فترة
وساعه فى قطع رزق بفضله
ألا هل له عطف على، فإننى
عبد الرحيم هو القاضى الفاضل رحمه الله .

وبلغنى أن عماره لما مروا به ليُصلب عبروا به على جهة دار الفاضل ، فطلب الاجتماع
به ، فقيل ليس إليه طريق . فقال :

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص هو العجب
قال : وهذه القصيدة تحقق ما رُئى به من الاجتماع على مكانة الفرنج
والخوض فى فساد الدولة بل الملة ، وتوضح عذر السلطان فى قتله وقتل من شاركه
فى ذلك ، وهى :

(٤) فى النكت : فالبازي . وهو خطأ .
(٥) فى النكت العصرية : ٢١٤ أربعة أبيات فقط منها البيتان الأولان الواردان هنا .
(٦) فى النكت : فى .

ورميت يادهر كيف الجحد بالشال
 سميت في منهج الرأي العثور، فإن^(١)
 جدعت مارنك الأقفى، فأنفك لا
 هدمت قاعدة المعروف عن عجل
 لهفي ولهف بنى الآمال فاطمة
 قدمت مصر فأولتني خلائقها
 قوم عرفت بهم كسب الألوف، ومن
 وكنت من وزراء الدست حيث سما
 ونلت من عطاء الجيش تكملة
 يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة
 بالله زُر ساحة القصرين، وابك معى
 وقل لأهلها : والله ما التجمت
 ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة
 هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما
 وقد حصلتم عليها واسم جدكم
 سررت بالقصر والأركان خالية
 فلت عنها بوجهى خوف منتقد
 أسبأت من أسف دمعى غداة خلت
 أبكى على مآثرات من مكارمكم
 دار الضيافة كانت أنس وافدكم
 وفطرة الصوم إن أصيغت مكارمكم
 وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
 وموسم كان فى كسر الخليج لكم

وجيده بعد حلى الحسن بالمعل
 قدرت من عثرات البغى فاستقل
 ينفك ما بين نقص الشين والخجل
 سقيت مهلاً، أما تمشى على مهل !
 على فجيتنا فى أكرم الدول
 من المكارم ما أربى على الأمل
 كما لها أنها جاءت ولم أسل
 رأس الحصان بهاديه على السكفل
 وخلة حرس من عارض الخلل
 لك الملامة إن قصرت فى عدلى
 عليهما ، لا على صفيين والجل
 فيكم قروحي ، ولا جرحى بمنديل
 فى نسل آل أمير المؤمنين على
 بئسكم بين حكم السبى والنبل
 محمد ، وأبيكم ، غير منتقل
 من الوفود وكانت قبلة القبل
 من الأعادى ، ووجه الود لم يمل
 رحابكم وغدت مهجورة السبل
 حال الزمان عليها وهى لم تحل
 واليوم أوحش من رسم ومن طلل
 تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
 ورث منها جديد عنهم وبلى
 يأتى تجملكم فيه على الجمل

(١) فى ل ١٧٧ أ ، وكذلك فى ق : فن .

وأول العام والعيدان كان لكم : فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في عيد الغدير لما يهتز ما بين قصر يكم من الأسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية مثل العرائس في حلي وفي حلل
ولاحتمتم قرى الإضياف من سعة الـ أطباق إلّا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببرّ أهل ملتكم حتى عمتم به الأنصى من اللل
كانت رواتبكم للذمتين وللّه (م) يف المقيم وللطاري من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم لمن تصدر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا لمقلها مذكم، وأضحت بكم محلوله العقل

وقال العماد في الخريدة^(١) : أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل كان داعي الدعاة
بمصر للأدعياء ، وقاضى القضاة لأولئك الأشقياء ، يلقبونه بفخر الأماء ، وهو عندهم
في الحلة العليا (١٧٥ ب) والمرتبة الشماء ، والمنزلة التي في السماء ، حتى انكدرت نجومهم ،
وتغيرت رسومهم ، وأقيم قاعدتهم ، وعضد عاضدهم ، وأخلت منهم مصرهم ، وأجلى عنهم
قصرهم ؛ فترك ابن كامل ناقص الذب عنهم ، والشدة منهم ، فالأقوما على البيعة
لبعض أولاد العاضد ، ليبلغوا به ما تحيلوه من المقاصد ، وسولوه من المسكايد ؛ فأثمرت
بجشهم الجذوع ، وأفقرت من جسومهم الربوع ، وأحكمت في حلومهم النسوع ، وهذا أول
من ضمه حبل الصلب ، وأمه فافرة الصلب ؛ وهذا صنع الله فيمن ألد ، وكفر النعمة
وجحد ؛ وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخسمائة . سمعت الملك الناصر صلاح الدين
يذكره ، وقد ذكره عنده بالفضل والأدب ، ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رقاء ،
وأنشدهما الملك الناصر وذكر أنه كان ينكرها :

يارافيا خرق كل ثوب ويا رشا حبه اعتقادی
عسى بكف الوصال ترفو ما مزق المهجر من فؤادی

(١) قسم شعراء مصر : ١ : ١٨٦ - ١٨٧ .

فصل

في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره

قال العماد : وقد أوردت شعر عمارة بن أبي الحسن اليميني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، ونقلت إلى هذا الكتاب ، يعني كتاب البرق الشامي ، لمعاً من ذلك . فمن ذلك ما أنشدنيّه نجم الدين أبو محمد بن مصال ^(١) :

لو أن قلبي يوم كاظمة معي لملكته وكظمت غيظ الأدمع
قال العماد : إنما أنشدني فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم .
قلب كفئك من الصباية أنه لبي نداء الظاعنين وما دعي
ومن الظنون الفاسدات توهمي بمد اليقين بقاءه في أضلعي
ما القلب أول غادر فألومسه هي شيمة الأيام ، مُدْخلت ، معي ^(٢)
قال : وأنشدني لعمارة أيضا :

ملك إذا قابلت بشر جبينه فارقت والبشر فوق جبينى
وإذا لثمت يمينه وخرجت من أبوابه ثم الملوك يمينى
قال : وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن ، منقذ يقول ^(٣) :
لى فى هوى ^(٤) الرشأ العذرى أعمار لم يبق لى مذ أقر الدمع إنكار
لى فى القدود ، وفى لثم الحدود ، وفى ضم النهود ، لبانات وأوطار
هذا اختياري فوافق إن رضيت به أولا ، فدعنى وما أهوى وأختار
لمنى جزافا وسامحنى مصارفة فالناس فى درجات الحب أطوار
وخل عذلى ، فى دارى ودائرتى من المها دُرّة قلبي لها دار

(١) انظر أيضا كتاب النكت المصرية : ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٢) يقابل هذا البيت مع السابق له مكانهما فى النكت المصرية .

(٣) فى قصيدة يمدح بها شمس الدولة أبا الناصر صلاح الدين ، وهى طويلة . انظر النكت :

٢٦٤ - ٢٦٧ .

(٤) فى النكت : ما عن هوى ...

قلت ويُروى :

* وغرَّ غيبي في أسرى ودأرتي *

والأبيات العينية من قصيدة في مدح تقي الدين ، والنوتية في مدح نجم الدين أيوب ،
والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب .

(١١٧٦) وكان عمارة هذا عربيا فقيها أدبيا ، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله
بالبين ثم بمصر^(١) ، فذكر أنه أقام بزيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله
عنه . قل^(٢) : ولي في الفرائض مصنف يقرأ بالبين .

وفي^(٣) سنة تسع وثلاثين زارني والدي ، وخمسة من إخواني ، في زبيد ، فأنشدته شيئا
من شعري فاستحسنه ، ثم قال تعلم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بدم
الناس ؛ واستحلفني ألا أهجو مسلما بيت شعر ، فحلفت له على ذلك ، ولطف الله بي
فلم أهج أحدا ما عدا إنسانا هجاني بحضرة الملك الصالح ، يعني ابن رزيك ، يبيت شعر
فأقسم الصالح على أن أحبيه ففعلت متأولا قول الله عز وجل : « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ
فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »^(٤) ، وقوله تعالى : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ
بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ »^(٥) . قال ولم يكن شيء غير هذا .

وحجبت^(٦) مع الملكة أم فاتك ملك زبيد ، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع
ما يتناولوه من حاج اليمين برا وبحرا ، وبجميع خفارات الطريق ، فذكر أنه حصل له وجاهة
عندها فانتفع بها حتى أئزى وكثر ماله وجاهه . ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من
اليمين وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

قال^(٧) : وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته^(٨) ، وولى الحرمين

(١) هو كتاب النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية .

(٢) في النكت : ٢٣ . (٣) النكت : ٢١ .

(٤) سورة الشورى : آية : ٤١ . (٥) سورة البقرة : آية : ١٩٤ .

(٦) النكت : ٢٧ .

(٧) في النكت : ٣١ - ٣٢ .

(٨) وكان قد تولى أمرها سنة ٥٢٧ ، وتولاه ابنه بعده حتى سنة ٥٥٦ . وقد بدأ حكم هذه الأسرة
سنة ٣٥٦ واستمر إلى سنة ٥٩٣ . انظر معجم الأنساب : ٣٠ - ٣١ .

ولده قاسم بن هاشم ، فالزمني السفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المصرية ، فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمسين ، والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظاهر ، والوزير له الملك الصالح طلائع ابن رزيك . فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما^(١) :

الحمد للعيس ^(٢) بعد العزم والمهم	حمدا يقوم بما أولت من النعم
لا أجد الحق عندى للركاب يد	تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قرّبن بعد مزار العز من نظرى	حتى رأيت إمام العصر من أم
ورُحن من كعبة البطحاء والحرم	وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أنى بعد زورته	ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها	بين النقيضين من عفو ومن نعم
ولالإمامة أنوار مقدسة	تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تضي لنا	على الخفيين من حكم ومن حكم
وللكارم أعلام تعلمنا	مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلا ألسن تنثي محامدها	على الحميد من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذائح ترفعها	يد الرفيعين من مجد ومن هم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا	فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد جى الدين والدنيا وأهلها	وزيره الصالح الفراج للنعم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله	إلا يد الصنعتين ^(٣) السيف والقلم
وجوده أوجد الأيام ما اقترحت	وجوده أعدم الشاكين للعدم
(١٧٦ب) قد ملكته العوالى رق مملكة	تسير أنف الثريا عزّة الشم
أرى مقاما عظيم الشأن أوهنى	في يقظتى أنها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أمل	ولا ترقى إليه رغبة الميم

(١) انظر النكت : ٣٢-٣٤ .

(٢) في الأصل : للعيس ، وهو خطأ .

(٣) في النكت : الصنعتين .

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلى
 ترى الوزارة فيـه وهى باذلة عند الخلافة نصحا غير متم
 عواطف أعلمتنا أن بينهما قرابة من جميل الرأي لا الرحم
 خليفة ووزير مدد عدلها ظلاً على مفرق الإسلام والأمم
 زيادة النيل نقص عند فيضهما فما عسى يتماطى منة الدير
 قال^(١) : وعهدى بالصالح وهو يستعيد بها في حال النشيد مراراً ، والأستاذون والأمراء
 والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب . ثم أفيضت على خلع من ثياب الخلافة
 مذهبة ، ودفع إلى الصالح خمسمائة دينار ؛ وإذا بمض الأستاذين قد خرج لي من عند
 السيدة بنت الإمام الحافظ بخسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معي إلى منزلي وأطلق^(٢)
 لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي ، وتهادتنى أمراء الدولة إلى منازلتهم للولائم ،
 واستحضرنى الصالح للمجالسة ، ونظمنى في سلك أهل المؤانسة ، واثالثت على صلاته ،
 وغمرنى برّه .

ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الحباب^(٣) ،
 والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال^(٤) صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح محمود بن
 قادوس^(٥) ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير^(٦) ، وغيرهم . وما من هذه الحلقة أحد إلا
 ويضرب في الفضائل النفسانية ، والرياسة الإنسانية ، بأوفر نصيب . وما زلت أأخذو على
 طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم . وقلت :

(١) في النكت المصرية : ٣٤ .

(٢) في ل ١٧٨ ب ، وفي ق : وأطلقت .

(٣) عبد العزيز بن الحسين الأغلبى السعدى التميمي ، كان متعاوناً مع يوسف بن الخلال في ديوان
 الإنشاء . فوات الوفيات ؛ الخريدة : شعراء مصر : أول : -

(٤) أستاذ القاضى الفاضل ، وهو صاحب ديوان الإنشاء في مصر أواخر العهد الفاطمى . توفي سنة ٥٦٦ .
 وفيات الأعيان : ج : ٢ ؛ شذرات الذهب : ٤ : ٢١٩ .

(٥) من كتاب الإنشاء ؛ توفي سنة ٥٥١ هـ ؛ وكان يسمى ذا البلاغتين . الخريدة : شعراء مصر :
 ١ : ٢٢٦ ، ٢٣٤ .

(٦) كان كأكخيه ، الرشيد أحمد بن على ، شاعراً مصرياً ؛ توفي قبل أخيه بسنة ، وكان أشعر من
 الرشيد ؛ بينما كان الرشيد أعلم منه . وفيات الأعيان : ج : ١ ؛ الخريدة : شعراء مصر : ١ .

ليالى بالفسطاط من شاطئ مصر سقى عهدك الماضى عهد من القطر
.. ليالى هي العمر السعيد ، وكل ما مضى في سواها لا يمدّ من العمر
أفادتني الأقدار فيها موالياً صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على ألا تردّ إرادتي ولو ستمهم نثر السكواكب في حجري
وله في المصالح من قصيدة :

ولو لم يكن^(١) أدري بما جهل الوري من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان منا قات قوس فيبيننا فراسخ من إجلاله ومراخل
قال^(٢) وأشدت الصالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها :

دعوا كل برق شتم غير بارق يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحى فكل من على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى فتجنوا على مجد المقام وغره
ولكن سلوا منه العلا تظفروا بها فكل امرئ يرجى على قدر قدره

قال^(٣) : ولما جلس شاور في دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولغيف الناس
إلا الأفل يتالون من بنى رزيك وضرغام نائب البساب ويحيى بن الخياط الأسفهلار ،
فأنشدته^(٤) :

صحت بدو تلك الأيام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
ومنها :

زالت ليالى بنى رزيك وانصرمت والحد والدم فيها غير منصرم
كان صالحهم يوماً وعاد لهم^(٥) في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

(١) في الأصل : ولو لم أكن .. والمثبت هنا من ل ١١٧٩ .
(٢) في النكت : ٣٥ .
(٣) في النكت : ٦٩ .
(٤) انظر للنكت المصرية : ٦٦ - ٧٠ .
(٥) المقصود الصالح طلائع بن رزيك وابنه العادل وقد وليا الوزارة للفاطمييين .

كنا نظنّ ، وبعض الظنّ مائة بأن ذلك جمع غـير منهمز
فذا وقعت وقوع النسر خانهم من كان مجتمعا من ذلك الرخم
ولم يكونوا عدوا ذلّ جانبه وإنما غرقوا في سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي عداك^(١) سوى تعظيم شأنك ، فاعذرني ولا تلمّ
ولو شكرت ليااليهم محافظة لعهدا لم يكن بالمهد من قدم
ولو فتحت في يوما بدمهم لم يرض فضلك إلا أن يسدّ في
والله يأمر بالإحسان عارفة منه ، وينهى عن الفحشاء في الكلم
قال : فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزبك .

قلت : وشعر عماره كثير حسن ، وعندى من قوله : « الحمد للعيس » ، وإن كانت
القصيدة فائقة ، نكرة عظيمة ، فإنه أقام ذلك مقام قولنا « الحمد لله » ؛ ولا ينبغي أن يفعل
ذلك مع غير الله تعالى عزّ وجلّ ، فله الحمد وله الشكر ، فهذا اللفظ كالمتمعين لجملة الربوبية
المقدّسة ، وعلى ذلك اطراد^(٢) استعمال السلف والخلف رضى الله عنهم .

فصل

في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

قال العماد : وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم
عيد الفطر ، واحتفلنا لهذا الأمر وغلقت محال دمشق أيّاما .
قال : ونظمت للهنا بالعيد والطهور قصيدة منها :

عيدان : فطر وطهر فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه حقا هناء وأجر
وفيها بالتهاني رسم لنا مستمر

(١) في الأصل : علاك . والمثبت هنا من ل ١٧٩ ومس النكت .
(٢) في ل ١٧٩ ، وفي ق . اطراد .

طهارة طاب منها أصل وفرع وذكر
 نَجَلْ عَلَى الطهر نام زكا له منك نجر
 محمود الملك العا دل الكريم الأغرة
 وبابنه الملك الصا لح العيون تفر
 مولى به اشتد للدي ن والشرية أزر
 نور تجلى عينانا مادونه اليوم ستر
 أضحت مساعيك غرا كما أياديك غزر
 وكل قصدك رشد وكل فعلك بر
 وإن حبك دين وإن بغضك كفر
 لنا يمينك يمن كما بيسراك يسر
 وللهوالبين نفع وللمعادين ضر
 وللسماء سحاب وسحب كفيفك عشر
 ناديك بالرغد رحب نذاك للسوفد بحر
 للبحر مدّ وجزر وما لجودك جزر
 عدل عميم وجود غمر ويسر وبشر
 وفي العطية حلو وفي الحمية مر
 قد استوى منك تقوى ال له سر وجهـ
 تقاك والملك عند القياس عقد ونحو (١٧٧ ب)
 يا أعظم الناس قدرا وهل لغيرك قدر
 وسأهرا حين ناموا وقأما حين قروا
 ما اعتدت إلا وفاء وعادة القوم غدر
 وفعلك الدهر غزو للمشركين وقهر
 وفعل غيرك ظلم للمسلمين وقسر
 يفتر من كل ثغر إلى ابتسامك ثغر

روم به وفرنج في شفعمهم لك وتر
 حرب عوان وفتح على مرادك بكر
 بنوا الأصافر^(١) من خش ية انتقامك صفر
 لم يبق للكفر ظفر لا كان للكفر ظفر
 وما دجى ليل خطب إلا وعزمك فجر
 أصبحت بالفرز صبا وعنه مالك صبر
 لكسر كل يتيم إسعاف برك جبر
 في كل قلب حسود من حر بأسك جمر
 تملّ تطهير مَلِكٍ له الملوك تخر
 يزهى سرير وتاج به ودست وصدر
 وكيف يعمل للطا هر المطهر طهر
 هذا الطهور ظهور على الزمان وأمر
 وذا الختان ختام بمسكه طاب نشر
 رزقت عمرا طويلا ما طال للدهر عمر

قال : وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد ، محفوا من الله
 بالإسعاد ، مكتنفا من السماء والأرض بالأجناد ، والقدر يقول له هذا آخر الأعياد .
 ووقف في الميدان الأخضر الشمالى لطنع الحلق ، ورعى القبق^(٢) ، وكان قد ضرب
 خيمته^(٣) في الميدان القبلى الأخضر ، وأمر بوضع المخبر ؛ وخطب له القاضي شمس الدين
 محمد بن القزاش قاضى العسكر ، بعد أن صلى به وذكر ، وعاد إلى القلعة ، طالع البهجة

(١) جم الفرنج .

(٢) لعبة القبق نوع من التدريب على الرماية ، وهى من ألعاب الفروسية ، وطريقتها نصب صار طويل
 من الخشب في رأسه شكل قرعة (وهو أصل معنى قبق) بمثابة الهدف ويوضع به حمام ، ثم يأتي اللاعبون
 على ظهور الخيل يرمون القبق ، القرعة ، بالشباب ، وفائزهم من يطير الحمام . وقد يستبدل بالقرعة خلة
 من الخشب . انظر المواعظ والاعتبار : ٢ : ١١١ ؛ وكذلك : Dozy : Supp. Dict. Ar. .
 (٣) في ل ، وكذلك في ق : وكان مسجداً صلاته .

بهيج الطلعة وأنهب سماءه [العام] ^(١) على رسم الأتراك ، وأكابر الأملاك . ثم حضرنا على خوانه الخاص ، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص ؛ وما أوضح بشره ، وأضوع نشره ، وأضحك سنه ، وأيرك يمنه .

وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكر وركب وجمال الموكب ، وكان الفلك بنيره جار ، والطود الثابت يمر ^(٢) السحاب في وقار ؛ وكأنه القمر في حالته ، والقدر في جلالته ، والهدر في دائرته ، سائر في سيارته ؛ ودخل الميدان والعطاء يسايرونه ، والفهماء يحاورونه ، وفيهم همهم الدّين مودود ، وهو في الأكابر ممدود ، وكان قديما في أول دولته وإلى حلب ، وقد جرب الدهر بحنكته ولأشطره حلب ، فقال لنور الدّين في كلامه ، عظة لمن يغتر بأيامه ، هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدّين قل هل نكون بعد شهر ، فإنّ السنة بعيدة ! فجرى على منطقتها ما جرى به القضاء السابق ، فإنّ نور الدّين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام .

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة (١٧٨) مع خواصه البررة ، فاعترضه في حاله أمير آخر [اسمه] ^(٣) برتقش وقال له باش ، فأحدث له الفيظ والاستيحاش ، واغتاظ على خلاف مذهبه التكريم ، وخلقه الخليم ، فزجره دزبره ، ونهاه ونهره ، وساق ودخل القلعة ونزل ، واحتجب واعتزل ؛ فبقى أسبوعا في منزله ، مشغولا بنزله ، مغلوبا عن عاجله بحديث آجله ، والناس من الختان ، لاهون بأوطارهم في الأوطان ، فهذا يروح بجوده ، وذاك يجود بروحه ؛ فما انتهت تلك الأفراح إلا بالأتراح وما صلح الملك بعده إلا بملك الصلاح .

قال : واتصل مرض نور الدّين وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع ، وكان مهيبا فارتجع ؛ وانتقل حادى عشر شوال يوم الأربعاء من صريع الفناء ، إلى مرتع البقاء . ولقد كان من أولياء الله المؤمنين ، وعباده الصالحين ، وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٠ .

(٢) في ل ١٨٠ ، وكذلك في ق : بمرور .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٠ .

وكانت له صُفَّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال ؛ فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصُفَّة بيتا من الأخشاب ، مأمون الاضطراب ، فهو بيت فيه ويصبح ، ويخلو بعبادته ولا يبرح ؛ فدفن في ذلك البيت الذي اتخذهُ حِمَى من الحمام ، وأذن بفاؤه لبانيه بالانهدام .

قال العماد : وقلت في ذلك :

عجبت من الموت ، كيف اهتدى ^(١) إلى مَلِك في سبج — يا مَلِك !
وكيف نوى الفلك المستدير رُ في الأرض ، والأرض وسط الفلك !
وله فيه رحمهما الله تعالى :

ياملكا أيامه لم تزل بفضلـه فاضلة فاخرة
غاصت بحار الجود مذغيت أملك الفائضة الزاخرة
ملكك دنياك وخلقتها وسرت حتى تملك الآخرة

قال ابن شداد ^(٢) . وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها . ولقد حكى لي صلاح الدين قال : كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ، ونلقى عسكره بمصاف يرده ، إذا تحقق قصده ؛ قال : وكنت وحدي أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك . ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله تعالى ، ورضى عنه .

قال ابن الأثير ^(٣) : وكان نور الدين قد شرع بتجهيز السير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر . يطلب العساكر لتركها بالشام لمنعه من الفرنج ، ليسير هو بعساكره إلى مصر . وكان المانع لصلاح الدين من الغزو ، (١٧٨ ب) الخوف من نور الدين ،

(١) ساقطة من ل ١٨٠ .

(٢) في النوادر السلطانية : ٣٧ ؛ وهو اقتباس حرفي .

(٣) في الأتابكة : ٢٩٢ - ٢٩٤ ؛ وهو اقتباس حرفي .

فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه ؛ فكان يحتفى بهم عليه ، ولا يؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدد في غزوهم بجده وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو ، وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه ، فأتاه أمر الله الذي لا يرد .

قلت : ولو علم نور الدين ماذا ذخّر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدين من بعده لقرّت عينه ، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها ، رحمهما الله تعالى ^(١) .

قال : وحكى لى طبيب بدمشق ، يعرف بالرحبي ، وهو من حدّاق الأطباء ، قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك ، فلا يكاد يسمع صوته ، وكان يخلو فيه للتعبّد في أكثر أوقانه ، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه . فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلت : كان ينبغي أن لا يؤخّر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد ، فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح فله أثر في هذا المرض . وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء ، وعظم الداء ، ومات عن قريب رضى الله عنه :

قال ابن الأثير ^(٢) : وكان أسمر طويل القامة ، ليس له لحية إلا في حنكه . وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو العينين . وكان قد اتسع ملكه جدا فلك الموصل وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام والديار المصرية واليمن ، وخطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وطبّق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله . ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر . رحمة الله تعالى عليه .

قال الحافظ أبو القاسم ، بعد ما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدمة مفرقة ومجموعة في هذا الكتاب : هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين ، والرأي الثاقب الرصين ،

(١) وهذا القول من أبي شامة محاولة للدفاع عن مواقف صلاح الدين ، ذلك أن ابن الأثير لا يرضى عن مثل هذه المواقف التي وقفها من نور الدين ثم من بعده ، من ولده الملك الصالح اسماعيل ، ويعتبر صلاح الدين وأسرته خارجين على بيت نور الدين جاحدين لفضله .

(٢) الاقتباس من نفس المصدر والصفحات .

والاقتداء بسيرة السلف الماضين ، والتشبه بالعلماء والصالحين ؛ . والاقتداء بسيرة من سلف منهم^(١) في حسن سمتهم ، والاتساع لهم في حفظ حالهم ووقتهم ، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه ؛ وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه ، حرصا منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث ، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثا كما جاء في الحديث . فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره ، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره ؛ يحب الصالحين ويؤاخيهم ، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم . وإذا احتلم بماليكه أعتقهم ، وزوج ذكرانهم بإنائهم ورزقهم ؛ ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته ، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكايته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل ، قابله بإسقاط المنزلة والعزل . فلما جمع الله له من شريف الخصال ، تيسر (١١٧٩) له جميع ما يقصده من الأعمال ، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع ، ومكّن له في البلدان والبقاع .

ثم قال بعد كلام كثير : ومناقبه خطيرة ، ومادحه كثيرة ؛ ومدحه جماعة من الشعراء فأكثروا ، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا ؛ وهو قليل الابتهاج بالشعر ، زيادة في تواضعه لعلو القدر .

ومولده على ما ذكر لي كاتبه أبو اليسر شاكر بن عبد الله ، وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وتوفي يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضى الله عنه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله .

قلت : وفي هذه المدرسة يقول العرقلة^(٢) :

ومدرسة سيدرس كل شيء وتبقى في حى علم ونبسك
تضوع ذكرها شرقا وغربا بتور الدين محمود بن زكى

(١) في ل ١١٨١ ، وفي ق : والاقتفاء لسيرة من سلف .

(٢) انظر الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٢١٨ ؛ حيث تجد البيت الأولين فقط .

يقول ، وقوله حقٌ وصديقٌ بغير كنايةٍ وبغير شكٍّ
دمشق في المدائن بيت مُلكى وهذى في المدارس بيت ملكى
ولما اشتهر (به)^(١) من قلة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزايد الشعراء ، وهى طريقة
عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء ، قال يحيى بن محمد الوهراني في مقامة له ، وقد سئل في
بغداد عن نور الدين : « هو سهم للدولة شديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، وملك
مجاهد ، تساعد الأفلاك ، وتمضده الجيوش والأملاك ، غير أنه عرف بالمرعى الويسل ،
لابن السبيل ، وبالمحل الجديد ، للشاعر الأديب ، فما يُرزى ولا يعزى ، ولا لشاعر عنده
من نعمة تجزى » .

وإيَّاه عنى أسامة ابن منقذ بقوله^(٢) :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا له ، فكلُّ على الخيرات منكش
أيَّامه مثل شهر الصوم : طاهرة من المعاصي ، وفيها الجوع والعطش
قلت : رحمه الله ، ما كان يبذل أموال المسلمين إلَّا في الجهاد ، وما يعود نفعه على
العباد ؛ وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيرز ، وهو من سادات التابعين بالشام ،
قال يعقوب بن سفيان الحافظ ، حدَّثنا ضمرة الشيباني ، قال : كان ابن الديلمي من أنصر
الناس لأخوانه ، فذكر ابن محيرز في مجلسه ، فقال : رجل كان بخيلا . فنفض ابن
الديلمي وقال : كان جوادا حيث يحب الله وبخيلا حيث يحبون .
وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين
رحمه الله تعالى :

في كل عام للبرية ليلة	فيها تشب النار بالإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى	ناران نار قرى ونار جهاد
أبدأ يصرفها نداء وبأسه	فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيد منة	أبهى من الأطواق في الأحياد

(١) ساقطة من ل ١٨١ ، وكذلك من ق .

(٢) الحريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٥١٦ .

أعلى الملوك يدا ، وأمنعهم حى وأمدم كفاً يـذل تلاد
يمطى الجزيل من النوال تبرعا من غير مسألة ولا ميعاد
(١٧٩ب) لا زال فى سعد وملك دائم مادامت الدنيا بغير نقاد

وقد تقدّم من شعر ابن منير وابن القيسرانى والعماد الكاتب وغيرهم من مدح
نور الدين بالكرم والجود ما قليل منه يردّ قول الوهرانى وابن منقذ^(١) . على أن ابن منقذ
قد ردّدنا شعره لشعره كما تراه ، وإتّما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله تعالى فى وصف قوم
« فَإِنْ أَغْطَوْا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ »^(٢)
وما كلّ وقت ينفق العطاء ويفعل الله ما يشاء .

فصل

قال ابن الأثير^(٣) : لما توفى نور الدين جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل فى الملك
وحلف له ولم يبلغ الحلم ، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق ، وأقام بها ، وأطاعه الناس
فى سائر بلاد الشام ، وصالح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها .
وتولّى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم^(٤) .

قال العماد : وأخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل ، وقد أبدى
الحزن والعويل ، وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجيب ، حافر مما لجأه ولجعه من
الريب ، وأجلسوه فى الإيوان الشمالى من الدّست^(٥) والتخت^(٦) الباقى من عهد تاج

(١) انظر ما تقدم فى الصفحات : ٤٤ - ٥٨ .

(٢) سورة التوبة : آية : ٥٨ .

(٣) فى الأنابهة : ٢٩٤ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٤) من أكابر أمراء نور الدين ، تولى الوصاية على ابنه الملك الصالح اسماعيل ، وقتل فى معركة بين
حجاج الشام وحجاج العراق ، سنة ٥٨٣ هـ ، عند عرفات عند دق الطبل له باعتباره أميراً للحج الشامى مما
أغضب أمير الحاج العراقيين . وسيأتى تفصيل هذا فى موضعه . انظر أيضاً : النجوم الزاهرة : ٦ : ١٠٥ .

(٥) الدست : صدر المجلس ، وهى تعريب لكلمة دشت الفارسية ، بمعنى الصحراء فى الأصل ،
ولها معان أخرى . انظر : Dozy : Suppl. Dict. Ar. .

(٦) سرير الملك .

الدولة تنش^(١) ، فاستوحى كل قلب حزنه واستوحش ، فوقف الناس يضطرمون ويضطربون ، ويلتهمون ويلتهمون^(٢) . ولما كفن بحلة الكرامة ، ودفن في روضة بابها إلى باب رضوان من دار القامة ، وقضوا الجزع ، وقوضوا الفزع ، وغيبوا الدمة ، وأحضرُوا الرتبة ، حضر القاضي كمال الدين ، وشمس الدين بن المقدم ، وجمال الدولة ربحان ، وهو أكبر الخدم ، والعدل^(٣) أبو صالح بن المعجى أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة ، وعزائمهم متعاقدة ، وأن ابن المقدم مقدم المسكر ، وإليه المرجع والمصدر .

قال : وأنشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تمرزته بنور الدين ، ترجمته : « اسماعيل بن محمود » وفيه :

« أطل الله بقاء سيدنا الملك الناصر وعظم أجرا وأجره في والدنا الملك العادل ندب الشام ، بل الإسلام ، حافظ ثغوره ، وملاحظ أموره ، ومقدم الجهاد مقتنى فضيلته ، ومؤدى فريضته ، ومحبي سنته ؛ وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريه ، على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره . وما ههنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر ، إلا أمر الفرنج خذلهم الله ؛ وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا مثل هذا الحادث الجلل ، والصرف الكارث المذهل ؛ فقد ادخره لكفايات التوائب ، وأعدده لحسم أدواء المضلات اللوازم ، وأمله ليومه ولغدده ، ورجاه لنفسه ولولده ، ومكّنه قوة لمعضده . فما فقد رحمه الله تعالى إلا صورة والمعنى باق ، والله تعالى حافظ لبيته واق ؛ وهل غيره ، دام سموه ، من مؤازر ، وهل سوى السيد (١١٨٠) الأجل الناصر من ناصر ؛ وقد عرفناه المقترح ، ليروض برأيه من الأمر ما جمع . والأثم شغل الكفار ، عن هذه الديار ، بما كان عازما عليه من قصدم والنكاية فيهم على البدار ؛ ويجرى على العادة الحسنى في إحياء ذكر الوالد (هناك)^(٤) بتجديد ذكرنا ، راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا » .

(١) تقدم شيء من التعريف به في ص : ٦٠ في المتن وفي التعليقات .

(٢) في ل ١٨٢ : يلتهمون ، وهي كذلك في .

(٣) العدل اصطلاح يلقب به من يثق به القاضي ويعتمد على شهادته فيعينه لمعاونته في أعماله ومنها تسجيل الأحكام . صبح الأعشى .

(٤) ساقطة من ل ١٨٢ .

قلت : وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين فأرسل كتابا بالمثل الفاضل فيه :
 « ورد خبر من جانب العدو اللعين ، عن المولى نور الدين ، أعاذ الله تعالى فيه من
 سماع المكروه ، ونور بعافيته القلوب والوجوه ؛ فاشتد^(١) به الأمر ، وضاق به الصدر ،
 وانقصم بحادثه الظهر ، وعز فيه التثبت وأعوز الصبر . فإن كان والعياذ بالله قد تم ، وخصه
 الحكم الذى عم ، فللحوادث تدخر النصال ، وللايام تصطنع الرجال ؛ وما رتب الملوك
 بمالكها إلا لأولادها ، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدى حقها يوم حصادها ؛
 فأن الله أن تختلف القلوب والأيدى ، فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ،
 وتنقل النعم التى تعبت الأيام فيها ، إلى أن أعطت قيادها . فكونوا يداً واحدة ، وأعضاءاً
 متساعداً ، وقلوباً يجمعها ودة ، وسيوفاً يضمها غمد ؛ ولا تختلفوا فتتكاوا ، ولا تتنازعوا
 فتتفشلوا ، وقوموا على أمشاط الأرجل ، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأئمل ؛ فالعداوة محدقة
 بكم من كل مكان ، والكفر مجتمع على الإيمان . ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله ، وقائم
 لا نسلمه . وقد كانت وصيته إلينا سبقت ، ورسالته عندنا تحققت ، بأنّ ولده القائم
 بالأمر وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه ؛ فإن كانت الوصية ظهرت وقبّلت ،
 والطاعة فى الغيبة والحضور أدبت وفعلت ، وإلاّ فنحن لهذا الولد يدٌ على من ناواه^(٢) ،
 وسيف على من عاداه . وإن أسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب ، والنذر الذى
 يحل على الأيدى والقلوب » .

قال العماد : وورد كتاب صلاح الدين بالمثل الفاضل معزيا لابن نور الدين وفى
 آخره : « وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطأه طلب ليلٍ لنهار ، وسيل
 لقرار ، إلى أن يزجه من مجائمه ، ويستوقفه عن مواقف مغائمه ؛ وذلك من أقلّ فروض
 البيت الكريم وأيسر لوازمه . أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ، وهو اليوم
 الذى أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح فيه بذكره فى الموقف العظيم ، والجمع
 الذى لا لغوفيه ولا تأثيم ؛ وأشبهه يوم الخادم أمسه فى الخدمة ووفى مآزمه من حقوق النعمة

(١) فى الأصل ، وكذلك فى ل ١٨٢ ب : واشتد .

(٢) ناواه ، بتسهيل الهمزة لتتسجم مع الأسلوب المسجوع .

وجمع كلمة الإسلام عالمًا أن الجماعة رحمة . والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ، ويصلح به وعلى يديه ، ويؤكد عهد النعماء الراهنة لديه ، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه ، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق (١٨٠ ب) سلطانه وتشبيده ، ومضاعفة ملكه ومزيده ، ويُيسر منال كل أمل صالح وتقريب بعيد ، إن شاء الله تعالى .

ومن كتاب آخر : « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها ، والتعرض لمراسمها ، والرفع لكلماتها ، والإيالة لمسكرها ، والتحقق بخدمتها ، في بواطن الأحوال وظواهرها ، والترقب لأن يُؤمر فيمتثل ، ويكلف فيحتمل ، وأن يُرى به في نحر عدوه فيتسد بجهد ، ويوفى أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده » .

قال العماد : ولما توفى نور الدين اختل أمرى ، واعتلّ سرّى ، وعلت حسبى ، وبلغ مرادهم أضدادى . وكان الملك الصالح صغيرا ، فصار العدل ابن العجمى له وزيرا ؛ وتصرف المتحالفون فى الخزانة والدولة كما أرادوا ، ولوّوا وصرفوا ونقصوا وزادوا ؛ واقتصروا على الكتابة ، محروم الدعوة من الإجابة .

ومما نظمته فى مرثية نور الدين قصيدة منها .

ل فقد الملك العاد	ل يبكى الملك والعدل
وقد أظلمت الآفا	ق : لا شمس ولا ظل
ولما غاب نور الدي	ن عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخير	وزاد الشر والحل
ومات البأس والجود	وعاش اليأس والبخل
وعز النقص لما ها	ن أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو علم ^(١)	إذا مانق الجهل
وما كان لنور الدي	ن ، لولا نجله ، مثل

(١) فى ل ١٨٣ : ذو العلم .

فصل

قال العماد : واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين رحمه الله تعالى على الثغر وقصدهم بانياس ، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس . وذلك أن شمس الدين ابن المقدم خرج وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم ، وأنه قد عزم على جهادهم ؛ وتكلموا في الهدنة ، وقطع مواد الحرب والفننة ، وحصلوا بقطيعة استعجلوها ، وعدة من أسرارهم استطلقوها ؛ وتمت المصالحة .

وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه ، وكتب إلى جماعة الأعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام . ومن جملتها كتاب بالمثل الفاضلى إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون يخبره فيه أنه لما أتم كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل ، ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذلك الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى ؛ وسيدنا الشيخ أول من جرّد لسانه^(١) الذى نغمده السيوف وتجرّد ، وقام في سبيل الله قيام من يقطّ عادية من تعدّى وتمرد .

وفي آخره : « وكتب من المنزل بفاقوس والفجر قدّم أن يشقّ ثوب الصباح ، لولا أن الثريا تعرضت تعرضاً أثناء الوشاح . وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجة ، بلغه الله فيه أملاه ، وقبل عمله ، بالغا أسنى المراد (١٨١) وأفضله » .

وقال ابن الأثير^(٢) : لما توفى نور الدين قال الأمراء ، منهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى ، وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمت أن صلاح الدين من ممالك نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعه ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعة الملك الصالح ، ويجعل ذلك حجة علينا ؛ وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وبما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح . فلم يوافق أغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا .

(١) فى ل ١٨٣ ، وفى ق كذلك : أطلق .

(٢) فى الأنايبك : ٢٩٤-٢٩٦ ؛ وهو اقتباس آخرى .

قال : فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح ، بهنيه بالملك ويعزيه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده . فلما سار سيف الدين غازي^(١) ، ابن عمه قطب الدين ، وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلمه الحال ، كتب إلى الملك الصالح بعثه حيث لم يُعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويمنعه . وكتب إلى الأمراء يقول إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لَسَلَّمَ إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سوى . وأراكم قد تفردتُم بخدمة مولاى وابن مولاى دونى ، فسوف أصلُ إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه ، وإهمال أمر الملك الصالح ومصالحه ، حتى أخذت بلاده .

فأقام الصالح بدمشق ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لثلا يغلبهم عليه شمس الدين على بن الداية فإنه كان أكبر الأمراء الثورية ، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ؛ وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم ، وعسكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده . ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه ؛ وأرسل إلى الأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منهم ، وإلا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب ولا تقوى على منعه . فلم يرسلوه ولا مكّنوه من قصد حلب^(٢) .

قال^(٣) : وكان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل

(١) صاحب الموصل بين سنتي ٥٦٥-٥٧٦ . وقد تقدم أن نور الدين أقره على الموصل ، سنة ٥٦٥ ، بعد وفاة قطب الدين مودود ؛ وإن كان قد أخرج عنها وزيره نجر الدين عبد المسيح . انظر ماتقدم ص : ٤٧٥ وما بعدها .

(٢) نهاية هذا الاقتباس من الأتابكة ، فى ص : ٢٩٦ .

(٣) فى الأتابكة : ٣١٨-٣٢١ . وبين هذا وما قبله فى الأتابكة نحو عشرين صفحة لجمع أبو شامة بينهما فى اقتباسه لاتفاق الموضوع . انظر أيضا مفرج الكروب : ٥ : ٢ .

وغيرها، واستدعى^(١) المساكر منها، فسار سيف الدين [غازي بن أتابك قطب الدين صاحب الموصل^(٢)] في عساكره، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين فلما كان في عساكره، وأرسل الشحن إلى الخابور فاستولوا عليها، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ثم أخذها، وملك الرها والرقّة وسروج واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى (١٨١ ب) قلعة جعبر^(٣). فقال له فخر الدين عبد المسيح - وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين، ظناً منه أن سيف الدين يري له خدمته، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين، على ما ذكرناه أولاً^(٤)، فلم يجن ثمرة ماغرس، وكان عنده كبعض الأمراء - ليس بالشام من يمنعك فأعبر الفرات وملك البلاد. فأشار أمير آخر معه وهو أكبر أمرائه: قد ملكت أكثر من والدك، والمصلحة أن تعود؛ فرجع إلى الموصل.

فصل

قال ابن الأثير^(٥): قد سبق أن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دُرُداراً له وهو سعد الدين كُشْتَكِين بعض خدمه الخصيان؛ فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدّمته على مرحلة. فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدركه، فذهب بركة^(٦) ودوابه وسار إلى حلب، وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وإخوته، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح. فسار إلى دمشق، فأخرج ابن المقدم عسكرياً لينهبوا فماد مُنْهَزَماً إلى حلب؛ فأخلف عليه شمس الدين بن الداية ما أخذ منه وجهزه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجنى

(١) في الأتابكة: يستدعى.

(٢) ما بين الحاصرتين من الأتابكة، وهو ساقط من الأصل ومن ل ١٨٣ ب.

(٣) حذف أبو شامة هنا فقرة كبيرة من الأتابكة.

(٤) انظر ما تقدم من: ٤٧٢ في حوادث سنة ٥٦٥.

(٥) استمرار للاقتباس السابق من نفس الصفحات.

(٦) البرك: المتاع الخاص.

براقش . فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء ، وأعلمهم مافى قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح ، فأجابوا إلى تسييره ، فسار إليها . فلما وصلها وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته وعلى ابن الخشاب رئيس حلب .

قال ابن الأثير : ولولا مرض شمس الدين لم يُمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء . وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

واستبدت سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ، فخافه ابن المقدّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، فكاتبوا سيف الدين ليسلوا إليه دمشق ، فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ، فلا يمكنه الثبات . فراسل الملك الصالح وصاحبه على إقرار ما أخذ به ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكناً عظيماً يقارب الحبحر عليه .

وقال العماد : كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه ، واستأذن في الوصول إلى الشام ، فطلب سيف الدين غازى رضاه ؛ فخرج وسار مرحلتين وسمع النغى ، فأغذ السير والسعى ، ونجا بماله وبجالة ، وندم صاحب الموصل على الرضا بترحاله . وكانت عنده بوفاة عمه بشارة ، وظهرت على صفحاته منها أمارة ، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكياً فإنه كان لحبحر الأمر عليه مُذْكياً . وكان المرحوم قد أمر بإقامة الخمر ، وإزالة المحظور ، وإسقاط المكوس ، وإعدام أقساط البوس^(١) ؛ فنودي في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهاراً ، ليلاً (١٨٢) ونهاراً ، وزال العرف ، وعاد النكر ؛ وأشد قول ابن هانى :

* ولا تسقى سرافقد أمكن الجهر *

وقيل : أخذ المنادى على يده دنًا وعليه قدح وزمر ، وزعم أنه خرج بهذا أمر ، فلا حرج على من يفتى ويشرب ؛ وعادت الضرائب وضربت العوائد .

(١) البؤس ، بتسهيل الهمزة لمناسبة السجع .

فأما كشتكيين فإنه وصل إلى حلب بعد عبور القرى ، وتمثل عند الصباح بمجد القوم السرى ، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين على بن الداية وإخوته ، إخوة مجد الدين ، وأظهر أنه لهم من المخلصين .

وكان مجد الدين أبو بكر أخوهم رضيع نور الدين وقد تربى معه ، ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ، ففوض إلى مجد الدين جميع مقاصده ، من طريقه وتالده ، وحكمه في الملك ، ونظمه في السلك ، فلا يُحَلّ ولا يُعَدّ إلا برأيه . وكانت حصونه محصنة ، وهو يسكن عنده في قلعة حلب ، والحاضر عنده صباحا ومساءً إذا طُلب ؛ وشيّر مع أخيه شمس الدين على ، وقلعة جعبر وتلّ باشر مع سابق الدين عثمان ، وحارم مع بدر الدين حسن ، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوابه فيها ، وهو يصونها ويحميها .

ولما توفى جرت إخوته في القرب والانسياط على عادته ، وهم أعيان الدولة وأعضاها ، وأبدال أرضها وأوتادها ، وأمجادها وأجوادها . فلما توفى نور الدين لم يشكّوا في أنهم يكفلون ولده ويربّونه ، ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه ؛ فأقام شمس الدين على ، وهو أكبرهم وأوجههم ، ودخل قلعة حلب ، وبها والياً شاذ بخت ، وسكنها ، وأسرّ مصلحة الدولة وأعلنها . وعرف ماجرى بدمشق من الاجتماع ، واتفاق ذوى الأطماع ، فكاتبتهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصالح . وأنفذ أخاه سابق الدين عثمان ، وكان قليل الخبرة بعيداً من (التحرّز)^(١) والدّهاء ، فاستقرّ الأمر على أن يحملوا الملك الصالح إليه ، ويقدموا به عليه ، وهو يتسلم ممالكه ، ويكون أتابكه .

ووصل كشتكيين إلى دمشق في تلك الأيام ، فوافقهم على ما دبروه من المرام ، وسار الصالح ومعه كشتكيين ، والعدل ابن العجمي ، واسماعيل الخازن ، فبغتوا إخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم ؛ وجاء ابن الخشاب أبو الفضل ، مقدّم الشيعة ، فسفكوا دمه . وأقام شمس الدين بن المقدّم بدمشق على عساكرها مقدّماً ، وفي مصالحها محكّماً ؛ وجمال الدين ريحان وإلى القلعة والشحن من قبله ، والأمر إليه بتفصيله وجعله ، والقاضى كمال الدين الشهرزورى الحاكم^(٢) النافذ حكمه ، الصائب سهمه ، الثاقب نجمه .

(١) ساقطة من ل ١٨٤ ب .

(٢) يعنى القاضى .

وكان مسير الملك الصالح من دمشق في الثالث والعشرين من ذي الحجة ؛ وغاز صلاح الدين ما فعل بأخوة مجد الدين .

وقال (١٨٢ ب) ابن أبي طي [الحلبي ^(١)] : لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح ، ابن نور الدين ، وكان يومئذ صبيها ، وحلفوا له على منابذة الملك الناصر وقبض أصحابه الذين بالشام ، ومصالحة الفرنج وجعلوا ابن المقدم شمس الدين مقدم العساكر ؛ وتم ذلك واستقر ، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له .

وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين ، ورأسل الفرنج في الهدنة ، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين ، فمجل حملها (إليهم ^(٢)) . وتم أمر الصلح وعادت الفرنج إلى بلادها وابن المقدم إلى دمشق ^(٣) .

واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر ، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل ، فأعظم أمرها وأكبره ، واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم . فرأسل ابن المقدم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه ، وقال في كتابه إلى ابن أبي عسرون : « وردنا الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين ، وبقيّة بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ، ولا انتظمت في سلك هذا القصد ، والعدو لها واحد ؛ وصرف مال الله الذي أعد لمنعم الطاعة ، ومصلحة الجماعة ، في هذه المصيبة المفضية لله ورسوله ولصالحى الأمة ، وكان مذخوراً لكشف الغمة ، فصار عونا ؛ وأن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأنهم شديدة ، وشوكتهم حديدة ، دُفعوا في القطيعة ، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعة . فلما بلغنا هذا الخبر ، وقفنا به بين الورود والصدور ، وإن أتممنا ^(٤) ظنّ بنا غير ما نريد ، وإن قعدنا فالعدو من بقيّة الثغور

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٥

(٢) ساقطة من ل ١٨٥ .

(٣) وكان قائد هذه الحملة الفرنجية أمورى الأول Amalric صاحب بيت المقدس عندئذ ، ولم يلبث أمورى أن مات بعد قليل . The Crusaders in the East, p. 213 .

(٤) يعنى : أتممنا الزحف ؛ لأنه كان قد خرج من مصر أربع مراحل ، كما تقدم .

التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد ، وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد . فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن على وإخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك ، وأنه ربما نُحْجَز عن الاستدراك ، وأن العدو طالب لا يغفل ، وجاذ لا ينكل ، وليث لا يضيع الفرصة ، مجذ لا يميل إلى الرخصة . فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر أمارات السخط والتغيير ، ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير ، لا سيما ونحن نغار الله ونغير ، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير . وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته ، وثرت به ثروته ، وانبسطت به خطوته ؛ فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون ، وعلى طلبه مجتمعون ، لا يمكنه أن يزائل مراكزه ، ولا يبادر مناهزته »

قال : وكان متولى قلعة حلب شاذ بنحت الخادم النوري ، وكان شمس الدين على ، أخو محمد الدين بن الداية ، إليه أمور الجيش والديوان ، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشعنكية ؛ وكان بيده ويد إخوته جميع المعامل التي حول حلب . فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد إلى القلعة ، وكان مُقْعِداً ، واضطرب البسلد ، ثم سكنه ابن الخشاب ، (وكوتب ابن الخشاب من دمشق بحفظ البسلد ، وعول أولاد الداية على (١١٨٣) الاستيلاء على حلب ، وحالف لهم جماعة من القلعيين والخلبيين وأنفذوا خلف أبي الفضل بن الخشاب)^(١) ، فامتنع من الصعود إليهم وترددت بينهم الرسالة ؛ وتحزب الناس بحلب ، السنة مع بني الداية والشيعية مع ابن الخشاب ؛ وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضرة وزحفوا إلى دار ابن الخشاب فملكوها ونهبوها ، واختفى ابن الخشاب .

وانصلت هذه الأخبار بمن في دمشق فأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب ، في الثالث والعشرين من ذي الحجة ، وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشككين ،

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة ل ، وكذلك من ق ١١٨٧ .

وجرديك ، وإسماعيل الخازن ، وسابق الدين عثمان بن الداية ، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم . وساروا إلى حلب وخرج الدّاس إلى لقائهم .

وكان حسن قد رتب في تلك الليلة جماعة من الحليين ليصبح ويصلبهم ؛ فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه ، فتقدم جرديك . وأخذ بيده ، وشمته وجذبه ، فأركبه خلفه رديفاً ، وقبض سابق الدين أخوه في الحال ، وتخطفت أصحابهم جميعهم ، واحتيط عليهم وساروا مجدّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة وصعدوا إليها ، وقبضوا على شمس الدين على ابن الداية من فراشه ، وحمل إلى بين يدي الملك الصالح ؛ فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف بالجفنية ، فركله برجله ركلة دحاه بها على وجهه ، فانشقت جبهته . ثم صدقوا جميعاً وحبسوا في جُب القلعة ، وقبضوا على جميع الأجناد الذين حلقوا لأولاد الداية ، وأخرجوا جميعاً من القلعة .

قلت : وفي آخر هذه السنة توفي مرثى الفرنجي الملك الذي كان حاصر القاهرة وأشرف على أخذ الديار المصرية .

وفي كتاب فاضلي : « ورد كتاب من الداروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مرثى ملك الفرنج ، لعنه الله ، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً وأقدمه على نارٍ تَلَطَّى ، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشَقَى » (١) .

تم دخلت سنة سبعين [وخمسمائة] :

قال ابن أبي طي : ففي أولها ضمن القطب ابن العجمي وأبو صالح (٢) وابن أمين الدولة لجرديك إن قتل ابن الخشاب ردّوا عليه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة . فدخل على الملك الصالح وتحدث معه وأخذ خاتمه أماناً لابن الخشاب ، ونودى عليه ، فحضر وركب إلى القلعة ، فقتل وعلّق رأسه على أحد أبراج القلعة .

وبقي الملك الصالح في قلعة حلب ومضى العماد السكاتب إلى الموصل . قال : وغزمت

(١) سورة الليل : آية : ١٥ .

(٢) الواو ساقطة من ل ١٨٦ .

على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات ، ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح فأصاح بين ابني العم^(١) وعلق رهق إخوة مجد الدين في الاعتقال ، وضيقوا عليهم في القيود والأغلال ، وألزمهم^(٢) بتسليم الحصون ، (١٨٣ ب) وتقديم الرهون ، إلى أن غصبوا دورهم ، وخربوا معمرهم .

قال : وكان الموفق خالد بن القيسراني قد وصل ، ونحن بدمشق ، من مصر فلزم داره ولم يدخل مع القوم^(٣) .

فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أن ولد نور الدين يتولاهُ بعسده إخوة مجد الدين ، فلما جرى ما جرى ساء ذلك وقال : أنا أحقّ برعى العمود ، والسعي الحمود ، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة ، وضاعت المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشام ، وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام . وكتب إلى ابن المقدم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة ، وكيف اجتروا على أعضاء الدولة وأركانها ، بل أهلها وإخوانها ، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها ، ويضره ضررهم وضرها . فكتب ابن المقدم إليه يردعه عن هذه العزيمة ، ويقبح له استحسان هذه الشيمة ، ويقول له :

« لا يقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك ، ورباك وأسسك ، وأصقّ مشربك ، وأصقّ ملبسك ، وأجلى سكونك لملك مصر وفي دسته أجلسك ، فما يليق بك ، ومحاسن أخلاقك وخلالك^(٤) ، غير فضلك وأفضالك » .

فكتب إليه صلاح الدين بالإشياء الفاضلى : « إننا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، وللبيت الأنايبكى أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله وفرعه ، ودفع ضرره وجلب نفعه ؛ فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والحببة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة . وبالجملة إننا في واد ، والظانّون بناظنّ السوء في واد ، ولنا من الصلّاح

(١) ق ل ١٨٦ ، وكذلك في ق : ابني العجمي ، والمقصود ابنا العم ، صاحب الموصل و حلب .

(٢) في الأصل : فألزمهم ؛ والمثبت هنا من ل ١٨٦ .

(٣) وكان قد ذهب إليها في السنة السابقة ، موفداً من نور الدين محمود ، لمحاسنة صلاح الدين . وقد تقدم تفصيل هذه البعثة وتليجتها .

(٤) المثبت هنا من ل ١٨٦ ، وفي الأصل وجلالك .

مراد ، ولمن يبعدنا عنه مراد ، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قاذح ، ولمن ألقى السلاح إنك جارج . »

فصل

قال العماد : ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافى الأمر ، فاعترضه أمران : أحدهما وصول أسطول صقلية^(١) إلى الإسكندرية وإدراكه ، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه . أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين ، وانهمزم في أول المحرم سنة سبعمين .

ثم ذكر كتابا وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشام يشرح الحال ، وحاصله أن أول الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر ؛ ورؤّع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربية ، وهدد به في الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية^(٢) . فشوهد في النغر من وفور عُدته ، وكثرة عُدته ، وعظيم الهمة به ، وفرط الاستكثار منه ، ما ملأ البحر ، واشتد به الأمر ، فحصى أهل النغر عليهم البر ؛ ثم أشير عليهم أن يقر بوا من السور ، فأمكن الأسطول النزول ، فاستنزلوا خيولهم من الطرائد^(٣) ، وراجلهم من المراكب ، (١٨٤) فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل ، مابين فارس وراجل . وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني^(٤) في كل شيني مائة وخمسون

(١) وهو أسطول William II . وقد تقدم أسطول صقلية تنفيذاً للدوامرة التي اشترك فيها عمارة ؛ وكان من المقرر أن يشترك مع الأسطول جيش برى من القدس بقيادة أموري ؛ وبانكشاف المؤامرة في مصر توقف جيش أموري واستمرت الحملة البحرية في التقدم لعدم تكامل الأخبار عند قائدها ولیم الثاني . انظر : S. Lane - Poole ; Saladin , pp. 126 - 127 ؛ وانظر كذلك مفرج السكروب : ٢ : ١٢ - ١٤ .

(٢) انظر : Saladin ; pp. 126 - 127

(٣) جمع طريدة أو طراد ؛ وهي سفينة مخصصة لحمل الخيل وفرسانها ، وتحمل نحو أربعين فارساً بأفراسهم . انظر : السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٤ ؛ وانظر كذلك : Dozy : Supp. Dict. Ar. .
(٤) والجمع شواني ؛ وهي سفينة حربية كانت تعتبر في تاريخ الإسلام ، أكبر سفن الأسطول ، وكانت تقام فيها الأبراج والقلاع للدفاع ، وكانت تنزل على الماء بمساعدة مائة وأربعين مجدفاً . انظر : السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٧ ، وكذلك : Dozy : Supp. Dict. Ar. .

وأجلا . وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عدة المراكب الحاملة برسم الأزواد والرجال أربعين مركبا ؛ وفيها من الراجل المتفرق ، وغللمان الخيالة ، وصفاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته المنجنيقية ، ما يتم خمسين ألف رجل .

ولما تكاملوا نازلين على البر ، خارجين من البحر ، حملوا على المسلمين حملة أوصلهم إلى السور ، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس . واستشهد محمود بن البصار وكان بسهم جرح ، وجذفت مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة ، فسبقهم أصحابنا إليها فحسفوها وغرقوها ، وغلبهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها . واتصل القتال إلى المساء ، فضربوا خيامهم بالبر وكان عدتها^(١) ثلثمائة خيمة .

فلما أصبحوا زحفوا وضائقوا وحاصروا ، ونصبوا ثلاث دبابات^(٢) بكباشها ، وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجب أصحابنا من شدة أثرها وعظم حجرها . وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها ، وارتفاعها ، وكثرة مقاتلتها واتساعها ، وزحفوا بها إلى أن قاربت السور ، ولجوا في القتال عامة النهار المذكور . وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر ، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين اسكندرية ودمياط ، احترازا عليهما ، واحتياطا في أمرهما ، وخوفا من مخالفة العدو إليهما . واستمر القتال^(٣) ، وقدمت الدبابات وضربت المنجنيقات وزاجحت^(٤) السور ، إلى أن صارت منه بمقدار [أماج البحر وأهاج الدور]^(٥) .

(١) في الأصل ، وكذلك في ل وفي ن : عندهم .

(٢) جمع دبابة ، وهي برج متحرك ذو أدوار قد تصل إلى أربعة ، أولها من خشب وثالثها من زجاج وثالثها من حديد ورابعها من النحاس الأصفر ، وتتحرك على عجلات وتستخدم في مهاجمة الحصون والأسوار بمساعدة الكباش [أو الأكباش أو الكبوش] ، هم كبش ، وهي الآلة التي تتصل بالدبابة ، ولها رأس ضخم وقرنان ، تدفع نحو الأسوار لهدمها . انظر : السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٨ .

(٣) في الأصل : واستمر القتال ؛ والمثبت هنا من ل ١٨٧ ، وهو أولى وإن كان الأول صحيحاً أيضاً .

(٤) في الأصل : وراجحت ؛ والمثبت هنا من ل ١٨٧ .

(٥) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٧ .

فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قبالتها من السور ويتركوها معلقة بالقشور ؛ ثم فتحوا الأبواب وتكاثروا لصالح أهل النفر من كل الجهات ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة وصدقوا عندها من القتال ، وأنزل الله على المسلمين النصر ، وعلى الكفار الخذلان والقهر .

واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء وقد ظهر فشل الفرنج ورحبهم ، وقصرت عزائمهم ، وفتر حزبههم ، وأحرقت آلات قتالهم ، واستمر القتل والجراح في رجالهم ؛ ودخل المسلمون إلى النفر لأجل قضاء فريضة الصلاة ، وأخذ مابه قوام^(١) الحياة ، وهم على نية المباكرة ، والعدو على نية الحرب والمبادرة . ثم كبر المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام ، فهاجمهم في الخيام ، فتسلّموها بما فيها ، وفتسكوا في الرّجالة أعظم (١٨٤ ب) فتك ، وتسلموا الخيالة ولم يسلم منهم إلّا من نزع لبسه ، ورمى في البحر نفسه . وتقحّم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فحسّفوها وأتلفوها ، فولت بقيّة المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله الغالبة . وبقى العدو بين قتل وغرق ، وأسر وفرّق ، واحتسّى ثلثمائة فارس في رأس تلّ ، فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا ، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله . وأقلع هذا الأسطول عن النفر يوم الخميس .

وذكر ابن شداد^(٢) أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شينى وطراة وبطشة وغير ذلك .

فصل

وأما نوبة الكنز ، فقال ابن شداد^(٣) : الكنز إنسان مقدم من المصريين كان قد انتزع إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويحيط لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية^(٤) . وكان في قلوب القوم من المهاواة المصريين ما تستصغر

(١) في ل ١٨٧ ، وفي ن كذلك : قيام الحياة .

(٢) في النوادر ٣٨ .

(٣) في النوادر : ٣٧ . وفي مقابل هذا الفصل في هامش الأصل تعليق نصه : « حاشية ؛ قال المؤلف : موكّن الدولة متوج ، كذا سماه الأسعد بن مماتي في كتابه الذي جمع فيه السيرة الصلاحية : والله أعلم » .

(٤) في ل ١٨٧ ، وفي ن كذلك : مصرية دون أداة التعريف .

هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السودان ، وقصد قوص وأعمالها . فأتته خبره إلى صلاح الدين ، فجرد له عسكريا عظيما شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على قوت ذلك منهم ، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم ، فلقيهم بمصاف فكسروهم ، وقتل منهم خلقا عظيما ، واستأصل شأفتهم ، وأخذ ثأرتهم ؛ وذلك في السابع من صفر سنة سبعين ، واستقرت قواعد الملك .

قال العماد : وفي أول سنة سبعين ، مستهلها ، قام المعروف بالكنز في الصعيد ، وجمع ^(١) من كان في البلاد من السودان والعبيد ، وعدا ودعا القريب والبعيد ^(٢) . وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين (بن) ^(٣) أبي الهيجاء السمين ، ففتك به وبين هناك من المقتلعين ^(٤) ، ففارت حمية أخيه وثارت للثأر ، وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله ، وعدة من أمرائه ورجاله ، وجاءوا إلى مدينة طود ^(٥) فاحتمت عليهم ، وامتنعت ، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت ، وأتى السيف على أهلها ، وباءت بعد عزها بذلتها .

ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه ، وسوئه وسودانه ، فسُفك دمه ، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه ، وارتقب دماء سوده ، وهجم غابه على أسوده ؛ ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز ، وطلّ دمه ولم ينتطح فيه عز . وارتدع المارقون فما رقوا بعده سلم نفاق ، والله لناصري ^(٦) دينه ناصر وواق .

وقال ابن أبي طي : واتفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود [رجل] ^(٧) يعرف بعباس بن شاذي ، وثار في بلاد قوص ونهبها وخرّبها ، وأخذ أموال

(١) في الأصل : وجميع ؛ والمثبت هنا من ل ١٨٧ .

(٢) في الأصل : ودعا من القريب والبعيد .

(٣) ساقطة من ل ١٨٧ ب .

(٤) في ل ١٨٧ ب ، وفي ق كذلك : المقتلعين .

(٥) أنشأها الأمير درياس الكردي المعروف بالأحول أيام صلاح الدين . معجم البلدان : ٦ : ٦٧ .

(٦) هكذا في ل ١٨٧ ب . وفي الأصل : لناصري دينه .

(٧) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٧ ب .

الناس ؛ واتصل بذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد استنابه بمصر ، فجمع له العساكر وأوقع به ، وبدد شمله ، (١٨٥) وفض جموعه وقتله ، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان وكان قصد بلد طود ، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله .

فصل

في توجّه صلاح الدين إلى دمشق ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول .

قال العماد: لما خلا باله مما تقدم ذكره تجهّز لقصد الشام ، فخرج إلى البركة مستهل صفر ، وأقام حتى اجتمع العسكر ؛ ثم رحل إلى بلييس ثالث عشر ربيع الأول . وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جاولى وشمس الدين بن المقدم عنده ، تستورى في الحث والبعث زنده ، وتستقدمه وجندة ؛ وسار على صدر وأيلة ووصل السير بالشري ، حتى أناخ على بصرى ، بصيراً بالعلا نصيراً للهدى ، فاستقبله صاحب بصرى وشد أزره ، وسدد أمره ؛ واستضاف إلى بصرى صرخد ، وتفرد بالسبق إلى الخدمة وتوحد .

وسار في الخدمة معه إلى الكسوة^(١) ، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر وسار في موكب قوى بالعدد والعدد ، وحسب أن يمتنع عليه البلد ، وأن الأطراف تثوق ، والأبواب تغلق ، فأقبل وهو يسوق ، وإقباله يشوق ، حتى دخل دمشق وخرقها ، وكان الله تعالى له خلقها ؛ ودخل إلى دار العقيق مسكن أبيه ، وبقي جمال الدين ربحان الخادم في القلعة على تأبّيه ، فراسله حتى استماله ، وأغزر له نواله ، وتملك المدينة والقلعة . ونزل بالقلعة سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين ، وملك ابن المقدم داره وكل ماحواليها ، وبذل له طلبته التي أشار إليها ونص عليها ؛ وأظهر [صلاح الدين]^(٢) أنه جاء لتربية الملك الصالح ، وحفظ مآله من المصالح ، وتديبر ملكه ، فهو أحق بصيانة حقّه .

(١) قرية قريبة من دمشق ، وهي أول منزل تنزله القوافل الخارجة من دمشق في الطريق إلى مصر .

معجم البلدان . ٧ : ٢٥٢ .

(٢) ما بين الحاصرتين أضيف للتوضيح .

واجتمع به أعيانها ، وخلص لولاية أسرارها وإعلانها ، وأصبح وهو سلطانها .
وزاره القاضي كمال الدين بن الشهرزورى فوفاه حقه من الاحترام ، ووفر له حظ
التبجيل والإعظام .

ونفذت السكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر ، بهذا الفتح والنصر ، وفي بعضها :
« يوم وصولنا إلى بصرى وقبله وفدت وهاجرت ، وتزاحمت وتكاثرت ، وتوافت ،
الأمراء ، والأجناد الأتراك ، والأكراد ، والعربان ، ورجال الأعمال ، وأعيان الرجال .
وورد كتاب من دمشق بعد كتاب ، وكل من أخبر وذاكر ، وهو غائب بكتابه حاضر ،
يذكر أن البلاد ممكنة القياد ، مذعنة إلى المراد . وأما الفرنج ، خذلهم الله ، فإننا في هذه
السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم ، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخير ، (وأدخلنا)^(١)
وعيونهم متناومة ، وحزننا وأنوفهم راغمة ، ووطننا ورقابهم صغر ، ومررنا وعيشهم مر ؛
والله يزيدهم ذلاً ، ويجعل عداوة الإسلام في صدورهم غلاً ، وفي أعناقهم غلاً » .

وفي كتاب آخر : « وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من
ربيع الأول ، وقد (١٨٥ ب) توجه صاحبها بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها .
ثم لقينا الأجل ناصر الدين ، ابن المولى أسد الدين [شيركوه]^(٢) رحمة الله عليه وأدام
نعمته ، والأمير سعد الدين ابن أنر ، في [يوم]^(٣) السبت السابع والعشرين . ونزلنا يوم
الأحد بجسر الخشب والأجناد الدمشقية إلينا متوافية ، والوجوه على أبوابنا مترامية ، ولم
يتأخر إلّا من أبقي وجهه وراقب صاحبه ، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في
العافية . ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى ،
وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم^(٤) عساكرنا المنصورة وصدمتهم ،
وعرقهم كيف يكون اللقواء وعلمتهم . ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه

(١) ساقطة من ل ١٨٨ وكذلك من ق .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٨ ، وهو ساقط من الأصل .

(٤) الدّعس : الطعن كاللدعيس ، والمدعس : الرمح يدعس به أى يطعن . وفي نسخة ق : فدعيتهم
عساكرنا المنصورة ؟ ودعت : دبق التراب على وجه الأرض بالقدم أو باليد . القاموس المحيط .

قريرة عيوننا ، مستقرا سكون الرعية وسكوننا ، وأذعنا في أجزاء البلد النداء بإطابة النفوس وإزالة المكوس . وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت ، واليد المتعدية قد امتدت إلى أحوالهم وأججفت ، فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها ، وإعفاء الأمة منها بوضعها . قال ابن الأثير^(١) : لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدتهم كشتكين والملك الصالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بنى الداية راسلوا سيف الدين غازي ليسلموها إليه فلم يجبه ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر ؛ وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام ، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء ، ودخلها واستقر بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح ، وإنما أظهر « أني إنما جئت لأخدمه واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه » . وجرت أمور آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده .

وقال القاضي ابن شداد^(٢) : لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهز للخروج إلى الشام ، إذ هو أصل بلاد الإسلام ؛ فتجهز بجمع كثير من العساكر ، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، ونظم أمورها وسياستها ؛ وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكتب أهل البلاد وأمراءها . واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلفت تدبيراتهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض البعض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقيين من فعل ذلك وسببا لتنفيذ قلوب الناس عن الصبي . فافتضى الحال أن يكتب ابن المقدم صلاح الدين ، فوصل إلى البلاد مطالبا بالملك الصالح ليكون هو الذي يتولى أمره ويربّ حاله . فدخل دمشق يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر ، (١٨٦) وكان أول دخوله إلى دار أبيه . واجتمع الناس إليه ، وفرحوا به ، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلا ، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا^(٣) الفرح به . وصعد القلعة

(١) في الأتابكة : ٣٢١ - ٣٢٢ ؛ وهو اقتباس حرق .

(٢) في النوادر : ٣٨ - ٣٩ ؛ وهو اقتباس حرق .

(٣) في الأصل : فأظهروا ، والمثبت هنا أولى ، وهو من ل ١٨٨ ب .

واستقرّ قدمه في ملكها ، فلم يلبث أن سار في طلب حلب ، فنازل حمص وأخذ مدينتها في جمادى الأولى ، ولم يشغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب ونازلها سلخ جمادى المذكور وهي الدفعة الأولى .

وقال ابن أبي طي : بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد الملك الصالح وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في مملكته . وقيل إن ابن المقدم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج . وقيل إنما خرج إلى الشام خوفا من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أسراء الشام وشغل بعضهم ببعض ، وبجواب مُمضٍ ورد من ابن المقدم إليه . ولما تيقن ابن المقدم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك واستدرك ما بدا منه ، وتذلل له ، ووعدته تسليم دمشق إليه .

قال : ولما حصل على دمشق وقلعتها ، واستوطن بقعتها ، نشر علم العدل والإحسان ، وعفى آثار الظلم والعدوان ، وأبطل ما كان الولاية استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات ، والمؤون والضرائب الحرمات .

قلت : وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها :

هـنـ يا أطول الملوك يداً في بسط عدلٍ وسطوةٍ وندى
أجرأ وذكرا من ذلك الشكر في الدّ (م) نيا ، ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقلّ الذي صنعت ، فقد قت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدا ، وأفنيت من أبطاهم ما يجاوز العدا
وما رأينا غزا الفرنج من أ ملوك في عقر دارهم أحدا
يفسر إلى الشام فاللائكة أ أبرار تلقاك بجمعهم مـدا
فهو فقير إليك ، يأمل أن تصالح بالعدل منه ما فسد
والله يعطيك فيه عاقبة الدّ (م) صركا في كتابه وعدا
فاحياك الوري ، وألهمك أ مدل ، وأعطاك ما ملكت سدى

ومدح وحيش الأسد^(١) صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها^(٢) :
 قد جاءك النصر^(٣) والتوفيق فاصطحبا فكُن لأضعاف هذا النصر مرتقباً
 لله أنت صلاح الدين من أسد أدنى فريسته الأيام إن وثبنا
 رأيت « جلق » ثغراً لا نظير له فجثتها عامراً منها الذي خربا
 نادتك بالذل لمنا قل ناصرها وأزعم الخلق من أوطانهم هاربا
 أحيتها مثل ما أحيت مصر ، فقد أعدت من عدلها ما كان قد ذهباً
 هذا الذي نصر الإسلام فاتضحت سبيله ، وأهان الكفر والصلبا
 (١٨٦ب) ويوم شاور ، والإيمان قد هزمت جيوشه ، كان فيه الجحفل اللجبا
 أبت له الضيم نفس مرة ويد فعالة ، وفؤاد قط ما وجبا^(٤)
 يستكثر^(٥) المدح يتلى في مكارمه زهدا ، ويستصغر الدنيا إذا وهبا
 ويوم « دمياط » و« الإسكندرية » قد أصارهم مثلاً في الأرض قد ضربا^(٦)
 والشام لولم يدارك أهله اندرست آثاره وعفت آياته حقبنا

-
- (١) أبو الوحش سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله الرار الأسدي . ولد سنة ٥٠٤ . خريدة القصر :
 قسم شعراء الشام : ١ : ٢٤٢ - ٢٤٦ .
 (٢) الحريدة : شعراء الشام : ١ : ٢٤٢ - ٢٤٤ .
 (٣) في الحريدة : السعد .
 (٤) أي ما اضطرأ .
 (٥) في الحريدة : يستكثر .
 (٦) يشير إلى منازلة الفرنج دمياط بعد تولي صلاح الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤ ، إذ انهزمت جيوشهم
 وأساطيلهم فارتدوا عنها في سنة ٥٦٥ . أما عن الإسكندرية فالإشارة إلى الحصار الذي ضربه الفرنج عليها
 سنة ٥٦٢ وصلاح الدين يدافع عنها ، وقد انتهى هذا الحصار بصلح اضطر إليه الفرنج لما بلغهم من تعرض
 ممتلكاتهم بالشام لخطر هجوم نور الدين محمود . انظر ما تقدم في هذا الكتاب عن هاتين الحاديتين .

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماة وحصار حلب

قال ابن أبي طيٍّ : لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس إليه ، وانعكافهم عليه ، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته ، فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا ، وقالوا له : هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا ، والرماح التي حوت بها قصور المصريين على أكتافنا ، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك ، وعمّا تصديت له تصدك ؛ وأنت فقد تعديت طورك ، وتجاوزت حدك ، وأنت أحد غلمان نور الدين ومن يجب عليه حفظه في ولده .

قال : ولما بلغ السلطان ورؤود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبغضه ، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه ؛ ثم أحضره بعد ثلاثة لسماع الرسالة منه . فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة ، وقمع بتلك التموهيات العاطلة ، لم يُعِره السلطان رحمه الله طرفاً ولا سمعاً ، ولا رد عليه خفضاً ولا رفعا ، بل ضرب عنه صفحاً وتغاضيا ، وترك جوابه إحساناً وتجاوفاً ، وجرى في ميدان أريحيته ، واستنّ في سنن مروءته ، وخاطبه بكلام لطيف رقيق ، وقال له : يا هذا ، اعلم أنني وصلت إلى الشام ، لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وثرية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين . فقال له ابن حسان : إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك ، ونحن لا نطاولك على ذلك ، ودون ماترومه خرط القتاد ، وفت الأكباد ، وإيتام الأولاد . فتبسم السلطان لمقاله ، وتزايد في احتماله ، وأوَمّى إلى رجاله بإقامته من بين يديه ، بعد أن كاد يسطو عليه .

ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل ، ورحل متوجّهاً إلى حمص فتسلم البلد ، وقاتل القلعة ولم ير تضيق الزمان عليها ، فوكل بها من يحصرها ؛ ورحل إلى جهة حماة ، فلما وصل إلى الرستن^(١) خرج صاحبها عز الدين جرديك ، وأمر من فيها من

(١) بليدة قديمة على نهر العاصي في منتصف الطريق بين حمص وحماة . معجم البلدان : ٤ : ٢٤٩ .

العسكر بطاعة أخيه شمس الدين على وإتباع أمره . وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوماً وليلة ؛ وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماة وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب ، فأجابه السلطان (١١٨٧) إلى مراده ؛ وسار إلى حلب وبقى أخو جرديك بقلعة حماة .

قال : وسار جرديك إلى حلب وهو ظانّ أنه قد فعل شيئاً وحصل عند من بحلب يداً ، فاجتمع بالأمرء والملك الصالح ، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر ؛ فاتهمه الأمرء بالمخامرة ، وردّوا مشورته ، وأشاروا بقبضه ؛ فامتنع الملك الصالح . ولجّ سعد الدين كمشكين في القبض عليه ، فقبض وثقل بالحديد ، وأخذ بالعذاب الشديد ، وحمل إلى الجب الذي فيه أولاد الداية .

قال : ولما قدم جرديك وشدّ في وسطه الحبل وأدلى إلى الجبّ وأحس به أولاد الداية قام إليه منهم حسن وشمته أقبح شتم ، وسبه ألام سب ، وحلف بالله إن أنزل إليهم ليقتلنه فامتنعوا من تدليته ، فأعلم سعد الدين كمشكين فحضر إلى الجبّ وصاح على حسن وشمته وتوعّده ، فسكن حسن وأمسك ، وأنزل جرديك الجبّ ، فكان عند أولاد الداية ، وأسمعه حسن كل مكروه .

قال : وكتب أبي إلى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك ، وكانوا تعصّبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب ^(١) ، قصيدة منها :

بنو فلانة أعوان الضلالة قد قضى بذلهم الأفلاك والقدر
وأصبحوا بعد عزّ الملك في صفد وقعر مظلمة يغشى لها البصر
وجردّ الدهر في جرديك عزّمته والدهر لا ملجأ منه ولا وزر

قال : ولم يزل السلطان مقيماً على الرستن ، ثم طال عليه الأمر ، فسار إلى جباب التركان ، فلقية أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر ، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماة ، وطلب من أخى جرديك تسليم حماة إليه ، وأخبره بما جرى على أخيه ، ففعل ؛ وصعد السلطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها ، وولّاها

(١) وكان من زعماء الشيعة بها ؛ وفي آخر هذا الفصل دليل على ذلك .

مبارز الدين على بن أبي الفوارس ، وذلك مستهل جمادى الآخر .

وسار السلطان إلى حلب ونزل على أنف جبل جوشن ^(١) فوق مشهد الدكة ثالث جمادى ^(٢) وامتدت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدى . وكان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدم عليهم ، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب ، وخيمته تضرب على جبل جوشن ، وأعلامه قد نشرت ؛ فخافوا من الحلبيين أن يساءوا البلد كما فعل أهل دمشق ، فأرادوا تطيب قلوب العامة ، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه ^(٣) أنهم الوَزَرُ والملجأ . فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق ، فاجتمعوا حتى غصّ الميدان بالناس ، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم : يا أهل حلب أنا ربيكم ونزيلكم ، واللّاجئ إليكم ، كبيركم عندى بمنزلة الأب ، وشابكم عندى (١٨٧ ب) بمنزلة الأخ ، وصغيركم عندى يحل محل الولد . قال : وخففته العبرة ، وسبقته الدفعة ، وعلا نشيجه ؛ فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ، ورموا بعمائمهم ، وضجوا بالبكاء والعيول ، وقالوا : نحن عبيدك وعبيد أبيك ، نقاتل بين يديك ، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك ؛ وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه .

وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم شرقية الجامع يصبون فيها على قاعدتهم القديمة وأن يُجهر بحجّ على خير العمل والأذان والتذكير في الأسواق ؛ وقدّام الجناز بأسماء الأئمة الاثنى عشر ^(٤) ، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات ، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسنى ، وأن تكون العصبية مرتفعة ، والناموس وازع لمن أراد الفتنة ؛ وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله . فأجيبوا إلى ذلك .

(١) مطل على حلب في غربيها ، كان يحمل منه الناس النحاس الأحمر ، وفي سفحه مقابر الشيعة . معجم البلدان : ٣ - ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) في ل ١٩٠ ، وكذلك في ق : ثالث الشهر .

(٣) في ق ، وكذلك في ل ١٩٠ : بنفسه .

(٤) في الأصل : الاثنا عشر . وما هنا من ل ١٩٠ .

قال ابن أبي طى : فأذن المؤذنون ^(١) في منارة الجامع وغيره بحى على خبر العمل وصلى أبى فى الشرقية مسبلاً ، وصلى وجوه الحلبيين خلفه ، وذكروا فى الأسواق وقدام الجناز بأسماء الأئمة ، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات ، وأذن للشرى فى أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه ، وفعلوا جميع ما وقعت الأيمان عليه ^(٢) .

فصل

قال ابن أبى طى : وكانت هذه السنة شديدة البرد كثيرة الثلوج عظيمة الأمطار هاجمة الأهوية ؛ وكان السلطان قد جعل أولاد الداية علالة له وسببا يقطع به السنة من ينكر عليه الخروج إلى الشام وقصد الملك الصالح ، ويقول : أنا إنما أتيت لاستخلاص أولاد الداية وإصلاح شأنهم .

وأرسل السلطان إلى حلب رسولا يعرض بطلب الصلح ، فامتنع كشتكين ، فاشتد حينئذ السلطان فى قتال البلد .

وكانت ليالى الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضى إلا بنصب الجبائل للسلطان والفكرة فى مخاتلته وإرسال المكروه إليه . فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية فى إرصاد المتائف للسلطان وإرسال من يفتك به ، وضمنوا له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى . فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان ، فجاءوا إلى جبل جوشن واختلطوا بالعسكر ، فعرفهم صاحب بوقيس ^(٣) لأنه كان مثاغراً لهم ، فقال لهم : يا ويلكم : كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلى فيه ! فخافوا غائلته فوثبوا عليه فقتلوه فى موضعه ، وجاء قوم للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض . وبدر من

(١) فى الأصل : المؤذن . وما هنا من ل ١٩٠ ب .

(٢) وكانت حلب دائماً مركزاً من مراكز النشاط الاسماعيلى وقد تقدم هنا ، وفى حوادث سنة ٥٥١ هـ أدلة على ذلك . وفى أيام رضوان بن تنش التف الشيعة حوله وأيدوه فى نضاله ضد دمشق التى كانت لأخيه دقاق مشرطين لإقامة الشعائر الدينية طبقاً لتعاليمهم . وقد وافقهم على ذلك وزاد فدعا للخليفة الفاطمى على منبر حلب بضعة أسابيع . انظر تفصيل هذا فى ذيل تاريخ دمشق لأبى يعلى بن القلاسى .

(٣) وأبو قبس : حصن يقابل شيزر : معجم البلدان : ١ : ٩٥ .

الحشيشية أحدهم وييده سكينه مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه ، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه (١١٨٨) طفريل أمير جاندار^(١)، ققتله ، وطلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة .

قال : ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية كاتبوا قص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب . وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم^(٢) ، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين . فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكك ألف أسير .

واتفق في أول هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرها^(٣) ، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم^(٤) فعظم شأنه وزاد خطره . فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين ، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحدة ، فقال السلطان : لست ممن يرهب بتألب الفرنج وها أنا [ذا] سائر إليهم . ثم أنهى قطعة من جيشه وأمرهم بقصد أنطاكية ، فغنموا غنيمة حسنة وعادوا ؛ فقصد القمص جهة حصص فرحل السلطان من حلب إليها ، فسمع الملعون فنكص راجعا إلى بلاده ، وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ، ووصل إلى حصص فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله .

قال : وفي فتح قلعة حصص يقول العماد الكاتب من قصيدة ، وستأتي :

(١) الجاندارية : فئة من المالك الملحقه بخدمة السلطان أو الأمير ، ومثلها الخاصكية ؛ وجاندار فارسية تتركب من كلمتين : جان بمعنى سلاح ، ودار بمعنى ممسك . انظر : السلوك : ١ : ١٣٣ : حاشية : ١ نقلا عن صبح الأعشى وكذلك عن : Encyclopaedia of Islam .

(٢) وهو Raymond III ، وأسر معه عندئذ Bohemond II صاحب أنطاكية ، وكانت معركة حارم هذه في سنة ٥٥٩ هـ واشترك فيها جنود الامبراطور البيزنطي Manuel Comnenus . انظر ما تقدم من : ٣٣٩ ، وانظر كذلك : The Crusaders in the East, p. 189 .

(٣) وهو Amalric .

(٤) Boldwin III ، وكان طفلا في الثانية عشرة من عمره . وقد تولى الوصاية عليه عندئذ Raymond III صاحب طرابلس بعد مقتل الوصي الأول : Milo of Plancy . انظر : The Crusaders in the East , p. 213-214 .

إياب ابن أيوب نحو الشام على كل ما يرتجيه ظهور
بيوسف مصر وأيامه تفرّ العيون وتشفى الصدور
رأت منك حصص لها كافيا فواتك منها القوى العسير

ومن كتاب فاضليّ عن السلطان إلى زين الدين بن نجما الواعظ^(١) يقول في وصف قلعة حمص : « والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما في سحاب ، وعقبا في عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامة ، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألا يحلها بقرعه ، عاهدة عصمة صالحها الزمن على ألا يروعا بخلعها . فاكثفت بها عقارب منجنيقات لا تطيع طبع حمص في العقارب ، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأتارب ؛ فلم يكن غير ثلاثة من الحد إلا وقد أثرت فيها جدريا بضر بها ، ولم تصل السابع إلا والبحران منذر بنقبتها . واتسع الخرق على الراقع ، وسقط سعدهما عن الطالع ، إلى مولد من^(٢) هو إليها الطالع ؛ وفُتحت الأبراج فكانت أبوابا ، وسُيّرت الجبال بها فكانت سرايا . فهناك بدت نقوب يرى القائم^(٣) من دونها ما وراءها ، وحُشيت فيها النار فلولوا الشعاع من الشعاع أضواءها . »

ومن كتاب آخر فاضليّ عن السلطان إلى أخيه العادل^(٤) : « قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس (١٨٨ ب) ، وتكاثفت الجموع إلى الحد الذي يخرج عن العدّ . وبعد أن نرتب أحوال حمص ، حرسها الله تعالى ، نتوجه إلى حماة ؛ والله المعين على ما ننويه من الرّشاد ، وننظفه من طرق الجهاد . »

وقال العماد : لما سمع المدبرون للملك الصالح بإقبال صلاح الدين المؤذن بإدبارهم ، سقط

(١) تقدم شيء من التعريف به في ص : ٣١٢ حاشية : ٣ من هذا الكتاب .

(٢) في ل ١١٩١ : مو . ١١ .

(٣) في الأصل : قائم ؛ وكذلك في ل وفي ق . والمثبت أولى .

(٤) وكان عندئذ نائبا عن السلطان في مصر .

في أيديهم ، وراسلوا المواصله ^(١) وكتبوهم ، وأرسلوا إلى صلاح [الدين] ^(٢) بالإغلاظ والإحفاظ . وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان ، (وقد تجنب في قوله الإحسان) ^(٣) ، وقال له هذه السيوف التي ملكتك مصر ، وأشار إلى سيفه ، إليها تردك ، وعمّا تصدّيت له تصدّدك . فلم عنه السلطان واحتمله ، وتغافل كرمًا وأغفله ، وخاطبه بما أبي أن يقبله ، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور ، وتهذيب الجمهور ، وسدّ الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، واستنقاذ إخوة مجد الدين . فقال له : أنت تزيد الملك لنفسك ، ونحن لا نزع في قوسك ، ولا نأنس بأنسك ، ولا نرتاع لجرسك ، ولا نبني على أسك ؛ فارجع حيث جئت ، أو اجهد واصنع ما شئت ؛ ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع ، ولا تطلع حيث ما السعودك فيه مطمع . ونال من تقطيع القطب ينال ، كلّ ما أحال الحال ، وأبلى البال ، وأبدى له التبسّم وأخفى الاحتمال .

ثم إنه استناب أخاه سيف الإسلام طغتكين بدمشق ، وسار بالمسكر ونزل على حمص ، فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى ، وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها . ورحل إلى حماة ، فأخذها مستهلّ جمادى الآخرة .

ثم مضى ونزل على حلب ، فحصرها ثالث الشهر ؛ فلمّا اشتد على الحلبيين الحصار ، وأعوزهم الانتصار ، استغاثوا بالاسماعيلية ^(٤) وعينوا لهم ضياعا ، وبذلوا لهم من البذول أنواعا ، فجاء منهم في يوم بارد شات ، من فُتّا كههم كل عات ؛ فعرفهم الأمير ناصح الدين خارتكين صاحب بوقبيس ، وكان مئاغرا للاسماعيلية ، فقال لهم : لأىّ شىء جئتم ، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم ا فقتلوهم ، وجاء من يدفع عنه فأئخنوه ، وعدا أحدهم ليهمجم على السلطان في مقامه ، وقد شهر سكين انتقامه ، وطفريل أمير جاندار واقف

(١) يعنى أهل الموصل ؛ وأميرهم عندئذ سيف الدين غازى الثانى بن مودود بن زنكى ، وهو ابن عم الملك الصالح اسماعيل ، حكم بين سلقى ٥٦٥ - ٥٧٦ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١١٩١ .

(٣) ساقطة من ل ١١٩١ ، وكذلك من ق .

(٤) المقصود بهم الحشيشية أصحاب مصياف ، وهى حصن الاسماعيلية بساحل الشام قرب طرابلس : معجم البلدان ٤ : ٥٥٦ .

ثابت ؛ ساكن ساكت ، حتى وصل إليه ، فشم بالسيف رأسه ، وما قتل الباقون حتى قتلوا عدة ، ولأق من لاقاهم شدة .

وعصم الله حشاشته في تلك النوبة من سكاكين الحشيشية ، فأقام إلى مستهل رجب ، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قومص طرابلس ، وقد كان في أسر نور الدين مذكرة حارم ، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين ، ثم فدى نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار ، فكذلك ألف أسير ، فتوجه في الإفرنجية إلى حمص ، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه ، خوفا مما يقع فيه ويتم عليه .

ومن كتاب فاضلي (١٨٩) عن السلطان إلى العادل : « قد أعلنا المجلس أن العدو ، خذله الله ، كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم ، واستطالوا^(١) على الإسلام بعدوانهم ، وأنه خرج إلى بلد حمص ؛ فوردنا حماة ، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاءه . فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بجبله مفتضحا بجبله . وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب ، وظنر وإن كان قد كفى الله [تعالى] فيه القتال المحسوب ، فإن العدو قد سقطت حشمته ، وانحطت فيه همته ، وولى ظهرا كان صدره يصونه ، ونكس صليبا كانت ترفعه شياطينه » .

وقال العماد في الخريدة : لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب بن أسعد^(٢) بقصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلى الكرى ألا ليطرقه الخيال إذا سرى
كيف بقربكم ، فلما عاقه بعد المدى سلك الطريق الأخضر
ومودع أمر التفرق دمعاه ونهته رقة كاشح فتحيرا
ومنها في المديح :

(١) في ل : ١٩١ ب واستصالوا .

(٢) جمع مطلب : وهو الكتيبة في الجيش . ومعناه الأصلي الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، وأطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . انظر السلوك : ١ : ٢٤٨ : حاشية : ٢ :

(٣) عبد الله بن أسعد الموصل الشافعي . يقول العماد في الخريدة : قسم شعراء الموصل ، ونقله ناشرو قسم شعراء مصر : ١ : ١٧٤ : حاشية : ٤ : « هو الفقيه المدرس بمصر ، وقد سارت كافيته بين فضلاء الزمان كافة ، فشهدت بكفايته ، وسجلت أن أهل العصر لم يبلغوا إلى غايته » .

تُردى الكتائب كتبه ، فإذا غدت لم يُدَر : أنفذ أسطراً أم عسكراً !
لم يحسن الإتراب فوق سطورها إلا لأن الجيش يعقد عشيراً^(١)
فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين : هذا الذى يقول :

* والشعر مازال عند الترك متروكا *

فمَجَّل جائزته لتكذيب قوله وتصديق ظنه ، فشرَّفه وجمع له بين الخلعة والضيعة :
وعنى الفاضل ما قاله فى قصيدته فى مدح الصالح بن رزك التى أولها :
* أما كفالك تلافى فى تلافيك *

يقول فيها :

يا كعبة الجود ، إنَّ الفقر أفعدى ورقة الحال عن مفروض حجيك
من أرتجى ، يا كريم الدهر ، ينعشنى جدواه ، إن خاب سعى فى رجائك
أمدح الترك أبنى الفضل عندهم والشعر مازال عند الترك متروكا !
أم أمدح الشوق النوى لرفدهم . واضيعةً إن تخطتنى أيديكا !
لا تتركنى ، وما أملت فى سفرى سواك ، أقفل نحو الأهل صعلوكا
قلت : وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا فى أخبار سنة ثمان وخمسين^(٢) ، وسيأتى من
شعره أيضاً فى أخبار سنة ست وسبعين ، وثمان وسبعين .
وما أحسن ما خرج ابن الدهان^(٣) من الغزل إلى مدح ابن رزك فى قوله من
قصيدة أولها :

إذا لاح برق من جنابك لامع أضاء لَوَاشٍ ما تُجَنُّ الأضالِع
[يقول فيها]^(٤) :

تمادى بنا فى جاهلية نحلها وقد قام بالمعروف فى الناس شارع
وتحسب ليل الشح يمتد بعدما بدا طالعا شمس السخاء طلائع

(١) فى الأصل : عسيراً ، وفى ل ١٩٢ : عشيراً ، والثبت هنا هو الصحيح .

(٢) انظر ص : ٣٢٠ - ٣٢٢ من هذا الكتاب .

(٣) وهو ابن أسعد الموصل الذى يدور الحديث عنه هنا .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٩٢ .

فصل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء^(١) إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتابا (١٨٩ ب) طويلا رائقا فائقا ، يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين ، ثم فتح مصر واليمن ، وبلاد حجة من أطراف المغرب ، وإقامة الخطبة العباسية بها . يقول في أوله للرسول :

« فإذا قضى التسليم حق اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء ، فليُعَدَّ وليعَدَّ حوادث ما كانت حديثا يفترى ، وجواري أمور إن قال فيها كثيرا فأكثر منه ما قد جرى ؛ وليشرح صدرا منها لعله يشرح منا صدرا ، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يُعبد سرا :

ومن الغرائب أن تسير عرائب في الأرض لم يعلم بها المأمول

كالعيس : أقتل ما يكون لها الصدى والماء فوق ظهورها محمول

فإننا كنا نقبّس النار بأ كفنا وغيرنا يستدير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير ؛ ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير . ولا بد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغُصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب . وما كان العائق إلّا أنا كنّا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة ، يضاهي ابتداءنا بالخدمة ، وإنجابا للحق ، يشاكل إنجابنا للسبق . كان أول أمرنا أنّا كنا في الشام نفتتح^(٢) الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار مُتقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا . فأى مدينة فُتحت ، أو معقل مُلك ، أو عسكر للعدو كُسر ، أو مصاف^(٣) للإسلام معه ضرب (ولم نكن فيه)^(٤) . فما يجهل أحد

(١) محمد بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي وهو الذي خطب على منبر مصر سنة ٦٧٠ هـ للعباسيين وأسقط اسم الفاطميين من الخطبة .

(٢) في ل ١٩٢ ب : نفتتح .

(٣) المصاف : جمع مصف ، وهو الموقف في الحرب والإصطفاف للقتال .

(٤) ساقط من ل ١٩٢ ب وكذلك من ق .

صنعنا ، ولا يحدد عدونا أنا نصطلي الجرة ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ،
وندبر التعبئة ، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون
لغيرنا ذكرها .

«وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير ، وبما دولتها عليه
من غلبة صغير على كبير ، وأن النظام بها قد فسد ، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل
من قام وقعد . والفرنج قد احتاج من يدبرها^(١) إلى أن يقاطعههم بأموال كثيرة ، لها مقادير
خطيرة ؛ وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مجموعة ، وأحكام الشريعة وإن
كانت مسماة فإنها متحامة . وتلك البدع بها على ما يعلم ، وتلك الضلالات فيها على ما يفتي
فيه بفراق الإسلام ويحكم ؛ وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الأنصاب
قد نصبت آلهة تُعبد من دون الله وتعظم وتغشم ؛ فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غره
تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . فسمت هممتنا دون هم أهل الأرض إلى أن^(٢) نستفتح
مُقلِّها ، ونسترجع للإسلام شاردها ، ونعيد على الدين ضالته منها . فسرنا إليها في عساكر
ضخمة ، وجموع جمة (١٩٠) ، وبأموال انتهكت الموجود ، وبلغت منا المجهود ، أنفقناها
من حاصل ذمنا وكسب أيدينا ، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا ؛ فعرضت عوارض
منفعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستنجد الفرنج قطعت ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ،
ولِكُلِّ أَمَلٍ بَاب . وكان في تقدير الله تعالى أننا نملكها على الوجه الأحسن ، ونأخذها
بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وخبطها ،
وعلم أن استئصال كلمة الإسلام محطها . فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما
كاتبنا المسلمون في الشام في هذا الأوان ، بأننا إن لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد ،
وإن لم ندفع غريم اليوم لم ننهل إلى الغد . فسرنا بالعساكر المجموعة ، والأمراء الأهل^(٣)
المعروفة ، إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران ، وتقرر لنا في القلوب ودان : الأول ما علموه من
إيثارنا للمذهب الأقوم ، وإحياء الحق الأقدم ؛ والآخر ما يرجونه من فك أسارهم ؛

(١) في الأصل : تدبرها ، وما هنا من ل ١٩٢ ب .

(٢) في الأصل : التي نستفتح .. الخ ، والمثبت هنا من ل ١٩٢ ب .

(٣) المثبت هنا من ل ١٩٣ وفي الأصل : وأمراء الأهل .

وإقالة عثارهم . ففعل الله ما هو أهله ، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله ، وضائق به سبله ، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورسايقها^(١) ، وبلادها وأقاليمها ، قد نفذت فيها أوامره ، وخفقت عليها صلبانه ، ونصبت بها أوثانه ، وأيس من أن يُسترجع ما كان بأيديهم حاصلًا ، وأن يُستنقذ ما صار في ملكهم داخلًا . ووصلنا البلاد وبها أجناد عديم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكثرتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة في السرّ فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر ؛ وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف ، كلهم أغنام أعجم ، إن هم إلا كالأنعام ، لا يعرفون ربًّا إلا ساكن قصره ، ولا قبلة إلا مايتوجهون إليه من ركنه ، وامثال أمره ؛ وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة ، وحة وحمية ؛ ولهم حواشٍ لقصورهم من بين دايغ^(٢) تتلطف في الضلال مداخله ، وتصيب القلوب مخاتله ، ومن بين كُتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل ، وخُدّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ؛ ودولة قد كبر نملها الصغير ، ولم يعرف غيرها^(٣) الكبير ، ومهابة تمنع من خطرات الضمير^(٤) ، فكيف بخطوات التدبير . هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة ، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مُراد الله بالتنزيل ، وكفرٍ سُمي بغير اسمه ، وشرعٍ يتستر به ويحكم بغير حكمه . فما زلنا نسحقهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحييف الليل والنهار ، بمعجائب تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير لا (١٩٠ ب) تحملها الأساطير ، ولطيف توصّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة للمقادير . وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج ، دفعة إلى بلبس ودفعة إلى دمياط ، وفي كلّ دفعة منهما وصلوا بالعدد الجهر ، والحشد الأوفر ، وخصوصا في نوبة

(١) جمع رستاق : لفظ فارسي معناه القرية أو حلة العسكر أو البلد التجاري . وتعريبها : الرزداق

وجمعها الرزداقات والرزاديق . النظر : السلوك : ١ : ١٣٠ : حاشية : ٢ .

(٢) يقصد به الداعي إلى المذهب الفاطمي أو الاسماعيلي .

(٣) في الأصل : غرما ، وأمامها في الهامش تعلية نصها : قال المؤلف : لعله يعرف غيرها . والثبت هنا من ل ١٩٣ .

(٤) في ل ١٩٣ : تمنع ما يكنه الضمير ، وهي كذلك في ق .

دمياط ، فإنهم نزلوها بحراً في ألف مركب ، مقاتل وحامل ، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل ، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ، ويماسونها ويصاحبونها ، القتال الذي يصلبه الصليب ، والقراع الذي ينادى به الموت من (كل)^(١) مكان قريب . ونحن نقاتل العدوين^(٢) الباطن والظاهر ، ونصابر الضَّـرَّـرِينَ^(٣) المنافق والكافر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين والفرنج ، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد ، فأخرجناهم من القاهرة ، تارةً بالأواسر المهرقة لهم ، و [تارةً]^(٤) بالأمور الفاضحة منهم ، و [طوراً]^(٥) بالسيوف المجردة ، وبالنار المحرقة ، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه ، وتمزقت بدعه ، وخففت دعوته ، وخفيت ضلالتة ؛ فهناك تم لنا إقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأسود المعظم^(٦) ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه [وفنائها]^(٦) ، وبرأنا من عهدته يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه ، لأنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته . ولما خلا درعنا ، ورحب وسعنا ، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار ، فلم تخرج سفة إلا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، إلى أن أو سعنناهم قتلا وأسرا ، وملكنا رقابهم قهرا وقسرا ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها منذ أخذت من أيديهم ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذملكها أعاديهم . ففنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو السلوك منه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم ، فساء منه خلقا ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا ، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام ؛ أن يقوم به من ناره غير برِّد وسلام ، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرقة من لا يدين بما جاء به من

(١) ساقطة من ل ١٩٣ ب .

(٢) في الأصل : في العدوين ؛ ولا لزوم لحرف الجر ، فأستغناه طبقا لما جاء في ل ١٩٣ ب .

(٣) في ل ١٩٣ ب : الضدين ، وكذلك في ق .

(٤) ساقطة من الأصل وكذلك من ل ١٩٣ ب ، وكذلك من نسخة ق ، والسياق يقتضيها .

(٥) في ل ١٩٣ ب : الأعظم .

(٦) ساقطة من الأصل ومن ل ١٩٣ ب .



الإسلام . فأخذت هذه القلعة وصارت معقلاً للجهاد ، وموئلاً لسفّار البلاد ، وغيرهم من عبّاد العباد .

ثم قال : « وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال الملحد ، المبدع المتمرد ، وله آثار في الإسلام ، وثأر طالبه النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات ، وباعهن بالثمن البهخس ، واستباح منهن (١٩١) كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس ؛ ودان ببذعة ، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها ، وأحلّ الفروج الحرّمة وأباحها . فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا نفقات واسعة ، وأسلحة رائعة ؛ وسار فأخذناه والله الحمد ، وأنجّح الله فيه القصد ؛ والسكامة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية ، وإلى ما يفتيّض الإسلام عذرتة متمادية . »

« ولنا في الغرب أثر أغرب ، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب ؛ وذلك أن بنى عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر ، وملكهم قد عُمر^(١) ، وجيوشهم لا تطاق ، وأمرهم لا يشاق ، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر ، فرجع بنصر بعد نصر . ومن البلاد المشاهير ، والأقاليم الجاهير : برقة^(٢) ، قفصة^(٣) ، قسطنطينية^(٤) ، تونز^(٥) ؛ كلّ هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله ، أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ؛ ولا عهد للإسلام بإقامتها ، وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها . »

« وفي هذه السنة كان عندنا وفدٌ قد شاهدته وفود الأمصار ، ورموه بأسماع وأبصار ،

(١) الضبط من نسخة الأصل .

(٢) يعرفها ياقوت بأنها إقليم ومدينة ، بين الاسكندرية وإفريقية : معجم البلدان : ٢ : ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣) في طرق إفريقية من ناحية المغرب : نفس المصدر : ٧ : ١٣٨ .

(٤) أكثر بلاد إفريقية لإنتاجاً للتمر : نفس المصدر : ٢ : ٤٢٨ ؛ ٧ : ٨٨ .

(٥) في أقصى إقليم إفريقية بينها وبين نقطة عشرة فراسخ ، وهي من إقليم قسطنطينية . نفس المصدر :

٢ : ٤٢٨ - ٤٢٩ .

مقداره سبعون رأكبا ، كلهم يطلب اسلطان بلده تقليدا ، ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا ؛ وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها ، وألقيت إلينا مقاليدها ، وسيّرنا الخلع والمناشير والألوية ، بما فيها من الأوامر والأقضية . فأما الأعداء المحدثون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية ، وهو الطاغية الأكبر ، والجالوت الأكر ، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، جرّت لنا معه غزوات بحرية ، ومناقلات ظاهرة وسريّة ، ولم يخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين ، بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح ، وإلقاء السلاح ، والانتقال من معاداة إلى مهاداة ، ومن مفاضة إلى مناصرة ، حتى إنه أئذّر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها ، وعساكره التي لم يخف أمرها .

« ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية ، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعما في نوبة دمياط فغلبا وقسرا ، وهزما وكسرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمّر أسطولا استوعب فيه ^(١) ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تكثّر عدّته ، وتتنخب عدّته ، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع ، وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل (١٩١ ب) حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ؛ وما هو إلا إقليم ، بل أقاليم ، نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله . »

« ومن هؤلاء الجيوش البنادقة ، والبياشنة ، والجنوية ^(٢) كلّ هؤلاء تارة يكونون ^(٣) غزاة لا تطاق ضراوة ضرّهم ، ولا تُطفأ شرارة شرّهم ، وتارة يكونون ^(٤) سفّاراً يحتمون على الإسلام في الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ،

(١) في الأصل : استوعب فنه ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٤ .

(٢) البنادقة : أهل مدينة البندقية ، أو فينيسيا ؛ والبياشنة من مدينة بيزا ، والجنوية أهل جنوة ؛ وكلها من المدن الإيطالية التي اشتهرت بنشاطها التجاري البحري ، ومن ثم بنشاطها في ميداني الحرب والسياسة أيضاً ، في العصور الوسطى .

(٣) في الأصل : تكون ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٤ .

(٤) في الأصل : يكونوا ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٤ .

وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده ؛ وكلهم قد قُرت معهم المواصله ، وانتظمت معهم المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ، وعلى ما نُؤثرُ وَهُمْ لا يُؤثرون .

« ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية ، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة ، والمساكر قد تجهزت ، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج [على] ^(١) بانياس ، وأشرفوا على اجتيازها ورأوها فرصة مدّوا يَدَ انتهازها ، استصرخ بنا صاحبها ، فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها .

« ثم عدنا إلى البلاد وتوافت إلينا الأخبار بما المماسكة النورية عليه من تشبُّب الآراء وتوزعها ، وتشبُّت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم ، وعُوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور ^(٢) ، وجعلوا للقيام لا للعود في المجلس المحضور ، قدموا الأيدي والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً . وعلما أن البيت المقدس إن لم تتيستر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يُجرد العزم في قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ؛ وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالعود آثمة . وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخليل مستريحة ، والمساكر كثيرة الجوع ، والأوقات مساعدة . وأصلحنا ما في الشام من عقائد معيّلة ، وأمور مخيّلة ، وأراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ؛ وأطاع غالبه ، وعقول غائبة ، وحفظنا

(١) ما بين الحاصرين من ل ١٩٤ ب .

(٢) في ل ١٩٤ ب : الذين خلقوا للأطراف لا للصدور .

الولد القائم بعد أبيه ، فإننا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويُظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه .

والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد (١٩٢) ؛ وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما^(١) تطبيقه العهد^(٢) ، وهو تقليد جامع بمصر ، واليمن ، والمغرب ، والشام ، وكل ما^(٣) تشمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا ، ولئن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا ، تقليدا يضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا ، مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك . وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشرح حتى يملوا ، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يحلوا . وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويد كل مؤمن تحت برده ، واستنقذنا أسيرا من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبدته .

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى الديوان في تعداد ماله من الأيادي ؛ قال :
« والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوخها ، وسنن الضلال التي نسخها ، وعقود الإلحاد التي فسخها ، ومنابر الباطل التي رخصها ، وحجج الزندقة التي دحضها ؛ فله عليه المنة فيه إذ أهله لشرف مشهده ، وما فعله إلا لوجهه ، ويد الله كانت عون يده ؛ وإلا فقد مضت^(٤) الليالي والأيام على تلك الأمور وما تحركت للهلك^(٥) في قلعبا نابضة ، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة . فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها ، أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفار ، وقد عاد الإسلام إلى وطنه ، وصوتحت^(٥) من الكفر خضراء دمنه . »

(١) في الأصل ، وفي ل ، وكذلك في ق : كلها .

(٢) في الأصل : العباد . والمثبت هنا من ل ١٩٤ ب .

(٣) في ل ١٩٥ : قبضت .

(٤) المثبت هنا من ل ١٩٥ وفي الأصل : ما تحركت للهلك .

(٥) صوتحت : ذبلت . القاموس المحيط .

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه : « حتى أتى الدنيا ابن بجدتها ، فقضى من الأمر ما قضى ، وأسخط من الله في سُخطه رضا ، وجعل وجهه لابس السواد مُببضا ، فأدرك لهم بثأر نامت عنه المهمة ، ودوّخت عليه الأمم ، وشفى الصدور ، وجاء بالحق إلى من غره بالله الغرور ، واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور » .

ومن كتاب آخر : « قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها ، وأمضى في الأعداء شعارها ، وجمع عليها الدين وكان أديانا ، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا » .

ومن كتاب آخر : « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعد كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله تعالى في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام ، المملوك بعسكرى برّه وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووغره . فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما ، وحدثت بعد الأمور أمور ، اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت نفور ، وتحكمت الآراء الفاسدة ، (١٩٢ ب) وفُورقت الحاج القاصدة ، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين ، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين ؛ والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد ، وكانت سيوفهم للنصر موارد ، يشكون ضيق حلقات الأسار ، وتطرق الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية . ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا ، واستنجدوا أنصار النصرانية في الأقطار ، وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بقمامة ، وهددوا طاغية كفرهم بأشرار القيامة ، وأنفذوا البطارقة والقسيسين ، برسائل صور من يصورونه ممن يسمونهم القديسين ؛ وقالوا إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارطه . وإن كلا من صاحب قسطنطينية ، وضاحب صقلية ، وملك الألمان ، وملوك ما وراء البحر ، وأصحاب الجزائر ، كالبندقية ، والبشانية ، والجنوية ، وغيرهم ، قد تاهبوا بالعمائر البحرية ، والأساطيل القوية . وللإسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر ، لا سيما وهم ينصرون باطلا وهو ينصر حقا ، وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا » .

فصل

قال العماد : وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية في نور الدين ، فنظمت بعد عودى

إلى دمشق في رجب :

والدهر في غم لفقد أميره	الدين في ظلم لغيبة نوره
والشام حافظ ملكه وثغوره	فليندب الإسلام حامى أهله
إذ كان هذا الخطب في مقدوره !!	ما أعظم المقدار في أخطاره
قررت نواظرهم بفقد نظيره	ما أكثر المتأسفين لفقد من
أو ما كفاه الموت في تذكيره ؟	ما أعوص ^(١) الإنسان في نسيانه
لله طوعا عن خلوص ضميره	من للمساجد والمدارس بانيها
فلقد أصيب برؤيته وظهيره	من ينصر الإسلام في غزواته
من للهدى يبغي فكاك أسيره	من للفرنج ، ومن لأسر ملوكها
من للزمان مسهلا لوعوره	من للخطوب مذلا لجاحها
من مشرق في الداجيات بنوره	من كاشف للمعضلات برأيه
من لليتيم ، ومن لجبر كسيره	من للكريم ، (و) ^(٢) من لنعش عثاره
من للجهاد ، ومن لحفظ أموره	من للبلاد ، (و) ^(٣) من لنصر جيوشها
برواجه في غزوه وبكوره	من للفتوح محاولا أبكارها
ووفوده ، من للجبج ووفوره	من للعلا وعهودها ، من للندى
ينخبو وليل الشرك في ديمجوره	ما كنت أحسب نور دين محمد
يخلو الشرى ^(٤) من زوره وزثيره	أعزز على بليت غاب للهدى
عن محفل متشرف بحضوره	أعزز على بأن أراه مقيبا

(١) في ل ١٩٥ ب : ما أغوس .

(٢) ساقطة من ل ١٩٥ ب .

(٣) المرمى : مكان تكثر فيه الأسد . القاموس المحيط .

لهفى على تلك الأنامل ، إنها
ولقد أتى من كنت تُجرى رسمه
ولقد أتى من كنت تكشف كربه
ولقد أتى من كنت تؤمن سر به
ولقد أتى من كنت تؤثر قربه
والجيش قد ركب الغداة لعرشه
أنت الذى أحييت شرع محمد
كم قد أقت من الشريعة معلما
كم قد أمرت بحفر خندق معقل
كم قيصير للروم رُمّت بقصره
أوتيت فتح حصونه ، ومككت عقه
أزهدت فى دار الفناء وأهلها
أو ما وعدت القدس أنك منجز
فتى تجير القدس من دنس العدا
يا حاملين سريرته : مهلا ، فمن
يا عابرين بنعشه : أنشقتُم
نزلت ملائكة السماء لدفنه
ومن الجفاء له مقامى بعده
حياتك معتل الصبا بنسيمه
ولبست رضوان المهيمن ساحباً
مُد غيبت غاض الندى ببحوره
فضع العلامة ^(١) منك فى منشوره
فارفع ظلامته بنصر عشيره
وقّع له بالأمن من محذوره
فأدم له التقريب فى تقريره
فاركب لتبصره أوان عبوره
وقضيت بعد وفاته بنشوره
هو منذ غبت معرض ^(٢) لدثوره
حتى سكنت الأحمد فى محفوره
إزواء بيض الهند من تاموره ^(٣)
ر بلادته ، وسيت أهل قصوره
ورغبت فى الخلد المقيم وحوره
ميعاده فى فتحه وظهوره
وتقدس الرحمن فى تطهيره
عجب نهوضكم بحمل ثبيره ^(٤) ؟
من صالح الأعمال نشر عبيده ؟
مستجمعين على شفيع حفيده
هلا وفيت وسرت عند محيده
وسقاك منهل الحيا بدوروره
أذبال سندس خزّه وجريده

(٢) العلامة السلطانية : التوقيع الذى يوقع به السلطان على المنشورات والمراسلات والكتب ، وكانت فى العادة اصطلاحاً ، آية قرآنية أو قولاً مأثوراً ، وقد تكون اسم السلطان . وكانت علامة السلطات صلاح الدين فى كثير من المناسبات : « وما توفيق إلا بالله » ، يضمنها فى أعلى المكاتبات .
(٣) فى ل ١٩٥ ب معرضاً .

(١) التامور : النفس وحياتها ، والقلب وجنته وحياته ودمه . القاموس المحيط .

(٢) ثبير : من أعظم جبال مكة ، بينها وبين عرفة . معجم البلدان : ٣ : ٨٠٦ .

وسكنت عُلَيَّين في فردوسه حلف المسرّة ظافرا بأجوره
قال العباد : وجاء نجات إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق
بالكسوة وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الخطوة ؛ فهاجنى الطرب لقصده ،
لسابق معرفته وقديم ودّه ؛ فقدمت دمشق على طريق البرية ، والسلطان
على حلب .

وكان العباد في عقايل [ألم]^(١) ، فلما شفى وعاد السلطان إلى حمص قصده فيها وقد تسلم
قلعتها في شعبان ، في الحادى والعشرين منه .

قال : وكنت نظمت قصيدة في الشوق إلى دمشق والتأسف عليها ، ثم جعلت مدح
السلطان مخلصها ، وهى طويلة ، أولها :

أجبران « جَيرون » مالى مجير	سوى عطفكم ، فاعدلوا أو فجورا
ومالى سوى طيفكم زائر	فلا تمنعوه إذا لم تزوروا
يعزّ على بأنّ الفؤاد	لديكم أسيرٌ وعنكم أسير
وما كنت أعلم أنّي أعيد	شُ بعد الأحبة ، إنّي صَبُورا
وقت أدعى ، غير أنّ الكرى	وقلبى ، وصبرى ، كلّ غَدُور
إلى ناس « بأناس » لى صبوة	لها الوجد داغ وذكري مشير
يزيد اشتياقى وينو ، كما	« يزيد » ^(٢) « يزيد » ^(٣) « ثورا » ^(٣) يشور
ومن « بردى » ^(٤) برّ دُقلبي المشوق	فها أنا من حرّة مستجير
و « بالمرج » مرّ جوّ عيشى الذى	على ذكره العذب عيشى مرير

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٩٦ .

(٢) نهر بدمشق ينسب إلى يزيد بن معاوية السفيانى . معجم البلدان : ٨ : ٣٤٧ . ويقع في لطف جيل
فاسيون : نفس المصدر : ٢ : ١١٨ (مادة بردى) .

(٣) نهر بدمشق ويسمى أيضاً ثورة ؛ شمالي بردى . ويفترق ماء بردى عند قرية دمر ثلاثة أقسام ،
أغلبها في ثورا ، والثاني لبأناس ، وثالثها لبردى نفسه . ثم تخرج الثلاثة بالوادي والفوطة ثم يظهرا
حتى يصب بردى في بحيرة المرج شرق دمشق ، ويجاوره من الشمال نهر ثورا . معجم البلدان : ٢ : ١١٨ - ١١٩ .
(مادة بردى) . ٢٦ : ٣٤ .

(٤) معجم البلدان : ٢ : ١١٨ - ١١٩ .

فقدتكم ففقدت الحياة ويوم اللقاء يكون النشور
تطاول لسؤلى عند «القُصير»^(١) فمن نيله اليوم باعى قصير
(١٩٣ب) وكنلى يريدأ «باب البريد»^(٢) فأنت بأخبر شوق خبير
متى تجد الرى «بالقريتين»^(٣) خوامص^(٤) أثر فيها الهجير
ونحو «الجليجل»^(٥) أُرْجى المطى لقد جلّ هذا المرام الخطير
رأى أنيخ بأدى «ضمير»^(٦) مطايا براها الوجا والضمور
وعند «القطيفة»^(٧) المشتهاة قطوف بها للأمانى سفور
ومنها بكورى نحو «القُصير» ومنية عمرى ذاك البكور
ويأطيب بشرى من «جلق»^(٨) إذا جاءنى بالنجاح البشير
ويستبشر الأصدقاء الكرام هنالك بى ، وتوفى النذور
ترى بالسلامة يوما يكون «بيات السلامة»^(٩) متى عبور
وإن جوازى «باب الصغير» كعمزى من العمر حظّ كبير
وماجنة الخلد إلا دمشق وفى القلب شوق إليها سفير
ميادينها الخضر فيح الرّحاب وساسلها العذب صافٍ نيمر

- (١) هى أول منزل لمن يخرج من دمشق فى طريقه إلى حمص . وهناك قصير بنور الأردن ، وثالثة على البحر الأحمر من أرض مصر كانت مرفأً لاسفن القادمة من اليمن والذاهبة إليها . معجم البلدان : ٧ : ١١٥ .
(٢) من أبواب جامع دمشق وكان من أنزه المواضع بها . نفس المصدر : ٢ : ١٤ .
(٣) من أعمال حمص فى طريق البرية : نفس المصدر : ٧ : ٧٠ .
(٤) فى ل ١٩٦ : خوامص .
(٥) فى ل ١٩٦ : الجليجل . فى طريق البرية من دمشق على مرحلتين منها لمن يريد العرق : معجم البلدان : ٣ : ١٣١ .
(٦) حصن وقرية فى آخر حدود دمشق مما إلى السبوة : نفس المصدر : ٥ : ٤٤١-٤٤٢ .
(٧) قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق فى طرف البرية من ناحية حمص : نفس المصدر : ٧ : ١٣١ .
(٨) تطلق على القوطة كلها ، وعلى دمشق ؛ وهى موضع بقرية من قرى دمشق . نفس المصدر : ٣ : ١٢٦ - ١٢٨ .
(٩) شمالي دمشق ، سمى بذلك لصعوبة القتال عنده لما دونه من الأشجار والأنهار . تهذيب تاريخ دمشق : ١ : ٢٦٢ .

وجامعها الرّحب والقبة الـ مُنيّفة والفلك المستـدير
وفي قبة النسرلى سـادة بهم للكارم أفق منـير
«وباب الفراديس»^(١) فردوسها وسكانها أحسن الناس حور
والارزة فالسهم «فالنيربان»^(٢) فجئات «مزتها»^(٣) «فالكفور»
كأن الجواسق مأهولة بروج تطلّع منها البدور
«بنيربها» تستجير الموم بربوتها يترقى السور
وما غرّ في الرّبوّة العاشق ن بالحسن إلّا الرّيبب الغرير
وعند «المسارة» يوم الخيس أغار على القلب متى مغير
وعند «المنيع»^(٤) عين الحياة مدى الدهر نابضة ماتفور
«بجسر ابن شواش»^(٥) ثم السكون لنفس ، بنفسى تلك الجسور
وما أنس لا أنس أنس العبور على جسر «جسرين»^(٦) إني جسور
وكم بتّ ألهو بقرب الحيد ب في «بيت لينا»^(٧) ونام الغيور
فأين اغتباطى «بالغوطتين» وتلك الليالى وتلك العصور
وأشجار «سطرا»^(٨) بدت كالسطو ر ، نمتقنّ البليغ البصـير
وأين تأملت فلك يدور وعين تفور ، وبحر يمور
وأين نظرت نسيم يرقّ وزهر يروق ، وروض نصير

- (١) نسبة إلى محلة الفراديس ، وقد تخربت ؛ ويقع شمالى دمشق . نفس المصدر .
(٢) وهى أيضا النيرب ، وسط بساتين دمشق على نصف فرسخ منها . معجم البلدان : ٨ : ٣٥٥ .
(٣) وسط بساتين دمشق أيضا ، على نصف فرسخ من المدينة . نفس المصدر : ٨ : ٤٧ .
(٤) محلة وسويقة وأفران وحمام ، وهى من محاسن دمشق . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ١٧٩ : حاشية : ١ .
(٥) موضع في متزهات دمشق ينسب إلى رجل يعرف بشواش : معجم البلدان : ٦ : ٣٠٤-٣٠٥ .
(٦) من قرى غوطة دمشق : معجم البلدان : ٣ : ١٠٦ .
(٧) يذكر ياقوت أن صحته : بيت الآلهة ، من قرى النوطة . نفس المصدر : ٢ : ٣٢٤-٣٢٥ .
(٨) من متزهات الغوطة بدمشق : نفس المصدر : ٥ : ٨٢ .

إلام القساوة يا « قاسيون »^(١) وبين السنا يتجلى « سنير »^(٢)
 ومُنْذُ تَوَى نورُ دينِ الإله ٥ لم يبق للدين والشام نور
 وللناس بالملك الناصر الصّ (م) لاح صلاح ونصر وخير
 هو الشمس ، أفلا كه في البلاد ومطلعه سرجه ، والتسريـر
 إذا ماسطاً ، أوحبا ، واحتجى فما الليث ، من حاتم ، ماثـير
 بيوسف مصر وأيامه تفر العيون وتُشفي الصدور
 ملكت فأنشج ، فما للبلاد سواك مجرّ ومولى نصير
 وفي مِغْصَم الملك للعزّ منك سوارّ ، ومنك على الدّين سُور
 لك الله في كل ماتبتغيه بحقّ ظهير ، ونعم الظهير
 أمّا المفسدون بمصر عصوك وهذي ديارهم اليوم قور^(٣)
 أمّا الأدعياء بها إذ نشطت لإبـادم زال منك الفتور
 ويوم الفرنج إذا ما لقوك عبوس برغمهم قطـير
 نهوضاً إلى القدس يشفي الغليل بفتح الفتوح ، وماذا عسير
 سلّ الله تسهيل صعب الخطوب فهو على كل شيء قدير
 إليك هجرت ملوك الزمان فما لك ، والله ، فيهم نظير
 وفجرك فيه القرا والقرآن جميعاً ، وفجر الجميع الفجور
 وأنت تريق دماء الفرنج وعندهم لا تراق الخـوز

(١) الجبل المشرف على دمشق : نفس المصدر : ٧ : ١١-١٣ .

(٢) يعرفه ياقوت بأنه جبل بين حمص وبلبك ، وعلى رأسه قلعة سنير . معجم البلدان : ٥ : ١٥٥ .

(٣) في الأصل بالهامش : « حاشية للمؤلف : قور يعني آكام من الخراب » . وفي القاموس المحيط : القارة : الجبل الصغير المنقطع عن الجبال والجمع قور .

فصل

(١١٩٤) في فتح بعلبك

قال العماد : ولما فرغ السلطان من حصن وحصنها سار إلى بعلبك ، فتسلمها في رابع شهر رمضان .

قال ابن أبي طي : وكان بها خادم يقال له يمين ، فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل مَنْ يجلب على جناح طائر ، فلم يرجع إليه منهم خبر ؛ فطلب الأمان ، وسلم بعلبك إلى السلطان .

قال العماد : وهنأته بأبيات منها^(١) :

بفتوح عسرك يَفْخَرُ الإسلام	وبنور نصرك تُشرق الأيام
وبفتح قلعة بعلبك تهذب	هذي الممالك واستقام الشام ^(٢)
وبكى الحسود دماً ، وثغر الثغر ، من	فرح بنصرك للهدى ، بسام
فتح تسنى في الصيام ، كأننا ،	شكرنا ما منح الإله ، صيام
من ذارأى ^(٣) في الصوم عيد سعادة	حلت لنا والفطر فيه حرام
أسدى صلاح الدين والدنيا يداً	بنوا لها سوق الرجاء ^(٤) تقام
فتملّ فتحك ، واقصد الفتح ^(٥) الذي	بمحصوله لفتوحك الإتمام
دُمّ للعلا حتى يدوم نظامها	واسلمّ يعزّ بنصرك الإسلام

قال : ولزمت خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله . وكنت ليلة عنده وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان ، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد

(١) انظر أيضا : مفرج الكروب : ٢ : ٣٠ .

(٢) في المفرج . واستقر الشام .

(٣) في المفرج : يرى .

(٤) في المفرج : الرخاء .

(٥) في المفرج : القدس .

الملك على بن منقذ ، وهو به مشغوف ، وخاطره على تأمله موقوف ، وإلى استحسانه مصروف . وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرأ بفضلها ، وإن خواطر المبكرين لتقصر عن مثلها . على أن الشعراء المحدثين ما منهم إلا من نظم على رويها ووزنها ، واستمد خصب خاطره من مزينها ، ففهم المعري ، وابن أبي حصينة ^(١) ، والأرجاني ^(٢) ، والصالح ابن رزيك . وقد أوردت جميعها في كتاب الخريدة . ومطلع قصيدة المعري :

* لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا ^(٣) *

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انصلاح شعبان قصيدة طائية ، منها ^(٤) :

عفا الله عنكم ، مالكم أيها الرهط	قسطنتم ، ومن قلب الحب لكم قسط !
شرطتم لنا حفظ الوداد وختم	حنانيكم ؛ ما هكذا الود والشرط !
جعلتم فؤاد البستهم بكم لكم	محطاً ، فعنه ثقل همكم خطوا
ملكتم فأنكرتم قديم مودتي	كأن لم يكن في البين معرفة قط
فدت مهجتي من لا يذم لمهجتي	إذا حاكته ، وهو في الحكم مشتط
(١٩٤ب) وما كنت أدري قبل سطوة طرفه	بأن ضعيفاً فاتراً مثله يسطو
وأهيف للإشفاق من ضعف خصره	يحل نطقاً ^(٥) للقلوب به ربط
يلازم قلبي في الهوى القبض ، مثلما	يلازم كف الناصر الملك البسط
ملك حوى الملك العقيم بضبطه	كريم ، وما للمال في يده ضبط
إذا لثمت أيدي الملوك ، فعنده	مدى الدهر ، إجلالاً له ، ثلم البسط

(١) سالم بن مفرج من شعراء الدولة الأيوبية . انظر الخريدة : قسم شعراء مصر : ١٠٧ : ٢ - ١٠٨ .
 (٢) القاضي ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين ، أبو بكر ، القاضي الشاعر ؛ عاش بين سنتي ٤٦٠ - ٥٤٤ .
 انظر وفيات الأعيان ؛ وكذلك شذرات الذهب .
 (٣) النطو : السكوت ؛ وأنطى : أعطى ؛ وتناطى : تسابق ، والكلام تعاطاه وتجاذه ، والناتاة المنازعة والمطاول . القاموس المحيط .
 (٤) الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٥ - ٣١ . وهي طوية .
 (٥) في الخريدة : محل نطق .

عَنَا لَكَ طَوْعًا نَيْلُ مِصْرَ ، وَدَجَلَةُ السَّيْرَاقِ ، وَدَانُ الْعُرْبِ ، وَالْعُجَمُ ، وَالْقَبْطُ
وَالنَّيْلُ شَطٌّ يَنْتَهَى سَيْبُهُ بِهِ وَنَيْلُكَ لِلرَّاجِحِينَ نَيْلٌ وَلَا شَطٌّ
عَدُوُّكَ مِثْلُ الشَّمْعِ ، فِي نَارِ حَقْدِهِ لَهُ عُنُقُ إِصْلَاحٍ فَاسِدُهُ الْقَطْ
وَهِيَ ثَمَانِيَةٌ وَثَمَانُونَ بَيْتًا .

ولسعادة الأعمى^(١) قصيدة طائفة في السلطان سيأتي ذكرها .

قال العماد : ولما وصلتُ إلى السلطان ، ورغبتُ منه في الإحسان ، وجدته لأمرى
مُغفلاً ، ولشُغلي مهملاً ؛ ثم عرفتُ أنَّ حِصَادِي قالوا له : متى أعدتَ ديوانَ الكتابة إلى
العماد ، وهو لا شك بمحلِّ الوثوق والاعتماد ، وهذا منصب الأجلِّ الفاضل ، وهو عنده
في أجلِّ المنازل ، ربَّما ضاق صدره ، وتشعث سره . فلما عرفتُ هذا المعنى ، لجأتُ إلى
الفضل الفاضليِّ لأنه به يعنى ؛ فقام بأمرى ، ونوّه بقدرى ، وأراح سرى ،
وشدَّ أزرى .

فصل

فيما جرى للمواصلتين والحلبيين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شدّاد^(٢) : ولما أحسنَّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى ، علم أنَّ الرجل
قد استفحل أمره ، وعظم شأنه ، وعكّت كلمته ، وخاف أنه إنْ غفل عنه استحوذ على البلاد
واستقرَّ قدمه في الملك وتمدّى الأمر إليه . فجهّز عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً ، وقدم عليهم
أخاه عز الدين مسعوداً ، وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن
البلاد . فوصل إلى حلب والسلطان بحمص ، وانضمَّ إليه^(٣) من كان بحلب من العسكر

(١) سعادة بن عبد الله الأعمى من أهل حمص ، وكان يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله . اتصل
بصلاح الدين وسافر إليه في مصر أول عهده بها . الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٠٦ - ٤٣٢ .
(٢) في النوادر السلطانية : ٣٩ - ٤٠ ؛ وهو اقتباس حرّفي .
(٣) في الأصل لإيهم ؛ والثبت هنا من ل ١٩٧ ب .

وخرجوا في جمع عظيم . ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماة^(١) ،
وراسلهم وراسلوه ، واجتهد أن يُصالحهم فآصالحوه ، ورأوا أن المصاف ربما نالوا به
الغرض الأكبر ، والمقصود الأوفر ، والقضاء يجرّ إلى أمورٍ وهم بها لا يشعرون . وقام
المصاف بين العسكرين ، ففضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ،
ومنّ عليهم وأطلقهم ؛ وذلك عند قرون حماة في تاسع عشر شهر رمضان .

ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب ، وهي المدافعة القانية^(٢) وصالحوه على
أن أخذ المعرّة ، وكفر طاب ، وبارين .

وقال العماد : لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص وقد وصل عز الدين مسعود ،
أخو صاحب الموصل ، إلى (١١٩٥) حلب نجدة . ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون
جاءوا إلى حماة فحاصروها وراسلوا في الصلح ؛ فقدم السلطان في خيف من أصحابه ، وجاء
كُمشتكين وابن العجمي وغيرهما ، وأجابهم السلطان إلى ما طلبوا ، وأن يردّ عليهم
الحصون ، وأن يقنع بدمشق نائبا عن الملك الصالح وله خاطبًا ، وعلى الانتماء إليه مواظبًا ،
وأن يردّ كلّ ما أخذه من الخزانة ، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة . فلما رأوه مجييا لكلّ
ما يُلتمس منه وهو في عسكر خفيف قالوا ما خبره صحيح ، فشرعوا في الاشتطاط ،
وطلبوا^(٣) الرّحبة وأعمالها ؛ فقال هي لابن عمي ناصر الدّين محمد بن شيركوه ، وكيف ألحق
به في رضاكم المكروه . فنفّروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي^(٤) قريبا
من شيزر ، وجمعوا العسكر وأظهروا أنهم على المصاف وعزم الانتصاف . فمبّر السلطان إلى

(١) منطقة جبلية تعرف على مدينة حماة ، وهي مكونة من قلعتين متقابلتين . انظر مادة حماة في معجم
البلدان ٣ : ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) في ل ١٩٧ ب : الدفعة الثانية ؛ وهي كذلك في ق . وهذه هي المرة الثانية التي ينازل فيها حلب في
هذه السنة .

(٣) في ل ١٩٨ : فطلبوا .

(٤) تهر يخرج من بحيرة قدس ويصب في البحر المتوسط قرب أنطاكية ، ويسمى عندها الأورد .
ويذكر ياقوت أنه قيل إن السبب في تسميته العاصي أن أكثر الأنهار تتجه نحو الجنوب بينما يتجه العاصي
نحو الشمال . معجم البلدان ٦ : ٩٦ .

سفع قرون حماة خيامه ، وركز على مقاتلتهم أعلامه ؛ ووصل العسكر المصرى فى عشرة من
المقدمين منهم فرخشاء ، وأخوه تقي الدين . والتقوا ، فهزمهم السلطان ونزل
فى منزلتهم .

قال العماد : ومما نظمت فى هذه الواقعة فى مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة ،
فقد كان له فيها عناء وبلاء حسن ، منها :

ولقد ألفت نفاها وهويتها	إذ ليس يُنكر للظباء نفا
ياجارة للقلب جائرة : دعى	ظلمى ، وإلا قلت : جار الجار
قلبي كطرفي مايفيق إفاقة	سكران ، مادارت عليه عقار
صبت بصب الدمع ، محترق الحشا	خطرت ببال بلائه ^(١) الأخطار
لم يخش من خطر الهوى حتى حى	ذاك القوام شبيهه الخطار
يذرى الدموع كأنهن عوارف	لابن الملك شيركوه غزار
من آل شادى الشائدين بنا العلا	أركانهن لهاذم وشفار
حسنت بهم للدولة الأيام وأ	أعمال ، والأحوال ، والآثار
قد حاز ملك الشام يوسف الذى	فى مصر تغبط عصره الأعصار
نصر الهدى فتوطد الإسلام فى	أيامه ، وتضعف الكفار
لما لقيت جموعهم منظومة	صيرت ذاك النظم وهو ثار
فى حالتى جود وبأس لم يزل	للتبر والأعداء منك تبار
تهب الألوف ولا تهاب ألوفهم	هان العدو عليك « والإنبار » ^(٢)
لما جرى « العاصى » هنالك طائما	بدمائهم فخرت ^(٣) به الأنهار

(١) فى ل ١٦٩٨ : بلايه ، وهو خطأ .

(٢) المقصود بهذا اللفظ الامبراطور .

(٣) فى ل ١٦٩٨ : فجرت .

وتحطمت عند « القرون »^(١) قرونها بل كَلَّت الأنياب والأظفار
 عبروا « المعرة » مالكين معرةً والعار يملك تارة ويعار
 أو ما كفاهم يوم « حص » وكفهم في « بعلبك » بمثلهم — الإندار
 قال : وهنأت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة ، منها^(٢) :

لا تُفَنِّ من قَرَقِ الفراق الأدمعاً فهي الشهود على الغرام المدعى
 واستبقي صبرك ما استطعت ، فإنه عون لقلبك إن هُما ثبنا معاً
 (١٩٥ب) قلبُ أصابته العيون ، ولم يزل من مَسَّها بالهاجِسَاتِ مروّعا
 ما باله قد صدَّ عند صدودهم عني ، ولما ودَّعوني ودعا
 ومن التحير^(٣) أننى أبصرته في ظعنهم ، وسألت عنه الأضلعاً^(٤)
 أصبحت إذ شيعتهم لثلاثة صبرى ، وغمضى ، والفؤاد، مشيعاً
 ومنها :

أوما اتقيتم حين رُغمُ سربه فيه تقي الدين ، ذاك الأروعا
 عمر بن شاهنشاه من هو عاصمٌ أركان ملك الشام حين تضعضعا
 خضع العدو وذل بعد تعزز لكم ، وحق عدوكم أن يخضعا
 من معشر غر يروُن جميع ما لم يبذلوه في السّاح مضيعاً
 في مصر واليمن اجتلينا منهم في عصرنا تبعاً ليوُسُف تُبعاً
 الحاويان بملك مصر ومكة والشام واليمن الحظايا الأربعة
 لما عصى الأعداء « بالعاصى » جرى بدمائهم طوعاً سيولاً دُفّعاً
 وقال ابن أبي طى : لما تسلّم السلطان بعلبك وأزاح عليها ، عاد إلى حص ونزل بها ،

(١) المقصود بها قرون حماة وقد دارت عندها معركة ضد الموصلية كان النصر الجانِب فيها لصالح الدين .
 (٢) وردت هذه القصيدة أيضاً في مفرج الكروب : ٢ : ٣٣ .
 (٣) في مفرج الكروب . التجهر .
 (٤) في المفرج . الأربعة .

فأتصل به ورود عز الدين مسعود ، أخى سيف الدين صاحب الموصل ، نجدة الملك الصالح . وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلا على حلب أجمعوا آراءهم وكتبوا سيف الدين وألزموه نجدة ابن عمه ، وأخبروه أن السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل ؛ وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشمًا خطيب حلب ، وقطب الدين ينال بن حسان وغرس الدين قليج .

وكان سيف الدين منازلًا لسنجار^(١) وفيها أخوه عماد الدين بن زكي : وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان ، فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فكسروهم ، ونهبهم عماد الدين بهم وبمسكروهم .

فلما وصلت رسالة الحلبيين إلى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين وحشد عسكره وأنفذ يجيبهم مع أخيه عز الدين مسعود ، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك ؛ فاغتنم الحلبيون بعد السلطان عنهم فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيموا على حماة وأخذوا في حصارها . واتصل بالسلطان ذلك فرحل من بعلبك إلى حمص ، وبلغ عز الدين فعاد عن حماة ونزل قريباً من جهاب التركمان^(٢) إلى جهة العاصي إلى قريب من شيزر .

وأرسل النائب بحماة ، على بن أبي الفوارس ، يقول له إنما وصلت في إصلاح الحال ووضع أوزار القتال ؛ وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع السكلمة ويلم شعب الفرقة . فكتب ابن أبي الفوارس بذلك إلى السلطان وحسن له الصلح ، وتلطّف في ذلك غاية التلطّف .

وقدم أبو صالح بن العجمي وسعد الدين كمشكين لطلب الصلح ، فأجابهما السلطان إلى ما أرادا^(٣) ، وتقرر الأمر على أنه يرد إليهم جميع الحصون والبلاد ، ويقنع بدمشق وحدها ، ويكون نائباً للملك الصالح . فلما عاين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصلح والنزول عن جميع الحصون التي أخذها : حمص وحماة وبعلبك ، طمع في جانب السلطان وتجاوز الحد في (١١٩٦) الاقتراح ، وطلب الرحمة وأعمالها . فقال : هي لابن عمي

(١) من بلاد الجزيرة في لطف جبل عال قريبة من الموصل . معجم البلدان : ٥ : ١٤٤-١٤٦ .

(٢) مكان قريب من تل السلطان . انظر : Saladin, p.143 . وتل السلطان موضع بينه وبين حلب مرحلة واحدة وفيه منزل للقوافل يعرف بالفنيديق . معجم البلدان : ٢ : ٤٠٥ .

(٣) في ل ١٩٨ ب : ما أرادوا .

ولا سبيل إلى أخذها . فقام سعد الدين من بين يديه نافرا ، وكان ذلك برأى أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه ، فاجتهد السلطان به أن يرجع فلم يفعل ، وخرج إلى عز الدين مسعود ، وكان بعدُ نازلا على حماة ، وحدثه مادار بينه وبين السلطان وهون عليه أبو صالح أمر السلطان وأخبره بقلة من معه .

وكان السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خيف من أصحابه ، فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه ووعولوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره ؛ فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم ، وسار إلى أن نزل على قرون حماة ، وأخذ في مدافعة الأيام حتى يقدم عليه باقي عسكره . وراسلهم في التلطف للأحوال ، فلم ينجح فيهم حال . وكانوا في كل يوم يعزّمون على لقائه وقتاله ، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها ، تسويها للأوقات وتقطيعا للزمان ، حتى يقدم عليه عسكره . وكانت هيئته قد ملأت صدور القوم ، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض .

قال : وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا ، ولم يكن بعد وصل السلطان^(١) من عسكره أحد ؛ فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحدا ،^(٢) وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر . وضرى عسكر حلب والعسكر الموصل على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم ، وكاد أصحاب السلطان يزلون الإدبار ، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه إتمام سعادة السلطان^(٣) ، فإنه لو تأخر ساعة انكسر عسكره ؛ فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأسراء وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة^(٤) . فلما رأوا الناس في الكرّ ، والضرب الهبر ، حلوا جميعا بعد أن افترقوا في اليمنة واليسرة ، فصدّموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم .

(١) في ل ١٩٩ : وصل للسلطان .

(٢) كردوس وكردوسة والجمع كراديس : الفرقة الجزئية الراكبة ، والجماعة الضخمة من الخيل .

انظر : Dozy : Suppl. Dict. Ar. .

(٣) في ل ١٩٩ : إتمام السعادة للسلطان .

(٤) في ل ١٩٩ ، وكذلك في ق : بالحرب وليامها .

وكان السلطان في هذه المدة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه ، وحمل إليهم الأموال . وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره ، وإلا لو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة . فلما اشتد القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا منبطين مخوفين لمن قرب منهم . ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان واستباحوا أموالهم وخيامهم ، وأمر السلطان أصحابه ألا يؤغلوا في طلبهم ولا يقتلوا من رأوه منهزما ولا يذفوا^(١) على جريح . ورحل حتى نزل في منزلهم .

ثم سار من وقته مجداً حتى نزل بمرج قرا حصار^(٢) ، ولم يزل هناك حتى عيد عيد الفطر ، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وأن يُقر^(٣) الملك الصالح على ما في يده وما هو جارٍ تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماة ، فلم يرض بذلك ، فجعلوا له مع حماة المعرة وكفر طاب ، فرضى بذلك وحلف على نسخة رأيها (١٩٦ ب) وعليها خطه .

قال : وكان في جملة الميمى أنه متى قصد الملك الصالح عدو حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه ، وألا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وأصحابه ، وأن تكون السكة باسمه .

ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمرأوه عاد السلطان قاصدا دمشق . فلما وصل إلى حماة وصلت إليه رسل الخليفة المستنصر ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود ، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام .

وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي :

يا أيها الملك العزيز فضله لقد غدوت بالأعلام
كفى أمير المؤمنين شرفا أنك أصبحت له وليا

(١) ذف على الجريح ذفا وذفا ذفا : أجهز عليه ، كذفقه وذفقه .

(٢) من نواحي شمال حلب : معجم البلدان : ٧ : ٤٠ .

(٣) في ل ١١٩٩ : وأن يقر .

طارحك الودّ على شحط النوى فكنت ذاك الصادق الوفيّا
أولئك من لباسه زخرفة لم يولها قبلك آدميّا
ناسبت الرّوض سنًا وبهجة حتى حكته رونقًا وزيّاً^(١)

قال : ورحل السلطان من حماة إلى بعرين ، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزعفراني ، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام وتطارح عليه وخدمه ، وظنّ أنّ السلطان يقدمه على عساكره ، فلم يلتفت إليه ، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين ، فأغضب السلطان ذلك وسار إليه وحاصره حتى تسلم^(٢) حصنه .

وقال العماد : نزل السلطان قرا حصار ، بنية الحصار ، فجاءت رسلهم بالانقياد ، وأجابوا إلى المراد ، وقالوا اقنعوا بما أخذتموه إلى حماة ، ولا تُشمتُوا بنا العداة . فاستزدناه عليهم كفر طاب والمعرة ، واستوفينا عليهم الأيمان المستقرّة ؛ وسألهم في الممتقلين ، إخوة مجد الدين ، فأجابوا وأفرجوا عنهم ، وتمّ الصلح ، وعمّ النجح .

ورحلنا ظاهرين ظافرين ، ونزلنا حماة يوم الاثنين ثاني عشر شوال ، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات ، والتقليد بما أراد من الولايات ؛ وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع ، وخص ناصر الدين محمد بن شيركوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان ، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين ، رحمه الله تعالى .

ثم تسلم السلطان حصن بعرين ، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفراني ، وهو من أكابر أمراء نور الدين ، وذلك في أواخر شوال . وأقطع مدينة حماة لابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود ، وأنعم بمحمص على ابن عمه ناصر الدين .

قال العماد : وأذكر أنّا عبرنا نهر العاصي عائدين وقد انكشفت الشمس وادهمّ النهار ، وغلب على القلوب الاستشعار ، وطاحت الأنوار ، وخفيت الرسوم ، وظهرت النجوم ؛ وجئنا حصص ، ثم بعلبك ، ثم البقاع^(٣) ، ووصلنا دمشق في ذي القعدة .

(١) في ل ١٩٩ ب : وريا .

(٢) في الأصل : سلم ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٩ ب .

(٣) أرض واسعة بين حمص وبعلبك ودمشق . معجم البلدان : ٢ : ٢٥٠ .

فصل

قال العماد : قد سبق ذكر (١١٩٧) مآثره حسّادى فى خاطر السلطان ، وقالوا : شُغله المكاتبة وهى منصب الأجل الفاضل ، وهو يستندب فيه من رأى من الأفاضل ، وهذا تصرفه برفدٍ جزيل ، ووجه جميل . والسلطان مع شدة رغبته متوقّف ، وإلى ظهور وجه النجاح فى أمرى منشوّف .

وكنّت قد أنست مدّة مقامى بالعسكر بذى الحمد والفخر ، ومورد السكرم والمصدر ، الأمير نجم الدين بن مصال ؛ وهو ذو فضل وإفضال ، وقبول وإقبال ، وله من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال ؛ وقد مال إلى فضله ، ونباهته ونبله . وكان أبوه قد وزر للحافظ فى آخر عهده ، متفرّدا بسؤدده ومجده ؛ وكان من أهل السنة والجماعة ، والتقى والورع والعفاف والطاعة ؛ وله يدٌ عند السلطان فى الثوب التى قصدوا فيها مصر^(١) ، وأجزل عنده الإحسان والبرّ ، لا سيما عند كونه بالإسكندرية محصورا ؛ وكان إحسانه مشكورا ، واعتناؤه لحفظه مشهورا . فلما ملك أحبّه ، واختار قرّبه ، فلزمت له التودد ، (وإليه التردد)^(٢) ، وجعلته الوسيط بينى وبين الأجلّ الفاضل ، واتخذته من الحجج والوسائل ، ووقفت خاطرى على تقاضيه نظما ونثرا ، ورسالة وشعرا . فمن ذلك ما كتبتّه إليه :

لعلّ نجم الدين ذا الفضل يُذكر الفاضل فى شُغلى
إنّ أجلّ الناس قدراً فتى بفضلِهِ يتعَب من أجلى
ومثله من يعتنى بالعلّا ويستديم الحمد من مثلى

قال : وأول ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بجمص فى شعبان منها :
عائنت طود سَكينة ، ورأيت شمْس فضيلة ، ووردت بحر فواضل

(١) وهى الحملات الثلاث التى قدم فيها صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه فى جيوش نور الدين فى سنوات : ٥٦٤، ٥٦٢، ٥٥٩ .
(٢) ساقطة من ل ١٢٠٠ ، وكذلك من ق .

ورأيت سحبان البلاغة ساحبا بيبانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قساً في الفصاحة معجزا فمرفت أنى في فهاة باقل
حلف الحصافة ، والفصاحة ، والسما حة ، والحاسة ، والتقى ، والنائل
بحر من الفضل العزيز ، خضمه طامى العباب ، وماله من ساحل
وجميع مافى الأرض سبعة أبحر وبحوره تسمى بعشر أنامل
في كفه قلم يعجل جريه ما كان من أجل ورزق أجل
يجرى ولا جرى الحسام إذا جرى حداه ، بل جرى القضاء النازل
نابت كتابته مناب كتيبة كفلت بهزم كتائب وجحافل
قعدوه في عدوه ، ووليه في عدله ؛ أكرم بعايد عادل
ريان من ماء التقي ، صادر إلى كسب الحامد ، وهى خير مناهل
يا واحد العصر الذى بزّ الورى فضلا بغير مشابه ومشاكل
مالى وجاه الجاهلين ، فأغنى عنهم ، كفيتهم ، وجدّ بالجاهلى
أرجوك مقتنيا لدى السلطان بى كرماً ، فثلك يعتنى بأمانلى
قرّر لى الشغل المبجل ، تخليا بالى من الهم المقيم الشاغل

(١٩٧ ب) قال : فدخل الفاضل إلى السلطان وعرفه أنه فى راجب ، وقال أنا لا يمكننى الملازمة الدائمة فى كل سفرة ، وغداً يكاتبك ملوك الأعاجم ، ولا تستغنى فى الملك عن عقد اللطفات وحل التراجم ؛ والعماد ينى بذلك ولك اختاره ، وقد عرف فى الدولة النورية مقداره : وأخذ لى خط السلطان بما قرره لى من شغلى وقد عرف أن الأجل الفاضل قد أجل فضلى .

قال : وخدمت أمير المؤمنين المستضى بالله فى ذى القعدة مع الرسل بهذه القصيدة :

أصبح عقود الغايات مريضها وأفنيك الخاظ الحسان غضيفها
ومن عجب صلت لقبله بأسهم ربهوس أعاد من ظبام محيفها

قال ابن أبي طي: وظهر في مشغرا^(١) ، قرية من قرى دمشق ، رجل ادعى النبوة وكان من أهل المغرب ، وأظهر من التّخايل والتّوهيات ما فتن به الناس ، واتّبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السّواد ، وعصى على أهل دمشق ، ثم هرب من مشغرا في الليل وصار إلى بلد حلب ، وعاد إلى إفساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبة والتّخايل ؛ وهوى امرأة وعلّمها ذلك ، وادّعت أيضا النبوة .

قال : وفيها توفي شهاب الدين إلياس الأرتقي صاحب البيرة^(٢) ، وأوصى إلى الملك الناصر [صلاح الدين]^(٣) بولده شهاب الدين محمد .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين [وخمسمائة] :

قال العماد : والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق ، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة ، فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أمورا ، فالتزموها .
وكان الشام ذلك العام جدبا ، فأذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم وإذا استقلوها خرجوا إليه ، وسار معهم الفاضل ، واعتمد على العماد فيما كان بصددده .

وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل ، وعلى الصيد ، ومدحه العماد بقصيدة ، منها :

سواك لسهم الملا لن يريشا فنسأل^(٤) رب الملا أن تميشا
من الناس بالبر صيدت الكرام وبالبأس في البر صدت الوحوشا
وكم سرت من مصر نحو العريش فهدمت للمشركين العروشا

(١) وقد رسمها ياقوت : مشغرى ، قرية من دمشق من ناحية البقاع على سفح جبل لبنان . معجم البلدان : ٨ : ٦٤ .

(٢) قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية . وهناك بيرة أخرى غيرها تقع بين القدس ونابلس . نفس المصدر : ٢ : ٣٣٠ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٠ ب .

(٤) في الأصل : ونسأل ؛ والمثبت هنا من ل ٢٠٠ ب .

سراياك تَبَعَتْ قُدَّامَهُمَا ————— من الرعب نحو الأعادي جيوشا
[ويوم حماة تركت العداة كما طيّرت بالفلأ الرّيحُ ريشا^(١)]
قال : ومدحت ، مستهل ربيع الأوّل ، تقىّ الدّين بقصيدة موسومة ، وكان
قد فوض إليه ولاية دمشق ، ومنها يبتاع ابتكرت المعنى فيهما ولم أسبق
إليهما ، وهما :

يفيّدُ العاقل اليقظ التّغابى ليدرك في الغنى حظّ الغنى
ولم نصب السّهام على اعتدال بها لولا اعوجاجُ في القنسى
(١٩٨) قفل للدهري قصر عن عنادى أما هو يتقى بأس التّقى
حلفت ربّ مكّة والمصلّى وثاوى تُرب طيبة والفريّ
لأتمّ يابنى أيوبَ خير الـ ورى بعد الإمام المستضىّ

قال : وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقة
قطب الدين قايماز^(٢) ، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان والاحتراز .
وكان قايماز هذا مُحَكِّمًا في الدولة الإمامية من أول الأيام المستنجدية ، وقوى
في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، وسامه
أنواع البلاء ، وأخافه ، ورام إتلأفه ، حتى استعأذ منه برباط^(٣) صدر الدين شيخ
الشيوخ فسلم به .

ثم إن قايماز حالف الخليفة وشقّ العصا ، وعنّ له حصار الدّار ، فأمر الخليفة بالقبض
عليه ، فلم ينجّ لما أحيط بداره ، إلّا بفتح باب في جداره . وانهزم فوصل إلى الحلة^(٤)
في أوائل ذى القعدة سنة سبعين ، وهو في موسم الحجّ ؛ فجمع رجاله وتوجّه إلى الموصل ،
وخانه إخوانه ، وخذله أصحابه ، فتوفّى في بعض قرى الموصل ، وتفرق أصحابه في البلاد ، فمنهم

(١) هذا البيت ساقط من الأصل ، وهو موجود في ل ٢٠٠ ب ، وكذلك في ق .

(٢) أى لانفاقهم معه .

(٣) في الأصل : رباط صدر الدين ...؛ والمثبت هنا من ل ٢٠١ .

(٤) معجم البلدان : ٣ : ٣٢٧-٣٢٨ .

من رجع إلى بغداد ، ومنهم من أتى إلى الشام ؛ منهم حسام الدين ثميرك وعز الدين أقبورى ابن ازغش ، وكان صهر السلطان قديما ، وعنده كريما ، فأقطعه في الديار المصرية ، وكتب في حقّه إلى الديوان شفاعا في تخليص ماله ، واستقامة حاله ؛ وكان ذا خزائن مملوّة ، وخيل مسوّمة ؛ فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز مما يقبل الصّفح . وكان أقبورى زوج أخت السلطان ، والسلطان خال بنته ، وهى زوجة عز الدين فرخشاه ابن أخى السلطان .

قلت : وفي بعض الكتب عن السلطان إلى وزير بغداد بالمثل الفاضل : « وما نحسب أنّا مع الموالات المشتهرة ، والنصرة المتناصرة المستظهرة ، والمساعي التي كانت لثارات هذه الدولة بالغة ، ولأعدائهم دامغة ، ولتنازعهم الأمر قاصمة ، ولجاذبيهم الحقّ واقعة ، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمة ، وكوننا ما أعنّا منها بنجدة من زجال ، ولا بمادة من مال ، ولا بإعانة بحال من الأحوال - يردّ سؤالنا من الدولة ، أعلاها الله ، في ذى قربى لا نستطيع دفعه ، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه ، فالأخبار عندنا واسعة ، والأعواض لدينا غير متعذرة ، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنية ؛ ولكنّه ما باع بمكانه من الخدمة مكانا ، ولا آثر غير سلطانه سلطانا ؛ وله أعذار لا بأس أن نعيده فيها لسانا وبيانا » .

ثم ذكرها ، ثم قال : (١٩٨ ب) « وهذا الأمير جزء منّا فكيف يُعدّ جزء منا عاصيا ، وبألسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق إلى الطاعة ، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة . فنحن في أنفسنا نشفع ، وعن جاهنا ندفع ، وفي مكاننا نسأل ، وبخطنا الذى لا نسمح به للإسلام نبخل . وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول [سواك] ^(١) ندب في أمر هذا الأمير ، والله وليّ التدبير » .

وقال العماد في الخريدة ^(٢) : كنت جالسا بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل ، أنفد ما يأمر به من الشغل ، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص ، وكان مملوكا لبعض الدمشقيين مولدا ، ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله ، فوقف ينشده هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة إحدى وسبعين ^(٣) :

(١) ما بين الحاصرتين من ل ٣٠١ .
(٢) خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٠٦ ؛ بتصريف .
(٣) الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٠٦ ؛ وهى طويلة .

حيثك أعطاف القدود يبانها لما انثنت تيبها على كثنانها
ثم ذكر القصيدة وغزلها في وصف دمشق ، ثم قال ^(١) :

سلطانها الملك ابن أيوب ، الذي كفاءه لاتنكف ^(٢) عن هطلانها
بمواهب ، لو لم أكن نوحا لما نجت يوم نداء من طوفانها
سميح يروح إلى الندى براحة قد أعشب المعروف بين بئانها
وفتي ، إذا زخرت بحار نواله غرقت بحار الأرض في خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه أمضى على الأيام من حدثانها
ملك إذا جليت عرائس ملكه رصعت ^(٣) فريد العدل في تيجانها
فاسلم صلاح الدين ، وأبق لدولة ذلت لدولتها ملوك زمانها ^(٤)
وانهض إلى فتح السواحل نهضة قادت لك الأعداء بعد حرانها
وهي طويلة .

قال ^(٥) : وقام اليوم الذي يليه ، وقد جلس السلطان للعدل ، فأنشده قصيدة ، منها :

هل بعد جلق إلا أن ترى حلبا وقد تحلل منها مشكل عقد
وقد أتتك كما تختار طائفة وقد عنا لك منها الحصن والبلد

قال : وكان سعادة سافر إلى مصر في أول مملكة الملك الناصر فدحه بقصيدة
طائية ^(٦) ، فأعطاه ألف دينار ، فنها يصف غارته على غزاة ، وعوده من ذلك الغزو بالعزة :

فتى مذكرا بالخليل والرجل غزاة نأى عن نواحيها الرضا ودنا السخط
رماها بأسد ملهن مرابض ولا أجهم إلا الذي تنبت الخط

(١) نفس المصدر : ٤٠٨-٤١١ .

(٢) في الحريدة : لاتنكف .

(٣) في الأصل : وضعت ؛ والمثبت هنا من ل ، وهو يطابق ما جاء في الحريدة .

(٤) ورد هذا البيت في الحريدة بعد البيت التالي له هنا :

(٥) في الحريدة : ٤١٢ . وقد ورد البيتان المتبسان هنا في ص : ٤١٥ في الحريدة ضمن القصيدة الطويلة التي تستغرق الصفحات : ٤١٢ - ٤١٦ .

(٦) وردت في الحريدة في الصفحات : ٤١٦-٤١٩ .

وعاث ضواحيها ضحى بكتائب من الترك لانونب^(١) طغام ولا قبط
وله في السلطان قصائد آخر . قال : وقام البهاء السنجارى وأنشد الملك الناصر قصيدة
في دار العدل بدمشق سنة إحدى وسبعين في شعبان ، منها :

يا ظبية الهرمين من مصر ، على الرّ (م) بُع السّلام وإن تقوض أو عفا
أضبو إلى عصر تقادم عهده فازيد من ولّه عليه تلثفا
(١١٩٩) أحبابنا بالقصر ، لو قصرتم في الهجر^(٢) ما شمت الحسود^(٣) ولا اشتفى
ومنها :

أشكو إلى الوادى ، فيحنو بانه من رقة الشكوى على نمطفا
وجرى بي الأمل الطموح ، فأم بي سلطان أرض الله طرّا ، يؤسفا
التأهب الأرواح في طلب الملا والواهب الآجال في حسن الوفا

فصل

فيما تجدد المواصلّة والحلبيين

قد سبق ذكر الصلح الذي جرى بين السلطان والحلبيين . فلما سمع به المواصلّة
عتبوا عليهم ووبخوهم ، ونسبواهم إلى العجلة في ذلك وسلوك غير طريق^(٤) الحزم ؛
فحملوهم على النقض والتسكث ، وأنفذوا من أخذ عليهم الموائيق ، وتوجه ذلك الرسول منهم
إلى دمشق ليأخذ المواصلّة من السلطان عهده ، ويكشف أيضا ما عنده . فلما خلا به طالبه
السلطان بنسخة الرأى ، فغلط وأخرج من كمّه نسخة يمين الحلبيين لهم ، وناولها إياه ،
فتأملها وأخفى سرّه وما أبداه ، واطلع على ما اتفقوا عليه ، وردّها إليه ، وقال : لعلّها قد

(١) في الحزينة : لا روم .

(٢) في ل : لو قصرتم ال هجران .

(٣) في الأصل : وردت كلمة « الحسود » في البيت ، وفوقها بخط أصغر كلمة « العدو » : وفي ل
وردت كلمة « العدو » في الهامش .

(٤) في الأصل : الطريق .

تبدلت ؛ فعرف الرسول أنه قد غلط ، ولم يمكنه تلافى ما فرط . وقال السلطان كيف حلف الحلبيون للمواصلة ، ومن شرط أيمانهم ، أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم . وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض ، والوفاء مرفوض .

وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الربيع ، فكتب السلطان إلى أخيه العادل ، وهو نائبه بمصر ، يُعلمه بذلك ، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان .

قلت : وفي كتاب طويل فاضل جليل إلى بغداد عن السلطان : « يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح ، وخفضوا الجناح ، اقتصرنا ، بعد أن كانت البلاد في أيدينا ، على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات^(١) إلى الكفر ، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها ، والأيمان فبدلوها ؛ وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده ، وأمرأء مشهده ، يميناً جعل الله فيها حكماً ، وضيق في نكثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً ، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين ، فلما حضر وأحضر نسختها ، أومى بيده ليخرجها ، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حِز بنا ، والتداعى إلى حِز بنا ، والتساعُدُ على إزالة خطبنا ، والاستنفار إلينا هو على بعدنا وقربنا ؛ وقد حلف بها كشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأولى . فرددنا اليمين إلى يمين الرسول وقلنا هذه يمين عن الأيمان خارجة ، وأردت عمراً وأراد الله خارجة » .

« وانصرف الرسول عن بابنا وقد نَزَّهنا الله أن يكون اسمه معترضاً (١٩٩ب) للحنث العظيم ، والنكث الذميمة ، وعلمنا أن الناقذ بصير ، والآخذ قدير . والمواقف الشريفة النبوية ، أعلاها الله ، مستخرجة الأوامر إلى الموصلية إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه ، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضيق خناقه » .

ثم ذكر أمر الفرنج ، ثم قال : « والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً ، ولا ينوون لما استحفظوا حفظاً ، وعدو كثر فما يجاورهم إلا بلادُهُ ، ولا يقارعهم إلا أجناده » .

(١) جمع البيكار ، وهي كلمة فارسية بمعنى الحرب . . Dozy : Supp. Dict. ar. .

ثم طلب « خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا ، وأن يُمَثَّلَ أمر نبينا صلى الله عليه وسلم ، في أن يكونوا بنيانا ، فيعضدوه إذا سعى ، ويلبّوه إذا دعا ، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره ، وطأطأت التروس تحت عاره ، وصارت القلوب صخرة لا ترقى على صخرته ، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرفته . فإن قعدت بهم العزائم ، وأخذتهم في الله لومة لائم ، فلا أقلّ من ألا يكونوا أعوانا عليه يلفتونه عن قصده ، حريصين على اتصال المكروه إليه . »

قال ابن شداد ^(١) : لما وقعت الواقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة ، كان سيف الدين ، صاحب الموصل ، على سفجار يُحاصر أخاه عماد الدين بِقَصْدٍ أخذها منه ودخوله في طاعته ؛ وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الدين واعتصم بذلك . واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى استهدم من سورته ثلث كشيعة ؛ وأشرف على الأخذ . فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد ^(٢) أمره ويُقوى جأشه ، فراسله في الصلح ، فصالحه .

ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها ؛ وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة ، وخيم على جانب الفرات الشامي ، وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى استقرت قاعدة يصل عليها [إليهم] ^(٣) . فوصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كثيرة عزم فيها على العود مرارا ، حتى استقرت اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به ، وسار ووصل حلب وخرج الصالح إلى لقائه بنفسه ، فالتقاء قريب القلعة ، واعتنقه ، وضمه إليه وبكى ؛ ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل ^(٤) بعين المباركة وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم .

(١) في النواذر السلطانية : ٤٠-٤١ ؛ وهو اقتباس حرفي بقليل من الم حذف .

(٢) في ل ٢٠٢ ب وكذلك في ق : فيشد .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٢ ب .

(٤) في ل ٢٠٢ ب ، وكذلك في ق : حتى وصل .

وصعد القلعة جريدةً وأكل فيها خبزاً ونزل ، وسار راحلاً إلى تلّ السلطان ^(١) ومعه جمع كبير وأهل ديار بكر ، والسلطان رحمه الله تعالى قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدايبرهم ، وهم لا يشعرون أنّ في التأخير (١٢٠٠) تدميراً ^(٢) ، حتى وصل عسكر مصر ، فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماة ، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليك ^(٣) ، ووجهوا من كشف الأخبار ، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركان ، وتفرق عسكره يسقى ، فلو أراد الله نصرتهم لقصده في تلك الساعة ، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا ، وتعبوا تعبئة القتال .

وأصبح القوم على مصاف ، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوال ، فالتقى العسكران وتصادما ، وجرى قتال عظيم ، وانكسرت ميسرة السلطان بآبن زين الدين بن مظفر الدين ، فإنه كان في ميمنة سيف الدين . وحمل السلطان بنفسه ، فانكسر القوم ، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء ، منهم [الأمير] ^(٤) فخر الدين عبد المسيح ، فمنّ عليهم وأطلقهم .

وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه ، وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده . وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم ، فإنهم كانوا قد أبقوا النّقل على ما كان عليه ، والمطابخ قد عملت ، وفترق الاصطبلات ، ووهب الخزان ، وأعطى خيمة سيف الدين عزّ الدين فرّخ شاه .

وقال العماد : رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين ، فعبرنا العاصي لله طائعين ، وإلى المسارّ مسارعين ، فما عرجنا على بلد ، ولا انتظرنا ما وراءنا من مدد ؛ ونزلنا الفسولة ^(٥) وجزنا حماة ، وخيمنا في مرج بوقبيس . وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف

(١) على مرحلة من حلب في طريق الخارج إلى دمشق : معجم البلدان : ٢٠ : ٤٠٥ .

(٢) في ل ٢٠٢ ب ، وكذلك في ق : أن التأخير تدميراً .

(٣) اليك : طلائع الجيش ؛ وهي كلمة فارسية الأصل : Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٣ .

(٥) منزل للقوافل فيه خان على يوم من حمص ، بين حمص وقاريا . معجم البلدان : ٦ : ٢٩٣ .

فارس سوى سوادهم^(١)، وما وراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون^(٢) من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوة وشدة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس^(٣). فرتب السلطان عسكره، وقوى بقوة قلبه قلبه، وأمد الله بحزب ملائكته حربه.

ولما وصل المواصلة إلى حلب، أطلقوا من كان في الأسر من ملوك الفرنج، منهم أرنات إبرنس الكرك، وجوسلين خال الملك^(٤)، وقرروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم في الدرك. فلما عيّدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السلطان، فعبرنا العاصي عند شيزر، ورتبنا العسكر، وأعدنا الأتقال إلى حماة.

ثم وصف الواقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل مئتهم وآلافهم، حتى أخرجهم عن خيامهم، وأشرقهم بمائهم. ووكل بسراق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعداه. ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدمين، ثم من عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم. ثم نزل في السراق السيفي فتسلّمه بخزائمه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورواسي عزه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك أيدي الجود، وفرقتها (٢٠٠ ب) على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود. ورأى في بيت الشراب، بل في السراق الخاص، طيوراً من القمارى، والبلابل، والهزار، والبيغاء، في الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء مظفر الأقرع فأنسه، وقال: خذ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه وسلم متاً عليه، وقل له عدّ إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور.

(١) في الأصل: موعدون؛ والمثبت هنا من ل ١٢٠٣.

(٢) في ل ١٢٠٣، وكذلك في ق: ألف فارس. وفي مفرج الكروب مثل ما جاء هنا. انظر مفرج

الكروب: ٢: ٣٨.

(٣) صاحب الكرك وأطباكية Rignald، وكان مجد الدين بن الداية قد اعتقله سنة ٥٥٥ (١١٦٠)

بعد عودته من الهجوم على منطقة الرها. وجوسلين هو Joscelin III وكان صاحب حارم. انظر:

.The Crusaders in the East, p. 183

قال : ولما كسر القوم ولوا مدبرين إلى حلب ، فلم يقف بعضهم على بعض ، وظنوا أن المساكر وراءهم ركضا وراء ركض ؛ فتبعجت خيولهم ، وتموجت سيولهم ، وما صدقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلقون أبوابها ، ويسكنون اضطرابها . وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تل السلطان إلى بزاعة^(١) ، وجاوز في سوقه الاستطاعة ، وفرق وفارق الجماعة .

وفي كتاب ابن أبي طي أن ميسرة سيف الدين انكسرت ، فتحرك إلى جانبها ليكون رداء لها ومدداً ، فظن باقي العسكر أنه قد انهزم فانهزموا ، فحق ما كان وما ، فسار على وجهه لا يلوي على شيء ؛ وتبعهم السلطان ، فهلك منهم جماعة قتلاً وغرقاً ، وأسر جماعة كبيرة من وجوههم وأمرائهم ؛ ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس ، وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب .

وفرّق ما وجد في خزائن سيف الدين وسيّر جواريه وحظاياهم إلى حلب ، وأرسل إليه بالأنفاص وقال له : عد إلى اللعب بهذه الطيور ، فإنها ألذ من مقاساة الحرب . ووجد السلطان عسكر الموصل كالخانة من كثرة الخمر والبراط والعيّدان والجنوك^(٢) والمغنيين والمغنيات .

قال : واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية ، وأن السلطان أرى ذلك لمساكره واستعاذ من هذه البلية . وكان أنفذ الأمرأ الذين أسرهم إلى حماة ثم ردهم ، وخلع عليهم وأرسلهم إلى حلب .

وهذا العمد السلطان رحمه الله تعالى بقصيدة ، منها^(٣) :

فالحمد لله الذي إفضاله حلوا الجنا ، على السنا ، وضاحه
عاد العمدو بظلمة من ظلمه في ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه في قبضة البازي قهيبض جناحه .

(١) من أعمال حلب في وادي بطنان ، بين منبج وحلب ، على مرحلة واحدة من كل منهما . معجم البلدان : ٢ : ١٦٢ .

(٢) الجنوك من آلات الطرب ، ولاعبه : الجنكي ولاعباته الجنكيات . السلوك : ١ : ٢٧٥ : حاشية : ٣ .

(٣) انظر الحريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ١٧ — ٢٢ ؛ وهي طوبلة .

حل السلاح إلى القتال، ومادري
أضحى يريد مواصليه صدوده
إن أفسد الدين الغلاة^(١) بحضهم
قد كان عزمك للإله مصمما
وكأننى بالساحل الأقصى ، وقد
فاعبر إلى القوم القرات، ليشر بوا
لتفك من أيديهم رهن الزها
(١٢٠١) وابغوا لحران الخلاص ، فكم بها
نجوا البلاد من البلاء^(٥) بعداكم
واستفتحوا ما كان من مستغلق
أتم رجال الدهر ، بل فرسانه
فُتَّاكه ، نُسَّاكه ، ضُرَّاره
وأبو المظفر يوسف مطعَّامه
وإذا اتدَّى في محفل غيَّيه

أن الذى يحنى عليه سلاحه
وغداً يجيد رثاءه مدَّاحه
فالنَّاصر الملك الصلاح صلاحه
فيهم ، فلاح ، كما رأيت ، فلاحه
ساحت بنَّخر دَم^(٢) الفرنجة ساحه
موت الأجاج، فقد طمى طفَّاحه^(٣)
مجلَّاً ، ويدرك ليلها إصباحه
حرَّان قلبٍ نحوكم ملتحاحه^(٤)
فالظلم بادٍ في الجميع صُراحه^(٦)
فيها^(٧) ، فربكم لكم فتَّاحه
ولذى الخلوم الطائشات رِجاحه
نُفَّاعه ، مُنَّاعه ، مُنَّاحه
مِطَّعَّامه ، مِقدَّامه ، جَجَّاحه^(٨)
وإذا غدا في جحفل فوقَّاحه

قال : وكان لعز الدين فرخشاى فى هذه الوقعة يد بيضاء ، وهو محب للفضل وأهله
باعث للخواطير على مدحه ببذله ؛ فنظمت فيه قصيدة ، منها :

نصر أنار المليككم بُرَّهانه وعلا لذلة شائيكم شانه
ما أسعد الإسلام وهو مظفر وأبو المظفر يوسف سلطانه
الملك مرفوع لكم مقداره والعدل موضوع بكم ميزانه

- (١) فى الحريرة : العصاة ؛ وفى مفرج الكروب : ٢ : ٤١ : العداة .
(٢) فى الحريرة : ببحر دم الفرنجة ، وكذلك فى مفرج الكروب : ٢ : ٤١ .
(٣) فى مفرج الكروب : ٢ : ٤٢ : طلاحه .
(٤) لاحه العطش : غيره .
(٥) فى الأصل : من البلاد ، وهو خطأ ؛ والثبت هنا من ل : ٤ : ١٢ .
(٦) الصراح : الخالص من كل شئ .
(٧) فى مفرج الكروب : منها .
(٨) ججَّاحه : سيده .

والدهر لا يأتي بغير مرادكم
وكانما لله في أحكامه
خراً بنى أيوب ، إن فخركم
يكفي حدودكم اعتقالاً همة
الدين ، عز الدين ، عز بنصركم
قد كان جيشكم كبحرٍ زاخر
فطمى هللكهم عليهم بحركم
فضل الملوك الأكرمين بفضله
في فضله ، في عدله ، في حلمه
هو في السماح ، وفي اللقاء ، عليه
من آل شاذى الشائدين لجده
بيت من العلياء ، سام ، سامق
يا سالب التيجان من أربابها
والحمد مال أتم بذّاله

فهل القضاء لأجلكم جرّ يانه
فلك على إثاركم دورانه
بذّ الملوك السابقين رهانه
فكانما أشجانه أسجانه
والسفر ذلّ بعونكم أعوانه
واللايسون جواشقا^(١) حيتانه
بأساً وغرق فلسكهم طوفانه
فعلا زمانهم البهيج زمانه
صديق ، فاروق ، عثمان
هو^(٢) في العفاف وفي التقى سلمان
بينيه بيتاً عالياً بنيانه
يبنى على كيوانها إيوانه
ومن الثناء مصوغة تيجانه
والمال حمد أتم خزانة

قال : ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته ، وواصل لذّته ، والخليون أوثقوا
الأسباب ، وغلقوا الأبواب ، وسقط في أيديهم ، حين أفرطوا في تعديهم ، وتهيئوا
للحصار ، وخافوا من البوار ، وتبلدوا وتلددوا ، وتجادلوا ثم تجلدوا .

وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة : يهني بها السلطان بهذه الكسرة^(٣) :

وما شك قوم حين قمت عليهم غداة التقى الجمعان أنك غالب
ولو لم تقد تلك المقائب لاغتدى لنفسك في نفس العدو مقائب^(٤)

(١) جم جوشن ، وهو الدرع .

(٢) في ل ١٢٠٤ : وهو ؟ وهذا يؤدي إلى اختلال وزن البيت .

(٣) في الأصل : بالكسرة ؟ والمثبت هنا من ل ١٢٠٤ .

(٤) المقاب من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو زهاء الثلاثمائة ؟ وهذا هو المقصود في الشطر الأول من البيت . والمقائب أيضاً : الذئاب الضارية ، وهي المقصودة في نهاية البيت . انظر القاموس المحيط .

قال ابن أبي طى : وأما سيف الدين فإنه امتدت به الهزيمة ^(١) إلى بزاعة ^(٢) ، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه ، ثم خرج منها حتى قطع الفرات وصار إلى الموصل . وصار باقى عسكر حلب إلى حلب ، فى سابع شوال ، فى أقبج حال وأسوته ، عراة حفاة فقراء ، يتلاؤمون على نقض الأيمان والعهود .

(٢٠١ ب) وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم ، فأخذوا فى الاستعداد للحصار ؛ وجاء السلطان وخيم عليها أياما ، ثم قال : الرأى أن نقصد ما حوّلها من الحصون والمعازل والقلاع فنفتحها ، فإننا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب وهان أمرها . فصوبوا رأيه ، فنزلوا على بزاعة ، فتسلّمها بالأمان ، وولّوها عز الدين خشتين الكردي .

فصل

فى فتح جملة من البلاد حوالى حلب

قال العماد : ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه فى الثانى والعشرين من شوال ، ثم فتح منبج فى التاسع والعشرين منه ، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسّان ، [والسلطان] ^(٣) لا يناله به إحسان ، بل كان فى جرّ عسكر الموصل إليه أقوى سبب ، ولا يحاذقه ولا يحفظ معه شرط أدب ، ويواجه بما يكره . فسلم القلعة بما فيها ، وقوم ما كان سلّمه بثلاثمائة ألف دينار ، منها عين ونقود ، ومصوغ ، ومطبوع ، ومصنوع ، ومنسوج ، وغلات ؛ وسامه على أن يخدم ، فأبى وأنف ، وكبرت نفسه ، فتعجب سرّه ، وذهب ما جمعه . ومضى إلى صاحب الموصل فأقطعه الرقة ، فبقى فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية فى سنة ثمان وسبعين .

وقال العماد :

(١) فى الأصل : الهزيمة ؛ والمثبت هنا من ل ١٢٠٤ .

(٢) فى ل ١٢٠٤ : بزاعة ؛ وكل صحيح . انظر معجم البلدان : ٢ : ١٦٢ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٤ ب .

نزولك في منبج على الظفر المبهج
 ونجحك في المرتجى وفتحك للمرتج
 دليل على كل ما^(١) تحاول أو ترتجى
 أمورك فيما ترو م واضحة المنهج
 وشانك دامي الشئو ن منك، شقى، شجى
 ومن كان في حصنه ومن قبل لم يخرج
 يقال له : ليس ذا بعشك ، قم فادرج
 فرأيك يستنزل الله (م) جوم من الأبرج
 فعجل عبور الفرات وأسرى، وسير، واذلج
 وعج نحو تلك البلاد وعن غيرها عرج
 فخراف ، والرقنا ن تاليتا منبج
 وجل عن المسلمين ن ليلهم المدجى^(٢)

قال ابن أبي طى : لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه وجلس يستعرض
 أموال ابن حسان وذخائره ؛ فكان في جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار ، ومن الفضة والآنية
 الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفى ألف دينار . فكان من السلطان التفاتة فرأى على
 الأكياس والآنية مكتوبا يوسف ، فسأل عن هذا الاسم ، فقيل له : ولد يحبه ويؤثره
 اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له . فقال السلطان : أنا يوسف وقد أخذت
 ماخبي لي . فتعجب الناس من ذلك .

قال : ولما فرغ من منبج نزل على عزاز^(٣) ونصب عليها عدة مجانيق ، وجد في القتال ،
 وبذل الأموال .

(١) في مفرج الكروب : ٢ : ٤٣ ؛ وكذلك في نسخة ق من الروضتين : نبح ما .

(٢) في مفرج الكروب : ٢ : ٤٣ : المدج .

(٣) ويقال لها أعزاز ؛ بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب ، بينهما مسيرة يوم . معجم البلدان :
 ٧ : ١٦٨ — ١٦٩ . والرستاق ، وجمعه رساتيق ، القرية ، أو حلة العسكر أو البلد التجارى ، انظر
 السلوك : ١ : ٣١٠ : حاشية : ١ .

قال العماد : ثمّ نزل السلطان على حصن عزاز وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز. وهو حصن منيع رفيع ، فحاصره ثمانية وثلاثين يوما . وكان السلطان قد أشفق على هذا الحصن من موافقة (١٢٠٢) الحلبيين للفرنج ، فإنّ الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج وإطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين رحمه الله تعالى في أسرهم ، فرأى السلطان أن يحتاط على المعامل ، ويصونها صون العقائل ؛ فتسلّمها حادى عشر ذى الحجة بعد مدة حصارها المذكورة .

وقال العماد قصيدة ، منها :

أعطاه ربّ العالمين دولة	عزّة أهل الدّين في إعزازها
حاز المـُـلا بياسه وجوده	وهو أحقّ الخلق باختيارها
بجده أفنى كنوزاً فني الـ	ملوك في الجـدّ على اكتنازها
مهلك أهل الشّرك طرّاً : روميها	أرمنها إفرنجهمـُـا ، إنجازها
تفاخر الإسلام من سلطانه	تفاخر الفرس بأبرأوازاها
تمنّ من فتح عزاز نصرة	أوقعت العـدّة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب ، فإنّها	كانت تنال العزّ من عزازها
وحلب تنفي كمشكينها	كما انتفت بغداد من قيمازها
برزت في نصر الهدى بحجّة	وضوح نهج الحقّ في إبرازها
كم حامل للرمح عاد مبديا	تجّزّ مجوز الحى عن عكازها
أرفع حظوظى من حضيض نقصها	وعدّ عن مهمّاها لُمّاها
والشعر لا بدّ له من باعث	كحاجة الخليل إلى مهمّاها

قال : وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدّة مقامنا على عزاز ، فأخذوا على غرّة وغفلة ما تعجّلوه ، وعادوا ؛ فركب أصحابنا في طلبهم فما أدركوا إلّا فارساً واحداً ، فأمر السلطان بقطع يده بحكم حرده . فقلت للأمور ، وذلك بمسمع من السلطان ، تمهل ساعة لعلّه يقبل منى شفاعة . ثمّ قلت : هذا لا يحلّ ، وقدرك بلّ دينك عن هذا يحلّ . وما زلت

أكرّر عليه الحديث حتى تبسّم ، وعادت عاطفته ورحم ، وأمر بحبسه ، وسرّني سلامة نفسه .

ودخل ناصر الدين بن أسد الدين ، وقال : ما هذا الفشل والوني ^(١) ، وإن سكتم أنتم فما أسكت أنا . ودمدم وزجر ، وغضب وزار ، وقال : لِمَ لَا يُقْتَلُ هذا الرجل ولماذا اعتقل ! فوعظه السلطان واستعطفه ، وسكّن غيظه ^(٢) ونعّطه ، وتلا عليه : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » ^(٣) . وأطلق سراحه ، وتمّ في نجاته نجاحه .

فصل

في وثوب الحشيشية على السلطان سرّة ثانية
على عزاز ، وكانت الأولى على حلب

قال العماد : وفي حادى عشر ذى القعدة قفز الحشيشية على السلطان ليلة الأحد وهو نازل على عزاز . وكان للأمير جاولى الأسدى خيمة قريبة من المنجنيقات ، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمّات ، وحض الرجال ، والحثّ على القتال ؛ وهو بارئ بيبث أياديه ، فارث على الدهر بكفّ عواديه ؛ والحشيشية فى زى الأجناد وقوف ، والرجال عنده صفوف ، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينه ، فعاقبته (٢٠٢ ب) صفائح الحديد المدفونة فى لمّته عن تمكينه ، ولفحت المديّة خدّه فخدشته . فقوى السلطان قلبه ، وحاش رأس الحشيشى إليه وجذبه ، ووقع عليه وركبه ، وأدركه سيف الدين يازكوج فأخذ حشاشة الحشيشى وبضعه ، وقطعه ؛ وجاء آخر ، فاعترضه الأمير داود بن منكلاّن فمنعه ، وجرحه الحشيشى فى جنبه ، فمات بعد أيام ؛ وجاء آخر ، فعاقبه الأمير على بن أبى الفوارس وضمة من تحت إبطيه ، وبقيت يد الحشيشى من ورائه لا يتمكن من الضرب ، ولا يتأتى له كشف ماعراه من الكرب ؛ فنادى : [على] ^(٤)

(١) الوني : التعب ، وفعله ونى بفتح النون نى ، القاموس المحيط .

(٢) فى ل ٢٠٥ : غيظه .

(٣) سورة فاطر : آية : ١٨ .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح ، بالاستعانة بما جاء فى رواية ابن أبى طى . انظر ما يلى .

اقتلونى معه فقد قتلتى ، وأذهب قوتى وأذهلتى ؛ فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه .
وخرج آخر من الخيمة منهزماً ، وعلى الفتك بمن يعارضه مُقَدِّماً ، فثار عليه أهل
السوق فقطعوه .

وأما السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث ، وفزعه الكارث ،
وصوته جهورى ، وزئيره قسورى ، ودم خده سائل ، وعطف روعه مائل ، وطوق
كراغنده^(١) بتلك الضربة مفكوك ، ونهيج سلامته مسلوک . وكان سلا سلامته وأقام القوم
قيامته ، ومن بعد ذلك رعب^(٢) ورهب ، واحترز واحتجب ، وضرب حول سرادقه على
مثال خشب الحركة^(٣) تآزيراً ، ووقفه تحجيراً ؛ وجلس في بيت الخشب ، وبرز للناس
كالاحتجب ، وما صرف إلا من عرفه ، ومن لم يعرفه صرفه ، وإذا ركب وأبصر من
لا يعرفه في موكبهِ أبعده ثم سأل عنه ، فإن كان مُسْتَسْعِفاً أو مُسْتَسْعِداً أسعفه وأسعده .

ومن كتاب فاضلى إلى العادل^(٤) : « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم
الشريف الناصرى حاصلة ، ولم ينله من الحشيشى الملعون إلا خدشاً قطرت
منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها ، واندمت لساعتها ؛ والركوب على
رسمه ، والحصار لأعزاز على حكمه ؛ وليس فى الأمر بحمد الله ما يضيق صدره ، ولا
ما يشغل سرّاً » .

وقال ابن أبى طى : لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من يجلب بخروج ما فى
أيديهم من المعازل [والقلاع]^(٥) ، فعادوا إلى عاداتهم فى نصب الجبائل للسلطان .
فكاتبوا سنناً صاحب الحشيشية مرة ثانية ، ورغبوه بالأموال والمواعيد ، وحملوه على
إنفاذ من يفتك بالسلطان . فأرسل ، لعنه الله ، جماعة من أصحابه فجاءوا بزى الأجناد ،

(١) الكراغند والقراغند : المعطف القصير يلبس فوق الزردية ، ويصنع من القطن أو الحرير المبطن :

انظر : Dozy : Snpp. Dict. Ar. .

(٢) فى الأصل : رغب ، وهو خضاً ، والمثبت هنا من ل ٢٠٥ ب .

(٣) الحركة : خيمة خشب تمقد على شكل قبة . واللفظ فارسى الأصل .

(٤) كان العادل فى مصر ، منذ سنة ٥٧٠ هـ ، فائياً عن صلاح الدين .

(٥) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٥ ب .

ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء ، وامتزجوا بأصحاب السلطان
لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها . فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جاولى ، والحرب قائمة
والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال ، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على
رأسه ، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية ، (١٢٠٣) لا ينزع الزردية عن بدنه
ولا صفائح الحديد عن رأسه ؛ فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد ؛
وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسبح يده بالسكينة إلى خد السلطان
فجرحه وجرى الدم على وجهه ؛ ففتتعت السلطان لذلك .

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ، ووضع على الأرض
وركبه لينحره ؛ وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بمقولهم .

وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج ، وقيل إنه كان حاضراً ، فاخترط
سيفه وضرب الحشيشي فقتله . وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان ، فاعترضه
الأمير [داود بن] ^(١) منكلاان الكردي وضربه بالسيف ، وسبق الحشيشي إلى [ابن] ^(١)
منكلاان فجرحه في جبهته ، وقتله [ابن] ^(١) منكلاان ، ومات [ابن] ^(١) منكلاان من ضربة
الحشيشي بعد أيام . وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير على بن أبي الفوارس فهجم
على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه على تحت إبطه ، وبقيت يد الباطني من ورائه
لا يتمكن من ضربه ، فصاح على : اقتلوه واقتلوني معه ، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه ،
فطعن بطن الباطني بسيفه ، وما زال يُخضخضه فيه حتى سقط ميتاً ونجا ابن أبي الفوارس .
وخرج آخر من الحشيشية منهزماً ، فلقبه الأمير شهاب الدين محمود ، خال السلطان ،
فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصد أصحابه وقطعوه بالسيف .

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل ، وأخذ من ذلك
الوقت في الاحتراس والاحتراز ، وضرب حول سرادقه (مثال الخركاه ، ونصب له في وسط
سرادقه ^(٢)) برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام ، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه ،
وبطلت الحرب في ذلك اليوم ، وخاف الناس على السلطان .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين لتصحيح بالاستعانة بما جاء في كلام العماد في أول هذا الفصل .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ل ١٢٠٦ ، وكذلك من نسخة ق .

واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض ، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس ، فركب حتى سكن العسكر ، وعاد إلى خيمته . وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها وسألوا الأمان ، فتسلمها حادى عشر ذى الحجة ، وصعد إليها وأصلح ما تهدم منها ، ثم أقطعها لابن أخيه 'تقى الدين عمر .

وكانت عزاز أولاً للجنينة غلام نور الدين ، فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقواها لعله يحفظها من الملك الناصر ، فلم يبلغ ذلك .

ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من جلب لها فعلوه من أمر الحشيشية ، فسار حتى نزل على حلب ، خامس عشر ذى الحجة ^(١) ، وضربت خيمته على رأس الياروقية ^(٢) فوق جبل جوشن وجبى أموالها وأقطع ضياعها ، وضيق على أهلها ، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها ، بل كان يمنع أن (٢٠٣ ب) يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد .

وكان سعد الدين كمشتكين في حارم ، وكانت إقطاعه في يد نوابه ، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها .

وكان سبب خروجه إليها أن السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها إلى حارم ، فخرج إليها ، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجاً في حارم ، وخاف أن يجرى بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه

(١) في الأصل : حادى عشر ذى الحجة . وهو خطأ ، والمثبت هنا من ل ٢٠٦ ب بعد مقارنته بما جاء في مفرج الكروب حيث يقول ابن واصل : ثم رحل السلطان من عزاز ونزل على حلب في منتصف ذى الحجة ، وبما جاء في النوادر السلطانية من أنه نزل عليها في سادس عشر ذى الحجة . ويؤيد هذا أيضاً التاريخ الذى يحدده S. Lane - Poole فقد ذكر أنه نزل على حلب في الخامس والعشرين من يولية سنة ١١٧٦ وبمقارنة التواريخ يبين أن الخامس والعشرين من يولية يوافق الخامس عشر من ذى الحجة ذلك أن ذى الحجة بدأ يوم الجمعة حادى عشر يولية . انظر : مفرج الكروب : ٢ : ٤٦ ؛ وكذلك : Saladin, p. 146 ، والتوقيفات الإلهامية ، والنوادر السلطانية : ٤٢ .

(٢) محلة كبيرة بظاهر حلب : تنسب إلى ياروق التركمانى ، أحد رجال نور الدين محمود ، وقد توفي سنة ٥٦٤ . معجم البلدان : ٨ : ٤٩٠ .

ذكر ولا اسم . فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول : لو فسح لى فى الدخول إلى حلب لسارعت فى الخدمة وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان . وراسل أيضا الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم : قد حصلت خارجا وقد بلغتني أمور ولا بد من طلبى من الملك الناصر ليأذن لى فى الصيرورة إليكم ، فإن الذى قد حصل عندى لا يمكننى الكلام فيه . فراسل الملك الصالح السلطان فى الإذن له فى الدخول إلى حلب ، فأذن له ؛ وطلبوا الرهائن منه ، فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبى المضاء الخطيب والهاد كاتب الإنشاء ، وأنفذوا من حلب [إلى السلطان ^(١)] رهينة نصرية الدين ابن زنى ^(٢) .

وحكى الهاد الكاتب قال : لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأى العدل ابن العجمى وجعلنا فى بيت ومنع منا غلماننا ، ولم يُحضر لنا طعام ولا مصباح ، وبتنا فى أنكد عيش .

وفى تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب ، فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبى المضاء إلى الملك الصالح ، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة ، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمى ، فأخذ يتحدث بالثقة ، ويترجم بلسنته ، ويضرب صفحا عنى ، ويوم الجماعة أنى وأنى .

وما درى الغمر بأنى امرؤ أُمير التبر من التبر
قد عارك الأهوال حتى غدا بين الورى كالصارم العضب
قد راضه الدهر ، فلو أمه بخطبه ما ريع للخطب

قال : وعرضت نسخة الميمى علينا ، وصرفنا ولم يلتفت إلينا .

فلما صاروا إلى السلطان وأخبراه بما جرى فى حقهما من الهوان ، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب ، فأطلق نصرية الدين وقاتل أهل حلب .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٦ ب .

(٢) تقدم شئ من التعريف به ومن حوادثه فى المتن وفى التعليقات . انظر ما تقدم عنه فى هذا الكتاب فى حوادث سنة ٥٥١ ، ٥٥٤ ، وبخاصة س : ٢٦٨ فى الحاشية : • .

ولم يزل منازل حلب إلى انصلاح سنة إحدى وسبعين وخمسة ؛ ثم كان ما سيأتي ذكره .

فصل

في بواق حوادث هذه السنة
ودخول قراقوش إلى المغرب

قال العماد : وفي سابع شوال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق .

وذكر ابن شدّاد أنه قدم في ذي الحجة ^(١) .

قلت : ولما سمع السلطان بقُدومه أرسل إليه بالمثل الفاضل كتاباً أوله : « أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » ^(٢) . وقال في آخره : « وَلَقَدْ أَحْسَنَ عِدنانَ الْمُبَشِّرِ إِذْ طَلَعَ (١٢٠٤) عَلَيْنَا طُلُوعَ الْفَجْرِ قَبْلَ شَمْسِهِ ، وَغَرَسَ فِي الْقُلُوبِ مَا يَسِرُّنَا وَيُسِرُّهُ جَنِّي غَرَسَهُ » .

قال ابن أبي طي : كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد ، والشوق إلى أخيه الملك الناصر ، وأن يرى ملوك الشام وغيرها . وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال .

قال : وحكى أنه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل

(١) عبارة ابن شدّاد (في النوادر السلطانية : ٤٢) : « وفي بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة أخوه من اليمن إلى دمشق » ، ويسبق هذه العبارة حديث اللقاء عند جباب التركان « بكرة الخميس العاشر من شوال ، ثم السير إلى منبج » في بقية الشهر المذكور ، ثم حصار خراز وذلك « في رابع ذي القعدة » واستيلاؤه عليها « في رابع عشر ذي الحجة » ، ونزوله على حلب « في سادس عشر منه » ؛ وبعد هذا كله ترد العبارة السابقة : « وفي بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة أخوه من اليمن » . وقد يفهم من هذا الاستعمال « وفي بقية الشهر أيضاً ... » أن هذه العبارة متصلة بالعبارة التي تشبهها بشأن السير إلى منبج « في بقية الشهر المذكور » أي في شوال وما جاء بين البابين استطراد من ابن شدّاد . فإن صح هذا الاحتمال في الفهم لأسلوب ابن شدّاد ، وأنا أرجحه ، كان أبو شامة مخطئاً في استنتاجه من حديث ابن شدّاد .

(٢) سورة يوسف : آية : ٩٠ .

يقال له عباس ، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن^(١) ، وكان بين عباس وياسر عداوة ، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزور عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه : « إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام ، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن ؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة والرشوة ويبقى لكم^(٢) . واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة ، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضراء^(٣) يحاصره .

فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له : هذا خطك وعلامتك ؟ قال : كأنه هو . قال : فبأي شيء استحققت منك [هذا^(٤)] وقد قربت منزلتك ، وأقيمت عليك بلادك ، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك . وأراه الكتاب . فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه ، ولا يعرفه ، ولا أملاه لأحد ، ولم يعلم خبره . فلم يصدق شمس الدولة ، وأمر به فقتل صبراً بين يديه . فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحلوا إليه الأموال وحلفوا له على الطاعة .

ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجهه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ^(٥) ؛ وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن ؛ وتوجهه إلى حضر موت ففتحها ، واستناب عنه بها رجلاً كردياً يسمى هارون ، وكان مقامه بشبام^(٦) واستمر الكردي بها مدة .

(١) كان ياسر بن بلال بن جرير الحبشي وزيراً للأخوين منصور وأبي سعود ولدى عمران المكرم من أسرة بني زريم الاسماعيلية التي سيطرت على عدن منذ سنة ٤٧٦ حتى سقطت في أيدي الأيوبيين . انظر معجم الأنساب : ١ : ١٨١ .

(٢) هكذا في الأصل وفي ل ١٢٠٧ .

(٣) حصن في جبل وصاب من عمل زيد ، معجم البلدان : ٣ : ٤٤٦ .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٢٠٧ .

(٥) أبو الميمون سيف الدولة مجد الدين ، ولد سنة ٥٢٦ وتوفي سنة ٥٨٩ . حقه صلاح الدين في مصر سنة ٥٧٧ إثر وشاية ألقيت إليه . انظر الخريدة قسم شعراء الشام : ١ : ٢٢٣ .

(٦) جبل فيه عيون تشرب منها صنعاء ، به حصون هائلة وليس له إلا طريق واحد ؛ وتصب مياه الجبل إلى سد بينه وبين صنعاء ثمانية فراسخ . وشبام أيضاً اسم لعدة مواضع قريبة من صنعاء في جنوبها الشرقي وجنوبها الغربي . والمقصود هنا شبام حضر موت وهي إحدى المدينتين الرئيسيتين بها ، أما الثانية فهي تريم ؛ والمسافة بينها وبين عدن عشرون مرحلة . انظر معجم البلدان : ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٨ .

ثم إن صاحب حضرموت تحرّك وجمع ، فقتل ، وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره . وولى شمس الدولة نغر تعز مملوكه ياقوت وجعل إليه أسر الجند ، وولى قلعة بعكر مملوكه قايماز .

قال : وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصله وكسرتهم ، وكان شمس الدولة سبب الظفر^(١) ، وأعطاه السلطان سراق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات ، وولاه دمشق وأعمالها والشام ، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم .

قال : وفيها قتل صديق بن جولة صاحب بصرى^(٢) وصرخد^(٣) ، قتله ابن أخيه ، وملك بعده بصرى وصرخد شهورا ، فكتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلفه على ما يريد من إقطاع ؛ واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريد ليحلف عليه ، فأنفذ من بصرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى ، وكان (٢٠٤ ب) قليل المعرفة بالفقه والتصرف في القول ، فلم يستقص فيها وجوه التأويل . فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأول عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه ، ثم أقطعه عشرين ضيعة ، ثم أخذها منه بعد أيام^(٤) .

قال : وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتلّ خالد^(٥) بسبب كلام جرى بينه وبين كشتكين ، فأنهك إليه من حلب عسكريا فحاصروه أياما ، وسلم الحصن ، وصالح حاله .

قال ولما ملك شمس الدولة اليمين سمى نفسه ابن أخيه تقي الدين إلى الملك وجعل يرتاد مكانا يحتوي عليه ، فأخبر أن قلعة از برى هي فم درب المغرب ، وكانت خرابا فأشير عليه بعمارها ، وقيل له متى عمرت وسكنها أجناده أقوياء شجعان ملكك برقة ،

(١) في ل ٢٠٧ ب . وكان شمس الدولة هو سبب الظفر .

(٢) معجم البلدان ٢ : ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) بلد ملاصق لأعمال حوران ، وولاية ، وبها قلعة حصينة : نفس المصدر : ٥ : ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٤) في ل ٢٠٧ ب : بعد أن قتله .

(٥) قلعة من نواحي حلب : معجم البلدان : ٢ : ٤٠٥ .

وإذا مُلِكتْ بَرْقَةٌ مُلْكٌ ما وراءها . فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش وقدمه على جماعة من أجناده ومماليكه ، فصاروا إلى القلعة المذكورة وشرعوا في عمارتها .

واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فخذته عن بلاد الجريد وفزان ، وذكر له كثرة خيرها ، وغزارة أموالها ، وضعف أهلها ، ورغبه في الدخول إليها . فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة ، فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام ، وأشرف على مدينة أوجلة^(١) فلقى مملوكها^(٢) وأكرمه واحترمه ، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويؤججه بنته ويحفظ البلاد من العرب ، وله ثلث ارتفاعها . ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار ، فأخذ عشرة آلاف لنفسه وقرق على رجاله عشرين ألفا .

وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأرزاقية ، فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم ، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيريه وطيب هوائه ، ورغبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم . فأجاب على ذلك ، واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من أصحابه ، فحصل لقراقوش أموال كثيرة .

واتفق أن صاحب أوجلة مات ، فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش ، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل ، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة ، واستولى على البلد .

ثم إن أصحابه رغبوا في الرجوع إلى مصر وخشى قراقوش أن يقيم وحده فرجع معهم . فلما حصل بمصر طاب له المقام وثقل عليه العود ، وزوجه تقي الدين بإحدى جواريه . وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها أنا أمضى إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم .

قال ابن الأثير^(٣) : وفي ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين^(٤) استوزر سيف الدين

(١) جنوبى برقة نحو الغرب منها ، وهذا اسم الناحية ، أما مدينتها فاسمها أرزاقية ، وستاقى في المتن

بعد أسطر انظر معجم البلدان : ١ : ٣٦٨ .

(٢) في ل ٢٠٧ ب : صاحبها .

(٣) في الأناطكة : ٣٢٢ - ٣٢٤ ؛ وهو اقتباس حرفي .

(٤) في ل ١٢٠٨ : وفيها في ربيع الآخر .

(١٢٠٥) صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير، رحمهما الله تعالى، ومكّنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يُظنّها النَّاسُ، وبدأ منه معرفة بقواعد الدّول وأوضاع الدّواوين، وتقرير الأمور والاطلاع على دقائق الحسابات، والعلم بصناعة الكتابة الحسّابية والإنشاء حيّرت العقول، ووضع في كتابة الإنشاء وضعا لم يعرفوه.

وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة؛ ثمّ قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وشفّع فيه كمال الدّين بن ينسان^(١) وزير صاحب آمد وكان قد زوجه بنته، فأطلق وسار إليه. وبقي بآمد يسيرا مريضا، ثمّ فارقه، وتوفّي بدنيّسر^(٢) سنة أربع وسبعين، وحمل إلى الموصل فدفن بها، ثمّ نُحِل منها في موسم الحجّ إلى المدينة ودفن عند والده. وكان من أحسن النَّاس صورة ومعنى، رحمه الله تعالى.

قال: ثمّ إن سيف الدّين استناب دُرْدَاراً بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدّين قايماز في ذى الحجة سنة إحدى وسبعين، وردّ إليه أزمّة الأمور في الخلّ والعقد، والرفع والخفض. وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ومعه فيها ولدٌ صغير لزين الدّين جلي، لقبه أيضا زين الدّين، فكان البلد لولد زين الدّين اسمًا لامعًا تحتّه، وهو لمجاهد الدّين صورة ومعنى.

قلت: وفيها في حادى عشر رجب توفّي حافظ الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدمشقي رحمه الله تعالى، وحضر السّلطان صلاح الدّين جنازته ودفن في مقابر باب الصغير.

وفيها قدم [دمشق]^(٣) أبو الفتوح عبد السّلام بن يوسف بن محمد بن مقلّد الدمشقي الأصل البغدادي المولد التّنوخي الجاهري الصّوفي ابن الصّوفي؛ ذكره العماد في الخريدة

(١) في الأصل وفي ل ١٢٠٨: نسان دون إجماع، وفي مفرج الكروب: ٢: ٤٧: بلسان مع تعلية في الهامش نصها: في الأصل ينسان. والمثبت هنا من الأتابكة وهو يتفق مع نسخة الأصل في مفرج الكروب.

(٢) من لواحي الجزيرة قرب ماردين وبينهما فرسخان، وتسمى أيضا فوج حصار: معجم البلدان: ٤: ٩٤.

(٣) ما بين الحاسرتين من ل ١٢٠٨.

وقال : كان صديقي ، وجلس للوعظ وحضر عنده صلاح الدين وأحسن إليه ، وعاد إلى بغداد .

وذكر العماد من أشعاره مقطعات ، منها في الحقائق ، وأنشدها في مجلسه :

يا مالكا مُنْجِي ، يا مُنْتَهَى أَمَلِي يا حاضراً شاهداً في القَلْب والفكر
خَلَقْتَنِي مِنْ تَرابٍ أَنْتَ خَالِقُهُ حتى إِذا صُرْتُ تَمثالاً مِنْ الصُّور
أَجَرَيْتَ فِي قَالِبي رُوحاً مَنْوَرَةً تَمُرُّ فِيهِ كَجَرْمِي الْماءِ فِي الشَّجَر
جَعَلْتَ بَيْنَ صَفَا رُوحٍ مَنْوَرَةٍ وَهَيْكَلِ صُفْتِهِ مِنْ مَعْدِنِ كَدِر
إِنْ غِيبْتُ فِيكَ فَيَا خَيْرِي وَيَا شَرِي وَإِنْ حَضَرْتُ فَيَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي
أَوْ احْتَجَبْتُ فَسَرَى مِنْكَ فِي وَلَهٍ وَإِنْ خَطَرْتُ فَقَلْبِي مِنْكَ فِي خَطَر
تَبْدُو فَمَحْجُورُ سُرُومِي ثُمَّ تَلْبِثُهُمْ وَإِنْ تَفَيَّيْتُ عَنْ عِشْتُ بِالْأَثَر

ثم دخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة :

قال العماد : والسَّلاطَانُ مقيم بظاهر حلب ، فعرف أهلها أَنَّ العُقُوبَةَ أَلِيمةً ، والعاقبة وخيمة . فدخلوا من باب التذلل ، ولاذوا بالتوسل وخاطبوا في (٢٠٥ ب) التَّفَضُّل ، وطلبوا الصَّالِح ؛ فأجابهم ، وعفا وعفّ ، وكفّى وكفّ ؛ وأبقى للملك الصَّالِح حلب وأعمالها ، واستقرى كل عثرة لهم وأقالها ؛ وأراد له الإِعزاز ، فرد عليه عزاز .

وقال ابن شدّاد ^(١) : أخرجوا إليه ابنةً لنور الدين صغيرة سألت منه عزاز فوهبها ليّاها .

قال ابن أبي طيّ . لما تمّ الصلح وانعقدت الأيمان ، عوّل الملك الصالح على مراسلة السَّلاطَانِ وطلب عزاز منه ، فأشار الأمراء عليه بإِنْفَازِ أخته ، وكانت صغيرة ، فأخرجت إليه ؛ فأكرمها السَّلاطَانُ إكراماً عظيماً ، وقَدَّم لها أشياء كثيرة ، وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة وغير ذلك .

(١) في النوادر السلطانية : ٤٢ .

وقال غيره : بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل فدخلت عليه ، فقام قائماً وقبّل الأرض وبكى على نور الدين ؛ فسألت أن يردّ عليهم أعزاز فقال سمعاً وطاعة ، فأعطاهما إيتاها وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً . واتفق مع الملك الصالح أن له من حماة [و] ما^(١) فتحه إلى مصر ، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية .

قال العماد : وحلفوا له على كلّ ماشرطه ، واعتذروا عن كلّ ما أسخطه . وكان الصّالح عامّاً لهم وللوصالة وأهل ديار بكر ؛ وكتب في نسخة اليمين أنه إذا غدر منهم واحدٌ وخالف ، ولم يَفِ بما عليه حالف ، كان الباؤون عليه يداً واحدة ، وعزيمة متعاقدة ، حتّى يَفِء إلى الوفاء والوفاق ، ويرجع إلى مرافقة الرفاق .

فلما انتظم الصّلاح ذكر السلطان ثأره عند الاسماعيلية وكيف قصدوه بتلك البلية ؛ فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من الحرّم ، فحصر حصنهم مصياث^(٢) ونصب عليه المجانيق السكبار ، وأوسعهم قتلاً وأسراً ، وساق أبقارهم ، وخرّب ديارهم ، وهدم أعمارهم ، وهتك أستارهم ، حتّى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة ، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه ، فرحل عنهم وقد انتقم منهم .

قال : وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع ، فخرج إليهم شمس الدّين [محمد]^(٣) بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، وهو متولّى بعلبك ومقطّع أعمالها ، ومدبّر أحوالها ، والمتحكّم في أموالها ، فقتل منهم وأسراً أكثر من مائتي أسير ، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث ، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث^(٤) .

قال ابن أبي طيّ : وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد

(١) الواو من ل ٢٠٨ ب .

(٢) في معجم البلدان : مصياث ومصياف . وهي في الأصل غير معجمة ، وفي ل ٢٠٩ بالثناء المعجمة . وفي كلام مسجوع للعماد ، سيأتى بعد سطور ، ما يدل على أنها بالثناء المعجمة إذ قال : « ... وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث ، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث » : مصياث أو مصياف أو مصياح حصن الاسماعيلية ، الحشيشية ، بالشام قرب طرابلس . معجم البلدان : ٨ : ٧٩ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٩ ا .

(٤) في ل ٢٠٩ ا : والانبعاث .

الاسماعيلية ، لأنّ السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه ، فرُبّما ظفروا من البلاد بطائل ؛ فصالح سنانا وعاد إلى دمشق .

قال العماد : وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج ، وباسطهم عند عين الجر^(١) في تلك المروج ؛ ووقع من أصحابه عدّة في الأسار ، منهم سيف الدين (١٢٠٦) أبو بكر بن السلار .

ووصل السلطان إلى حماة وقد استكمل الظفر ، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر ، وهو أوّل لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر ؛ وتعانق الأخوان في الخيم بالميدان ، وتحدّثا في الحدّثان ، وروعات الفراق ، ولوعات الأشواق .

وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقتها بلاد اليمن كتاب ضمّه أبياتا أظنها من شعر ابن المنجم المصري^(٢) ، أولها :

الشوق أولع بالقلوب وأوجّع فعَلَامَ أدفع منه مالا يُدفع

منها :

وحملتُ من وَجدِ الأحبة مفرداً	ماليس تحمّله الأحبة أجمع
لا يَسْتَقِرُّ بِي التّوى في موضع	إلا تقاضاني التّرحّلَ موضع
فلإي صلاح الدين أشكو أني	من بُعدِه مُضِنِّي الجوانح موجه
جزّعا لبعد الدار منه ^(٣) ، ولم أكن	لولا هواه ، لبعد دارٍ أجزع
فلأركبنّ إليه متن عزائي	ويُخَبِّ بِي ركبُ الغرام ويوضع
حقّي أشاهد منه أسعد طلعة	من أفقها صبح السعادة يطلع

قال العماد : فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويّتها ووزنها ، فقلت .

فذكر قصيدة ، منها :

مولاي شمس الدولة الملك الذي شمس السيادة من سناه تطلع

(١) بين بعلبك ودمشق في إقليم البقاع . معجم البلدان : ٦ : ٢٥٤ .

(٢) نشو الدولة على بن مفرج المنجم ، ولد سنة ٥٤٩ وتوفى سنة ٦٣٠ ، انظر : الحريدة : قسم شعراء

مصر : ١ : ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣) في مفرج الكروب : ٢ : ٤٩ : عنه .

مالى سِواك من الحوادث ملجأً مالى سِواك من التّوائب مفزع
وَلَا نَتُفَرِّقُ الدينَ فخرى في العلا وملاذُ آمالى ، ورُكنى الأُمْنَعُ^(١)
إِلَّا بِخِدْمَتِكَ الجَليلة موقى والله ما لملك عندى موقع
وبغير قُرْبِكَ كلُّ ما أرجوه من دركُ لُئى متعــــــذّر متمتع
لِلنَّصْرِ^(٢) إِنْ أَقْبَلْتَ نحوى مُقْبَل واليمنُ إِنْ أَسْرَعْتَ نحوى مسرع

قال : ثمّ مرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر ، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة ، وعزم إلى مصر السفر .

فصل

في ذكر جماعة من الأعيان

تجدّد لهم ما اقتضى ذكره في هذه السنة

قال العماد : في السادس من المحرم توفى بدمشق القاضي كمال الدين بن الشَّـ رَزَوْرى ، وعمره ثمانون سنة ، لأنّ مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة^(٣) . وكان في الأيّام الثّورية بدمشق هو الحاكم المتحكم ، وصلاح الدين إذ ذاك يتولى الشّحنكية بدمشق ، وكال الدين يعكس مقاصده بتوخيّه الأحكام الشرعيّة ، وربما كسر أغراضه ، وأبذى عن قبوله إعراضه ، ويقصد في كلّ ما يعرض له اعتراضه ، وكَم صبر على جماعه بحلمه وراضه ، إلى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشّحنكية إلى الملّك ، وصار كال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك ، وكان في قلبه منه مافيه ، وما فرط منه فات وقت تلافيه . فلما ملك دمشق أجراه على حكمه ، ولم يؤاخذ به بجرمه ، واحترم نوابه ، وأكرم أصحابه ، وفتح

(١) في ل ١٢٠٩ : الأرفع . (٢) في مفرج السكروب : ٢ : ٤٩ النصر .

(٣) تقدم شيء من التعريف به ص : ١٥ : حاشية : ٦ من هذا الكتاب . انظر عنه أيضاً طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، ووفيات الأعيان ، ومرآة الزمان ، وهذرات الذهب ، وكذلك . عن بعض أعلام أسرته .

للشّرع بابه ، وخاطبه واستحسن جوابه ، ولم يزل يستفتيه (٢٠٦ ب) ويستهديه ، ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه ^(١) .

وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزورى قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه ، وأذنت هجرته في درك إرادته بإدارة فلسكه ، وأنعم عليه هناك بجزية الذهب ، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب ، ووفّر حظه من الذهب ، وملكه داراً بالقاهرة نفيسة جميلة ، جميلة جائلة ، ورتّب له وظائف ، وخصّه بلطائف ؛ ووصل مع صلاح الدين إلى الشّام ، وأمره جارٍ على النّظام .

ولما اشتد بكمال الدين المرض ، وكاد يفارق جوهره العرض ، أراد أن يبقى القضاء في ذويه ، فوصّى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه ، علماً منه بأن السلطان يُمضى حكمه لأجل سوائفه ، ويجعله عنده من عوائد عوارفه . ومات ولم يخلف مثله ، ومن شاهده شاهد العقل والفضل كلّهُ ، بارّاً بالأبرار ، مختاراً للأخيار ، مكرماً للكرام ، ماضياً في الأحكام . وقد قوّاه نور الدين رحمه الله وولده في أيامه ، وسدد سراى مرامه .

وهو الذى سن دار العدل ^(٢) لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان ، فلا يبقى عليه مغمز ولا ملز لدوى الشّنان . وهو الذى تولى له بناء أسوار دمشق ، ومدارسها ، والبيمارستان . فاستمرت عادته واستقرّت قاعدته في دولة السلطان . وتوفى ونحن بحلب محاصرون .

وذكر العماد في الخريدة لابنه محيى الدين قصيدة في مريثته منها :

أَلِمُوا بِسَفْحِي قَاسِيُونَ فَسَلَمُوا عَلَى جَدِّ بَادِي السَّنَا ، وَتَرَحَّمُوا
وَبِالرَّغْمِ مَنِ أَنْ أُنَاجِيهِ بِالْمَنَى وَأَسْأَلُ مَعَ بَعْدِ الْمَدَى مِنْ يُسَلِّمُ
لَقَدْ عَدِمْتَ مَفْكَ الْبَرِيَّةِ وَالْدَّاءِ أَحْنَّ مِنَ الْأُمِّ الرِّءُوفِ وَأَرْحَمِ

(١) في مفرج الكروب لم أوردّه الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال في التعليق ، ونقله عن مرآة الزمان ، لسبط ابن الجوزى ، جاء فيه : « ومشي (أى صلاح الدين ، إلى دار كمال الدين ، فانزعج وخرج إلى لقائه ، ودخل صلاح الدين مجلس وبأسطه ، وقال : يا كمال الدين ، لما كنت في الشّحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات - وكان كمال الدين يكرهه ، فكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه - فقال له صلاح الدين : ما مشيت إلا لأزيل ما في خاطرك من الوهم ، وأعرفك أن ما في قلبك لك نكرة ؛ فطب نفساً ، وقرّ عيناً ، فالأمر أمرك والبلد بلدك » . انظر مفرج الكروب : ٢ : ٢٠ حاشية : ٧ .

(٢) وتسمى أيضاً دار الكشف ؛ انظر ما تقدم في هذا الكتاب : ١٧ - ١٨ .

ولا سيما إخوان صدق بخلقهم في سماء المجد والجلود أنجم
نشرت لواء العدل فوق رؤوسهم فما كان فيهم من يضام ويظلم
لقيت من الرحمن عفوا ورحمة كما كنت تعفو، ما حييت، وترحم

قال العماد : وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه ، وأحسن إحسانه ، وأبقى نواب
عمه ، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه .

وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون^(١) قد هاجر من حلب
إلى السلطان ، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الإحسان ، وهو شيخ مذهب الشافعي رضي
الله عنه ، والأقوم بالفتيا ، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا ، والسلطان
يؤثر أن يفوض إليه منصب القضاء ، ولا يرى عزل الضياء ؛ فأفصى بسرّ مراده إلى
الأجل الفاضل ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى [الهكاري^(٢)] يتعصب لشيخه ،
فاستشعر الضياء من العزل ، وأشير عليه بالاستعفاء ، ففعل ، فأعفى وبقيت عليه الوكالة
الشرعية عنه في بيع الأملاك .

قال العماد : وأول ما اشترت (١٢٠٧) منه بوكالة السلطان الأرض التي ببستان
بقرا الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان ، وكنت قد احتكرتها
في الأيام النورية فلستكها في الأيام الصلاحية .

(١) تنقل بين بغداد والموصل وسنجار وواسط وحلب وغيرها طالباً للعلم ومدرساً ، ودخل دمشق
سنة ٥٤٩ هـ مع نور الدين محمود وتولى قضاءها بعد أن تنقل في عدة مناصب . عاش بين سنتي ٤٩٢-٥٨٥ هـ .
طبقات الشافعية الكبرى ؛ الوافي بالوفيات ؛ شذرات الذهب .

(٢) أضيف ما بين الخاضعين للتوضيح . وهو الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري ،
قدم مع أسد الدين شيركوه إلى مصر ، وبقي بها نصيحاً لصلاح الدين عندما تولى الوزارة الفاطمية ،
وقد ردّ عنه أذى الاضطراب الذي حدث في صفوف الجيش غضباً لاختيار صلاح الدين ، دون غيره من
القادة ، لمنصب الوزارة . وتوفي الهكاري سنة ٥٨٥ هـ بعد حياة حافلة بالجهاد في ميدان العلم والحرب .
انظر : وفيات الأعيان : ١ ؛ وانظر كذلك ما تقدم في هذا الكتاب ، في حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، عن
وزارة صلاح الدين وظروفها .

قلت : قد خربت هذه الأماكن في سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار ^(١) ، واستمرّ خرابها ، وعفت آثارها ، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفيّ خارج باب الفرنج ماراً إلى ناحية الميدان .

قال : فلما استعفى ضياء الدين بن الشهرزوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن إبراهيم بن عمر بن بلال الشافعي وكان ينوب عن كمال الدين ، فأمره السلطان أن يجري على رسمه ، ويتصرف في حكمه .

وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزكوي ^(٢) مؤثراً ، ولذكر مناقبه مكثراً ، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج ، وبطلب نجاز عدته مناج ، ففوض إليه القضاء والحكم والإنفاذ والإمضاء ، على أن يتولى محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكيّ الدين ، والأوحد ، قاضيين في دمشق ، يحكمان ، وهما عن نيابته يوردان ويصدران ؛ وتوليتهما بتوقيع من السلطان . ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متولياً للقضاء ، منفرداً بالحكم والإمضاء ، سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخى السلطان الملك المعظم خنز الدين .

فلما عدنا إلى الشام تكلم الناس في ذهاب نور بصره ، وأنه لا يقوم في القضاء بورده وصدرة ، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد ، كأنه نائب أبيه ، ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه . واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين ، ثم صُرف واستقلّ به ابن زكيّ الدين ، فأقام في مدة ولايته للشرع القواعد والقوانين ، وفوض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد

(١) أي حصار دمشق التي هدها الخوارزمية عندئذ ومعهم حلفاؤهم أصحاب مصر بقيادة ركن الدين بيبرس الصالح . وكان الذي يدافع عن دمشق المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه الصغير ، وحفيد شيركوه الكبير ، وهو صاحب حمص عندئذ . وقد بدأ هذا الحصار سنة ٦٤٢ وانهى سنة ٦٤٤ بهزيمة المهاجرين وأعوانهم وقتل رجالهم وسبي نسائهم . انظر المذيل على الروضتين فيه تفصيل الأماكن التي أحرقت قبيل الحصار وفي أثناءه .

(٢) أي بيت القاضي زكيّ الدين محمد بن علي بن محمد القرشي ، قاضي دمشق . انظر : طبقات الشافعية الكبرى ؛ وفيات الأعيان .

إلى أخيه مجد الدين بن الزكي ، فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال ، وتولاه بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال ، إلى آخر عهد السلطان بعده .

قلت : وفيها في صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه ، أو [من ^(١)] يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي رحمه الله تعالى ، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه ؛ وجعل النظر لقطب الدين الديسابوري رحمه الله .

ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة ، وعامه علامة السلطان رحمه الله :
« الحمد لله ، وبه توفيقى » .

قال العماد : و [فيها ^(٢)] في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر ، ونحن في طريق الوصول إلى دمشق ، توفي (٢٠٧ ب) شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق ، وهو أول خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية . وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز ، ويتقصده الشعراء ويحضره الكرماء ، فيكثر خلعهم وجوائزهم ، ويبعث على مدحه غرائزهم . فحمل السلطان همه وقرب ولده ، وجبر بئر بيته يُتمه .

ثم تعين ضياء الدين بن الشهرزوري بعده للرسالة إلى الديوان ، وصارت منصبا له ينافس عليه ، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السلطاني ، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشام ، فإنه بعد ذلك خاطب في هذا المرام ؛ فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصحبة ، وهو متردد ^(٣) إلى بصفاء المحبة .

و [فيها ^(٤)] في آخر صفر تزوج السلطان بالختاتون المنعوتة عصمة الدين بنت الأمير

(١) ما بين الحاصرتين تكملة لازمة . وفي ل ٢١٠ ب : الحضر .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ٢١٠ ب .

(٣) في ل ٢١٠ ب : وهو متودد ... الخ .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ٢١٠ ب .

معين الدين أنر ، وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله تعالى ، فلما توفي أقامت في منزلها بقلعة دمشق ، رفيعة القدر ، مستقلة بأمورها ، كثيرة الصدقات ، والأعمال الصالحات . فأراد السلطان حفظ حرمتها ، وصيانتها وعصمتها ، فأحضر شرف الدين بن أبي عصرون وعُدُّوله ، وزوجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر بإذنها ، ودخل بها وبات عندها ، وقرت بسعده سعدا ؛ وخرج بعد يومين إلى مصر .

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشهرزوري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن عليّ بن منقذ ، وعوده إلى الشام عند علمه بوصول السلطان ، فقال : هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء ، والكرماء الكبراء ، والسادة القادة العظماء ، وقدمته الله بالعمر وطول البقاء ؛ وهو من المعدودين من شجعان الشام ، وفرسان الإسلام .

ولم تزل بنو منقذ مَلّاك شيزر ، وقد جمعوا السيّادة والمفخر ، ولما تفرّد بالمعقل منهم من تولاه ، لم يرد أن يكون معه فيه سواه ، فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد ، وكلهم من الأجواد الأبحار ، وما فيهم إلا ذو فضل وبذل ، وإحسان وعدل ، وما منَهم إلا من له نظم مطبوع ، وشعر مصنوع ، ومن له قصيدة وله مقطوع .

وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب ، وأعرفهم بالأدب ؛ وكانت جرت له نبوة في أيام الدمشقيين ، وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين ، في أيام المصريين ، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظافر^(١) ، وقتل عباس^(٢) وزيرهم إخوانه ، وإقامة المنعوت بالفائز^(٣) ، وما صادف^(٤)

(١) وهو الخليفة الفاطمي أبو المنصور اسماعيل ؛ امتدت خلافته بين سنتي ٥٤٤-٥٤٩ .

(٢) عباس بن يحيى الصنهاجي ، وكان وزيراً للظافر ، فدبر مؤامرة له وقتله فاستغاث الفاطميون بالصالح طلائع بن رزيك الذي جاء من الصعيد ففر عباس إلى الشام وقتله الفرّنج في الطريق . انظر الفاطميون في مصر ؛ النجوم الزاهرة ؛ الاعتبار لأسامة بن منقذ . وانظر ما تقدم في هذا الكتاب : ٢٤٨-٢٤٩ .

(٣) وهو أبو القاسم عيسى خليفة مصر الفاطمية بين سنتي ٥٤٩-٥٥٥ .

(٤) في ل ٢١١ : وما ردف .

ذلك من الهزاهز . فعاد مؤيد الدولة إلى الشام ، وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها . ولما سمع بالملك الصلاحى جاء إلى دمشق ، وذلك فى سنة سبعين ، وقال :

حدث على طول عمرى المشيبا وإن كنت أكثر فى الذنوبا
لأنى حيت إلى أن لقيت بعد العدو صديقاً حبيباً

(١٢٠٨) قال : وكنت أسمع بفضله وأنا بأصهبان فى أيام الشيبية . وأنشدنى له مجد العرب العاصرى بأصهبان فى سنة خمس وأربعين هذين البيتين ، وهما من مبتكرات معانيه ، فى سنّ قلمها^(١) :

وصاحب لم أمل^(٢) الدهر صحبته يشقى لنفعى ويسعى سعى مجتهد
لم ألقه منذ تصاحبنا ، فحين بدا لناظرى افترقنا فرقة الأبد

قال : فلما لقيته بدمشق فى سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه ؛ مع كثير من شعره المبتكر من جنسه .

قلت : ومن عجيب ما اتفق أنى وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين ، والمجموع أربعة أبيات ، فى ديوان أبى الحسين أحمد بن منير الأطرابلسى ؟ ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة^(٣) . قرأت فى ديوانه : وقال فى الضرس^(٤) :

(١) خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٢) فى ل ١٢١١ : لا أمل .

(٣) انظر صفحة ٤٤ حاشية : ٤ ، وكذلك صفحة ٢٢٧ .

(٤) المثبت هنا بعد هذا مطابق لما جاء فى ل ١٢١١ - ٢١١ ب . وقد ورد فى نسخة الأصل كما يلى :

« وقال فى الضرس :

وصاحب لا أمل الدهر . . . البيت . . . ثم قال :

أدنى إلى القلب من سمى ومن بصرى ومن تلادى ومن مالى ومن ولدى
أخلو بينى من خال بوجنته مداده زائد التقصير للمد
لم أره منذ تصاحبنا . . . البيت . . . » .

وصاحب لا أمل الدهر صحبته يشقى لنفسي وأجنى ضرره ييـدى
أدنى إلى القلب من سمى ومن بصرى ومن تلادى ، ومن مالى ، ومن ولدى
ثم قال :

أخلو ببثي من خالٍ بوجنته مداده زايد التقصير للـدد
لم ألقه^(١) مذ تصاحبنا ... البيت .

فالأشبه أن ابن منير أخذها وزاد عليهما ، ولهذا غير فيهما كلمات . و [وقد]^(٢) وجدت
هذا البيت الأول على صورة أخرى حسنة :

* وصاحب ناصح لي في معاملتي *

ويجوز أن يكون أسامة أنشدها متمثلاً فذهب إليها لما كان مظنة ذلك . ويجوز أن
يكون اتفاقاً ، والله أعلم .

قال العماد : وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مرهفاً وهو جالس صلاح الدين
وأنيسه وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين ، وهو لشغفه به يفضل على جميع
الدواوين . ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشام ، وإلى آخر عصره ،
وتوطن بمصر ؛ فلما جاء مؤيد الدولة أبوه ، أنزله أرحب منزل ، وأورده أعذب منهل ،
وملكه من أعمال المعرة ضيعة زعم أنها كانت قديماً^(٣) تجرى في أملاكه ، وأعطاه بدمشق
داراً وإدراراً . وإذا كان بدمشق جالساً وآنسه ، وإذا كره في الأدب ودارسه .

وكان ذا رأى وتجربة ، وحسكة مهذبة ، فهو يستشير في نوائبه ، ويستشير برأيه في
غياهبه ؛ وإذا غاب عنه في غزواته ، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته ، واستخرج رأيه في كشف
مهمات ، وحل مشكلاته . وبلغ عمره ستاً وتسعين سنة ، فإن مولده سنة ثمان وثمانين
وأربعائة ، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

(١) وردت في الأصل : لم أره ، والمثبت هنا هو الصحيح .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ٢١١ ب .

(٣) في الأصل : قديماً .

وقد تقدم من أخباره في قتل الأسد في شببته أيتام كونه بشير^(١) ، وذكرت له أيضا ترجمة حسنة في تاريخ دمشق .

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر

وخرج من دمشق يوم الجمعة ، رابع شهر ربيع الأول .

قال العماد : ولما استتمت للسلطان (٢٠٨ ب) بالشام أمور ممالكه ، وأمن على مناهج أمره وممالكه ، أزمع إلى مصر الإياب ، وقد انحلت [من]^(٢) بعده من جود جود السحاب ، وتقدمه الأمراء والملوك . وخرج [بكرة]^(٣) الجمعة ونزل بمرج الصفر ، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمتين^(٤) ، وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلي ، فما نزلت منزلاً إلا نظمت أبياتاً . فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخيابة^(٥) :

أقول لركبٍ بالخيابة نزل
أثيروا ؛ فما لي في المقام خیار
هم رحلوا عنك الغداة وما دروا
بأنهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا ترى من تحبه^(٥)
وفي القلب من نار الغرام أوار
أجبروا من البلوى فؤادي فعندكم
ذمام له ياساداتي وجوار
وقلت وقد نزلنا بالقيع^(٦) :

رأيتني بالقيع منفرداً أض
بيع من فقع قاعها الضائع
بعت بمصر دمشق عن غرر
مني ، فياغبني صفقة البائع

(١) انظر ص : ٢٨١-٢٨٢ من هذا الكتاب ، في أثناء الفصل الخاص بمحسن شيرز وولاية بني منقذ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ٢١١ ب .

(٣) في ل ٢١١ ب : الصنمتين .

(٤) قرية قرب طبرية من جهة عكا قرب حطين . معجم البلدان : ٣ : ٤٩٥ .

(٥) في ل ٢١١ : لا يرى من يحبه .

(٦) في ل ٢١٢ : بالقيع .

صُبْرِيَّ وَالْقَلْبُ عَاصِيَانِ، وَمَا
غَيْرُ هُمُومِي وَأُدْمَعِي طَائِعِي
وَقُلْتُ بِالْفَوَّارِ :

تَحْدَرُ بِالْفَوَّارِ دُمْعِي عَلَى الْفَوْرِ
فَقُلْتُ لَجِيرَانِي أَجِيرُوا مِنْ الْجَوْرِ
وَأَصْعَبُ مَا لَقِيتُ أَنِي قَانِع
مِنْ الطَّيْفِ مَذْبُتُمْ بَزُورٍ مِنَ الزُّورِ
وَقُلْتُ بِالزَّرْقَاءِ :

وَلَمْ أَنْسَ بِالزَّرْقَاءِ يَوْمَ دَاعِنَا
أَعْدَتُكَ يَا زَرْقَاءَ حَمْرَاءَ ، إِنِّي
تَأَخَّرَ قَلْبِي عَنْهُمْ مُتَخَلِّفَا
وَخَالَفْتُهُمْ فِي عَزْمَتِي وَالتَّقَدُّمِ
فِيَالَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَعُودُ إِلَيْهِمْ
وَهَلْ « لَيْتَ شَعْرِي » نَافِعٌ لِلْمَعْتَمِ
قَالَ : وَقُلْتُ وَقَدْ عَبَرْنَا عَلَى مَسَالِكِ قَرِيبَةٍ مِنْ قَلْعَةِ الشُّوبَكِ ، وَفِيهَا تَخْطَفُ^(١)
الْإِفْرَنْجُ الْقَاصِدِينَ إِلَى مِصْرَ :

طَرِيقَ مِصْرَ ضَيِّقُ الْمَسْلُوكِ
سَالِكُهُ لَا شَكَّ فِي مَهْلَكِ
وَحُبَّ مِصْرَ صَارَ جَبًّا لِمَنْ
أَوْقَعَهُ فِي شَبَكِ « الشُّوبَكِ »
لَكِنَّا مِنْ دُونِهَا كَعْبَةٌ
مُحْجُوجَةٌ مَبْرُورَةٌ الْمُنْسَكِ
بِهَاصِلِاحِ الدِّينِ يُشْكِي الَّذِي
إِلَيْهِ مِنْ أَيَّامِهِ يَشْتَكِي

قَالَ : وَنَظَّمْتُ فِي طَرِيقِ مِصْرَ قَصِيدَةً مُشْتَمِلَةً عَلَى ذِكْرِ الْمَنَازِلِ بِالترْتِيبِ ، وَإِيرَادِ
الْبَعِيدِ مِنْهَا وَالْقَرِيبِ . وَاتَّفَقَ أَنَّ السُّلْطَانَ سَيرَ إِلَى مِصْرَ الْمَلِكِ الْمَظْفَرِ تَقَى الدِّينِ ، وَكَانَ
لَا يَسْتَدْعِي مِنْ شَادِيهِ ، إِلَّا إِنْشَادَهَا فِي نَادِيهِ ، وَيَطْرَبُ لِسَمَاعِهَا ، وَيَعْجَبُ بِإِبْدَاعِهَا ،
وَكَانَ قَدْ فَارَقَ أَهْلَهُ بِدَمَشْقَ كَمَا فَارَقْتَ بَهَا أَهْلِي ، وَجَمَعَ اللَّهُ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ شَمْلِي .
وَهِيَ هَذِهِ^(٢) .

هَجَرْتَكُمْ لَا عَنْ مَلَالٍ وَلَا غَدْرٍ وَلَكِنْ لِمَقْدُورٍ أُتِيحَ مِنَ الْأَمْرِ

(١) ق ل ٢١٢ تخطف ، وهما بمعنى واحد :

(٢) الحريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٦ - ٩ .

وأعلم أنى مخطئ في فراقكم
أرى نوباً للدهر تُحصى ولا أرى
بعينى إلى لقيى سواكم غشاوة^(١)
وقلبى وصبرى^(٢) فارقانى لبعدكم
(١٢٠٩) وإنى على العهد الذى تعهدونه
تجرعت صرغ الهمة من كأس شوقكم
وإن زماناً ليس يعمر موطنى
وأقسم لو لم يقسم البين بيننا^(٣)
أسير إلى مضر وقلبي أسيركم
أخلاقى قد شطّ المزار ، فأرسلوا إلى
تذكرت أحبابى بخلق بعدما
وناديت صبرى مستغيثاً فلم يجب
ولما قصدنا من دمشق غباغباً^(٤)
نزلنا برأس الماء عند وداعنا
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت
ونهنهت بالفوار فيض مدامعى
سرينا إلى الزرقاء منها ، ومن يُصب
تذكرت حمام القصير^(٥) وأهله

وعذرى في ذنبى ، وذنبى في عذرى
أشد من الهجران في نوب الدهر
وسمى عن نجوى سواكم^(١) لذؤوق
فلا صبر فى قلبى ، ولا قلب فى صدرى
وسرى لكم سرى ، وجهزى لكم جهزى
وها أنا فى صحوى تريف من السكر
بسكناكم فيه فليس من العمر
جوى الهمة ما أمسيت مقتسم الفكر^(٤)
ومن عجب أسرى وقلبي فى أسر
خيال وزوروا فى الكرى واربحوا أجرى
ترحلت ، والمشتاق يأنس بالذكر
فأسبلت دمعى للبكاء على صبرى
وبتنا من الشوق الممض على البحر
موارد من ماء الدموع التى تجرى
فواقع من فيض المدامع فى الغدر
ففاضت وباحت بالمكتم من سرى
أواماً يسر حتى يرى الورد أو يسرى
وقد جزت بالحمام فى البلد القفر

(١) فى الحريرة : إلى نجوى سواكم .

(٢) فى الحريرة : وصدرى .

(٣) فى ل ٢١٢ : * وأقسم لو يقسم البين بيننا * وهو مختل الوزن .

(٤) فى الحريرة : منقسم الفكر .

(٥) قرية فى أول عمل حوران من ناحية دمشق ، وبينهما ستة فراسخ . معجم البلدان : ٢٤٦ : ٦ .

(٦) بالفور من أعمال الأردن . نفس المصدر : ١١٥ : ٧ .

وبالقريتين القريتين ، وأين من
ورَدْنَا من الزيتون حسمى^(١) وأيلة
غشين الفواشي^(٢) وهي يابسة الثرى
وضنّ علينا بالتدى تمد الحصا^(٣)
فقلت اشرحى بالخس صدرأ مطيقي
رأيناهم ——— عين المواساة ، إننا
وما حسرت عيني على فيض عبرة
وملنا^(٤) إلى أرض السدير وجنة
وجبنا الفلا حتى أصبنا^(٥) مباركاً
ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتي^(٦)
بكت أم عمرو من وشيك ترحلي
تقول إلى مضر تصوير^(٧) ! تعجباً
فقلت : ملاذى ، الناصر ، الملك الذى
فقلت : أقم لا تعدم الخير عندنا

مغائى الغوائى منزل الأدم والعفر
ولم نسترح حتى صدرنا إلى صدر
بعيدة عهد القطر بالعمد والقطر
ومن يرتجى رياء من التمد التذر
بصدر وإلا جادك النيل للعشر
إلى عين موسى^(٨) نهذل الزاد للسكر
أ كنفكفها حتى عبرنا على الجسر^(٩)
هنالك من طلع نضيد ومن صدر
على بركة الجبة^(١٠) المبشر بالقصر
من يتلقى الوفد بالوفر والبشر
فياخجلتى من أم عمرو ومن عمرو
وماذا الذى تبغى ، ومن لك فى مصر ؟
حصلت بحدواه على الملك والنصر
فقلت : وهل تغنى السواقى عن البحر

-
- (١) جبل الزيتون جنوبى فلسطين ؛ وحسمى فى البادية بين أيلة وجانب تيه بنى إسرائيل وأرض بنى
عذرة . معجم البلدان : ٢٧٦ : ٣ .
- (٢) بعض منازل بنى عذرة جنوبى فلسطين . الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٧ . وهى المرجع فى
التعريف ببعض الأماكن الواردة فى هذه القصيدة .
- (٣) أرض قريبة من مدائن صالح .
- (٤) بالقرب من البترا بواد كثير الزيتون .
- (٥) مدينة القلزم .
- (٦) فى الخريدة : وملت .
- (٧) فى الخريدة : أتينا .
- (٨) فى القليوبية ، قرية شرقى المرج .
- (٩) فى الخريدة : ناقتى .
- (١٠) فى الخريدة : تسير ؛ وهى كذلك فى ل ٢١٢ ب .

ثِقَى بِرَجُوعِ يَضْمَنَ اللَّهُ نَجْحَهُ وَلَا تَقْتَضِي (١) أَنْ تُبَدَلَ الْعُسْرَ بِالْيُسْرِ
عَطِيَّتُهُ قَدْ ضَاعَتْ مُنَّةُ الرَّجَا وَنِعْمَتُهُ (٢) قَدْ أضعُفَتْ مُنَّةُ الشُّكْرِ
قال : وكان الدّخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأوّل بالزى الأجل
والعزّ الأكل .

وتلقّى السّلطان أجوبه ونائبه الملك العادل سيف الدّين إلى صدر ، وعبر إلينا عند بحر
القائز الجسر ، وتلقّانا خير مصر ووصلت إلينا ثمراتها ، وجلبت علينا زهراتها ، فظهر
بنا نشاطها ، وزاد اغتباطها ، ودخل السّلطان داره ، ووفق الله في جميع الأمور
إيراده وإصداره .

وكانت قد صُعِبَتْ عَلَى (٢٠٩ ب) مفارقة دمشق وأهلها ، لقلة الوثوق بأنّى أحصل
بمثليها ؛ فنظمت يوم خروجي منها أبياتا إلى ناصر الدّين محمد بن شيركوه ، منها :

بمُهْجَتِي خِنْتُ الْعِطْ فِ مُسْتَلَدِّ الدَّلَالِ
يَقُولُ لِي بَانْكَسَارِ وَرَقَّةٍ وَاعْتِلَالِ
مَعَاتِبًا بِحَدِيثِ أَصْفَى مِنَ السَّلْسَالِ
مَا مَعْرُومٌ مِثْلَ دِمَشْقٍ بَعْتَ الْهَدَى بِالضَّلَالِ
فَقُلْتُ عَنَّتْ أُمُورٌ عَجِيبَةُ الْأَشْكَالِ
أَسِيرُ فِي طَلَبِ الْعِزِّ (م) مِثْلَ سَيْرِ الْهَلَالِ
لَمْ يَبْلُغِ الْبَدْرُ لَوْلَا أَلْ مَسِيرُ أَوْجِ الْكَمَالِ
وَكَيْفَ أَتْرَكَ شَغْلِي وَإِنِّهِ رَأْسُ مَالِي
صَلَاحُ حَالِي صَلَاحُ الدِّ (م) يَنْ الْغَزِيرِ النَّوَالِ
مَالِي أَفَارِقُ مَلِكًا مَلِكُهُ آمَالِي
يَا نَاصِرَ الدِّينِ : قَلْبِي عَلَيْهِ فِي بَلْبَالِ

(١) في الحريدة : ولا تقتضى ؛ والمثبت هنا أولى .

(٢) في الحريدة : ومنته .

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة ، وسيدهم المولى الأجل الفاضل ؛ وقد مدحه
بقصيدة منها :

كيف لا يفتدى لى الدهر عبدا وأنا عبدُ عبدِ عبدِ الرحيم
بدوام الأجل سيّدنا الفا ضل يادولة الأفاضل دُومى
إذ أراه يعوب عنى لدى الما لك مناب الأرواح عند الجُسوم
مالك الحلّ فى الممالك والعق د وحكم التحليل والتحرّيم
مُفْعِلٌ لِلنفاذ فى كلّ قطر قلمًا حاكمًا على إقليم
يتلقّى الملوك فى كلّ أرض كُتُبُه القادّات بالتمّظيم
ناحل الجسم ، ذو خطاب به يضُ غرّ للدهر كلّ خطب جسيم

ثم ذكر الأخوين تقي الدين عمر وعزّ الدين فرخشاه ، وهما ابنا أخى السلطان ، وهو
شاهنشاه بن أيوب ، وهما الدين بزغش الشنباشى والى القاهرة . ومدح فرخشاه بقصيدة
حسنة ، منها :

شادن كالقضيّب لدن المهزّه سلبت مقلّتاها قلبى بغمزه
كلّما رُمّت وصله رام هجرى وإذا زدت ذلّة زاد عزّه
للصّبّا من عذاره نسج حُسن رَقَمِ المسك فى الشقائق طرزه
وعزّيزٌ على أن اضطبارى فيه قد عزّه الغرام وبزه
مارأى مارأيتُ مجنونُ ليلى فى هواه ، ولا كثير عزّه
ماذكرنا القسطاط إلاّ نسينا مارأينا بالنّير بين والآرزه
فمها الجيزة الجوازى لها المي زة حُسنًا على ظباء المزه
ونصيرى عليه نائل عز الد (م) ين ذى الفضل ، خلّد الله عزّه
فرغ الكنز من ذخائر مالٍ مالتا من نفائس الحمد كنزه
همة مستهامة بالمعـالى الدّنايا أبية مشمّزه

قال العماد : وتوفرنّا على الاجتماع في المفساني لاستماع الأغاني ، والتنزه في الجزيرة والجزيرة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العزّ والروضة ، ودار الملك والنيل والمقياس ، ومراسي السفن ، ومجاري الفلك والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة في المسائل الفقهية ، والمعاني الأدبية .

قال : واقترحنا على القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري أن يفرجنا في الأهرام ، فقد كنا شغفنا (١٢١٠) بأخبارها في الشام ؛ فخرج بنا إليها ، ودُرنا تلك البرابي والبراري ، والرمال والصحاري ، وأحمدنا المقارّ والمقاري ؛ وهالنا أبو الهول ، وضاق في وصفه مجال القول ؛ ورأينا العجائب ، ورؤينا الفرائب ، واستصغرنا في جنب الهرمين كلّ ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث في الهرم ومنّ بناءه ، فكلّ يأتى في وصفهما بما نقله ، لا بما عقله ، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يوجد من توقّله^(١) ، وحارت العقول في عقوده ، وطارت الأفكار عن توهم حدوده ؛ فيالّه من مولودٍ للدهر قبل الطوفان ، انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده ، وسمّار الأخبار [يسمرون]^(٢) بذكر حديث أحداث عاده وتمودّه ، ويدلّ إحكامه وعلوه على همه بانيه في بأسه وجوده . وإنّ في الأرض الهرمين كما أنّ في السماء الفرقدين ، وهما كالطودين الراسخين ، وكالجبلين الشامخين ؛ قد فيت الدهور وهما باقيان ، وتقاصرت القصور وهما راقيان ، وكأنهما لأُمّ الأرض ئديان ، وعلى ترائب التراب نهدان ، وسلطان العالم علّمان ، وإلى مراقى الأملاك سلّمان ، وهما لليل والنهار رقيبان ، ولرضوى^(٣) ولشّام^(٤) نسيبان ، ومن زُحل والمريخ قريبان ، ولعوادي الخطوب خطيبان ، ولثور الفلك روقان ، ولشخص الكرة الترابية ساقان .

قلت : ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والأعيان ؛ فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان ، وله دارٌ مشرفة على النيل ، وذكر منهم

(١) أي من تسلقه ليصل إلى قمته .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين اجتهدا لتكلمة ما يبدو في العبارة من نقص .

(٣) جبل المدينة : معجم البلدان : ٤ : ٢٦٠ .

(٤) جبل باهلة باليمن . نفس المصدر : ٥ : ٢٩٢ .

اللسان الصوفي البلخي ، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان ، وله دارٌ أيضا على شاطئ النيل برسم ضيافة من نزل به .
قال : ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده ، وانتقل بعد سنين إلى النعيم وخلده .

فصل

في بيع الكتب وعمارة القلعة

والمدرسة والبيمارستان

قال العماد : وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان ، وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها^(١) في القصر مرتبة البيوت ، مقسمة الرفوف ، مجهزة بالمعروف . فقيل للأمر بهاء الدين قراقوش ، متولى القصر ، والحال والعائد للأمر : هذه الكتب قد عاث فيها العث ، وتساورى سمينها والغث ؛ ولا غنى عن تهويتها ونفضها ، من بيوت الخزانة إلى أرضها ؛ وهو تركى لا خبرة له بالكتب ، ولا دُرْبة له بأشعار الأدب . وكان مقصود دلالى الكتب أن يؤكسوها ، ويحرموها ويعكسوها . فأخرجت ، وهي أكثر من مائة ألف ، من أما كتبها ، وغربت من مساكنها ، وخرّبت أوكارها ، وأذهبت أنوارها وشئت شملها ، وبُتّ جهلها ، واختلط أدبها بنجوميها ، وشرعيها بمنطقيها ، وطبيها بهندسيها ، وتواريخها بتفاسيرها ، ومجاهيلها بمشاهيرها .

وكان فيها من الكتب الكبار ، وتواريخ الأمصار ، ومصنفات الأخبار ، ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً ، إذا قدمها جزء لا يخالف أبداً . (٢١٠ ب) فاختلفت واختبطت ، فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتباً مبترة ، فتسأم بالدون ، وتباع بالهون ؛ والدلال يعرف كل شدة ، وما فيها من عدة ، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها ، وقد شارك غيره في ابتياعها ، حتى إذا لفق كتاباً قد تقوم عليه بعشرة ، باعه بعد ذلك لنفسه بمائة .

(١) في الأصل : وخزائنها .

قال : فلياً رأيت الأمر حضرت القصر ، واشتريت كما اشتروا ، ومررت الأطباء^(١) كما مروا ، واستكثرت من المتاع المبتاع ، وحويت نفائس الأنواع . ولما عرف السلطان ما ابتعته ، وكان بمثنى ، أنعم على بها ، وأبرأ ذمتي من ذهبها ؛ ثم وهب لي أيضا من خزانة القصر ما عيّنت عينه من كتبها .

ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر ، وهو ينظر في بعضها ، ويسط يدي لقبضها ، وقال^(٢) : كنت طلبت كتباً عيّنتها ، فهل في هذه منها شيء^(٣) ؟ فقلت : كلها ، وما أستغنى عنها ، فأخرجتها من عنده بحمال ، وكانت هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقل نوال .

قال : وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها ، فقال : إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطئ إلى الشاطئ^(٤) .

وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم ، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم ، وانتهى به إلى أعلى قصر بروج وصلها بالبرج الأعظم . ووجدت في عهد السلطان بيتاً رفعه التواب ، وأكمل^(٥) فيه الحساب ، ومبلغه ، وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل ، تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة [ذراع]^(٦) وذراعان ؛ من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر^(٧) بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع ، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنيان وتسعون ذراعاً ، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ،

(١) الطي ، بضم الطاء وكسر ها : حلمات الضرع ؛ ومرى الناقة : مسح ضرعها ، فأمرت أي أدرت اللبن . القاموس المحيط .

(٢) ، (٣) ورد ما بين هذين الرقين في ل ٢١٤ هكذا : قال : وكنت طلبت كتباً عيّنتها ، فقال : فهل في هذه شيء منها .

(٤) انظر المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٠٤-٢٠٩ بشأن سور القاهرة .

(٥) في ل ٢١٤ : وتكمل .

(٦) الإضافة من مفرج الكروب : ٢ : ٥٢ .

(٧) عند فم الخليج قريباً من نهاية شارع قصر العيني حالياً ، أي قريباً من مجرى العيون .

ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع . وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل ، على التحقيق والتعديل ، وذلك بالذراع الهاشمي^(١) بتولى الأمير بهاء الدين^(٢) قراقوش الأسدي .

وبنى القلعة على الجبل ، وأعطاهما حقها من إحكام العمل ، وقطع الخندق وتعميقه وحفر واديه وتضييق طريقه . وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة ، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة . وحفر في رأس الجبل بئراً ينزل فيها بالدرج (١٢١١) المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين ، ولم يأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربّه المعين .

وتوفى السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة ، ووظائف نفقاتها مستندرة .

قال : وأمر ببناء المدرسة بالترتبة المقدسة الشافعية^(٣) ورتب قواعدها بفرط الألمعية ، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني^(٤) ، وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع^(٥) ، التقي النقي .

قال : وأمر باتخاذ دار في القصر بيارستاناً للعرض ، واستغفر الله تعالى بذلك واسترضى ؛ ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً ، وقد أبطل منكرأ وأشاع معروفاً ؛ وأضرب عن ضرائب فحاشاها ، وهب إلى مواهب فأسداها ، واهتم بفرائض ونوافل فأداها .

(١) في الأصل ، وكذلك في ل : القاسمي . والتصحيح من مفرج الكروب : ٢ : ٥٢ . وعن تحديد نسبة الذراع الهاشمي ، وغيره من الأنواع الأخرى ، إلى المتر انظر كتاب الخراج للدكتور ضياء الدين الرئيس : ٢٧٤-٢٧٧ ؛ ومنه يظهر أن الذراع الهاشمي = ٦١٦ سنتيمترا .

(٢) في الأصل ، وكذلك في ل ٢١٤ ب : شهاب الدين ، والتصحيح من مفرج الكروب : ٢ : ٥٣ .

(٣) بجوار قبر الشافعي بالقرافة ، بدأ صلاح الدين بناءها سنة ٥٦٦ بعد أن تولى الوزارة للفاطمين . وعرفت باسم المدرسة الشريفة نسبة إلى الشريف القاضي شمس الدين الأرموي قاضي العسكر الذي تولى التدريس بها ؛ وباسم مدرسة زين التجار أول أساتذتها . انظر السلوك : ١ : ٦٣ ؛ ٢٦١ : حاشية : ١ ؛ نقلا عن المواعظ والاعتبار للمقرئ .

(٤) أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد ، من خبوشان من بلاد نيسابور ؛ قدم مصر للمرة الأولى سنة ٥٦٥ : طبقات الشافعية : ٤ : ١٩٠ .

(٥) في الأصل الفقيه الزاهد ؛ والمثبت هنا من ل ٢١٤ ب .

فصل

في خروج السلطان إلى الإسكندرية
وغير ذلك من بواقى حوادث هذه السنة

قال العماد : ثم خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان ، واستصحب ولديه الأفضل علياً والعزیز عثمان ، وجعل طريقه على دمياط ، ورأى في الحضور بالشعر المذكور ومشاهدته الاحتياط ، وكان له بها سبب كثير جلبه الأسطول ، فامتد [مقامه] ^(١) بظاهر البلد يومين ، وذهب لى منه جارية .

ثم وصلنا إلى نهر الإسكندرية وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلبي ^(٢) ، وداومنا الحضور عنده ، واجتلتنا من وجهه نور الإيمان وسعده ؛ وسمعنا عليه ثلاثة أيام ، الخميس والجمعة ، والسبت ، رابع شهر رمضان ^(٣) ، واغتنمنا الزمان ، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر ، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الشعر .

وشاهدنا ما استجدّه السلطان من الشور الدائر ، وما أبغاه من حسن الآثار والمآثر ؛ وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغور وتعمير الأسطول .

قال ابن أبي طى : ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلو نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين ، فرأى الأسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب

(١) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٢) عماد الدين ؟ والسلبي نسبة إلى سلفة ، وهو لفظ أعجمي معناه ثلاث شفاء ، لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة . واستقر السلبي في الإسكندرية سنة ٥١١ بعد طواف طويل ، وتوفي سنة ٥٧٦ . انظروفيات الأعيان ، وطبقات الشافعية ، وتذكرة الحفاظ .

(٣) أيها رابع شهر رمضان ؟ يرشد محمد مختار باشا في التوفيقات الإلهامية إلى أن أول رمضان في هذه السنة ، حساباً ، كان يوم الخميس . فلعل أوله رؤية كان يوم الأربعاء ، وعندئذ يكون السبت هو رابع شهر رمضان . وفي مفرج الكروب : ٢ : ٥٦ ، أن السلطان ومن معه كانوا يترددون على مجلس السلبي ثلاث مرات كل أسبوع ، في أيام الخميس والجمعة والسبت .

والصَّنَاعُ أشياء كثيرة . ولَمَّا تَمَّ عَمَلُ المَرَاكِبِ أَمَرَ بِحَمْلِ الآلاتِ ، فَنَقَلَ مِنَ السَّلَاحِ
وَالْعُدَدِ مَا يَحْتَاجُ الْأَسْطُولَ إِلَيْهِ ، وَشَحَنَهُ بِالرِّجَالِ ، وَوَلَّى فِيهِ أَحَدَ أَصْحَابِهِ ، وَأَفْرَدَ لَهُ إِقْطَاعًا
مَخْصُوصًا وَدِيوانًا مُفْرَدًا ، وَكَتَبَ إِلَى سَائِرِ الْبِلَادِ يَقُولُ ، الْقَوْلُ قَوْلُ صَاحِبِ الْأَسْطُولِ ،
وَأَنْ لَا يُبْنَعَ مِنْ أَخْذِ رَجَالِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَأَمَرَ صَاحِبَ الْأَسْطُولِ أَنْ لَا يَبْسُوحَ الْبَحْرَ ،
وَيَغْزِي إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ .

قال العماد : وَقُلْتُ فِي مَعْنَى تَنْقُلِي فِي الْبِلَادِ :

(٢١١ب) يَوْمًا بِحَيٍّ ، وَيَوْمًا فِي دِمَشْقَ ، وَبِأَلِّ
كَأَنَّ جَسْمِي وَقَلْبِي الصَّبَّ مَا خُلِقَا
فُسْطَاطُ يَوْمًا ، وَيَوْمًا بِالْعِرَاقَيْنِ
إِلَّا لِيُقَدِّسَمَا بِالشُّوْقِ وَالْبَيْنِ

وقلت يوم الخروج من القاهرة :

يَا بَاخِلًا عِنْدَ الْوَدَاعِ بَوْقَفَةً
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ وَقَفْتَ لِسَائِلِ
لَوْ سَامَنِي رُوحِي بِهَا لَمْ أَبْخُلْ
تَرَكَ الْفَوَادَ بِدَائِهِ فِي الْمَنْزِلِ
هَلَّا وَقَفْتَ لِقَلْبٍ مَنْ أَحْرَقْتَهُ
مَقْدَارَ إِطْفَاءِ الْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ
إِنْ أُسْرِ مَرْتَحِلًا فِي أُسْرِ الْهَوَى
قَلْبِي لَدَيْكَ ، مَقِيدًا لَمْ يَرْحَلِ
عَذَبُ الْعَذَابِ لَدَى فَوَادِ الْمَبْتَلَى
إِذْ كَفَتِ أَنْتَ مَعَذَّبِي وَالْمَبْتَلَى

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمندود :

نَزَلْتُ بِأَرْضِ الْمُنَيْتَيْنِ وَمُنَيْتِي
سَأَلَنِي وَلَا تَبْلِي سَرِيرَةً وَدَّكُمُ
لِقَاؤُكُمْ الشَّافِي وَوَصْلُكُمْ الْجَدَى
وَتَوْنُسِي إِنْ مَتَّ فِي وَحْشَةِ اللَّحْدِ

قال : وَعَدْنَا مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَصَمْنَا بَقِيَّةَ الشَّهْرِ بِالْقَاهِرَةِ ،
وَالسُّلْطَانُ مَتَوَقِّفٌ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، عَلَى نَشْرِ الْعَدْلِ وَإِنْشَارِهِ ، وَإِفَاضَةِ الْجُودِ وَإِغْزَارِهِ ،
وَسَمَاعِ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَارِهِ ، وَإِشَاعَةِ الْعِلْمِ وَالْإِعْلَانِ بِأَسْرَارِهِ ،
وإِبْدَاءِ شُعَارِ الشَّرْعِ وَإِظْهَارِهِ ، وَإِبْقَاءِ الْمَعْرُوفِ عَلَى قَرَارِهِ ، وَإِعْدَامِ أَعْلَامِ الْبَاطِلِ
وَالْإِسْكَارِهِ^(١) .

(١) في ل ١٢١٥ : وإعلام الباطل والإسكاره .

وقال : ومن مدائحى فى السلطان ما أنشدته إياه سادس شوال (١) :

فديتُك من ظالم منصف وناهيك من باخلٍ مسرف (٢)
أبلغُ دهرى قصدى وقد قصدت بمصر ذرا يوسف
ويوسف مصر بغير التقى وبذل الصنائع (٣) لم يوسف
فسيرُ وافتح القدس واسفكُ به دماء متى تجرهُـا ينظف
وأهدِ إلى الأسبتارِ البتا ر وهُد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلادَ يخلصك الله (٤) فى الموقف

قال :

وفىها وصل رُسلُ المواصلِ وصاحبى الحصن (٥) وما ردين إلى دمشق فاستوثقوا
بتحليف أخى السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، ثم قصدوا مصر ، ووقع رسول
صاحب حصن كيفا فى الأسر .

قال ابن أبى هلى : وصل رسول الموصل (٦) القاضى عماد الدين بن كمال الدين بن
الشهرزورى بهدية وقود ، فخرج الموكب إلى لقائه ، وأكرمه السلطان واحترمه ؛ وقدم
بعده رسول نور الدين قرا أرسلان (٧) ورسول صاحب ماردين (٨) ، بهدايا ، واجتمعوا فى
دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر ، فاعترضهم الفرنج ، فأسر رسول صاحب الحصن ،

(١) ورد من هذه الأبيات فى الحريدة البيتان الأولان فقط ضمن القصيدة وهى طويلة ؛ وقد وردت
هذه الأبيات الستة نفسها فى مفرج الكروب . انظر الحريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ١٥-١٧ ؛
وكذلك مفرج الكروب : ٢ : ٥٦-٥٧ .

(٢) فى الحريدة : مسعف .

(٣) فى الأصل : ووصف الصنائع ؛ والمثبت هنا من ل ١٢١٥ .

(٤) فى مفرج الكروب : يخلصك ربك .

(٥) المقصود : حصن كيفا . وهو بلدة وقلعة عظيمة تشرف على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر ، من
ديار بكر . معجم البلدان : ٣ : ٢٨٦ .

(٦) وأميرها عندئذ سيف الدين غازى الثانى الذى حكم بين سنتى ٥٦٥ - ٥٦٧ . انظر :

Muhammadian Dynasties

(٧) محمد بن قرا أرسلان ، حكم بين سنتى ٥٧٠-٥٨٢ . نفس المصدر .

(٨) قطب الدين إيلغازى الذى حكم بين سنتى ٥٤٧-٥٧٢ . نفس المصدر .

ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان^(١) فأطلقه وأحسن إليه .

قال : وفيها رجع قراقوش إلى (٢١٢ - ل ٢١٥^(٢)) أوجلة وتلك البلاد ، فجمع أموالاً ورجع إلى مصر ، ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ، ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح بلاد فزان بأسرها .

قال العماد : ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس ، من أعمال مصر الشرقية ، لإرهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص ، والتطلع إلى أخبار الفرنج لا تنهاز الفرص . واقترح على أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ، أزم فيها الشين قبل الهاء ؛ فعملت ذلك في أواخر ذى الحجة ، فقلت :

مولاي عز الدين فرخشه	الدهر من ير جك لا يخشه
تلقاه سمح الكف ، دفاقها	طلق الحيا كرمًا ، بشه
إن شئت فوتنا بالردى فآله	أوشئت فوزاً بالعلافاغشه
يديم بالأيدى وبالأيدى	خزى لها والعدا بطشه
كم ملك عاداكم لم يبت	إلا جعلتم عرشه نعشه
خوفتم الشرك ، فلا « قصه »	أمتم يوماً ولا « فؤشه »
أورثك الشؤدد يا ابن العلاء	والدك السيد شاهنش

وقال في الخريدة^(٣) . كنّا نخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزّة ، وقد وصلت أساطيل ثغرّى دمياط والإسكندرية بسبي الكفار ، وقد أوفت على ألف رأس

(١) يقع بين دمشق والساحل . يقول ياقوت إنه سمى بذلك لأنهم زعموا أنه كان مسكن يعقوب أيام فراقه يوسف عليهما السلام . وحصن الفرنج هذا الحصن تحصيناً قوياً سنة ٥٧٤ هـ ، وسقط في أيدي صلاح الدين ورجاله سنة ٥٧٥ هـ ، كما سيأتي . انظر معجم البلدان : ٢ : ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) يبدأ هنا خرم في نسخة الأصل يستغرق ورقتين ولذلك لجأنا إلى نسخة ليدن (ل) واعتمدناهما لتكون الأصل حتى ينتهي هذا الخرم فنعود إلى نسخة الأصل مرة أخرى . وسبدأ الاعتماد هنا على الورقة ٢١٥ ب من نسخة ل ابتداء من السطر السادس منها ، وسنظل نشير إلى بداية الصفحات الأربع من نسخة الأصل في مواقعها كذلك .

(٣) قسم شعراء الشام : ١ : ٤٩١ .

عدّة من وصل في قيّد الأسار ؛ فحضر ابن رواحة ^(١) منشداً مهنثاً بعيد الفجر ، سنة
اثننتين وسبعين ، ومعرّضاً بما وهبه الملك الناصر من الإماء والعبيد ، قصيدة ،
منها ^(٢) :

لقد خبر التجارب منه حزم وقلب دهره ظهراً لبطن
فساق إلى الفرنج الخيل برّاً وأدركهم على بحر بسفن
وقد جلب الجوارى بالجوارى ^(٣) يمدن بكل قدّ مرجح
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً فمرنان تنبوح على مرّت
زهت إسكندرية يوم سيقوا ودمياط ، فما منياً بغين
يرون خياله كالطيف يسرى فلو هجموا أتاها بعد وهن
أبادهم تخوفه ، فأمسى مناهم لوييتهم بأمن
تملك حوّلهم شرقاً وغرباً فصاروا لاقتناص تحت رهن
أقام بآل أيوب رباطاً رأت منه الفرنجة ضيق سجن ^(٤)
(ل ١٢١٦) ^(٥) رجا أقصى الملوك السلم منهم ولم يرَ جهده في البأس يغنى

(ك ٢١٢ ب) وفيها أبطال السلطان المكس الذي كان بمكة على الحاج ، وسيأتي
ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين .

قال ابن الأثير ^(٦) : وفي سنة اثننتين وسبعين شرع مجاهد الدين ، يعني قايماز دُرْدَار

(١) الفقيه أبو علي الحسين بن عبد الله الحموي الشافعي ؛ عاش بين سنتي ٥١٥-٥٨٥ . انظر الحريدة :
قسم شعراء الشام : ١ : ٤٨١-٤٩٦ .
(٢) الحريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٩٦-٤٩٩ ، وهي قصيدة طويلة ، والأبيات المقتبسة هنا
لا ترد في الحريدة بنفس الترتيب .
(٣) الجوارى الأولى : السبايا ، والثانية : السفن .
(٤) في الحريدة : * رأت منه الفرنج مضيق سجن *
(٥) في المخطوطة التي اعتبرناها أصلاً للنشر خرم يستغرق ورقتين ، والاعتماد هنا على نسخة لي-دن ،
كما أشرنا في الصفحة السابقة ، لأن اللوحين ٢١٣ ، ٢١٤ في الأصل مكتوبتان بخط حديث . وقد أشير
في المتن إلى لوحات ليدن مسبوقة بحرف ل ، وأثبت بدء لوحات الأصل كذلك مسبوقة بحرف ك . وسيستأنف
الاعتماد على نسخة الأصل ابتداء من اللوحة ٢١٤ .
(٦) في الأتابكة : ٣٢٤ ؛ والاقباس حرفي .

قلعة الموصل ، في عمارة جامع بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجوامع . ثم بنى بعد ذلك الرباط ، والمدرسة والبيمارستان ، وكلها متجاورات ^(١) .

قال ^(٢) : وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل ، وهو متولياها ، والحاكم في الدولة الأتابكية النورية . وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة ، سنة إحدى وسبعين ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين ، وأعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه ، وبقي إلى الآن . وكان أصله من أعمال شينختان وأخذ منها وهو طفل . وكان عاقلا خيرا ، ديننا فاضلا ، تعلم الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئا كثيرا ، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة . وكان يكثر الصوم ، وله ورْدٌ يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة . وبنى عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل ، وبنى عدة خانقاهات منها التي بالموصل ، ومدارس وقناطر على الأنهار ، إلى غير ذلك من المصالح ؛ ومناقبه كثيرة .

قال العماد في الخريدة ^(٣) : نزلنا ببركة الحب لقصد فرض الجهاد ، وعرض الأجناد ؛ فكتب الأسعد بن مماتي ^(٤) إلى قصيدة في الملك الناصر ، ويعرض بالشرننج فإنه كان يشتغل به ، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين :

يا كريم الخليم في الخليم أهيف كالريم ذو شمم
عجبي للشمس إذ طلعت منه في داج من الظلم
كيف لا تصمي لواحظه ورؤما الطرف في العجم

(١) في الأتابكة : وكلها متجاورة .

(٢) في الأتابكة : ٣٥٤ .

(٣) قسم شعراء مصر : ١ : ١٠٦ .

(٤) أبو المكارم أسعد بن الخطير بن مهذب بن زكريا بن مماتي . كان فاضلا لبعض الدواوين المصرية أيام صلاح الدين وابنه العزيز عثمان ، وأسرته مسيحية الأصل من مدينة أسيوط تولت نظر الدواوين للفاطميين ثم أشيركوه ، ثم لصلاح الدين ثم لولده العزيز ؛ ودخلوا في الإسلام أيام شيركوه . وقد هرب الأسعد إلى الشام أيام العادل ونزل على الظاهر بن صلاح الدين ، صاحب حلب ، وخدمه . وتوفي ابن مماتي سنة ٦٠٦ انظر كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتي ، بتحقيق الأستاذ عزيز سوريال عطية .

لا تصدّ قلب الحبّ لكم لا يحل الصيد في الحرم
يا صلاح الدين يا ملكا قد براه الله الأمم
أضحت الكفار في نعم وغدا الإسلام في نعم
إن يك الشطرنج مشغلة لعلّ القدر والههم
فهي في ناديك تذكرة لأمر الحرب والكرم
فلكم ضاعفت عدتها بالعطاء الجمّ لا القلم
(ك ١٢١٣) ونصبت الحرب نصبتها فانثت كفاك بالقلم
فابق للأقدار^(١) ترفعها وأمر الأقدار كالخدم

وفيها توفي بالإسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني الديباجي من ولد
الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم ، ويعرف بابن أبي
إلياس ، من بيت القضاء والعلم . وكان واسع الباع في علم الأحاديث ، كثير الرواية ، قيا
بالأدب ، متصرفا في النظم والنثر ، إلا أنه مقلّ من النظم ، أوجد عصره في علم
الشروط ، وقوله المقبول على كلّ العدول . (ل ٢١٦ ب) ذكر ذلك العباد رحمه الله
في الخريدة .

تم دخلت سنة ثمان وسبعين [وخمسمائة]^(٢) :

والسلطان^(٣) نجيم بمرج فاقوس ، فنظم العباد في الأجلّ الفاضل قصيدة ميمية في
منتصف الحرم ، وخدمه بها هناك في الخيم^(٤) أوّلها :

(١) في الخريدة : للإسلام .

(٢) نستطيع من هنا متابعة اقتباسات أبي شامة من البرق الشامي ، ج ٣ ؛ والمعروف أن كتاب البرق
الشامي يبدأ بحوادث سنة ٥٦٢ هـ ، وهي السنة التي قدم فيها العباد إلى الشام ، وينتهي بوفاة صلاح الدين
في سنة ٥٨٩ هـ . والمعروف كذلك أن الباقي من هذا الكتاب جزءا الثالث والخامس فقط ويبدأ الثالث
بحوادث سنة ٥٧٣ هـ ، التي تبدأ هنا ، وينتهي عند استعراض بعض الأشعار التي قيلت في تهنئة السلطان
بفتح حصن بيت الأحزان ، وذلك في أثناء حوادث سنة ٥٧٥ هـ . أما الخامس فيبدأ بعزم السلطان على السير
إلى حلب وذلك في أثناء سنة ٥٧٨ هـ ، وينتهي بنهاية حوادث سنة ٥٧٩ هـ ؛ والجزءان مخطوطان في أكسفورد
بمكتبة بودليان . وهناك بضعة أوراق أخرى من كتاب البرق الشامي في مكتبة ليننجراد لا أعلم عنها
شيئا حتى الآن .

(٣) ما بين هذين الرقبين هو كل ما اقتبسّه أبو شامة من صفحتين كاملتين من البرق وذلك لأن العباد =

رِيمُ هَضِيمِ يَوْمِ هَضْمِي مِنْ سَقَمِ عَيْنَيْهِ عَيْنِ سَقْمِي
 إِنَّ رُمْتَ يَا عَذْلَى صِلَاحِي فَخَلَّانِي وَالْهَوَى وَزَعْمِي
 لَوْ مَكَ يُذَكِّي الْغَرَامَ قُلْ لِي أَنْتِ نَصِيحِي أَمْ أَنْتِ خَصْمِي !
 أَيَا زَمَانِي الْغُشُومُ أَقْصَرُ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ غَشْمِي ^(١)
 عَبْدُ الرَّحِيمِ الرَّحِيمُ أَضْحَى عَوْنِي عَلَى خَطْبِكَ الْمَلَمُ
 الْفَاضِلُ ، الْأَفْضَلُ ، الْأَجَلُّ الْمُنْفُذِلُ ، الْأَشْرَفُ ، الْأَشْمُ
 غَيْثُ غِيَاثٍ ، وَجُودُ جُود وَبَحْرُ عِلْمٍ ، وَطُودُ حِلْمٍ
 يِرَاعُهُ فِي الْيَمِينِ مِنْهُ تَسْتَخْرِجُ الدَّرَّ مِنْ خَضْمِ

قال : ^(٢) وكان عندنا بالخيم بالعباسة ، في المحرم ، علم الدين الشاتاني ، وهو من أدباء الموصل وشعرائها ، وفصحائها وظرفائها ، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر ، وأهدى النظم والنثر ، واصطنعه عز الدين فرخشا ، وأنزله في جواره ، وجمع له من رفده ومن الأمراء ألف دينار ، فمدح السلطان بالخيم بكلمة ، مطلعها :

غدا النصرُ معقوداً برايتك الصِّفْراً فسيرُ ، وافتتح الدنيا ، فأنت بها أخرى ^(٣)

قلت : لم يذكر العماد من هذه القصيدة غير هذا البيت ، وإنه لقائم مقام قصائد كثيرة .

والشاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيد له ترجمة في تاريخ دمشق . وذكره العماد في الخريدة ، وذكر فيها من هذه القصيدة :

يمنيك فيها المين واليسر في اليسرى فُبْشِرِي لِمَنْ يَرْجُو النَّدى مِنْهُمَا بُشْرِي

== دأب على التزييق والمبالغة في استعمال المحسنات البديعية في كتابه ، وكذلك في الفتح القدسي ، ولكن هذا لا ينقص ممالقاً من قيمة كتابته التاريخية ، فهي نتيجة مشاهدة مباشرة أو سماع موثوق به ، مدعمة بالوثائق الحكومية ، باللغة الدقيقة ، تبرهن مقارنتها بالمصادر الأخرى المعاصرة على دقتها وصدقها .

(١) النغم : الظلم ؛ والغشوم : الظالم . الفاموس المحيط .

(٢) يسبق هذا الحديث في البرق ، في الورقة السادسة ، عنوان : « ذكر علم الدين الشاتاني » .

(٣) في البرق : فأنت به أخرى .

قال العماد : وكانت الأعلام السلطانية صفراء ، لا يفارق نشرها نصراً .

قلت : وفيها يقول بعض الفضلاء :

إذا أسود^(١) خطب دونه الموت أحمر أتت بالأيدى [الببيض]^(٢) أعلامه الصف

وقد ظهرت^(٣) منصوبة جزمت بها ظهور العدا من رفعها الخفض والجر^(٤)

وأضحت تجوز^(٥) الأرض شرقاً ومغرباً والله في إهـلاء رتبته سر

وقال العماد^(٦) : عاد السلطان إلى القاهرة وأقام بها ، ثم اهتمت بالفراة همتته إلى غزة وعسقلان ، فخرج يوم الجمعة ثالث جمادى الأولى بعد الصلاة ، وخيم بظاهر بليس في خامسه ، بخميسه . ثم تقدمنا منه إلى السدير ، وخيمنا بالمبرز ، ثم نودى : خذوا زادة عشرة (ك ٢١٣ ب) أيام أخرى زيادة للاستظهار ، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار .

قال : (ل ٢١٧ أ) العماد : فركبت إلى سوق العسكر للابتياح ، وقد أخذ السعير في الارتفاع ، فقلت لغلامي : قد بدا لي ، وقد خطر الرجوع من الخطر بيالى ، فأعرض للبيع أحمالي وأتقالي ، وانتهر فرصة هذا السعير الغالى ، وأنا صاحب قلم لا صاحب علم ، وقد استشعرت نفسى في هذه الغزوة من عاقبة ندم ؛ والمدى بعيد ، والخطب شديد ؛ وهذه نوبة السيوف لا نوبة الأقلام ، وفي سلامتنا سلامة الإسلام ؛ والواجب على كل منا أن يلزم شغله ، ولا يتعدى حده ، ولا يتجاوز محله ، لا سيما ونواب الديوان قد استأذنوا في العودة ، وأظهروا قلة العدة . وأظهرت سرى للمولى الأجل الفاضل ، فسرته ذلك ، إشفافاً على ، وإحساناً إلى . وكان السلطان أيضاً يؤثر إثارى ، ويختار اختيارى ؛ فقال لي : أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا ؟ فقلت : الأمر للمولى ، وما يختاره لي فهو أولى ، فقال : تعود وتدعونا لنا ، وتسأل الله أن يبلقنا من النصر سؤلنا .

(١) في البرق الشامى : وأسود .

(٢) ساقطة من ل ؛ وما هنا من البرق ،

(٣) في ل : فقد ظهرت .

(٤) في ل : انخفض الكفر .

(٥) في ل : ولم لا تجوز .

(٦) يسبق هذا في البرق عنوان : « ذكر بروز السلطان بقصد الفزاة إلى غزة وعسقلان » .

وكنـت قد كتبت أبيتا إلى الخـدوم الفاضل ونحن بالمبرز في العشرين من الشهر^(١) :

قيلَ في مصرَ نائلٌ عدد الرّمـة لي ، ووفر كنيلها الموفور
فاغترنا بها وسرنا إليها ووقعنا ، كما ترى ، في الغرور
وحظينا بالرمل والسير فيه ومنعنا من نيلها الميسور
وبرزنا إلى المبرز نشكو سدا من نزولنا بالسدير
قيل لي : سرّ إلى الجهاد . وماذا بالغ في الجهاد جهد مسيري ؟
ليس يقوى في الجيش جأش ، ولا قو سى يرى موثورا إلى موتور
أنا للكتيب لا الكتائب إقدا مى ، ولله صنف لا الصفاح حضوري
كاد فضلى يضيع لولا اهتمام اذ فاضل الفائض الندى بأمورى
فأنا منـه في ملابس جامـ رافلا منه في حبير حُبور
فهو رقى من الحضيض حظوظى وسما بي إلى سرير الشرور

وقال^(٢) : وما انقطعت عن السلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة ، وقد عظم الله فيها من النبوة ؛ وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة ، والسعادات فيها مجددة^(٣) .

وكنـت لما فارقت القاهرة استوحشت ، وتشوقت إلى أصدقائى وتشوشت ، وكنـت من الخيم ببلبيس إلى القاضى شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش ، وقد أقام بالقاهرة ، وكان صاحباً لى من الأيام النورية ، واستشـرته في التأخر عن السلطان . فكتب في الجواب : راققه ولا تفارقه ، فكرهت رأيه ، فكتبـت إليه :

إذا رضيتُم بمكرؤهى فذاك رضا لا أبتغى غير ما تبغون لى غرضا
وإن رأيتم شفاء القلب فى مرضى فإننى مُستطيعٌ ذلك المرضا
أتم أشـرتم بتغذيتى ، فصرت له مُستعذبا ، أسئـلُ الله والمضنا
(ل٢١٧ب) أصبحت ممتعظا بى فى محبتكم فحاشـ الله أن أبغى بكم عوضا
لله عيش تَقضى عندكم ومضى وكان مثل سحاب برقه ومضنا

(١) يذكر العماد فى البرق أنه ذكر هذه الأبيات على سبيل المداعبة .

(٢) ما بين هذين الرقين خلاصة صفتين كاملتين من البرق .

العيش دان جناه الفض عندكم
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا
قد أظلم الأفق في عيني لفيتكم
ولست أول صب من أحبته
مروا بما شئتم من محبة وأذى
طوبى لكم مصر، والدار التي قضيت
بعيشكم إن خلوتهم بانساطكم
رضيتهم سفرى عنكم ؛ وأعهدكم
(ك ١٢١٤) (١) هلا تكلفتم قولاً أسر به
تفضلوا واشرحوا صدري بقربكم
فكتب إلى في جوابها أبياتا ، منها :

لا تنسوني إلى إيشار بعدكم
ولى وداد تولى الصدق عقده
يلقاك قلبى على سبل العتاب له
وصرت كالدهر يحنى أهله أسفاً
فلمست أرضى إذا فارقتكم عوضاً
فما تراه على الأيام منتقضا
بصحّة ليس يخشى بعدها مرضاً
ويلتقى من عتاب المذنب المضضاً (٢)
قال : ثم ودعت وعُدت ، ونهضوا وقعدت .

فصل (٣)

في نوبة كسرة الرملة (٤)

وكانت على المسلمين بالجملة ، وذلك يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه .
ورحل السلطان بعساكره فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من

(١) تبدأ هنا اللوحة ٢١٤ التي تستأنف عندها الاعتماد على الأصل .
(٢) وردت هذه الأبيات مكتوبة في قة ك ٢١٤ بنفس الخط الذى كتبت به الورقتان السابقتان من نسخة الأصل في مكان الحرم ، ولذلك اعتمدنا في هذه الأبيات أيضاً على نسخة ل .
(٣) هنا تبدأ فعلاً الورقة ٢١٤ من الأصل وبهذا نعود إليها ، ونعود نسخة ل إلى وظيفتها المساعدة .
(٤) العنوان في البرق . « ذكر نوبة الرملة ونوبة الجملة » .

جمادى الأولى ، فسبى وسلب ، وغنم وغلب ، وأسر وقسر ، وكسب وكسر ، وجمع هناك مَنْ كان معه من الأسرى ^(١) فضرَب أعناقهم ، وتفرَّق عسكره فى الأعمال مغيرين ومبيدين ، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا .

وتوسَّط السلطان البلاد ، واستقبل يوم الجمعة ، مستهلَّ جمادى الآخرة ، بالرملة ، راحلاً لِقصد بعض المعازل ، فاعترضه نهْرٌ عليه تلّ الصافية ^(٢) فازدحمت على العبور أثقال العساكر ^(٣) المتوافية ، فاشعروا إلا بالفرنج طالبةً بأطلابها ، حازبةً بأخزأبها ، ذابّةً بذئابها ، عاويةً بكلابها ، وقد نفر نفيرهم ، وزفر زفيرهم ؛ وسرايا المسلمين فى الضياع مغيرة ، ولرحا الحرب عليهم فى دورهم مديرة . فوقف ^(٤) الملك المظفر تقي الدين وتلقاهم وباشرهم ببَيْضِهِ وسُمره ، فاستشهد من أصحابه عدّة من الكرام ، انتقلوا إلى نعيم دار المقام ؛ وهلك من الفرنج أضعافها .

وكان لتقى الدين ولدٌ يقال له أحمد ، أول ما طرّ شاربه ، فاستشهد بعد أن أردى فارساً .

قال : وكان لتقى الدين أيضاً ولد آخر ، اسمه شاهنشاه ، وقع فى أسر الفرنج . وذلك أن بعض الفرنج بدمشق خدعه وقال له : تبيّ إلى الملك وهو يعطيك الملك ؛ وزوّر كتاباً فسكن إلى صدقه وخرج معه ، فلما تفرد به شدّ وثاقه ، وغلّه وقيّده ، وحمله إلى الداوية ، وأخذ به بالآ ، وجدد عندهم له حالا وجمالا ؛ وبقي فى الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكّه السلطان بمال كثير ، وأطلق للدّاوية كلّ مَنْ كان لهم عنده من أسير ؛ فغلظ القلب التقوى على ذلك الولد جرّ هلاك أخيه ^(٥) ، ولمّا عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه .

قال : ولو أن لتقى الدين رداءً لأردى القوم ، لكن الناس تفرقوا وراء أثقالهم ، ثم نجوا

(١) فى ل ٢١٧ ب : الأسارى .

(٢) قرب بيت جبرين من نواحي الرملة بفلسطين . انظر : معجم البلدان : ٢ : ٤٠٥ .

(٣) فى الأصل : أثقال العباد ؛ والمثبت هنا من ل ٢١٧ ب ، وهو أولى .

(٤) يسبق هذه العبارة فى البرق عنوان : « ذكر الحملة التقوية واستشهاد ولده » .

(٥) فى مفرج الكروب : ٢ : ٦٠ : « فغلظ القلب التقوى على ذلك الولد خبر هلاك أخيه فى ذلك اليوم » .

برحالم ، وصوب العدو بجملتهم حملتهم إلى^(١) السلطان ، فثبت ووقف على تقدمه من تخلف . وسمعتة يوماً يصف تلك النوبة ، ويشكر من جماعته الصحبة ، ويقول : رأيت فارساً يحث نحوى حصانه ، وقد صوب إلى نحوى سفانه ، فكاد يُبلغنى طعانه ، ومعه آخران قد جملا شأنهما شانه . فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد إلى واحد منهم فبادروه وطعنوه ، وقد تمكن من قربى فما مكّنه ؛ وهم إبراهيم بن قنابر ، وفضل الفيض ، وسويد بن غشم المصرى ، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر . واتفق لسعادة السلطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه وما فارقوه ، وقارعوا العدو دونه وضايقوه ؛ فما زال السلطان يسير ويقف ، حتى لم يبق (٢١٤ ب) من ظن أنه يتخلف .

ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ، ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل ، وتعمسوا السلوك في تلك الرمال والأوعاث والأوعار ، وبقوا أياماً وليالٍ بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا إلى الديار . وأذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الأصحاب ، وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ، ولم يظهر له أثر . وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى [الهكاري]^(٢) وأخوه الظهير ، ومن كان في صحبتهم ، فضل الطريق عنهم ، وكانوا سائرين إلى وراء ، فأصبحوا بقرب الأعداء ، فأكمنوا في مغارة ، وانتظروا من يدلهم من بلد الإسلام على عمارة . فدلّ عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم ، وسعى في أسرهم وعطبهم ، فأسروا ، وما خلاص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين ؛ بستين أو سبعين ألف دينار ، وفكّك جماعة من الكفار .

قال : وما اشتدت هذه النوبة بكسرة ، ولا عدم نصرة ، فإن النكاية في العدو وبلاده بلغت منتهاها ، وأدركت كل نفس مؤمنة مُشتهها . لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشمل ، وأوعر السهل ، وسلك مع عدم الماء والليل والرمل .

ومما قدره الله تعالى من أسباب السلامة ، والهداية إلى الاستقامة ، أن الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانية والأدلاء ، وأنهم ما كانوا يفارقونه

(١) في ل ٢١٨ : على .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

في الغداء والعشاء ؛ فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه ، وغلمايه وأصحابه ، وأدلائه وأمثاله ، وبث أصحابه في تلك الرمال ، والوهاد والتلال ، حتى أخذ خبر السلطان وقصده ، وأوضح بأدلائه جدده ، وفرّق ما كان معه من الأزواد على المنقطعين ، وجمعهم في خدمة السلطان أجمعين ؛ فسُهل ذلك الوعر ، وأُرس بقعد الوحشة القفر ، وجُبر الكسر .

وكان الناس في مبدأ توجه السلطان إلى الجهاد ، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد ، ربما تحدّثوا وقالوا لو قعد وتحلف كان أولى به ، فإن الحرب ليست من دأبه . ثم عُرف أن السلامة والبركة والنجاة كانت في استنصاحه .

وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجبين فخلع عليهم وأركبوا ، وأشيع بأن السلطان نصره الله ، وأن الفرنج كسروا وغلّبوا . فركبت لأسمع حديث النجبين وكيف نصر الله المسلمين ، وإذا [هَمْ] ^(١) يقولون : أبشروا فإن السلطان وأهله سالمون ، ولأنهم واصلون غانمون . فقلت لرفيقي ما بُشّر بسلامة السلطان إلا وقد تمت كسرة ، وما ثم سوى سلامته نُصرة .

ولما قرب خرجنا لتلقيه ، وشكرنا الله على ما يسره من ترقيه وتوقيه . ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر ، ونابت سلامته مناب الدهر ، وسيرنا بها البشائر ، وأنهضنا ببطاقتها الطائر ، لإخراس السنة الأراجيف ، وإبدال التأمين من التخويف ، فقد كانت نوبتها هائلة ، ووقعتها غائلة .

وقال القاضي ابن شدّاد ^(٢) : خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة ، وذلك (١٢١٥) في أوائل جمادى الأولى ، وكان ^(٣) مقدم الفرنج البرنس أرناط ، وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله تعالى ؛ وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين . ولقد حكى السلطان ، قدّس الله روحه ، صورة الكسرة في ذلك اليوم ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبّوا تعبئة الحرب ، فلما قارب العدو رأي بعض

(١) ما بين الحاصرتين من ل ٢١٨ ب .

(٢) في النوادر السلطانية : ٤٢-٤٣ . وهو اقتباس حرفي .

(٣) يسبق هذه الفقرة في النوادر عنوان : « ذكر كسرة الرملة » .

الجماعة أن تغير الميمنة إلى جهة اليسرة واليسرة إلى جهة القلب^(١) ، ليكون حال اللقاء وراء ظهرهم تل^٢ معروف بأرض الرملة^(٢) . فبينما اشتغلوا بهذه التعبئة هجم الفرنج ، وقدّر الله كسرهم ، فانكسروا كسرة عظيمة ؛ ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا ، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى . وكان وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة ؛ والله الحمد .

قلت : وذلك بعد عشر سنين ؛ فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين ، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين .

قال العماد الكاتب : وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء ، أنشدته قصيدة ، منها^(٣) :

سقى الله العراق وساكنيه	وحيّاه حيا الغيث الهتون
وجيراناً أمّنت الجور منهم	وما فيهم سوى وافي أمين
صفوا والدهر ذو كدر ، وقديما	وفوا بالعهد في الزمن الخثوف
بنو أيوب زانوا الملك منهم	بحليلة سودد وتقى ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا	لخير رعية في خير دين
أسانيد السيادة عن علام	مُعَنَّة مصححة المتون
بنو أيوب مثل قريش مجداً	وأنت لها كأزعمى البطين ^(٤)
أخفت الشرك حتى الذعر منهم	يرى قبل الولادة في الجنين
وبوم الرملة المروهب بأساً	تركت الشرك منزعج القطين
وكنفت لعسكر الإسلام كنهفاً	أوى منه إلى حصن حصين

(١) في النوار : أن تغير الميمنة إلى جهة اليسرة واليسرة إلى جهة الميمنة .

(٢) هو تل الصافية الذي تقدم ذكره في ص : ٧٠٠ .

(٣) وردت هذه الأبيات أيضاً في مفرج الكروب : ٢ : ٦٢-٦٣ .

(٤) التزع : انحسار الشعر من جانبي الجبهة ، ويقال للرجل أنزع وللرأ زعراء ، ولا يقال زعما .
القاموس المحيط . وأنزع قريش : على بن أبي طالب .

وقد عرف الفرنج سطاك لما رأوا آثارها عين اليقظة —
وأنت ثبتٌ دون الدين تحمى حملاه أوان ولى كل دين

قال : واهتمَّ السلطان بعد ذلك بإفاضة الجود ، وتفريق^(١) الموجود ، واقتفاء الناس بالنقود ، والسنايا الصادقة الوعود ، وجبر الكسير ، وفك الأسير ، وتوفير العدد ، وتكثير المدد ، وتعويض ما نفق^(٢) من الدواب ؛ فسلّوا ما نابهم ، ولم يأسوا على ما أصابهم .

قال ابن أبي طي^(٣) : وقال^(٤) ابن سعدان الحلبيّ يمدح السلطان ، ويذكر ما فعله على عسقلان ، ويهون عليه أمر هذه الكسرة ، من قصيدة :

قرّبت من عسقلان كلّ نائبة باتت تقل بوكاف من الأسل
فاض النجيع عليها وهي مُنحِلّة فأصبحت مرتعا للخيّل والإبل
(٢١٥ ب) قل للفرنجيّة الخلدى : رُويّدكم بالثأر أو تخرج الشعري من الحل
ترقبوها من الفوار طالعة خوارق الأرض تمحورونق الأصل
كأننى بنواصيهنّ يقدمها كاس من الجود عريان من النجل
حسب العدا إصلاح الدين حسبهم أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النجل ملتمس مرّت على أصبعيه لذّة العسل

فصل

في وفاة كشتكين

وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد^(٤) : وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح ، واستولى على أمره

(١) في ل ١٢١٩ : تفرق .

(٢) في الأصل ، وكذلك في ل ١٢١٩ : وقف .

(٣) في الأصل : وكان ؟ والمثبت هنا من ل ١٢١٩ .

(٤) عنوان هذا الفصل في البرق : « ذكر حادثة العدل ابن العجمي وكشتكين » .

العدل ابن العجمي (أبو صالح^(١)) . وكان سعد الدين كشتكين الخادم مقدم
العسكر ، وأمير المعشر ، وهو صاحب حصن حارم ، وقد حسده أمثاله من الأمراء
والخدام ، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة ، فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة
بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه .

واستقل كشتكين بالأمر ، فتكلم فيه حساده وقالوا للملك الصالح : ما قتل وزيرك
ومشيرك ابن العجمي إلا كشتكين فهو الذي حسن ذلك للاسماعيلية . وقالوا له : أنت
السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر ؟ فما زالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم
قلعة حارم ، وأوقعوا بها لأجله العظام . فكتب إلى نوابه بها فنبهوا وأبوا^(٢) ، فغلبوه
ووقفوا به تحت القلعة ، وخوفوه بالصرعة ، فلما طال أمره ، قصر عمره ، واستبد الصغار
بعده بالأمور الكبار ، وامتنعت عليه قلعة حارم ، وجرد إليها العزائم . ونزل عليه الفرنج
ثم رحلوا بقطعة بذلها لهم الملك الصالح واستنزل عنها أصحاب كشتكين وولى بها مملوكاً
لأبيه يقال له سرخك .

وقال ابن الأثير^(٣) : سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كشتكين ، فعاقبه
ليأمر من بها بالتسليم ، فلم يجب إلى ما طلب منه ، فعلق منكوساً ودُخن
تحت أنفه فمات ؛ وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها . ثم إنه أخذها
بعد ذلك .

قال ابن شداد^(٤) : أما الملك الصالح فإنه تخطيط أمره ، وقبض كشتكين صاحب
دولته ، وطلب منه تسليم حارم إليه ، فلم يفعل ، فقتله . ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على
حارم ، طمعاً فيها ، وذلك في جمادى الآخرة ، وقاتل عسكر الملك الصالح النساكر
الفرنجية . ولما رأى أهل القلعة خطرهما من جانب الفرنج [سلموها^(٥)] إلى الملك الصالح

(١) ساقطة من ل ٢١٩ .

(٢) في الأصل : ولبوا فأبوا ؛ والثبت هنا من ل ٢١٩ ب .

(٣) في الأناطكة : ٣٢٤-٣٢٥ ؛ بضغط شديد ، ولزوم لحرفية الباقي .

(٤) في النوادر : ٤٣ ؛ وهو اقتباس حرفي .

(٥) ما بين الحاصرتين من ل ٢١٩ ب .

في العشر الآخر من شهر رمضان . ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ، ثم عاد الصالح إلى حلب ، ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان قدس الله روحه .

قال العماد^(١) : ووصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له اقلندس^(٢) ، أكبر طواغيت الكفر ، (١٢١٦) واعتقد خلو الشام من ناصري الإسلام . ومن جملة شروط هدنة الفرنج أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير ، ما لهم في دفعه تدبير ، أنهم يعاونونه ولا يباينونه ، ويحالفونه ولا يخالفونه ، فإذا عادت الهدنة كما كانت ، وهانت الشدة ولانت . وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود ، وجنودوا الجنود ، ونزلوا على حماة ، في العشرين من جمادى الأولى ، وصاحبها ، شهاب الدين محمود الحارمي ، مريض ، ونائب السلطان بدمشق يومئذ أخوه الأكبر تورانشاه ، وهو والأمراء مشغولون بذاتهم . وكان سيف الدين علي بن أحمد بن المشطوب بالقرب ، فدخلها وخرج للحرب ، واجتمع إليها رجال الطعن والضرب ، وجرت ضروب من الحروب ، وكاد الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدروب . ونصر الله أهل الإسلام ، بعد حصارهم لهم أربعة أيام ، فانهزم الملاحين ونزلوا على حصن حارم ، كما تقدم ذكره ، فرحلهم عنه الملك الصالح بعد حصاره أربعة أشهر .

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد : « خرج الكفار إلى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان مُحْكَمًا ، غادرين غدرًا صريحًا ، مقدّرين أن يُجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحًا . ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى ، وزحفوا إليها في ثانيه فخرج إليهم أصحابنا . وتضمن كتاب سيف الدين - يعني المشطوب - أن

(١) في البرق يسبق هذا الحديث عنوان : ذكر نزول الفرنج على حماة .

(٢) هو : Philip of Flanders ؛ وكان قد قدم للتعاون مع Manuel Comnenus امبراطور بيزنطة ، وأصحاب الإمارات اللاتينية ، في مهاجمة مصر . وفشل هذا الهجوم كفسكرة بسبب النزاع حول الوصاية على ملك القدس الطفل Baldwin V ، فتحوّل الحملة بعد انصراف البيزنطيين عنها إلى هجوم على حماة ، ثم على حارم . انظر : The Crusaders in the East, pp. 214-216 .

القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل ما بين فارس وراجل ، شفى الله منهم الصدور
ورزق عليهم النصر والظهور . ثم انصرفوا مجوعا لهم بين تنكيس الصلْب وتحطيم
الأصلاب ، مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة
النبوية الأحزاب » .

قال العماد: وتسمع الحلبيون بيوم رحيلنا من مضر لقصد الشام، لنصرة الإسلام^(١)،
وقالوا: أول ما يصل صلاح الدين نسلم حارم . فراسلوا الفرنج وقاربوهم ، وأرهبوهم
وأرهبوهم ، وقالوا لهم صلاح الدين واصل ، وما لكم بعد حصوله عندكم حاصل . فرحل
الفرنج بقطيعة من المال أخذوها ، وعدة من الأسارى خلصوها .

ثم^(٢) توفى خال السلطان شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى ، فى جمادى
الآخرة^(٣) ، وتوفى ولده تكش ، ابن خال السلطان ، قبله بثلاثة أيام وذلك أوان
وقعة الرملة .

ولما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم رحل من البركة^(٤) يوم عيد الفطر
بعساكره ، ووصل أيلة فى عاشر الشهر ، واستناب بمصر أخاه العادل ؛ وأقام بها أيضا
القاضى الفاضل بنية الحج فى السنة القابلة . ووصل السلطان إلى دمشق فى الرابع والعشرين
من شوال . ومما نظمه العماد فى التشويق إلى مصر قوله :

ساكنى مصر ، هناكم طيئها إن عيشى بعدكم لم يطب
(٢١٦ب) لا عدتم راحة من قربها فأنا من بعدها فى تعب
بعد العهد بأخباركم فابشوا أخباركم فى الكتب
ليت مصرأ عرفت أنى وإن غبت عنها فالهوى لم يغب

(١) فى الأصل : ونصرة الإسلام .

(٢) يسبق هذا فى البرق عنوان طويل نصه : « ذكر وفاة شهاب الدين محمود بن تكش خال السلطان
ومصره ، وولده تكش ، ابن خال السلطان » .

(٣) فى الحادى عشر منه ، كما جاء فى البرق .

(٤) المقصود بها بركة الحب ، وهى المكان الذى كانت تتجمع فيه الجنود المصرية قبيل خروجها
إلى الشام .

ومن ذلك (قوله) ^(١) :

تذكرت في جلق داركم بمصر ، ويا بُعد ما بيننا
وما أتمنى سوى قربكم وذلك والله كل المني
لكم بالجنان وطيب المقام وحسن النعيم بمصر الهنا

ومن ذلك (أيضا) ^(١) :

ياساكني مصر ، قد فقم بفضلكم ذوى الفضائل من سكان أمصار
لله دركم من عصابة كرمتم ودرهم مصركم الغناء من دار

ومن ذلك (أيضا) ^(١) :

يا حبيب إذا مصر ويز كتمها وصدور والعريش
فهناك أملاكى الذى ن سمتم بعزهم العروش

قال : ووصل كتاب من الفاضل يذكر فيه أن العدو ، خذله الله تعالى نهض
[ووصل] ^(٢) إلى صدر ، وقاتل القلعة ولم يتم له أمر ، فصرف الله شره وكفى أمره .
ووصل من الفرنج مستأمن وذكر أنهم يريدون الغارة على فاقوس ، فاستقلوا أنفسهم
وعرجوا ، وذكر أنهم مضوا بنية تجديد الحشد ، ومعاودة القصد .

قال : وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة ، علينا ظاهرها ، وعلى الكفار
باطنها ، ولزمنا ما نسي ^(٣) من اسمها ، ولزمهم ما بقي من عزمها ؛ ولا دليل أدل على
القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام ، نخوض بلاد الفرنج بالقوافل
الثقيلة ، والحشود الكبيرة ، والحريم المستور ، والمال العظيم الموفور .

قال العماد : ولما دخلنا دمشق وجدنا رسل دار الخلافة ، قد وصلوا بأسباب العاطفة
والرافة ؛ وكان حينئذ صاحب الخرن ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر العطار ، وهو
من ذوى الأخطار ، وله التحكم في الإيراد والإصدار ، وقد توفّر على محبة السلطان وتربية
رجائه ، وتلبية دعائه . ووصل كتابه ورسوله بكل ما ستر السرائر ، ونور البصائر .

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة ل .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ٢٢٠ ب .

(٣) في الأصل : مالزم . والمثبت هنا من ل ٢٢٠ ب .

فصل

في ذكر أولاد السلطان

قال العماد : وفي هذه السنة وُلد بمصر للسلطان ابنه أبو سليمان داود^(١) .

وكتب الفاضل إلى السلطان يهنئه به ويقول : « إنه وُلد لسبع بقين من ذى القعدة . وهذا الولد المبارك هو الموفى لاثني عشر ولداً ، بل لاثني عشر نجماً متوقداً ، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً ، ورآهم المولى يقظة ورأى تلك الأنجم حلماً ، ورآهم ساجدين له ، ورأينا الخلق له سجوداً^(٢) ، وهو قادرٌ سبحانه أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم أباءً وجدوداً » .

قال العماد : وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده^(٣) ، وجرى ذكر أولاده ، واعتضاده بهم واعتداده ؛ فقلت له : لو عرفت أيتام مواليدهم في أعوامها لأنشأت رسالة على نظامها . فذكر لي ما أثبتته على ترتيب أسنانهم [وماصورته]^(٤) :
« الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن عليّ ؛ وُلد بمصر (١٢١٧) ليلة عيد الفطر^(٥)
عند العصر سنة خمس وستين وخمسة .

العزیز أبو الفتح عثمان عماد الدين ؛ وُلد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين .

(١) في الساعة الرابعة ليلة الأحد الثالث والعشرين من ذى القعدة ، كما جاء في البرق . وكتاب القاضي الفاضل بعد هذا يؤكد التاريخ المذكور .

(٢) إشارة إلى قصة رؤيا يوسف عليه السلام وقد سجلها الفرائد الكريم في قوله تعالى :
« إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

(٣) وذلك سنة ٥٨٨ هـ عند القدس ، كما جاء في البرق الثاني .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ٢٢٠ ب . وقد ورد هذا الإحصاء أيضاً في مفرج الكروب
٢ : ٤٢٣-٤٢٦ ، بترتيب يختلف عن هذا الترتيب .

(٥) في مفرج الكروب : ٢ : ٤٢٣ : يوم عيد الفطر .

الظاهر أبو العباس خضر مظفر الدين ؛ ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين ،
[وهو أخو الأفضل لأبويه]^(١) .

الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين ؛ ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين .
المقرّ أبو يعقوب إسحاق فتح الدين ؛ ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبعين .
المؤيد أبو الفتح مسعود نجم الدين ؛ ولد بدمشق في ربيع الأول سنة إحدى وسبعين ،
وهو أخو العزيز لأبويه :

الأعزّ أبو يوسف يعقوب شرف الدين ؛ ولد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين ،
لأم العزيز^(٢) .

الزاهر أبو سليمان داود مجير الدين ؛ ولد بمصر في ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين ،
لأم الظاهر^(٣) .

المفضل أبو موسى قطب الدين ، ثم نعت بالمظفر ؛ ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين .
وهو أخو الأفضل لأمه^(٤) .

الأشرف أبو عبد الله محمد عزيز الدين^(٥) ؛ ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة
الحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين^(٦) ؛ ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين ،
وهو لأم الأشرف .

المعظم أبو منصور تورانشاه فجر الدين ؛ ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين
أيضا . قلت : ومات سنة ثمان وخمسين وهي السنة التي أخرج العدو من التتار ، خذلهم
الله تعالى ، فيها مدينة حلب وغيرها ، والله أعلم .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٢٢١ . وفي هامش الأصل مقابل هذا عبارة نصها : وقيل أبو الفتح
وأبو المظفر .

(٢) في ل ١٢٢١ : وهو أخو العزيز لأمه .

(٣) في ل ١٢٢١ : وهو أخو الظاهر لأمه .

(٤) في الأصل : لأم الفضل ؛ والمثبت هنا من ل ١٢٢١ ، وهو الأصح إذ ليس بين هؤلاء الإخوة من
لقبه الفضل : تارن مفرج الكروب ، وكذلك البرق .

(٥) في مفرج الكروب : ٢ : ٤٢٥ : نصير الدين .

(٦) في مفرج الكروب : يمين الدين .

الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين ؛ ولد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين ، وهو لأم المعز .

القالب أبو الفتح ملكشاه نصر الدين ؛ مولده بالشام في رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو لأم المعظم .

المنصور أبو بكر ، وهو أيضا أخو المعظم لأبويه ، ولد بجران بعد وفاة السلطان . قلت : فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العماد في هذا الموضع .

وقال في آخر كتاب الفتح القدسي ^(١) ، على ما سنده في آخر هذا الكتاب : لما توفي خلف سبعة عشر ولداً وابنة صغيرة . فقد فاته هنا ذكر اثنين ، وهما عماد الدين شاذي ، لأم ولد ، ونصرة الدين مروان ، لأم ولد . وأما البنت فهي مؤنسة خاتون ، تزوجها الملك الكامل محمد ، على ما سنده إن شاء الله تعالى ^(٢) ، وهو ابن عمها الملك العادل أبي بكر بن أيوب .

وللسلطان غيره هؤلاء الأولاد من درج في حياته ، كالملك المنصور حسن ، وسيأتي ذكر وفاته ؛ والأمير أحمد وهو الذي رثاه العرقلة بقوله :

أى هلال كسفا وأى غصن قصفا
كان سراجاً قد طفا على الورى ، ثم انطفأ
لم يركب الخيل ، ولم يقلدوه صرهما
قل للنحاة : ويحكم أحمدكم قد صرفا
صبراً صلاح الدين يا ربّ السماح والوفى

قال العماد : وورد من الفاضل كتاب تاريخه منتصف ذى الحجة سنة ثلاث وسبعين ذكر فيه فصلاً متعددة . منها : « للمولى أولاد وقد صاروا رجالاً ، ويجب أن تستجد »

(١) ص : ٤٥٦ .

(٢) أمام هذا في هامش الأصل وردت العبارة الآتية : حاشية : في سنة ست وتسعين وخمسة هـ عندما ملكه أبوه مصر بعد قطع خطبة المنصور بن العزيز بن صلاح الدين .

للقلاع رجلا ، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً ، وقيل : القلاع أنوف من حلها شميخ بها . * ما في الرجال على النساء أمين * .

ومنها أبيات في ذكر السلام :

مملوك مولانا ، ومملوك ابنه وأخيه ، وابن أخيه ، والجيران^(١)
 طى الكتاب إليه منه^(٢) إجابة لسلام مولانا ابنه عثمان
 والله قد ذكر السلام وأنه يجزى بأحسن منه في القرآن
 وغريبة قد جئت فيها أولاً ومن افتفاها كان بعدى الثاني
 فرسولى السلطان فى إرسالها والناس رسلهم إلى السلطان

قلت ووصف الفاضل الملك المؤيد فى كتاب آخر فقال : « وقد تمطت به السن وامتدت ، وتأهبت السعادة لخطبته واعتدت ، ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدت » .

وفى بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل : إعزازه لأهل الفضل دليل على فضله ، وأن الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله . وما أبهجنا إذ جال فى فضاء الفضائل ، وخطب من أبكار المعاني كرائم العقائل ، وآخى بين السيف والقلم ، وصار فى موكله العلم والعلم .

ومن كتاب آخر فى المعنى : « فلقد زادت هذه المنقبة فى مناقبه ، ونظمت عقود سودد فى تراثيه .

فما ترجم الإنسان عن سرّ فضله بأفضل من تربيته لأولى الفضل
 قال العباد : وخرج السلطان للصيد فى ذى الحجة نحو قارا ، فشكوت ضرسى ،

(١) ابنه العزيز عثمان ، وأخوه العادل سيف الدين أبو بكر ، وابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ؛ وكلّ نائب عن صلاح الدين فى مصر فى مناسبات مختلفة ، وكان القاضي الفاضل معهم جميعاً أزمان نيابتهم يدبر أمور مصر بحكمة ودهاء ، بتأييد من صلاح الدين .
 (٢) فى الأصل : منه إليه ، وبه يختل وزن البيت .

وعدمت أنسى ، فرجعت مع عزّ الدين فرخشاه لحى عرته ، فشكا منها ، ألا تزور إلا
نهاراً جهاًراً ، ولا تفارق بعرق ، بالصد من الحى التى وصفها أبو الطيب المننى^(١) . فنظمت
فيه كلمة طويلة أولها :

يمينك دأبها بذلُ اليسار وكفك صوبها بدر النطار^(٢)
ولمك من ملوك الأرض طراً بمنزلة اليمين من اليسار
وأنت البحر فى بث المطايا وأنت الطود فى بادي الوقار
ومنها فى وصف الحى :

وزائرة وليس بها حياء فليس تزور إلا فى النهار
(١٢١٨) ولورهبى لدى الإقدام جورى لما رغبى جهاًراً فى جوارى
أتت والقلب فى وهج اشتياق ليظهر ماأوارى من أوارى
ولو عرفت لظى سطوات عزمى لكنت من سطأى على حذار
تقيم ، فحين تبصر من أنأتى ثبات الطود تسرع فى الفرار
تفارقنى على غير اغتسال فلم أحلّل لزورها إزارى
أيا شمس الملوك ، بقيت شمساً تنير على المالك والديار
أحمالك^(٣) استعارت لفح نار لعزمك لم تزل ذات استعار

(١) فى قصيدته التى أولها :

ملومكما يحلّ عن الملام . ووقع فعاله فوق الكلام
وفىها عن الحى وموعده زيارتها ، وهو ماأشار إليه العماد هنا :

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فمافتها ، وبانت فى عظامى

(٢) هكذا فى الأصل وكذلك فى ل . ولعلها : النضار .

(٣) فى الأصل : أخلاى ؛ والثبت هنا من ل ٢٢٢ .

فصل

قال العماد : وفي العشر الأول من ذي القعدة قتل عضد الدين بن رئيس الرؤساء^(١) ، وزير الخليفة ببغداد ، على أيدي الملاحدة . وكان قد توجه إلى الحج ، فوقف له في مضيق قطفتا^(٢) ، غربى دجلة ، كهل في يده قصّة يزعم أنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده ؛ فأوما ليوصل قصته ، فاتهز فيه فرصته ، فقتله ؛ وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه . وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له ، فخرج أحدهما صاحب الباب ابن المعوج فوات ، وجرح آخر ولد قاضي القضاة ، وقُطع الملاحدة وأحرقوا . واستقل ظهير الدين أبو بكر [منصور]^(٣) بن نصر المعروف بابن العطار صاحب الخزن بالدولة ، وكان للسلطان خدنا مصافيا .

قلت . وابن العطار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد ، كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين .

قال ابن الأثير^(٤) : وكنت حينئذ ببغداد عازما على الحج ، فعبر عضد الدين دجلة في شبرة ، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل ، تقدم إليه بعض العامة ليدعوا له ، فنفعه أصحابه ، فزجرهم وأمرهم ألا يمنعوا أحداً عنه ؛ فتقدم إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربى وقتل الباطنية وأحرقوا ، وحمل من موضعه إلى دار له بقطفتا في الجانب الغربى فتوفى بها .

قال العماد : ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير

(١) عضد الدين ، أو عضد الدولة ، أبو الفرج محمد بن أبي الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء ، وكان قبل ذلك في خدمة الخليفة المستنجد شاغلا منصب أستاذ الدار . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٨١ ؛ وكذلك الفخرى لابن الطقطقي ، وغيرها .

(٢) محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربى من بغداد مشرفة على نهر عيسى ، بينها وبين دجلة أقل من ميل : معجم البلدان : ٧ : ١٢٥ .

(٣) مابين الحاصرتين من ١٢٢٢ . وهو منصور بن نصر بن الحسين ظهير الدين صاحب الخزن ونائب الوزارة . قبض عليه الخليفة الناصر وصادره وصادر أصحابه وكتابه وأجزى عليه العقوبة حتى مات . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٨١-٨٦ ؛ وكذلك الفخرى لابن الطقطقي ، وغيرها .

(٤) في الأتابكة : ٣٢٧ ؛ وهو اقتباس حرق .

عضد الدين ، وفيها : « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ^(١) » ، فقد كان عفا الله عنه قتل ولدَيْ
الوزير ابن هبيرة وأزهق أنفُسهما وجماعة لا تحصى :
مَنْ يَرِيَوْمًا يُرَى بِهِ ^(٢) والدهر لا يفتَرّ به

وهذا البيت بيت ابن المسامة عريق في القتل ، وجدّه هو المقتول بيد اليساسيرى في وقت
إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر ^(٣) ، فهو من ذرية لم تزل قاتلة
مقتولة ، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة ؛ فهم في هذه (٢١٨ ب) الحادثة المسمة
المصّة كما قال دريد :

✽ أبى الموت إلا آل صمه ✽

والأبيات المولى يحفظها ، وهى فى الحماسة ، وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له
الشهادة ، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله . قال الله سبحانه : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ
بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ^(٤) » .

إنّ المسامة قد تسرّ وربما كان السرور بما كرهت جديرا
إنّ الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قايلا فى أبى سامة الخلال أول وزير لبنى العباس .

قلت : وبلغنى أنّ الفاضل كان ينشد :

وأحسن من نيل الوزارة للفتى حيامة تريه مصرع الوزراء
قال العماد : وكان ضياء الدين بن الشهرزورى قد سار فى الرسالة إلى بغداد وتوقف

(١) سورة فصلت : آية : ٤٦ .

(٢) فى ل ٢٢٢ ب : من يسر يربه .

(٣) فى مقابل هذا فى الأصل تعلية نصها : « حاشية : قال المؤلف : ذكر أبو الفضل محمد بن عبد الملك
الهمداني فى تاريخه المذيل أن اليساسيرى حبس رئيس الرؤساء ، وزير الخليفة ، ثم أخرجه وعليه جبة
صوف وطرطور من لبد أحمر وفى رقبته مخنقة جلود وهو يقرأ : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ . . الآية ،
ويرددها . وطيف به على جل فى هذه الحال ، ثم نصب له خشبة باب خراسان ، ثم حط من الجل وخيط
عليه جلد ثور سلخ فى الحال وعلق فى فكيه كلابان من حديد ، واستبقى فى الخشبة حيا ، ولبث إلى آخر
النهار يضطرب ثم مات . والله أعلم . »
(٤) سورة النساء : آية : ١٠٠ .

في الموصل لحادثة الوزير ؛ ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد ابن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، وكان شاباً . وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه :

« يُدلى ابن عشرين في لحده وتسمون صاحبها راتع
اعتبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل ، وعمر الوالد مع ذبول المشيب المشتمل .
لئفلم أن الشيب ليس بمسلم وأن الشباب الغض ليس بمائع
وليكون العبد حذراً من بفتات الآجال ، في كل الأحوال . والله يطيل للمولى
العمر ، كما أطال له في القدر ، [ونسمع منه ولا نسمع فيه ، ويبقيه سنداً للدين الحنيفي فإن
بقاءه يكفيه^(١)] . »



كل طبع الجزء الأول من كتاب الروضتين ،
ويتبعه ، إن شاء الله ، الجزء الثاني ، وأوله :
« ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمائة » .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ٢٢٢ ب وهو ساقط من الأصل .

ورد في نهاية نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة كوينهاجن ، العبارة الآتية :

« آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه ، الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى ؛ يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني :

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة : قال العماد : وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء ... » .

ثم وردت العبارة التالية :

« ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذى الحجة من سنة ست وسبعين وستمائة ؛ غفر الله تعالى لمؤلفه ، وكاتبه ، وصاحبه ، والمنتفع به ، والمطلع عليه ، وجميع المسلمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم » .

وورد في نهاية نسخة القاهرة ، وهي النسخة المساعدة الرئيسية ، عبارات متتابعة نصوصها :

١ — « وهذا آخر الجزء الأول من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني :

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة : قال العماد : وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء ... » .

٢ — « ووافق الفراغ من نسخته يوم الأربعاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، على يد أضعف الخلق وأحوجهم إلى عفو الله ، أحمد بن العلم

ابن عبد الله ، غفر الله له ، ولوالديه ، ولسائر المسلمين . والحمد لله رب العالمين ؛
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما .

٣ — « شاهدت على نسخة الأصل المنقول منها هذه النسخة ، وهي جميعها بخط قاضي
القضاة نجم الدين المصرى الشافعى ، رحمه الله ، ماصورته ، يقول : شاهدت على
آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه هذه النسخة ، بخط المؤلف ، فى آخر
المجلدة الأولى من كتاب الروضتين : فرغ منها مصنفها نسخا فى حادى عشر شهر
رمضان المبارك ، سنة إحدى وخمسين وثمانمائة ، واشتملت هذه النسخة المبيضة
على زيادات كثيرة فانت النسخ المتقدمة على هذا التاريخ المنقولة من المسودة .
وكل ما ينقل من هذه النسخة هو الأصل الذى يعتمد عليه ويركن إليه . كتبه
عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعى ، مصنفه ، عفا الله عنه . »

٤ — « وشاهدت عليه ماصورته مختصرا : سمع جميع هذا المجلد على مؤلفه ، الشيخ
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعى ، ولده محيى الدين
أبو الهدى أحمد ، وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح الإشبلى ، وزين الدين
على بن أحمد بن يوسف القرطبي ، وشمس الدين اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم
المالكي ، وابنه محمد ، وعفيف الدين محمد بن أبى بكر بن ابراهيم المؤذن الشاغورى ،
ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الكنجى . وسمع آخرون بفوات عينوا فى الأصل ،
وصح ذلك بقراءة يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى ، فى مجالس آخرها ثامن
محرم سنة أربع وستين وثمانمائة بدار الحديث الأشرفية . كتبه قارئه يوسف بن محمد ،
حامداً لله مصليا على نبيه ومسلما . نقل ذلك كله مختصرا أحمد بن مصرى التغلبى
الشافعى ، غفر الله له . »

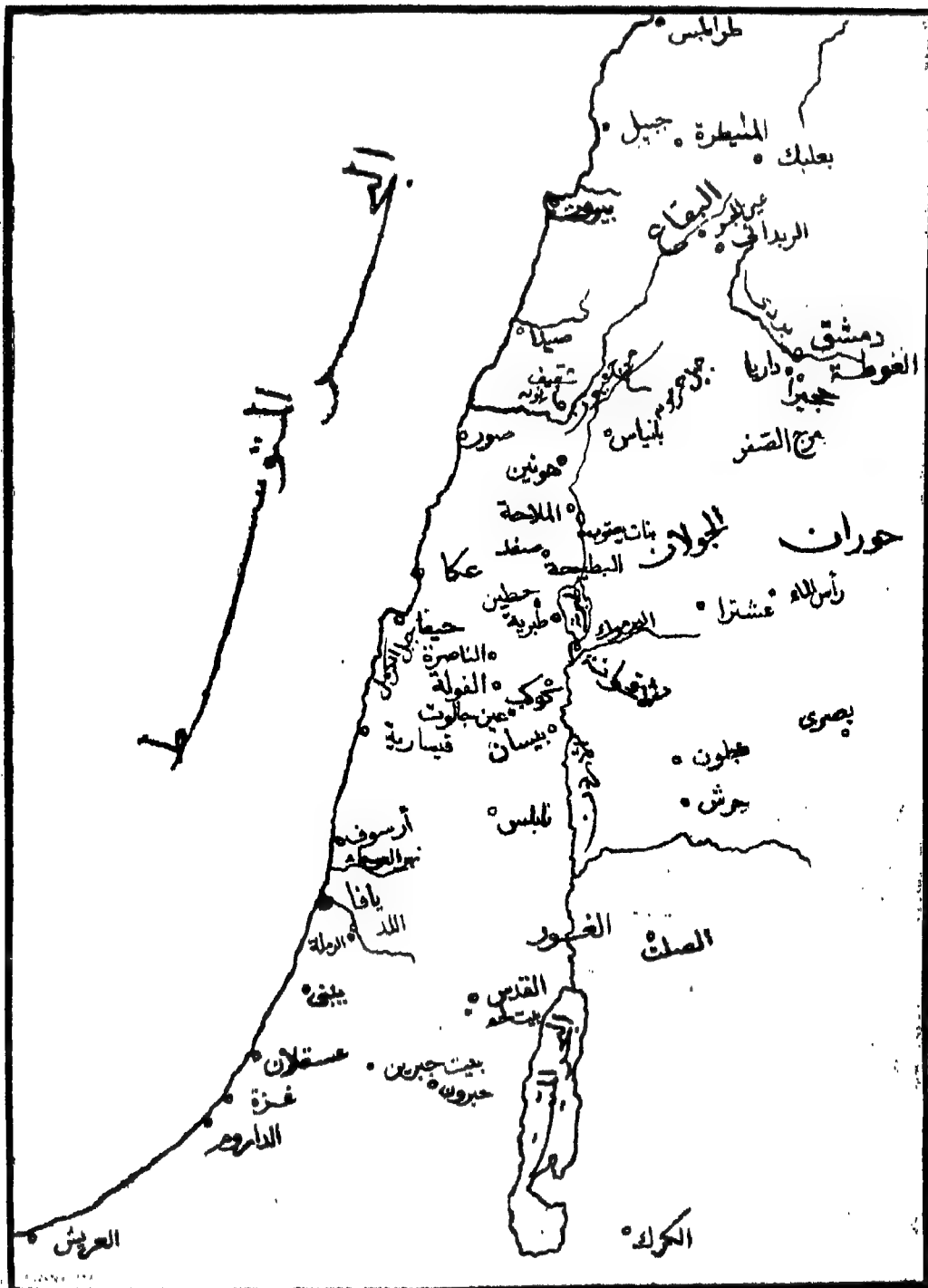
٥ — « وشاهدت عليه أيضا بخطه ماصورته مختصرا : قرأ على هذه المجلدة جميعها
الإمام الفاضل مجد الدين محمد بن أحمد بن عمر الإربلى ، فسمعه بقراءته شهاب

الدين أحمد بن الإمام زين الدين أبي زكريا يحيى الحضرمي ، وآخرون بفوات
ذكروا في الأصل . وفرغ من ذلك كله يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر
ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة في أربعة عشر مجلسا . كتبه مصنفه
عبد الرحمن بن اسماعيل ابن ابراهيم الشافعي عفا الله عنه .

وهذه العبارات الخمس وردت بنصها في نسخة مكتبة ليدن التي تتفق مع نسخة
القاهرة في جميع تفصيلاتها ، إذ أن ناسخهما واحد ، ولا خلاف بينهما إلا في
العبارة الثانية الخاصة بتاريخ النسخ ، إذ ورد في مخطوطة ليدن :
« . . . ضحى نهار الجمعة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم ، سنة
ثلاث وثلاثين وسبعمائة . . . » .

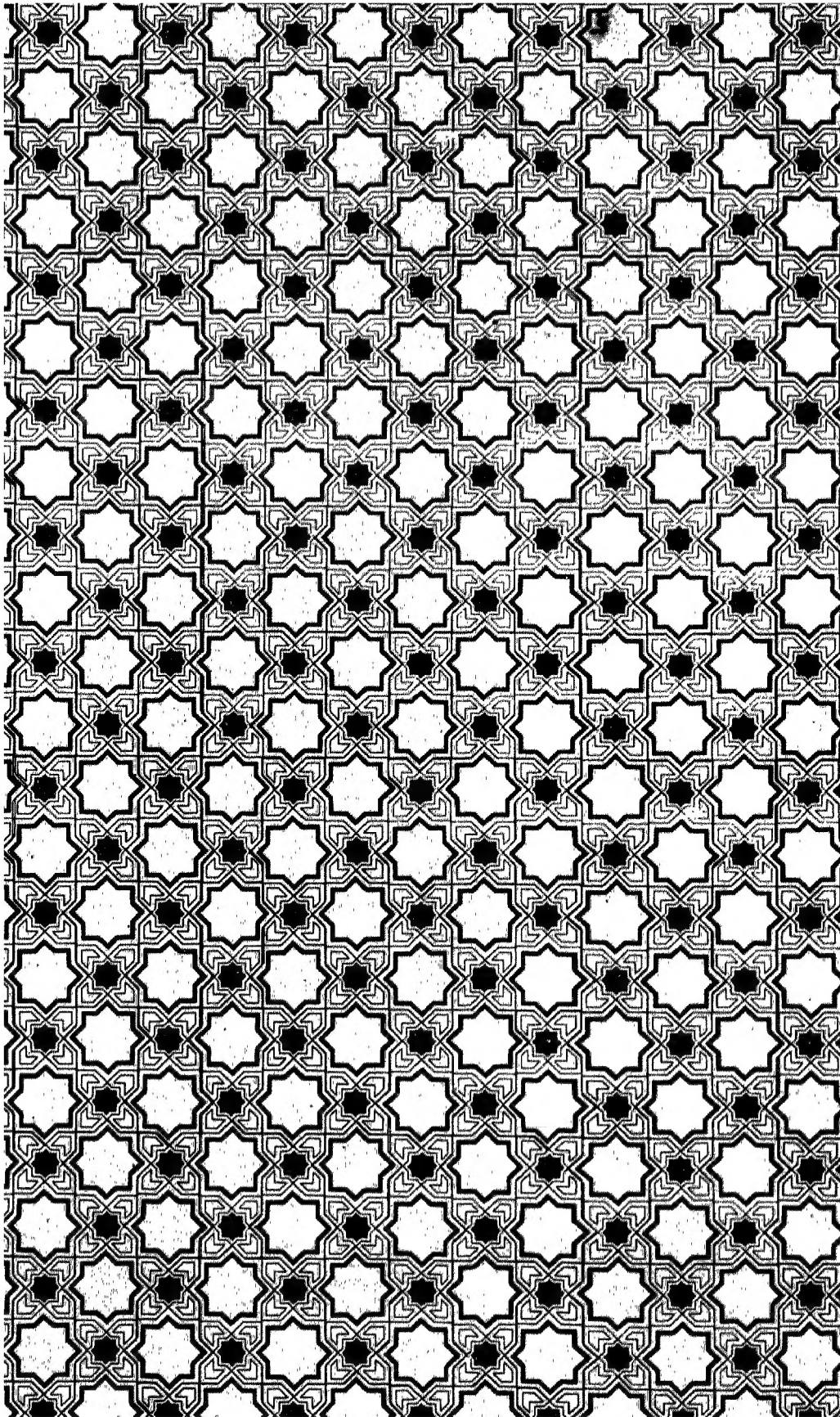
—•••••—

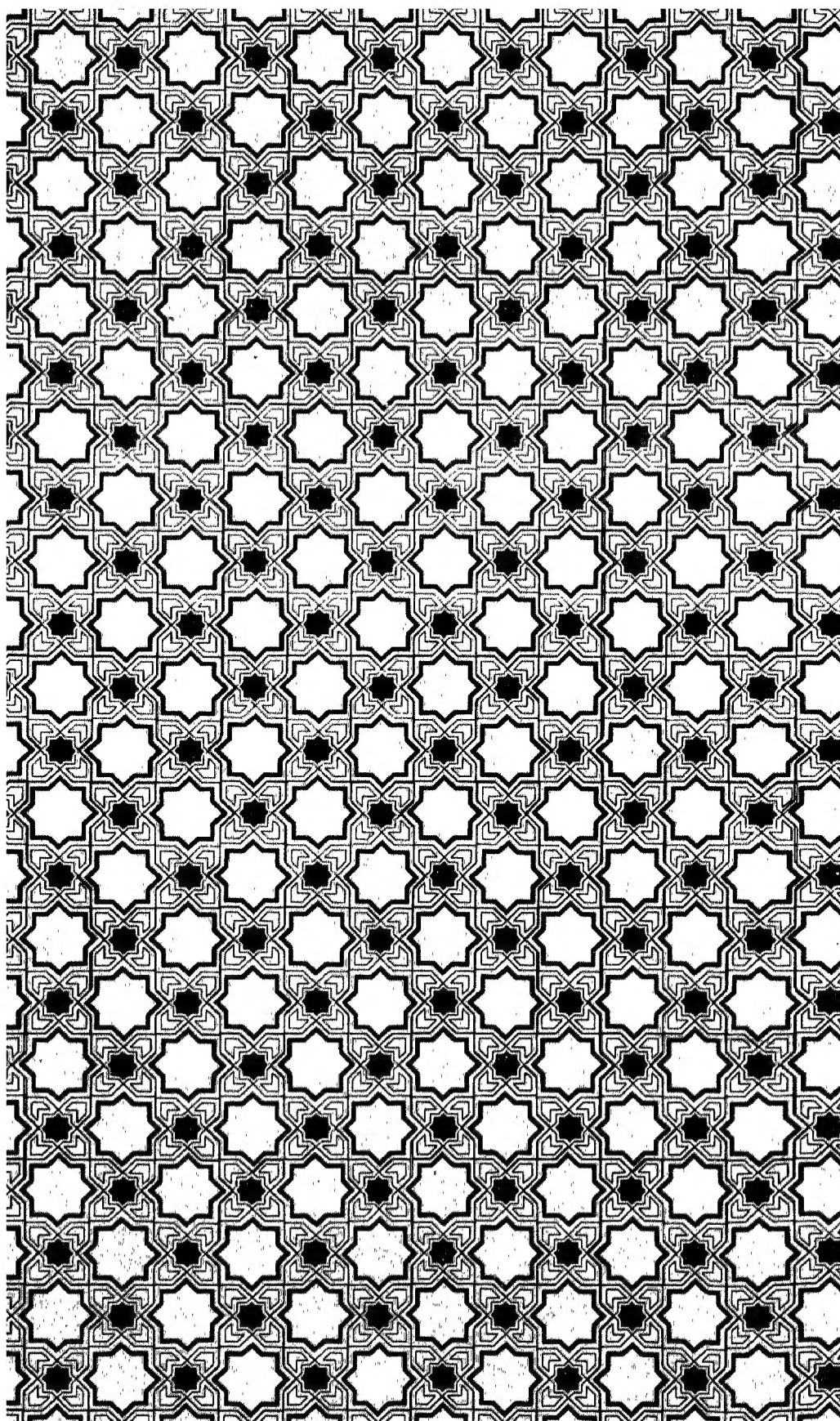
القسم الثاني من بلاد الشام



القسم الجنوبي من بلاد الشام

KITĀB
AL-RAWDATAYN FĪ AḤBĀR
AL-DAWLATAYN
AL-NŪRIYYA WAL-ṢALĀHIYYA





EGYPTIAN NATIONAL LIBRARY

KITĀB
AL-RAWDATAYN FI AḤBĀR
AL-DAWLATAYN
AL-NŪRIYYA WAL-ṢALĀHIYYA

BY

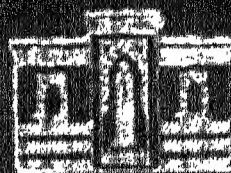
ABU ṢĀMA

Shihab al-Din Ab. b. Ism. al-Maqdisi

Vol. II-Part 1

Edited by

Prof. Muḥ. Hilmi Ṣāḥ. Abarsad



NATIONAL LIBRARY PRESS
CAIRO

1992